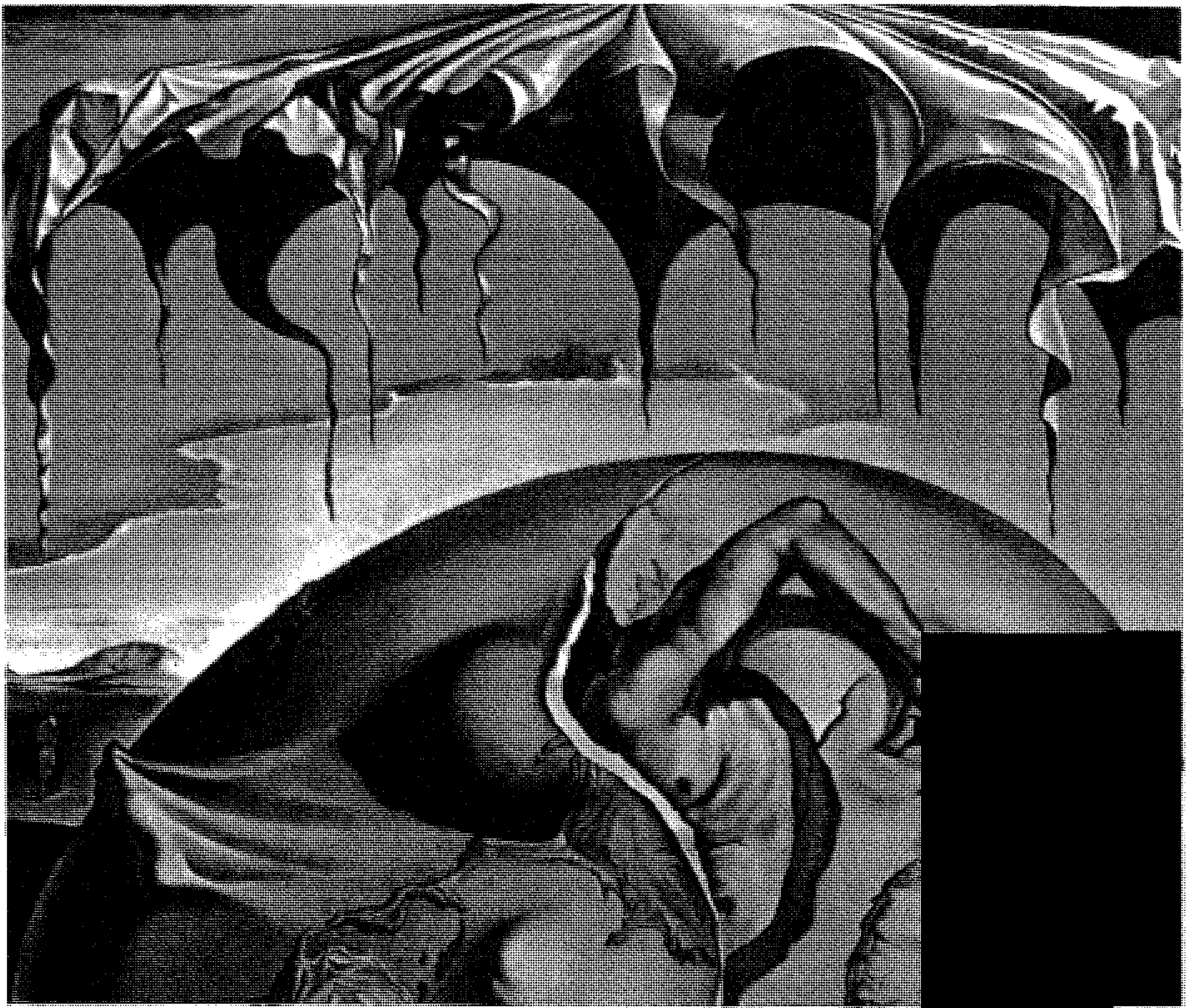
غادة السمّان

الرغيفُ ينبض كالقلب



الأعمال غير الكاملة ٧

منشورات غادة السمان

الأعمال غير الكاملة

٧

الرغيف ينبض كالقلب

المشرف الفني : نبيل البقيلي
تصميم الغلاف والخطوط : الفنان حسين ماجد
لوحة الغلاف الأول : مقطع من لوحة زيتية للفنان سلفادور دالي رسمها عام ١٩٤٣
منفذ الطبع : مطبعة دار الكتب – بيروت

غادة السمّان

الأعمال غير الكاملة

٧

الرغيف ينبض كالقلب



منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان
بيروت ـ ص . ب . ١١١٨١٣
تلفون ٣٠٩٤٧٠ـ٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى
شباط (فبراير) ١٩٨٠
الطبعة الثانية
تشرين الأول (اوكتوبر) ١٩٨١
الطبعة الثالثة
أيار (مايو) ١٩٩١

الإهداء

إلى صبي المرأة التي طلعت في وجهي كالرؤيا في جرود عكار ، بينما كانت تلده وحيدة ، وقد أمسكت بحجر في يدها ، وتأهبت لقطع حبل الخلاص ...

اليه أينما كان ، وكيفما كان ، وإلى مئات المجهولين الطيبين الذين ليسوا من المشاهير أو (النجوم) .. فقد كان هذا الكتاب بهم ومعهم ولهم .

غـــادة

سواقي نهر النار

١٩٦٨ ـ ١٩٧٥

« تعوذوا بالله من الفقر والقلّـة والذلة ، وأن تَظلم أو تُظلم »

حديث شريف

« كل مواطن مسؤول عن الظلم الذي يصيب أي مواطن آخر في الجماعة » .

أناتول فرانس

« ليس هنالك ظلم أشد هولاً من الظلم الذي يمارس تحت حماية قناع (القانون) وباسم (العدالة) ! »

دي مونتسكيو

« لا يجوز للثعلب أن يكون قاضياً في محاكمة البط ! »

توماس فولر

« كاد الفقر أن يكون كفراً » .

الامام علي بن أبي طالب

٢٢ / ٨ / ١٩٦٩

المعذبون في البحر

فراشات مضيئة مسحورة غامضة ، تنطلق في ليالي الصيف إلى حقول البحر ، تهيم في عتمة الامواج ، وتلتمع كحفنة من النجوم المنثورة بين الشاطىء والافق .. ثم تذوب متى طلعت خيوط الفجر الاولى : كالندى ، وكالأحلام ! .. يرقبها سمار الليالي مستمتعين بمشهدها النادر .

وقلائل يعرفون أنها أضواء مراكب الصيادين ، وانهم لو اقتربوا منها لاكتشفوا عالماً من القسوة والصراع من أجل البقاء . عالماً منسياً مسكوناً بالويلات والاحزان ، تقطنه فئة من اخواننا المواطنين يستحقون بجدارة لقب : المعذبون في البحر .

وفي كل مساء ، حينما يسقط الليل الصيفي الحار فوق جسد بيروت برطوبته الكثيبة الكثيفة ، ويقطن الضيق اللزج في الصدور ، يهرب الناس من البيوت والشوارع إلى الجبل ، أو إلى شاطىء البحر ، حيث تهب نسيمات منعشة حانية ...

وفي كل مساء ، وعلى جانبي الكورنيش البيروتي الكبير ، من المنارة — الروشة — الرملة البيضاء — إلى آخر الاوزاعي — فطريق صيدا ، تمتد الاضواء شارعاً طويلاً من ضياء وزحام ، ومقاه ، وفنادق ضخمة ، ومداخل ستيريوهات ، وكرنفالات غرباء ، وسواح ، ومتسولين ، وباعة ياسمين ، وعشاق ، وسيارات ، ورجال شرطة « الفرقة ١٦ » ، وعربات الباعة ، وتفوح رائحة أكواز الذرة المشوية ، وسندويشات الفلافل ، وتمتزج مع زعيق أطفال الفقراء الذين يكتفون من مباهج نسيم المساء بجلسة على أحد مقاعد الكورنيش الحجرية ، ونظرة ساهمة إلى البحر ...

والبحر يبتلع انعكاسات الاضواء والصرخات والروائح على شاطئه ... ويظل بركة هائلة غامضة ، سوداء إلا من نقاط مضيئة مبعثرة قرب الافق ... نقاط مضيئة

متحركة تمتد على طول أفقه ، كما لو كانت أضواء كورنيشٍ آخر ، كورنيش مسحور يمتد على (اسفلت) مياه البحر باضوائه البراقة التي تلوح من بعيد ، موازية لكورنيش اسفلت بيروت ، والتي يفصلها عنه عالم من الامواج والريح والظلمة والمجهول .. والاسرار ، وربما أحزان كثيرة .

نقاط مضيئة طالما اثارت فضولي ... وكورنيش غامض لعالم مجهول . سألت عنها فقيل لي : تلك أضواء قوارب الصيادين .

وأنا أتأمل ذلك الشريط الملاصق للأفق المزروع أضواء وغموضاً ، الموازي لكورنيش بيروت المزروع زحاماً وصخباً وروائح وضجراً قررت : « سوف أذهب إلى هناك .. إلى الكورنيش الآخر . كورنيش الصيادين فوق اسفلت الأمواج في مدينة البحر ... كورنيش الأضواء المبعثرة التي تتلاشى وتختفي مع خيوط الفجر الأولى كما يتلاشى فجأة شارع مسحور . أريد أن أرى وأن أعرف » .

أبو خالد

في مكان ما بالاوزاعي ، وفي بيت تفوح من حديقته رائحة الياسمين وبخور وتنباك نارجيلة تعرفت إلى « أبي خالد ». قدمني اليه قاضٍ وصديق حميم قائلاً : هذا هو أبو خالد ... حبيب البحر والصيادين ، وحامي حماهم في هذه المنطقة ..

بابتسامة متواضعة رحب بي . كان قد أعد كل شيء لرحلتي . بابتسامة آمرة وقاطعة ، وكحد السيف العربي المعلق على أحد جدران داره ، أفهم بعض رجاله أنني « الصحفي العزيز » الذي يهمه أن يسهروا على سلامته وسلامة رفاقه في رحلتهم إلى شارع الصيادين المضيء !...

وأحاط بنا ثلاثة رجال أشداء ، ولم نكد نبتعد عن بيت « أبو خالد » حتى سقطنا فجأة في الظلام ، وضاقت الدرب وصارت ترابية شديدة الانحدار ، وأضاء أحدهم مصباحاً يدوياً نهتدي بدائرته المضيئة الصغيرة إلى موقع صلب لخطواتنا المتعثرة ، وداهمنا احساس عميق بأننا انتقلنا فجأة وبسرعة إلى عالم آخر .. وسرنا واحداً خلف الآخر لأن الدرب لا تتسع لاكثر من احدنا ، نتبع بقعة النور بصمت ، كما لو كنا فريقاً من المغامرين أو المهربين في فيلم مغامرات ، يتقدمنا الزميل المصور زهير سعادة وكاميراه ، ثم رفيقان تطوعا لمرافقتي ، احدهما رجل قانون والآخر شاعر .. وأنا ... في دربنا إلى الرحلة المجهولة .

مقهى الليل (*)

وصلنا إلى مكان عليه لافتة منخورة الاخشاب، سطرت عليها بخط رديء عبارة : مقهى الليل ... والمقهى ذو أرض ترابية، تعادل مساحة غرفة متوسطة الحجم، يضيئها مصباح زيتي (لوكس) ، وفي أحد أركانها سرير (!) تمدد فيه صاحب المكان كما قدرت ، ثم منضدة واحدة وبعض الكراسي العتيقة وأباريق فخارية للشرب ... وقد ازدحم هناك عدد من الرجال الاشداء ، زنودهم مفتولة لوحتها قسوة الشمس والريح ، فبدت في ظلال المقهى مثل اغصان نحاسية صلدة لشجرة من الابنوس ...

في وجوههم نضارة شباب احالته قسوة الحياة إلى عنفوان صلد . رحب بنا بعضهم، بينما راقبنا البعض الآخر بفضول أنيس . انضم الينا ثلاثة منهم ، وتابعنا سيرنا نحو الشاطىء مباشرة عبر طريق رملية شديدة الانحدار والالتواءات . كان هنالك زورق صغير ينتظرنا . اضطررنا إلى السيرخطوات في الماء ريثما ساعدنا الرجال في الصعود اليه . اقلعنا به ، وتم كل شيء بسرعة ونظام وهدوء وتحت جنح الظلام تماماً كما في أفلام المغامرات ...

كدت أقول شيئاً في معرض التعليق على ماء البحر الدافىء الذي بللني حتى الركبتين ، لكن صوت ضربات المجذافين أسكتني ... كان انشودة مثيرة ، يزيدها إثارة ابتعادنا التدريجي عن الشاطىء وعالمه ، والموت التدريجي لاصواته وروائحه ، وحتى تفاصيل بيوته وأزقته ...

دقائق ، وربما أكثر ... ولم نعد نميز فانوس « قهوة الليل » ، واختلطت أصوات أبواق السيارات وأغاني (الترانزيستورات) واستحالت إلى همهمة نائية خافتة تكاد لا تسمع عبر صدى ضربات المجذافين ... ثم كف أحدهم عن التجذيف ... وحينما التفت اليه متسائلة وجدت اننا كنا قد التصقنا بمركب بخاري كبير ، قرأت في ضوء اللوكس اسمه بصعوبة : جوهرة (وربما حمامة) . لم أعد أذكر جيداً ، لأنني لحظة سجلت اسمه في مفكرتي كنت قد بدأت أصاب بدوار البحر !! ..

(*) كان في هذا التحقيق بعض من المادة الخام لـ « مناخ » الصياد في روايتي « بيروت ٧٥ »، وكان في خروجي مع الصيادين إلى البحر عدة مرات الخلفية الأساسية لذلك .

صعدنا اليه ، وساعدنا بعض من رافقنا من الصيادين ... وربطوا اليه القارب ذا المجذافين ، وأداروا محركه ، وبعد ان رفعوا مرساته، انطلقوا به وبنا إلى عرض البحر ... صراخ محركه المزعج ورائحة دخان مازوته مزقا سكينة هيبة صمت البحر . وجدتني استيقظ من عالم شاعري الرؤى وأعود من خلجان مرجانية الصخور فيروزية السماء والاحلام طرت اليها على اصوات ضربات المجذافين والصوت العذب لانحسار الماء الدافىء عنهما ، لاعود إلى البحر– الواقع ، البحر حقل الالغام والحرب بين الانسان وبقية مخلوقات الطبيعة من أجل البقاء ..

وبدأت أسأل ...

الصياد والبحر

مصطفى . ق (٣٢ سنة) صاحب مركب الصيد هذا وعدد آخر من (الفلوكه). عبد القادر . ب (٢٤ سنة) ، وضجيج المحرك ، وارتطام الامواج بجانبي المركب ..

وحوار عن الصياد والبحر ...

والمعذبين في البحر ...

مصطفى، هادىء . منطقي . واقعي . ذكي وقليل الكلام .

عبد القادر شاعري . يحب قصص الاجداد والاساطير . شجاع ، وكثير الغناء .

– متى يبدأ الصيد ؟

– يطرحون الشباك الآن . أضواء اللوكس تجتذب الاسماك تماماً كما تجتذب الفراشات . انظري (اقتربت من حافة المركب . انحنيت ، وشاهدت بملاصقة نوره عشرات الاسماك الصغيرة ترقص فرحة رقصة موت مجهول !) ... أجل يطرحون الشباك الآن .. ولكن عملية الصيد الجدي لا تبدأ إلا بعد غياب القمر او مع خيوط الفجر الاولى ! ...

– لماذا ؟

– لأن ضوء القمر الساطع يبطل غالباً مفعول نور (اللوكس) فيقل تهافت الاسماك على الشباك ! ..

(اذن ، هذا القمر الذي حمل رواده بعضاً من صخوره وبحصه ليقلعوا بها عين رؤيانا الشعرية له ، المسحورة باسطورته ، هذا القمر لا يزال يمارس مفعوله

الاسطوري ... وها هو يقف في كبد الليل إلهاً حارساً لاسماك البحر ، يحميها من مكائد مصابيح الصيادين وفخاخهم) ...

كنا قد بلغنا كبد البحر . اقتربنا كثيراً من أضواء المراكب الاخرى . اطفأوا المحرك البخاري للمركب لاننا قررنا الانتظار ساعة وبعض الساعة قبل ان نبدأ تسكعنا في (كورنيش الصيادين) ، ما دام رفع الشباك النهائي لن يتم قبل أفول القمر ،حارس الاسماك ... او لنسمه ملاكها الحارس . صمت المحرك... صمتت نهائياً أصوات الكورنيش الآخر على الشاطىء .. بيروت استحالت إلى بقعة نائية من الاضواء. السماء اصبحت اكثر قرباً من سطح الزورق حيث تمددت على ظهري . في السماء عدد قليل من النجوم . القمر لا يزال قمراً بالنسبة إلي ، ساحر وشفاف يسكب على البحر لوناً أزلياً من الظلال الفضية المسكونة بهمس التاريخ واسرار العصور ... (تماماً كما لا يبدل من حبنا لجسد المحبوب أن نكتشف أنه مصاب بالديدان المعوية مثلاً وانه في داخل هذا الجسد الذي نلثم ونضم قبيلة من الديدان البشعة المرعبة . الخيال ليس بالضرورة نقيض الحقيقة ، بل انه الوجه الآخر والمكمل لها في رؤيتنا إلى الاشياء)...

احسست بما يشبه الدوار ، قال لي صوت : الحركة والعمل يخففان من الحس بالدوار . نهضت ، سرت قليلاً ، ثم انهرت على كوم من الشباك ، وتركت وجهي يغرق فيها . صرخ صوت : سوف تعلق المشابك بثيابك . لن تستطيعي التخلص من الشبكة بسهولة . (فليكن ، ما اشتبك قد اشتبك ، فلأستسلم لمتعتي الآن) وكانت متعة عجيبة ان أشم رائحة حبالها المالحة تخترق رأسي ... واسمع خلالها أصوات عشرات الأمواج التي طالما تلاعبت بهذه الشبكة ، وتفوح رائحة رطوبة لزجة زنخة ممزوجة برائحة اعشاب البحر ، فأرى وانا مرمية هكذا داخل الشبكة عشرات الاسماك التي رقصت رقصة الموت داخلها ، وعبثاً حاولت التسرب من شقوقها الضيقة لتعود إلى البحر ،إلى الحرية والحياة... فيما يشبه الحلم سمعت مصطفى يجيب على سؤال يبدو أنني طرحته دونما انتباه (!) اذ يتابع : «بأكثر من طريقة نصطاد ، كلها بدائي لأن ما نملك من ادوات ووسائل بدائي أيضاً . نصطاد بالديناميت في مناطق مسموحة ، وبالصنارة ، وبالفخوخ ، والشباك ..

لقد وضعت في صنارتي (سردينة) صغيرة كفخ .. سأجرب حظي في... »

ولم أعد أسمع ، كان صوت الامواج ساحراً ، وآسراً ، ورغم دواري الذي كان يتزايد ظللت مستمتعة بنسيم تلك الليلة العجيبة المحمل بالايحاءات ، المثير

لذكريات غامضة شبه منسية : كذكرى ملامح وجه شاب مقتول في خاطر أمه العمياء ...

أليست بصيرتنا امام اسرار الوجود عمياء، لكنها كالرادار تتنبه احياناً لإشارات كونية مبهمة ! كذلك كان صوت الامواج والريح ورائحتهما ، ورائحة الشباك وطعم فلينها المملح على شفتي ، وحكايا الشباك المصبوغة بدم الصيادين وآثار عضات الاسماك لحظة احتضارها ... انشودة كونية للصراع من اجل البقاء ... انشودة ازلية حزينة مذهلة .

احسستني في البحر الحقيقي ... بحر هيمنغواي في « الشيخ والبحر » ... بحر ملفيل في «موبي ديك» ... بحر «هيرودوت» و«الاوديسة» و«السندباد»، والقراصنة والاساطير ، والاتلانتيد وبقية المدن المسحورة المدفونة في الاعماق ، وصناديق المرجان والذهب واللآلىء والفلفل والبهار الغارقة منذ عصور ذات الاقفال الصدئة، بحر المراكب العتيقة من اوراق البردى ، بحر الفينيقيين ، بحر الدهشة والرغبة في الاكتشاف ، بحر كولومبوس ، بحر العالم القديم، البحر الاسطورة في عصور القمر الاسطورة ... البحر الحياة والموت ، المجهول والسر ، الشراع والعاصفة قاصفة المراكب بلهيب القدر وبشلاله : المطر ...

نسيناه ذلك البحر. صار اليوم في خاطرنا لوحة ميتة مثبتة في نوافذ المقاهي المطلة عليه . صار امتداداً اسفلتياً أزرق لاسفلت الشارع الأسود . صار في اذهاننا مجرد اعلان سياحي عن باخرة سياحية درجة اولى تضم مسبحاً وباراً وغواني... صار سمكة مسجاة في الفرن . لم يعد له جبروته . نسيناه ، اله العالم القديم هـــذا ومخلوقاته الجميلة والعجيبة ... ولكنه ما يزال هنا كما كان أبداً . صامتاً منذ الازل . غامض اللغة ، غامض الغضبة ، غامض الرموز ، غامض اللعنة ... سألني الصديق القاضي : كم الساعة ؟

لم أجب . ادهشني ان يسألني عن الساعة . (كنت خارج الزمان والمكان، مرمية فوق شباك الصيد ، امتطيها كما لو كانت صاروخاً يطير بي عبر العصور ، عبر المحيط ، لازداد التقاطاً لشارات اكثر من عصر وجيل ومكان ، اي لأزداد اقتراباً من انسانيتي ، ومن الحقيقة المنسية في اعماقي) ... يعود صوته ملحاحاً : كم الساعة ؟

— هنا لا زمان . لا عصر ... لا كوكب محدداً. من الممكن ان يكون قبل التاريخ ، او بعد الف عام ... هكذا كان البحر والسماء أبداً وهكذا سيظلان ..

الانشودة نفسها .. والمشهد ذاته ...

وفجأة، مزقت أزلية المشهد طائرة كانت تنخفض باستمرار، وتقترب،وتزداد محركاتها صخباً، وأضواؤها وضوحاً ... عدت إلى عصري مرغمة،ألملم أذيال الحلم الشعري الكوني ... وتذكرت ان علي ان اكتب تحقيقاً كي لا أستدين ثمن طعامي بقية هذا الشهر ! وهذه المرة سألني الصديق القاضي بشماتة : كم الساعة ؟

قلت بصوت مقهور : بعد منتصف الليل بقليل .

– ما زال الوقت مبكراً . سننتظر قليلاً ثم نقترب من المراكب التي لن ترفع شباكها قبل مغيب القمر . الزميل المصور زهير سعادة كتلة من الدوار مكومة في الزاوية الاخرى من القارب (أي مثلي) ! الشاعر يخلع عنه شرنقة الدوار ويقرر السباحة، يهبط إلى الماء برعاية الصيادين . يقول انه دافىء ومنعش . يسبح حول المركب ، بالضبط في الناحية التي علق بها (اللوكس) ، مثل الاسماك ! ... (ما الفرق ، انه سمكة اخرى من فصيلة اخرى في هذا البحر الازلي الشاسع . الاسماك الصغيرة تدور حوله . بوضوح اراها تنزلق في الماء برشاقة قرب جسده . أحسه فرداً منها)

وفجأة سمعت ما يشبه الشهقة ، ومصطفى يهتف : « صنارتي اصطادت سمكة لا بأس بها» . أخرجها من الماء . أخرج الصنارة من فمها وامسك بها . ركضت اليه . في ضوء (اللوكس) رأيت السمكة تفتح فمها بيأس وهو يرمي بها إلى الصندوق المعد لجمع (الغلة) . سمعتها تشهق ، انا واثقة من انني سمعتها تتأوه بصوت طفل .

خرج الشاعر من الماء وكف عن السباحة (لعله خشي أن تأخذ الاسماك منه بثأر الفقيدة) . « الجريمة » جعلته ينضم الينا نحن مركب القتلة . يهرب من مسرحها إلى حيث عصابتنا . فجأة، ينفجر اصبع من الديناميت، وعلى ضوء اللوكس ، أرى عشرات القتلى من الاسماك يلملمها مركب اقترب منا حتى التصق بنا دون ان ادري .. يقول أحد الصيادين : الديناميت ممنوع . يرد الآخر : ممنوع علينا ، ومسموح لغيرنا – لأهل الواسطة – . بدنا نأكل . الاولاد جاعوا ...

يلملمون جثث الاسماك بفرح . (يدهشني ان صديقي القاضي لا يعترض !)

وتم جمع القتلى بسرعة ، وشارك القاضي الجميع سرورهم بالحصاد ، ورموا الينا بعدة اسماك . اخرج عبد القادر سكيناً صغيرة ، ومزق بها احشاء سمكة كانت ما تزال تنتفض ثم انحنى على جانب القارب وغسلها جيداً بماء البحر ووضعها على محرك

القارب قائلاً : ستشوى على حرارته ، وسأطعمك سمكاً طازجاً لم تذوقي مثله في حياتك ! ! . .

وتابع عملية اغتيال بقية افراد اسرة السمكة . وهنا سألته : ألم يحدث أن شعرت مرة بالحزن لموت سمكة ، وأعدتها إلى البحر بينما هي تشهق وتئن احتضاراً؟ رد بقسوة : « لا يا سيدتي . لأن صوت أنين اطفالي حينما يجوعون هو وحده الذي اسمعه . » وأحسست بالخجل ! (أحسست بالخجل والأسى معاً . الخجل لأنني نسيت أن منطق كل ما في العالم من فلسفات جميلة وانسانية ينهار أمام منطق صراخ معدة طفل جائع !! وأحسست بالأسى ، لأن شريعة كونية ما جعلت لعبة القتل شبه ارغامية : أقتُل او يقتلونك ! القوي يأكل الضعيف ، والبقاء للاقوى)! ناولني في تلك اللحظة سمكة صغيرة استخرجها من احشاء السمكة التي ذبحها للتو وبدأ بتنظيفها وقال ببساطة لو يدري مدى عمقها : انظري .. السمكة التي حزنت للتو على قتلها قتلت قبل دقائق سمكة اخرى ومن فصيلتها ... (ربما كانت ابنتها أو ربما أختها تجاورت بيوضهما في حضن صخرة زمنا قبل ان تفقس البيوض وتبدأ الحياة ، ومعها غريزة البقاء العمياء الشريرة) .

لاحظت أن يد أحد الصيادين تنقص أصبعاً . سألت . قال : الديناميت..من النادر ان تجدي صياداً محترفاً دونما اصابة أو عاهة بالديناميت او بسواه . وسائلنا بدائية . الدولة تمنعنا دون ان تعيننا في الحصول على بديل ...

وحينما نجوع ، نفعل أي شيء ... صوت آخر خشن : مهنتنا أقدم مهنة في الدنيا ، وأول مهنة في لبنان ، لكنها في لبنان وحده لم تتطور بعد . نحن أكثر الناس فقراً وبؤساً ، أما سمعت على لسان المثل الشعبي أن الرجل حينما يصير فقيراً يقول : « عدت صياد سمك » ؟ !

عبد القادر بصوت محموم : انها صنعة تعيسة . مثل القمار . كنت مقامراً ، ولولا أولادي لما توقفت عن المقامرة ، وأفلست ، وعدت « صياد سمك » ! ! ...

— ألا تجد تشابهاً ما بين المقامرة وصيد السمك ؟ ...

— حتماً ... لأن أكثر صيادي السمك يقامرون في ساعات عملهم وفي ساعات فراغهم ... أكثرنا مقامر هاو على البر ... الصيد مثل « لعبة السبق » ... أحياناً بضرب واحد (بلاسيه) يطعمني (ميز) ... تأملت يده المتوترة الممسكة بالصنارة ،

وعروقها النافرة ، تذكرت أيدي رجال الاعمال الممتدة إلى الروليت فيالكازينو . أليس الصياد مقامراً يلعب الروليت مع البحر ؟ يقامر مع القدر والريح ؟ ...

الفقر للأكثرية ...

— والارباح ؟ ...

— الارباح زهيدة . كل شيء ضدنا ، البحر ملوث والاسماك لم تعد كما كانت . انها تفقد العافية يوماً بعد يوم . هنالك المجارير التي ما تزال تصب في البحر رغم شكاوانا إلى المسؤولين . وهنالك الدباغات في كورنيش الدورة قذاراتها تسمم الاسماك الصغيرة (تذكرت انهم في المانيا حينما يتجلد وجه البحيرات ، يزودون مياه مراعي الاسماك حتى بالاوكسجين في فصل الشتاء، وذلك خوفاً عليها من الاختناق ، عندنا ... يا نحن !) ... يتابع : ثم أن بقايا نفايات (التنك) كالمعلبات وغيرها ، التي ترمى ضمن (القمامة) إلى البحر تعلق بشباكنا وتقطعها ... انها مثل الشفرات الحادة ...

— نحارب على اكثر من جبهة . نحارب الطبيعة . ونحارب إهمال المسؤولين ، ونحارب الفقر الذي لا يرحم . الصياد بلا ضمانات ، معرض دوماً للتشويه ، وللموت وشيخوخته أو اصابته تعني موته جوعاً ! !

— والنقابات ؟ والدولة ؟

— شبه غائبة ، إلا في صيدا وصور جزئياً .

— وماذا ايضاً ؟

— لا شيء . نحن هنا آلاف من الصيادين نكافح من أجل الرزق . صاحب (الفلوكة) مظلوم مثل الصياد العامل .. تجار شراء السمك على البر يأكلوننا ، لم تبن الحكومة لنا برادات للتخزين أو تعاونيات، لذا فنحن دوماً مضطرون إلى بيع ما نصطاد بأي ثمن خوفاً عليه من التلف . والثمن يفرضه غالباً التاجر المحتكر .. أهل البر أقسى من قسوة البحر (تراهم لذلك لا يصعدون إلى البر إلا ليناموا ، ومتى استيقظوا عادوا إلى البحر ؟) ...

كنا قد اقتربنا من مركبين شباكهما مشرعة في الماء ، والعيون كلها بانتظار غياب القمر الذي صار قرصاً اصفر مزروعاً عند افق البحر (لا ادري لماذا ذكرني لونه

وشكله في تلك اللحظة بالرغيف ... الرغيف الذي يبحرون كل ليلة إلى المجهول ، ويتشوهون ، ويقتلون ، ويموتون اعياء كل ليلة ، لأجله ! ذلك الرغيف النائي البعيد المنال الذي ينبض كالقلب، والذي يحيل علاقتهم بالكائنات الاخرى إلى علاقة صراع من أجل البقاء) ...

وأسأل : ألم يحدث مرة ان اصطادت سمكةٌ صياداً ؟ ...

ـ ولماذا تريدين الشماتة بنا ؟ .. وضحكنا ، وتابع عبد القادر الصياد ابن الصياد ابن الصياد: حدث لجد جدي أن شاهد سمكة مدهشة الضخامة شدّته عن سطح قاربه ، فتمسك بها ، وسبحت به مسافة طويلة وهو (راكب) عليها كأنها بساط الريح ... كادت تصطاده إلى الابد .

ـ ومن يبكي موت الصياد ؟

ـ لا أحد يبكي موت الفقير إلا عروسه ، وعروسة البحر ! ...

ـ عروسة البحر ؟ اليست اسطورة ؟ أم تراك شاهدتها ؟

ـ عروسة البحر وحدها لا نصطادها .

ـ لانكم لا تقدرون . من يصطاد وهماً ؟ ..

ـ ليست وهماً ، انها موجودة فعلاً في شواطئنا ، ولها عينان واسعتان كعيون البقر ...

صديقنا الشاعر يصلح له قوله : تقصد كعيون الـ (مها) ! ..

يتابع عبد القادر في لهجة من يروي أسطورة : من يصطادها يصاب باللعنة ، انها تبكي كالنساء،وإذا لم يُفلتها ، أصيب وذريته باللعنة ... يوضح الاخ مصطفى بصوت واقعي : يقصد (الفقمة) التي تعارف الصيادون على عدم الامساك بها ... إنها من ذوات الثدي ، ولها وجه انساني يشبه العجل ، وهي وديعة وأنيسة وحزينة ، واذا امسك بها صياد تهطل دموعها كالبشر فتعجز عن قتلها (بصمت ظللت أفكر ، الفقمة لا يقتلونها لانها حينما تبكي تذكر بالانسان ! لا يقتلونها لانها بشرية المنظر ومن ذوات الثدي ! ما اغرب ذلك الحلف بين الحيوانات البشرية ضد بقية الكائنات الحية ، ولا ينجو الا من يستطيع ان يبدو ولو للحظات شبيها بالفصيلة البشرية) ...

كنا قد اقتربنا كثيراً من المركبين المجاورين .

القمر صار قرصاً محمراً دامياً : رغيفاً ملطخاً بالدم . لم يعد يضيء ، لم يعد يقدر

على حراسة الاسماك . القاربان المجاوران يزدادان اقتراباً أحدهما من الآخر ، والرجال يشدون الشباك من الماء ... المشهد جميل (لماذا مشهد المجازر جميل غالباً ؟ ... لماذا نحب مشاهدة صراع الثيران ؟ لماذا عندما أحرق نيرون روما جلس يستلهم من المشهد أعذب ما عزف على قيثارته؟) ...

زنود الرجال المفتولة تلتمع على اضواء اللوكس . تزداد انتفاخاً وصلابة ، تصبح كمعاول بشرية تحفر حتى قلب البحر بحثاً عن القوت .. ينشدون اثناء اخراج الشباك اغنيات هي اقرب إلى صراخ التشجيع المنغم منه إلى التطريب . غناؤهم يساعدهم ايضاً على تنظيم تواتر حركاتهم بحيث يتحرك عشرون ساعداً في لحظة واحدة ... الزميل المصور زهير سعادة خلع عنه دواره .. نسيه تماماً في غمرة انشغاله بالتقاط الصور . يعمل بهمة كهمتهم . أنا الصامتة المكومة فوق الشباك ، دماغي أيضاً يعمل داخل صندوقه (جمجمتي) ...والاسماك تقفز داخل الشباك وتضطرب (كل منا يتحرك على طريقته مكافحاً من أجل بقائه) ... يخرجون بالشباك .. مشهد جميل وحزين ، اقتربنا من مركبهم حتى كدنا نلاصقه ، وحينما رأيت وجوه الصيادين المكدودة تعباً واعياء ، المغسولة بالعرق وماء البحر ، وأصابعهم الممزقة على حد الحبال ، كفت كومة جثث الاسماك المكومة على القارب عن استثارة حزني عليها او تحزبي لها ، (لعبة الحياة ككل هي التي تعذبني . كلنا مهزوم امام قسوتها : الصياد والسمكة . الحياة هي وحدها الصياد الكبير الذي لا يرحم ، والذي يتساوى في شبكته القاتل والقتيل !) ...

العودة ... وأغانيهم

من جديد نتجه نحو الشاطىء . أظل مكومة قرب الملاح . انه يغني ، رغم صوت المحرك استطيع ان اسمعه .. اغانيه حزينة ، وصوته أبح كأن الذي ينشد هو طائر غريب محزون ومصدور !

كنا نزداد اقتراباً من الشاطىء . ملأني ذلك ضيقاً ، تمنيت ان ابقى في البحر . تذكرت مدن الاعماق الغارقة منذ عصور وسألت عبد القادر : وقاع البحر ؟

قال كأنه يحلم : جميل جميل ... لذلك فان كثيراً من الغطاسين لا يعودون .. يطيب لهم العيش تحت ! ! .

قلت بغضب : لا يعودون لأنهم يفقدون الاوكسجين .. لأن معدات الغطس

بدائية ! ألا تعلم أن ٢٠٪ من صيادي الاسفنج يلقون حتفهم تحت الماء كل عام بفضل نقص المعدات ؟

– بفضل الله و « أبو خالد » كلنا بخير .
وجدتني أسأله : هل ذهبت قط إلى المدرسة ؟
– لا .
– واولادك ؟
– افعل المستحيل لتعليمهم ، لكنك تعلمين مشاكل الاقساط والمدارس والتكاليف التي لا يقدر عليها الفقير ، و ...
ويقطع حديثه فجأة ، ويعود إلى مواله الحزين... يضمنه احتجاجه المبهم على قوى تعذبه ... لا يعرف كيف يحاربها ، ولا يفهم لماذا تحاربه .

المشروع الأزرق !!

المسؤولون يعرفون ما يعاني منه آلاف المواطنين من الصيادين في عالمهم المغلق الذي لا نعرف عنه شيئاً ، بدليل تشخيصهم للداء في كراساتهم الرسمية ...
من تقرير « مشروع تنمية موارد الاسماك في لبنان » ، يلخصون المأساة بما يلي :
« يحتاج اللبنانيون إلى كميات من الاسماك تقدر قيمتها بـ ٧٥ مليون ليرة ، ينتجون من أصلها ما قيمته ٧ ملايين فقط » .
يقول التقرير نفسه :
« منتوج السمك عندنا قليل بسبب :
١ – الطرق البدائية التي ما زالت قيد الاستعمال في لبنان لصيد الاسماك .
٢ – استعمال المتفجرات والمخدرات والمواد السامة على نطاق واسع .
٣ – استعمال جواريف البر والشباك الضيقة التي تجرف السمك الصغير وتمحو مرعى الاسماك .
٤ – عدم وجود امكانيات للصيد بعيداً عن الشاطىء » .
ويقول التقرير ايضاً :
« بما ان الصياد اللبناني يمتلك وسائل انتاج غير مستوفية فهو سيبقى اسير النقابات المهنية غير المتطورة ، وضعف مدخوله لن يسمح له بتحسين وسائل الانتاج » .

وأما « منهاج تنظيم وانماء الصيد في لبنان » — المرجع : قرار مجلس الوزراء بتاريخ ١٩٦٥/٤/١٢ — فيقترح عشرات الحلول للمشكلة ... ويتضمن دراسة بالأرقام عما يجب عمله ... ويتحدث عن تحسين المراكب بإعطاء قروض للصيادين وعن المراكب النموذجية من طول ٩ امتار و ١٢ متراً و ١٨ متراً ..

ويتحدث التقرير عن صيادي الاسفنج ، وضرورة تزويدهم بآلات اعادة الضغط وتوزيعها على طول الشواطىء ،

لأنه يموت حالياً من كل ٢٠ غطاساً من ٤ إلى ٦ سنوياً ! !... (اي الربع تقريباً ! !) وهي نسبة عالية بل ومروعة ! ! .

ويقترح ايضاً ضرورة انشاء حظائر لمعدات الصيادين ، ومنشآت للتبريد ، وساحات للسمك ومحلات للتعاونيات ، واعداد تدريب مهني للموظفين الذين سيتولون ادارة الصيد .

وينفي نقص انتاج الاسفنج ، « الاسفنج الابيض » النوع الوحيد الجيد في العالم ، ينمو هنا في الشواطىء اللبنانية ... وكذلك عشرات الاصداف النادرة ..

ويأتي « المشروع الازرق » الذي وضعه المسؤولون في وزارة الزراعة بالاشتراك مع وزارة التصميم العام وأسموه: « المشروع الازرق لإنماء موارد صيد الاسماك البحرية والنهرية » ، فيقول الكثير ...

تم اعداده في آذار ١٩٦٤ اعتماداً على تقرير مفصل وضعه الخبير الفرنسي السيد بيار — فيليبير ، المسؤول رسمياً في فرنسا عن شؤون الصيد البحري في البحر المتوسط .

١ — زيادة المساعدة لتطوير صيد السمك الساحلي .

٢ — تحسين موانىء الصيد .

٣ — تنظيم تسويق نتاجه .

٤ — تسليف الصيادين وانشاء تعاونيات .

حبر في البحر ...

مشاريع . خطط . كلام جميل . كلام معسول .

ويظل الصيادون من المواطنين فئة (بنت الجارية) ، ليست لهم حقوق المواطنين فئة (بنت الست) . يعيشون حياة قاسية مُرَّة ، بلا رواتب تقاعدية ولا اجازات ولا ضمانات صحية او عائلية او اي شرط من شروط الحياة الكريمة . الصيادون صرعى شبكة اهمال الدولة . ضائعون بين خيوط شباك لامبالاة المسؤولين .

١٤ / ١١ / ١٩٦٩

قاع المدينة

الليل حزين هناك ...

حزين كالمطر الخفيف الذي بدأ يغسلني خافتاً كالبكاء ..

حزين كنظرات البائع الجوال ، الذي ما زال متمركزاً خلف بسطته رغم هذه الساعة المتأخرة بعد منتصف الليل ، حزن يمتزج شيئاً فشيئاً بفضول يكاد يصرخ ، يكاد يسألني :لماذا أنتِ هنا ؟ ما الذيجاء بك إلى هذا العالم الحزين الرهيب... إلى قاع بيروت ، حيث كواليس العنف، والجنس، والمخـــدرات، والطموح المهروق في الازقة الخلفية المعتمة ؟ ..

أحسست بنظراته الحزينة تتابعني بفضول شرس،وتتأمل أوراقي وأقلامي ، حتى غيبني مدخل أحد الكاباريهات الرخيصة ...

ولم اتوقف أو التفت لأقول له لماذا أنا هنا ! !؟....

ولكن وجدتني اكاد اردد مع نظراته : فعلاً ، لماذا أنا هنا ؟ ما الذي جاء بي إلى « قاع مدينة بيروت » في هذه الساعة من الليل . بالضبط ، ماذا جئت أتأمل ؟ ..

غانيات .. ونساء عاملات

إلى « قاع المدينة » أبحرت مع الليل الحزين، لأنقل لقارئي صورة عن عالم قريب منا ، لكنه عالم شبه منسي ، عالم نجهله ونتجنبه ونتجاهله ، لاننا ما نزال ننظر اليه بعين تقليدية المنطلقات، بدهيَّاتها صارت بحاجة إلى نسف، ونتائجها –شبه المكرسة– بحاجة إلى اعادة نظر ... فنحن ما نزال ننظر إلى « قاع بيروت»نظرة محملة بالادانة السلفية ورفض الاستماع إلى اية وجهة نظر جديدة، كما لو كنا ننتمي إلى جنس آخر من البشر ... أو كما لو كان عالمنا يختلف تماماً عن عالمهم ... ننام على قناعة متوارثة :

عالمنا فاضل .. وعالمهم دنس وشرير ، عالمنا إنساني .. وعالمهم بهيمي يخلو من اية صفات انسانية ...

هذه القناعة صارت مثل قناعاتنا المتوارثة كلها ، مثل أوثان جاهلية فكرية عصرية لدينا ، بحاجة إلى اعادة نظر ...

واذا كان الناس يقبلون أن نصرخ في وجوههم : ان الخيط الفاصل بين العقل وما نسميه الجنون خيط أوهى من خيط العنكبوت ... فان الكثيرين (سيجفلون) لمجرد الحديث عن « قاع بيروت» لأن النظرة التقليدية إلى القضايا التي تمس الجنس قد خلفت في نفوسنا رواسب وقناعات وعشرات من (التابو) ، ولأننا بنتيجتها قد نرضى القول بأن خيطاً رفيعاً يفصل بين العاقل والمجنون ، لكننا نرفض أن يقال ان مثل هذا الخيط ، بل وأوهى منه ، يفصل بين مفهومنا التقليدي «لسيدة المجتمع المخملي المبجلة» وبين « نساء قاع بيروت وبعض عاهراتها » ! !.

ومن اجل اعادة النظر الضرورية تلك ، والتي يمليها واجب الصدق في شرايين الكاتب (شرايينه التي هي محبرته) ، قررت قضاء سهرتي في أزقة بيروت وشوارعها الخلفية ، وملاهي الدرجة العاشرة فيها ، وفي مسارحها وحاناتها ، وفي خلفيتها الحزينة البائسة التي ندعوها « شارع المتنبي » ، والتي يوم قام استاذ في الجامعة الاميركية منذ عامين — الدكتور خلف — باعداد دراسة علمية موضوعية عن ساكناته ، كادت تقوم مظاهرة بعد المحاضرة تنادي باعدامه ! .. فقد تجرأ وتحدث عن (العاهرات) كما لو كن بشراً ، يا للفظاعة ! ! ...

ذلك كله لم اكن اجهله حينما قررت قضاء سهرتي في « قاع بيروت » بدلاً من قضائها في مكان (محترم !) مثل (الكازينو) أو (الكاف دي روا) أو في فندق الفينيسيا مع (نجوم) المجتمع ونجماته ... لكنني أيضاً كنت لا أجهل أمراً آخر يشكل في نظري ظاهرة تلفت الانتباه : وهو أن من نسميهم بنجمات المجتمع المخملي في لبنان هن مدللات طبقة افرزها مجتمع معين ، مريض ، ويبلغ تعدادهن ما يقارب المئتي سيدة ، أكثرهن — الا فيما ندر — عاطلات (عن العمل) ، يمتهن الزواج وربما (أموراً أخرى !) وقليلات منهن نساء عاملات ، يمتهن العمل (الفني) الحر (!) وأجر الواحدة منهن مقابل الغناء أو الرقص (في السهرات الاجتماعية الفاخرة) يقارب كحد ادنى الـ ٧٠٠ ل. ل في الليلة الواحدة ... وهن (محترمات) اما بحكم حماية ازواجهن (الكبار) لهن ، أو بحكم استقلالهن المادي — الذي يصل حد

الثراء أحيـــاناً ــ بالاضافة إلى الحماية المعنوية التي يؤمنها لهن بعض ذوي النفوذ والشخصيات ! ...

والمرأة في « قاع بيروت » محرومة من هاتين الضمانتين . تلك هي الحقيقة الاساسية التي دفعت بي إلى كتابة هذا التحقيق ... بالضبط ، خاطر مرّ ببالي ذات يوم وانا أتأمل عجرفة احدى سيدات المجتمع المخملي العاطلات (عن العمل) وهي تمد ساقاً مترهلة إلى صبية فقيرة تعمل في (البديكور) ، والعجرفة تقطر من بَطَرِها .

... فكرت ... لو قـامت الحرب ... لو قامت ثورة تنسف جميـع الركائز والمؤسسات التي تستمد « نجمات المجتمع المخملي » وجودهن انطلاقاً منها ، ما العمل الذي تستطيع ان تقوم به كل منهن فيما لو اضطرت إلى إعالة نفسها ؟ ... وهل تجد اكثرهن ما تمارسه بنجاح حتى في « قاع بيروت » ؟

(سوهو) بيروت ؟؟

حي « سوهو » في لندن هو الحي المشهور بالجنس والعنف والمخدر والجريمة ... وبالفقر أولاً ... وكما ان في لندن «سوهو» فان في كل مدينة «سوهو»... وكما أن لكل مجتمع واجهة من النجوم (المبرزين) على (المسرح) تحت الاضواء ، فان له «سوهو» أو عالم ما وراء الكواليس ، والناس الذين يولدون بصمت ويموتون بصمت، والذين لا نقرأ اخبارهم الا مصادفة في صفحة الجرائم ..

و « سوهو بيروت » في نظر « الرأي العام » هي منطقة ساحة البرج بعد منتصف الليل وبعض الازقة الضيقة المتفرعة عنها ، والتي ذهبت اليها وخرجت منها بقناعة معاكسة : سوهو بيروت ليست في البرج ... انها في مكان آخر من بيروت سأدلكم عليه !

الليل حزين حزين هناك ...

لأنه مع الليل ، بعد ان تقفل دكاكين زقاق الصاغة الضيق المواجه لـ «هناك» ، ودكاكين سوق الخضار القريبة منه ، وبقية الدكاكين التجارية المختلفة ، القائمة في ازقة الناحية المقابلة لها من البرج ، وتودع أزقة هذه المنطقة حياة البيع والشراء تحت ضوء الشمس، تبدأ على مسرحها تجارة اخرى ولكن تحت ضوء الشموع الحمر والسود ، في دكاكين الجنس وغير الجنس ، ودكاكين الطموح المسفوح ..

لأني حرت من أين ابدأ جولتي في (سوهو) دخلت إلى أول مسرح شاهدته . اسمه مسرح التحرير.، وواضح أن الفقر يستعبد كل ما يقدم فيه من (مسرحيات) ورقص وغناء .. فتذكرة الدخول : ليرة واحدة للشخص ... وعلى الباب لوحات زيتية او صور فوتوغرافية لراقصات ، ونجوم مسرح ، وكواكب ، كما تقول الاعلانات ... وتحار كيف يقدم اليك هذا الحشد من الجهد الفني البشري بليرة واحدة . وحينما تصبح في الداخل تكف عن الحيرة ! ففي الصالة غير المبردة ولا المدفأة ، الضيافة مهما عظمت لا تتجاوز (نارجيلة) أو (ليمونادة) ... في البار تستطيع أن تنفق أكثر إذا أحببت ...

حين دخلت إلى صالة المسرح كانت هنالك امرأة جميلة تتلوى على خشبة كما لو كانت مصابة بمغص حاد ، (والمفروض انها ترقص رقصاً شرقياً) ، واكثر الحضور يصفق .. لاحظت ان الصالة لا تضم سيدة واحدة ، بالضبط ، لفتت نظري إلى هذه الحقيقة انظار الزبائن الذين التفتوا إليّ مستنكرين حضوري ، ووجدتني بحركة عفوية اتسلق عدة درجات إلى (اللوج) حيث الحضور أقل عدداً والرؤيا أفضل ... بعد دقائق تأكدت أنه لا ضرورة للرؤيا الأفضل ... كان كل ما يقدم على المسرح يثير حزني ...

انتهت وصلة الرقص الشرقي واعلن المذيع عن مسرحية شرقية ، وبدأت الراقصة نفسها تلعب الدور التمثيلي الاول فيها (اعجبت كثيراً بسرعة الراقصة في تبديل ثيابها من ثياب الرقص إلى ثياب بنت الملك!) ... من المفروض اننا نشاهد اوبرا شعبية او مسرحاً شعبياً ... والمحزن ان المسرحية ككل شيء نتهمه بأنه « شعبي » لدينا ، تنزف فقراً ، فقر في الخبرة . فقر في الثقافة . فقر في كل شيء الا في الحماس واحياناً ومضات من الموهبة (اي كما يدور غالباً في أكثر مسارحنا المحترمة !) .. وغادرت المسرح وصوت احدهم يلعلع بسخرية شعبية لاذعة وطاقات مهدورة وضياع ...

وفي البار مزيد من الضياع ... اضواء باهتة ووجوه متعبة ... وجه الرجل الذي طالعني حين سألت عن مدير المسرح لم يكن وجهاً متعباً ... بالضبط ، لم اسأل عنه مباشرة وانما تقدمت من احدى فتيات البار وقلت لها انني كاتبة وأود التحدث اليها ، فأدارت

وجهها الذي امتلأ بالدهشة والخشية مستنجدة برجل قوي البنية والشخصية جالس خلف النارجيلة الوحيدة في البار ... وعرفت انه لا بد وأن يكون صاحب المسرح او مديره ... اسمه عفيف. ك . وهو مدير لهذا المسرح منذ عام ١٩٤٩ .

وأسأله : عشرون عاماً في ليل سوهو البيروتي ... لا ريب في انها كانت شاقة وقد قضيتها مديراً لمسرح بطاقة الدخول اليه ليرة واحدة ..

– شاقة ؟ ربما ... وهل تخلو الحياة من المشقة .. ولكنها أعوام حافلة بالتجارب والخبرة ...

– حزينة ؟ هل تنكر انها كانت سنوات حزينة ، مع زبائن فقراء ، ومطربات وراقصات في ظروف لا يحسدن عليها .. والجميع يكافح ويتعذب ويضيع ويتمزق في الظلام .. ويصمت ...

ليس دائماً في الظلام .. لقد مر بمسرحي عدد من الاسماء التي كانت صاحباتها يومئذ مجهولات وفقيرات ، ثم استطعن النجاح على اكثر من صعيد ..

– مثل من ؟

– مثل فايزة. أ ... غنت في البداية في هذا المسرح عام ١٩٥٣–١٩٥٤ ، وكان راتبها يومئذ لا يتجاوز ٦ ليرات في الليلة ... وكارم.م. غنى هنا عام ١٩٥٥ – ١٩٥٦ . واسماعيل. ي. مر هنا عام ١٩٥١.. قوت. ق .وج. (كلاهما منولوجست) بدأتا هنا...

– ويوم نجحوا هجروا هذا المكان إلى الابد ؟

– طبعاً .. صارت اجورهم فوق القدرة المادية لزبائن مسرحي .. لا تنسي ان ثمن تذكرة الدخول ليرة واحدة ..

– وهل انت راض عن مستوى « الفن » الذي تقدمه ؟

– طبعاً لا ، ولكن ، ماذا تريدين ان أفعل امام مضاربة تجار ملاهي منطقة الزيتونة ؟ .. لقد فسد مسرح ايام زمان ...

– وما الذي افسد مسرح ايام زمان (بفرض انه كان احسن حالاً) ؟ ...

– اخلاق السمسرة التي تسربت إلى الفن والمسارح هي المسؤولة عن ذلك ...

وأصر مدير المسرح الاخ عفيف . ك. على ان يقوم بواجب الضيافة كاملاً لي وللزميل المصور زهير سعادة والصديقين اللذين رافقانا في جولتنا هذه ... واكتفينا

بالابتسامة واعتذرنا عن الضيافة لأن الليل قصير ، وامامنا عالم مجهول نريد ان نبحر فيه ما تبقى من الليل ...

لماذا لا تُضْرِبُ الراقصات ؟

نصعد درجات « الباريزيانا » –كاباريه– . على شرفته المطلة على ساحة البرج صور زيتية تعلن عن عشرات المطربات والراقصات ... كلها اسماء مجهولة ، ولكل اسم حكايته ومأساته ...

ونثقب جدار دخان السجائر والانفاس المحمومة، وندخل الصالة ونجلس إلى احدى الطاولات ...

يبدو الانزعاج واضحاً على اكثر الزبائن لمشهد كاميرا الزميل زهير سعادة من الواضح انهم لا يريدون أن يعرف احد انهم كانوا في سوهو بيروت . . ان اكثر زبائن المكان متناقض المشاعر تجاهه : يأتون اليه مليئين بالرغبة ولكن بالخجل الاجتماعي ... واحسست بحاجة إلى أن أسأل الحضور واحداً واحداً لماذا هم هنا ؟... وان كنت اعرف سلفاً ان الجواب الاساسي سيكون « الكبت » ... والحرمان من ممارسة علاقات انسانية مع الجنس الآخر في ضوء الشمس.. وها هم يأتون لممارستها في ضوء الشموع الحمر والسود .. رافضين لما يفعلون ... وعاجزين عن التوقف ... يدفعون ثمن اللذة نقوداً، والمرأة هي التي تدفع الثمن الحقيقي .

على المسرح امرأة تغني ، صوتها ليس قبيحاً ولا جميلاً ، ولكن جسدها جميل بقدر بشاعة وجهها ... انها تقدم كل ما تقدر عليه لتكسب رزقها ، (ولكن لماذا لا تقدم نمرة صامتة كأن تروح وتجيء بجسدها عدة مرات على المسرح وهي مغلقة الفم .. لا أحد يريد صوتها ، وهي تعرف ذلك فلماذا لا تريح وتستريح) ، وتسليت عنها بمتابعة ما يدور في الصالة وهو في نظري المسرح الحقيقي هنسا الجدير بالمراقبة ... هنالك طاولة جلست اليها امرأتان .. الاولى صبية واضح انها ما زالت في أول الطريق ، والثانية واضح أنها شارفت على الكهولة ، وعلى آخر الطريق ... نموذجان لامرأة واحدة ، صورتان تمثلانها في مطلع صباها ثم في خريفه ...

– هل استطيع ان اتحدث اليكما ؟

بلطف ترحبان بي .

في وجه المرأة الناضجة آثار جمال متعب وأمجاد صبا بدأت تأفل ، اسمها

هدى . عراقية . تقدم وصلة منولوجات ورقص . تعمل منذ عشرين عاماً في (المهنة) ذاتها ، كانت متزوجة من عبد الحميد . ر (ممثل متوفى) وليس لها أولاد ولا أحد ..

الصبية تدعى هدى . س . (٢١ سنة) لبنانية . تقول انها مطربة ...

سألتهما : متى دورهما على المسرح ، لاستمع ولاقور ...

قالتا : انهما أدتا وصلتيهما وانتهتا ...

وأسأل السيدة هدى ، وكانت معالم الارهاق تبدو على وجهها : ما دمت قد أديت وصلتك وانتهيت من عملك ، فلماذا انت جالسة في الصالة ؟ وانت ايضاً يا هدى ، لماذا لا تذهبان وتستريحان ؟

– لان العقد ينص على ان نجلس في الصالة ومع الزبائن !

– هذه عبودية انسانية . المفروض انك تقدمين جهداً تتقاضين مقابله راتبك ... والمفروض انك فنانة ، اي انك تقدمين ما لديك على خشبة المسرح ، وبعدها انت حرة ، فكيف تقبلين بعقد كهذا ؟ ..

– لا مفر لنا من ذلك ... كلنا يشكو من هذا ... ولكن ...

– ولكن ماذا ؟ اليست هنالك نقابة ؟ رابطة ؟ لمـاذا لا تعلن جميع(الفنانات) الاضراب ضد بند غاشم كهذا في عقد العمل ؟ ..

وقبل ان ترد إحداهن ، أضاء فلاش الزميل زهير سعادة في الركن ، وشاهدنا في ومضة بريقه زبوناً يقبل (فنانة) بشراهة ولا يبدو عليها انها متضايقة كثيراً او انها على استعداد لتأييد اضراب (الفنانات) ضد ما يسمى « بالانكاجيه » ... اما هدى فقد انفجرت امام تحريضي :

– عشرون عاماً ، وانا أحيا في هذا الجو الارهابي ... زهقت من هذا العمل ... بالحرف الواحد تابعت – وفي عينيها ما يشبه الدموع – :

– (ليت ربنا يتوب علي لاصبح زوجة وست بيت) ...

ولم اقل لها ان مهنة (الزوجة) سيدة المجتمع ، لا علاقة لها في بيروت غالباً بان (يتوب ربنا) على صاحبتها . وان (العلاقات المتعددة) لدى كثيرات منهن تتم غالباً علناً،وربما سراً وفي اماكن (محترمة) وبدافع الجشع ، وليس بدافع الحاجة الى كسب اللقمة المغمسة بالدم والقرف ... او سراب حب الفن،وبالتالي الانجراف إلى اجواء (تجارة الفن) . وقلت لهدى . ر : في بلاد العالم الراقية ، التقدم في السن أمر

لا يدعو بالضرورة إلى ان يعتزل الفنان ... السن ليس ضد الابداع ...

– هنا لا يطلب منا سوى أداء عرض جسماني ... الفن غير مطلوب ...

ويتدخل في الحوار شاب نهض عن مائدة مجاورة وسألني ممازحاً : ألا تسألين المتفرجين اية اسئلة ؟

– بلى . لماذا انت هنا ؟

– أنا دورية شرطة !!..

وانفجر يضحك بمرح ... ووجدتني عاجزة عن الضحك وعن البقاء في المكان ... كانت صاحبة الجسم الجميل ما تزال تستعرض جسدهـا تحت ستار مطربة ، وكان الكل يصفق لها بحماس ... ولاحظت آلة (الجوك بوكس) إلى جانب المسرح ، وأدركت اية حكمة (الهية) جعلت اصحاب المسرح ينصبونها إلى جانب المطربات... وادهشني ان احداً من الزبائن لم يفكر بان يلقم الآلة ربع ليرة ويستمع إلى اسطوانته المفضلة مكتفياً من (مطربته) بالصمت ، وتأمل جسدها ...

واسأل هدى . س :

– لا ادري فيما اذا كان صوتك جميلاً ام لا ، لانني لم اسمعك ... ولكن ، انت هنا لتغني فقط ؟ ...

– اجل ... هذا طموحي ... وقريباً اقدم فحصاً في الاذاعة فقد أصنَّف مطربة ...

– لماذا لا تضربين اذن ضد عبودية الغزل وضد الزامك بان تكوني مشروع عاهرة ؟

– هذا غير ممكن الآن ... اني بحاجة إلى ثمن طعامي وثيابي .

وحزنت لأن كلتيهما لا تثور . هدى الشابة لا تثور لانها تظن ان مصيرها سيكون أفضل من سواها (وقد يكون ذلك صحيحاً) ، وهدى التي بلغت آخر الطريق لا تثور ، لانها تريد لنفسها خلاصاً فردياً ... ولأن مجتمعنا ما يزال ينسى ان يعلمنـا انه لا خلاص للفرد وحده ، وانه لا احد يستطيع ان يكون حراً في مجتمع يستعبده التخلف .

في مكان ما ..

وأمعن إبحاراً في مجاهل سوهو بيروت .

أصل إلى مكان عجيب لا استطيع ذكر اسمه لانه لا إسم له . مكان يشبه (قهوة القزاز) ولكنه كاباريه ... مكان فقير جداً ... حزين جداً ... في السقف مروحة

كهربائية ضخمة تدور ببطء وكسل ، وكأن شفراتها هي التي تخترق جماجم الزبائن وليس ظل شفراتها ، لأن وجوه الزبائن متجهمة ، ولكن لا يمكن ان تكون وجوههم إلا كذلك ، وصوت (المطربة) الحاد يمزق المكان . صوتها عتيق كالكراسي . مبحوح كأنها استنشقت دخان المقهى (الحشيشي) الرائحة طيلة نصف القرن الاخير ... صوتها فظيع كأنها تعاني عسراً في الولادة ... هذا ما قلته لرفاق رحلتي إلى «السوهو» ، ولاحظت ان احداً لم يضحك لنكتتي ... كانت نظراتهم مسمَّرة على المرأة التي تغني والتي كررت لهم من جديد انها تعاني حتماً عسراً في الولادة . ولما لم يضحك احد ، وانما ازدادوا تجهماً ، التفت اليها وحدقت جيداً ، وكدت اصرخ فقد كانت تتصبب عرقاً واعياءً ، وتقف بصعوبة وقد استندت بيدها المكسرة الاظافر النافرة العروق إلى الجدار القذر الذي علته آثار تشبه نقاط دم عتيق جاف ... وفوجئت بها فقد كانت حاملاً جداً في شهرها التاسع ... كانت لوحة للبؤس البشري ، والعذاب من اجل اللقمة ... وكان المكان كله عالم من الاحـــزان والارهاق ... العرق طعمه مثل الاسبيرتو .. و (المازة) عدة حبات من القضامة (المعفنة) .. والتمييز بين الجرسون والزبون والمطرب أمر صعب هنا ... الكل متشابه ، والكل حزين وفقير ، والسعال هو النغمة الاساسية لسيمفونية البؤس التي يشكل كل جالس في المكان لوحة من لوحاتها ... حينما بدأ عجوز (يرافقه كلب عجوز مثله ، مهترىء الفرو) بالبكاء ، وبمخاطبة كلبه الذي بدا لي وكأنه هو الذي يسعل ويبكي ، وعندما بدأ يضم كلبه اليه في وحشة انسانية مروعة .. أحسست بأن عذاب اولئك الناس فوق طاقة اللغة على التعبير ...

وهربت إلى الشارع ... ولم يطل هربي ... مقهى – كاباريه آخر ... والخليط الانساني العجيب نفسه..وتحدثت إلى الكثيرين ... كلهم جائع إلى أن يقول شيئاً ما دام هنالك من يرضى بالاستماع ... التقيت شاباً فقيراً يعمل في صيدلية ، ويسرق لصديقته التي ترقص ، علب الفيتامين لانها مشرفة على السل ... والتقيت بامرأة تغني ، وجهها أنقاض وجه ، وثيابها ثياب جميلة لو ارتدتها قبل ٢٥ سنة ... إنها ترفض أن تعي أن خمسة وعشرين عاماً قد انقضت منذ هرب منها زوجها وفضَّل عليها حياة السجن ...

– اين زوجك اليوم ؟ .

– خرج من السجن ولكنه عاجز عن ايجاد اي عمل. لا أحد يرضى أن يثق به...

ــ لماذا لا يذهب إلى جمعية رعاية السجين ...اظن انهم اقاموا حفلتهم السنوية منذ ايام في فندق الفينيسيا الفخم ...

وتركتها تنهض لتغني ... غناؤها يشبه النواح ... ومواويلها وصلة انتحاب طويلة ضد قوى تعذبها ولا تدري كيف تحاورها او تقاومها ... قوى ، الاسم التكنيكي لها يمكن ان يكون: الافتقار إلى ضمان صحي، الى ضمان اجتماعي على صعيد الدولة . والافتقار إلى الوعي الانساني الفكري الصحيح على صعيد افراد المجتمع ...

انتهت اغنيتها الحزينة . ها هي تغادر المكان مع شاب تبدو عليه مظاهر الفقر مثلها . جائعان يتقاسمان رغيف الخبز ورغيف الجنس . هو يمنحهـا قضمة خبز وهي تمنحه قضمة جنس في قاع المدينة .

ونحن نغادر المكان يلحق بي احدهم ، وألحظ انه تعمد الاصطدام بي . اعرف فوراً ان انامله الرشيقة قد استلت محفظة نقودي ، لكنني أصمت احتراماً للدقة والسرعة الفنية التي أتم بها (العملية) ... تلتقي نظراتنا ... ويبدو انه فهم انني فهمت . لحقت به ، وقبل ان يتحفز للهرب سألته : هل انت بحاجة إلى مزيد من النقود؟ ليس في محفظة نقودي إلا القليل . اني امرأة عاملة .

وأحس بأن يده المتشنجة على سكين داخل جيبه قد استرخت ويقترب مني ويهمس : ابني يسعل ويشهق طوال الليل ... صوت سعاله مثل طلقات نارية يطلقها باستمرار داخل رأسي . هل عندك اولاد ؟ ..

ــ لا .

ــ اذن لن تفهمي معنى صوت سعال طفل وشهيقه طوال الليل . انه يشبه خطوات السجان امام بابي بينما كنت انشر احد قضبان نافذتي واتحفز للقفز والهرب !.

وجهه بريء وحزين وليس فيه ذلك الجشع الذي يطالعنا عادة في وجوه كبار المسؤولين ونجوم المجتمع الناجحين ... انه ما زال مجرماً صغيراً ، وهو لذلك مضطهد ... مجرم بلا قناع ، بلا درع اللقب الاجتماعي او المنصب الرسمي ... واتركه لشحاذين من العميان يطلبان منه صدقة ... شحاذ يستعطي شحاذاً وامضي ..

الشارع الطويل الحزين

شارع المتنبي ! . وأقرأ : سكينة الشامية .. ريا البيروتية .. انطوانيت المصرية ..

والمرأة هنا سلعة . والدولة الكريمة تتولى تنظيم الامور .. نساء مرغمات على البقاء في هذا المكان . ممنوع أن يغادرن في ضوء الشمس إلى اي مكان إلا إلى الفحص الطبي الاسبوعي حيث يقفن في طابور أين من اذلاله لهن طابور الاسرى .. عملهن مرخص له رسمياً ومحتقر رسمياً . المجتمع يصلح اخطاءه في تربية الشبان على الكبت بخطأ اكبر : هو ايجاد بؤرة بشرية تكون بمثابة ضحية تمتص هذا الكبت ...

تحدثت إلى امرأة منهن تجلس امام الباب ولها ردف (اذا قامت أقعدها) — على حد تعبير الشاعر العربي القديم الذي كان يلخص مواصفات الجمال لدى المرأة ! ..

انها بائسة ، ضائعة ، ممزقة ، ليست مثقفة بما يكفي لتعي ابعاد مأساتها ومدلولها ولتثور ... الثورة هنا آخر ما يمكن ان نتوقعه من نساء مرصودات ليلاً نهاراً لإذلال لا ينتهي ... كلهن فريسات الانهيار العصبي ... ليس بينهن من تستمتع بعملها... مواطنات محرومات من اي حق انساني او مدني ، حتى من حق الشكوى ! .. الجمعيات النسائية لسيدات المجتمع المخملي البيروتي لا (تتنازل) وتهبط إلى هـــذا المستوى ، بل وترفض بحث امرهن من حيث المبدأ (وربما كان ذلك أفضل لان الجمعيات الخيريـــة في رأيي تخدير للثورة ، ولان الوضـــع بأكمله في حاجة إلى نسف !) ... ومن وقت إلى آخر ، ترتفع اصوات بعض المثقفين والاساتذة الجامعيين في دراسات تطالب بإنصافهن واعادة النظر من زاوية جديدة إلى الوضع غير الانساني الذي نكرسهن له نهائياً ... وتموت الصرخات في زحام انشغال القافلـــة بالرقص والتهريج وارتداء الاقنعة والزيف واللامبالاة والافتقار إلى الوعي الفكري والانساني ... وانا اذ أخط هذه السطور الآن ، لا اجهل انها لن تكون سوى صرخة اخـــرى في واد ... لكنني سأصرخها !

سوهو الحقيقية

وبعد ..

عالم « سوهو بيروت » حزين.. حزين .. ومخجل لنا . فيه نماذج بشرية مثلنا، وربما افضل منا ، كل ما في الامر ان افرادها وجدوا انفسهم في مواقف وظروف مروعة ما كنا لنواجهها بأفضل مما واجهوها به ! .. انهم ضحايانا .. انهم السرطان الذي يتهمنا ويدين مجتمعنا بالتخلف والقسوة واللامبالاة واللاإنسانية ..

« سوهو بيروت » عالم حزين من الصراع من اجل البقاء . فيه لوحات انسانية تمزق الوجدان الحيادي الموضوعي لأي باحث ..

« سوهو بيروت » الحقيقة ليست هناك .. فالعنف والوحشية والاجرام والجنس موجودة في اعماقنا نحن الذين ندينهم ، أكثر مما هي موجودة في ازقة البرج الخلفية .. « سوهو بيروت » الحقيقة هي نحن .. هي في اعماق كل منا ، ونحن نحملها في مفاهيمنا الخاطئة ونصنعها اينما تحركنا واينما اجتمعنا .. سوهو ليست في ساحة البرج .. سوهو هي نحن ، ريثما نثور ، وريثما لا يبقى في مجتمعنا ضحايا مرصودون للتكفير عن خطايانا والتنفيس بعارهم عن عارنا نحن ...

٢٦ / ١ / ١٩٦٨

« الكاف دي روا »

ليست بيروت مدينة الاشعاع والحرية والفن والعشاق واللاجئين السياسيين والنازلين من القرى والانتخابات والسيولة فحسب ، ولكنها ايضاً مدينة العجائب الاكثر من سبع ، ابرزها متحف شمع الطبقة (الراقية) ، اي الطبقة التي تعدادها حوالي ٤٪ من الشعب وترفل في ثراء مادي كسبته بالوراثة او الاستدانة او السرقة « القانونية » او ما شابه من عمالة واحتكار واستثمار (جسدي وعقاري) ...

عن ستيريو (الناس اللي فوق) اتحدث .. ذلك المتحف – الظاهرة الذي له في كل مدينة عربية تقريباً مرادف تحت اسم آخر طبعاً . .. يسمونه في بيروت ملهى (الكاف دي روا) اي « كهف الملك » واسم الدلع له « الكاف » ، وقد يتغير اسمه ومقره بعد اعوام لكن المحتويات تظل واحدة .

و « كهف الملك » هذا لا يحوي من الملكية الا مساوئها ..

من الناحية المادية ، الخبز هناك بسعر الجاتو . الويسكي أغلى من العطر . وعليك ان تدفع ثمن ساق فروج نحيلة اكثر مما قد تدفعه عادة ثمناً لأكبر ثور ..

وربما كان من العدل ان يسمى « كهف الملوك » بدلاً من « كهف الملك » .. اذ يبدو من سلوك الناس فيه ان كلاً منهم مؤمن بعمق بأنه ملك .. ملك في الوسامة .. في خفة الدم .. فالنتينو في الرقص ... بايرون في الخطابة .. ديك الجن في علاقاته النسائية (ديك الجن أحرق حبيبته وصنع من رمادهـا كأساً يشرب الخمرة بها) .. وطبعاً كل امرأة هناك ملكة للجمال .. وحتى جرسوناته ملوك في العجرفة (هذا الامر يسرني شخصياً .) .

الليلة ايضاً ، قادني بعض الاصدقاء مخفورة (بالحب) إلى «الكاف دي روا» تعويضاً لي عن سهرة رأس السنة التي كان من المفروض أن أقضيها معهم (ليلتها

كنت في المخيمات،حيث الخبز اسطورة، وصوت السعال، وبكاء الاطفال، ونحيب الريح موسيقى لا تهدأ طوال الليل) ...

الموسيقى لا تهدأ طوال الليل هنا أيضاً ... موسيقى مسعورة كتلك التي نسمعها في أي كهف متوسط الذوق والمستوى (كهذا المكان) في أية حانة في اوروبا ...

المكان هنا قبو صغير ، جدرانه حلوة النقش ، لكن اثاثه يميل إلى البشاعة ، وله مظهر تجاري لا تتصف به حانات وملاهي (الطبقة الراقية) في اوروبا عادة ...

ورغم الاسعار المرتفعة ، فان إحساساً (بالرخص) يملأ الانسان الدخيل مثلي ..

جلست كالقطة التي تسللت إلى وليمة في بيت السلطان ... استمع بصمت ، وتطير من وجهي عيناي متنقلتان من مائدة إلى اخرى ، من ظاهرة إلى اخرى ... من وجـه شمعي إلى آخر ...

شاهدت ، سمعت ، وذهلت ..

أن يراقص الرجل زوجته في هذا المكان حدث مثير وخبر يستحق النشر ...

فأفراد « الطبقة المخملية في بعض المجتمعات العربية » يحملون في أمكنة كهذه شعار (التحرر) .. وللتحرر لديهم مفهوم خاص .. انه ليس تحرراً (فكرياً) لكنه تحرر من (الفكر) ... وهكذا ...

يتم تبادل الزوجات ... يتم استعراض المبتدئات وتسعيرهن في ميزان التداول .. يتم صرف نقود قد استدانها صاحبها ليشتري من سوق « الكاف دي روا » شهادة اجتماعية بأنه من وجوه الطبقة الراقية ، ظاناً بأن تلك الشهادة تمنحه قيمة حضارية في سلم الرقي الانساني ...

حكايا تروى في ذلك المكان ...

ثري متقاعد تم تأميم ثروته في بلد مجاور ، ولم يبق له إلا جمال الزوجة التي لم تؤمم هناك ، فجاء بها (يؤممها) على طريقته هنا ، وبأسلوب يرعى مصالحه العملية ..

سيدات مجتمع يداومن على « الكاف » كي يقال انهن هناك ، وكي تكتب الصحف في أعمدتها الاجتماعية المهلهلة اخبار التسريحة الجديدة والفستان الموجز كبرقية .. (قلوبهن رقيقة وكلهن يرثين للاجئين !) ..

أثرياء عرب من اقطار بعيدة ، يؤتى بهم إلى الكاف حيث تعقد صفقات العمل حيناً ، والرقيق الابيض تحت ستار الزواج احياناً .. (الدعارة المشروعة) ..
وماذا ايضاً ؟ ...

حزين هذا المكان ، حزين . يعكس تيه طبقة اضاعت قيمها ولم تجد بديلاً لها ... حزين هذا المكان يعكس استيراد مفهوم (المادية) واهمية (الثروة) بلا اي اعتبار للجانب الآخر في هذه النظرة : العمل مع الكرامة ..

هنا يصفق الناس لاية امرأة عارية ما دامت تلف جسدها بقطعة نقدية كبيرة ...

الخطايا تغتفر اذا كان ثمنها (بناية) ... المرأة التي تعود من حكاية صادقة بجرح صادق ترجم ، والتي تعود من صفقة لاانسانية بخاتم ماسّي (سوليتير) تنال انحناءة تتناسب مع عدد (قراريط) ماسة الخاتم .. ولقب (ماهرة بتدبير حالها) ..

وفي اضواء (البيست) الشاحبة ، يمارس معاصرو الحرب العالمية الأولى مراهقتهم الاجتماعية ، ويعلنون انضمامهم لفئة الهيبيز دليلاً على تمتعهم بالشباب الدائم ، فيرقصون الجيرك (احب منظرهم إذ يذكرني بمشهد محبب انقرض .. مشهد الدببة التي كان يتم ترقيصها في الأزقة أيام العيد) ... ويجري العرق أنهاراً .. واغمض عيني خوفاً من ان يسقط احدهم فجأة ميتاً ...

لا يحدث شيء سوى انني أمعن غربة ... يعادوني الاحساس نفسه الذي شعرت به ذات مرة في متحف الشمع في لندن ... أتصرف بالاسلوب المتعثر ذاته ، أسلوب ابن حضارة قروية نزل إلى المدينة ...

(يومها ذهبت إلى متحف الشمع في لندن وكانت أول مرة أزور فيها مكاناً كهذا ...

على سلم المتحف شاهدت رجل بوليس طويل القامة كجميع رجال البوليس الانكليز . واقتربت منه ، وسألته بتهذيب القادم من القرية ، المرتبك ، عن الساعة . فلم يجب، وانفجر الناس ضاحكين حولي،وتنبهت إلى ان رجل البوليس هذا لا يمكن ان يجيب لأنه تمثال من الشمع ... وسرت يأكلني الخجل ..

وعند المنعطف الثاني للدرج ، شاهدت رجل بوليس آخر وقررت انه طبعاً من الشمع ، وصممت على ان أعاجله بركلة على ركبته كي أثبت لمن حولي بأنني تعلمت

بسرعة وصار بوسعي أن أميز رجال البوليس « الشمعيين » من « اللحميين » ..
وبالفعل ، اقتربت من رجل البوليس الشمعي وعاجلته بركلة على ركبته « رغم ان لمس التماثيل ممنوع » وفوجئت أيضاً بضحك الناس حولي ، وبيد الشرطي تمتد لتقبض علي من عنقي ... شرطي من لحم ودم) !

تذكرت هذا في متحف الوجوه الشمعية ، متحف « الكاف دي روا » ، وأنا أصافح الناس بطريقة اوتوماتيكية دون ان أنظر في وجوههم أو أحاول سماع اسمائهم (إذ كنت اعرف ان أحداً منهم لا يهمه سماع اسم الآخر) ، وفي غمرة مصافحتي لفريق قادم جديد ، لاحظت ان اصدقائي كانوا يضحكون بشدة ، بينما كنت أصافح بحرارة ، شخصاً ، تبينت فيما بعد ، انه الجرسون الأنيق !

٢ / ٤ / ١٩٧٥

في الفجر : الرغيف ينبض كالقلب

انها الخامسة إلا الربع صباحاً . وانا أغادر بيتي إلى شاطىء البحر . ما زالت الظلمة تمد جسدها فوق جسد بيروت ، والتثاؤب يقطر من مصابيح الشارع .

« لاحظي أن في بيروت طيوراً » ، قلتها لنفسي بصوت مرتفع وكان كورس الطيور قد بدأ ينشد بصوت عال . وكنت أظن طيور المدن خرساء تفقد القدرة على النطق لكثرة ما تشهد من أهوال .. ولكن ها هي تغني حين يصمت هدير المدينة النهاري ، الذي يشبه هدير معمل جهنمي فيه مزيج شرس من النوّاح المعدني : سيـــارات . ماكينات . بنـــاء . هدم . راديو . شجـــار . غزل . شكوى متسول . صرير فرامل . ثرثرة . قتل بالكلمات . مصعد . زعيق اطفال في باحة المدرسة . أبواق موكب عرس . آلات كاتبة . أشرطة تسجيل . اجتماعات . صراخ عامل يسقط . اجراس باعة . ضربات احذية زبائن . وغيرها من الاصوات التي تصنعها المدينة في النهار بشكل همهمة مستديمة غامضة الهدير ، كطنين سرب من الجراد الاسطوري .

ولكن كل شيء صامت الآن ، والطيور تستولي على مسرح المدينة وتغني للشمس كي تشرق (لماذا يتوهمون أن الديك هو الذي يصيح مؤذناً بطلوع الفجر ؟ الطيور أيضاً تفعل ذلك ، بل ان كل ما في الطبيعة يخفق بنغمه الخاص ، الصامت غالباً ، راعشاً لمقدم الفجر) . لكن الديك وحده مشهور بذلك لانه « ديك » وسيد القن ، ويجسد الميل الفطري لدى أكثر الاقوام لتمجيد الفرد . (سواء صاح الديك ، او غنت الطيور ، او صمتت ، فالشمس سوف تشرق . وقد يتوهم بعض الديكة انهم سبب شروق الشمس ... لكن ذلك ينطبق أيضاً على البشر !)

قشرة الفجر

رائحة زهر الليمون تفوح دافئة وتفرش مخمل عبيرها لأقدام الربيع القادم من

المنعطف القريب . ثمة جرس منبه بعيد ، وهنالك يد متعثرة لا ريب في انها تمتد الآن لإسكاته وربما للعودة إلى النوم . واتابع سيري . استطيع ان امشي في وسط الشارع فالسيارات اقل عدداً من القطط . بيتي قريب من البحر ، سبع دقائق من المشي وها انا على الكورنيش (اي الشارع الممتد على طول شاطىء البحر في بيروت) . وها هو نصف السماء إلى يميني يتوهج بضوء فضي يمتد تدريجياً لينتشر في الفضاء كله . البحر مضيء اكثر من السماء ، كأنه بركة هائلة من الزئبق ، والصخور فسفورية البريق ، وطيور بحرية مهاجرة تطارد حلمها . ها هي الوجوه المألوفة تتمشى على الكورنيش . منذ اكتشفت الفجر وانا التقيها كل صباح . لكل توقيته وعاداته الصغيرة . ها هو العجوز حامل « الترانزيستور » ، المصر على إفساد سكينة الفجر بأي زعيق يأتي به هذا الجهاز اللعين . ها هو سائق التاكسي نائم في سيارته (أم مغمى عليه إرهاقاً ؟) . ها هم الرياضيون الشبان يركضون بطريقة سيئة ومضحكة، وها هو مدربهم العجوز يركض بمهارة ومهابة . وها هي الفئران — آه ما اكثر الفئران على الرصيف المقابل للسفارة الاميركية ! — فئران كبيرة وسمينة ، وها هو فأر يعود إلى جحره تحت شجرة ، وامام مدخل الجحر بقايا صحيفة . قلت لنفسي : انها جريدته الصباحية تنتظره امام الباب كبقية سكان هذه المدينة ! اتابع المسير . على الرصيف المقابل احد مباني الجامعة الاميركية ، وخلف احدى النوافذ أطل هيكل عظمي كامل (لا بد أن الغرفة قاعة مختبر او تشريح) . كل يوم ارى الهيكل العظمي البشري في وقفته نفسها يحدق من النافذة إلى البحر . قلت له كعادتي : صباح الخير وكعادته لم يجب . تابعت المشي ... في أيام المطر يقل عدد الذين يمارسون المشي من الرياضيين او المرضى او البدانى ... ولكن اليوم صحو ولم يتخلف أحد من ضيوف الفجر على الكورنيش . وأمشي .. وأمشي وأفتح أبواب صدري حتى آخرها وأقول للفجر : أدخل ! ..

وأتذكر كم اضطهد الفنانون « البودليريون » النهار . وكم انحازوا إلى صف الليل ، وكم تغنى الشعراء والكتاب والمطربون بالليل (يغنون يا ليلي يا عيني ، ولا أحد يغني يا نهاري يا عيني او يا فجري) ! وتذكرت كيف يعتقد بعض الكتاب ان في النوم مبكراً ما ينتقص من عبقريتهم ويفسد سمعتهم الادبية ! .. وتذكرت الشاعر التونسي أبا القاسم الشابي الذي عشق الفجر والنهار ولا تخلو قصيدة له من ذكرهما ، وبدأت أدمدم أبياته الرقيقة « عذبة أنت كالطفولة ، كالاحلام ، كاللحن ، كالصباح

الجديد » ، وكان الصباح قد أتم ولادته والبحر صار ذهبياً شفافاً والشمس نصبت خيمتها وراء الجبل والساعة تقارب السادسة ، ومركب أبيض الشراع يرحل الى حيث لا أدري وكان يكفي أن أغمض عيني لأصير من ركابه !

ولكن كيف أغمض عيني أنا التي احترفت التحديق ؟ وكيف أصدق أن الفجر في بيروت هو فقط قشرة الفجر التي نراها كل صباح على الكورنيش ؟ وهل أهل الفجر هم فقط عشاق الطبيعة أو الرياضة أو الخاضعون لنصائح الطبيب (أي ان لديهم على الاقل نفقات العلاج !) أو العصافير والفئران وطيور الماء والاسراب المهاجرة والطائرات التي حفظتُ مواعيد إفسادها للصمت ؟ هل الفجر في بيروت هو فقط لقاء السكارى العائدين للنوم بعد سهر طويل مع الذاهبين للنزهة بعد نوم طويل ؟ !

تعالوا معي نخترق قشرة الفجر ، ونمضي إلى قاع الفجر في قاع المدينة !

الفجر الدامي

تبدأ بيروت فجرها بمجزرة كما في كل المدن الكبرى . في طريقنا الى « المسلخ » نتوهم أن المجزرة تقتصر على الخراف التي يتم ذبحها وسلخها يومياً قبل الفجر ، ويتم تعليقها على خطافاتها ونقلها إلى اللحامين مع خيوط الضوء الاولى . في المسلخ نكتشف أن الذين يحترفون ذبح الخراف هم الذبيحة الحقيقية ، وان الخراف التي يذبحونها تموت مرة واحدة ، أما هم فيتابعون موتهم اليومي المستمر في ظروف من الحياة قاسية وشرسة ولا انسانية .

في الثالثة والنصف من فجر اليوم التالي ، كنت مع الظلام المحتضر لساعات الليل الأخيرة في المسلخ القريب من مرفأ بيروت حيث يتم ذبح الخرفان ، لإطعام أهل بيروت . استقبلني مشهد ذو طعم خاص ، فعلى المدخل شاهدت صفين من جثث الخرفان تتدلى من خطافات حديدية ضخمة ، واحداً الى اليمين ، وآخر الى اليسار ، تماماً كحرس الشرف . (تذكرت حفلات الزفاف ، وقوساً من الأطفال يحملون الزهور التي يمشي تحتها العروسان . ها أنا أمر بين صفين من الجثث في فجر رمادي حزين لأُزَفَّ الى الحقيقة !) .

في ساحة المسلخ صف طويل من الجثث المتدلية من خطافاتها . كانت ديكوراً

مرعباً لحكايات محزنة سمعتها فيما بعد من افواه الرجال العاملين هناك . في البداية ، تقــدم مني موسى . د ، تاجر اللحوم المستوردة من تركيا ، وأراد أن يعرفني الى شخص كان يجلس أمام سيارة فخمة جداً . وهو — كما قال — مليونير تركي يدعى إلهان . ك ، قدم من تركيا في الليلة السابقة ليشرف على سير العمل ، مؤكداً « أنه لولا إلهان بيك . ك لكان سعر كيلو اللحم في بيروت ٢٥ ليرة ! وتركت المليونير لعدسة زميلي المصور عدنان ناجي ووجدت نفسي في حلقة الكادحين . لقد التفوا حولي بالعشرات ، فالصحافة في رأيهم تذهب عادة الى « نجوم المجتمع والسياسة » ولا احد يهمه ان يسجل صرخاتهم ... وكل منهم مصمم على أن أسجل ما يقول .

وبدأت أسجل بقدر ما سمح لي الضوء الخافت واصواتهم المرتفعة . وعلى الارض تحت الخراف المذبوحة جلسنا ، واستمعت الى حكايا ذبحهم اليومي بسكين الإهمال والعمل المرهق والأجر القليل . انهم يعملون طوال الليل الى ما بعد الفجر . الرواتب منخفضة بوجه عام . العمل شاق . الغلاء لا يرحم . ظروف العمل الليلي قاسية وتحرمهم حقهم في حياة كريمة . أكثرهم محروم حتى من النوم نهاراً ، فالأجر الضئيل الذي يتقاضونه يرغمهم على العمل نهاراً ، وفي خفية عن عين الدولة الكريمة (كأنه مفروض عليهم ان يموتوا جوعاً تنفيذاً لقوانين تم سنّها أصلاً انطلاقاً من مبدأ ان الدولة ستتكفل بموظفيها . . . ولكن !) .

محمد . ح يروي بهدوء كيف يعمل طوال الليل حتى الفجر . لا يشكو وانما يذكر لي بهدوء ان راتبه ٥٥٠ ليرة فقط .

« زوجاتنا لا يريننا ! » قال التاجر موسى . د . حتى التجار يشكون هذه المهنة القاسية ، فماذا يقول موظفو المسلخ وعماله الكادحون ؟ ! « نعيش حياة قاسية » ، يقول محمد . ض . « إنهم يسلخوننا » ، قال غازي . ب الملقب « بالعرق » ، وربما قالها شخص آخر فخطي مشوش في هذا المقطع !

« من أين يأكل الفقير ، والقصاب يتسلم كيلو اللحم بـ ٦ ليرات ويبيعه مجروماً بـ ١٢ ليرة ؟! . نتمنى على وزارة الاقتصاد وضع تسعيرة عادلة » ، شكا محمد ض . أ .

« وزارة الاقتصاد يجب أن تواجه أزماتنا الغذائية كلها وان تتدخل في كل

شيء ، كأسعار الالبسة واللحوم ، والسكر » ، قال خالد أ .

كلمات كثيرة قيلت ... كنت أرغب في سؤالهم عن « شعورهم » عند ذبح الخروف فتجمد السؤال على شفتي وأنا أرى حولي قبيلة من المذبوحين المعلقين في خطافات قسوة المجتمع ... كان مناخهم قاسياً ، شرساً ، متألماً . وسؤال مثل : « تسهرون وتعملون طوال الليل ، فماذا عن حياتكم الاجتماعية ؟ » جوابه ببساطة ضحك طويل ساخر وسؤال حاد كسكين الذبح « ما هي الحياة الاجتماعية يا سيدتي ! ؟ »

في طريق العودة من المسلخ مررنا ببناء مشابه . تساءلت : هل هو مسلخ آخر ؟ .. اللافتة على بابه تقول : مستشفى بيروت الحكومي .

ما رأيكم ؟ ! .

باختصار : تبدأ بيروت يومها بمجزرة في « المسلخ » وتستمر المجزرة بقية النهار في الاحياء كلها بطريقة او بأخرى !

الاهرامات العصرية

ما زالت الظلمة تسود . وعند تقاطع اوتوستراد فؤاد شهاب بالقنطاري يشاد بناء مرتفع جداً هو برج المر . الاضواء تلتمع فيه كما في الاستديوهات التلفزيونية ، فالعمل يدور ليلاً نهاراً ، وناطحات السحاب العصرية هي نفسها اهرامات العصور العتيقة . لقد تبدل الديكور وبقي الانسان مستعبداً ، تارة باسم فرعون وتارة باسم المدنية الحديثة ! .. وعلى خلفية الليل السوداء كانت المصابيح تضيء بلا رحمة ، وكانت (سيلويت) الرجال تتحرك ... أيديهم تدفع بالعجلات على جسور ضيقة خطرة حاملة الاحجار والاسمنت ، يكدحون طوال الليل لشراء رغيف عند الفجر . أم تراهم سيشترون ذات فجر مسدساً بدلاً من رغيف ؟ !

الفجر مرسوم عفو

في حي القنطاري توقفت قليلاً مع الحارس توفيق . ع . يعمل كبقية الحراس من الساعة ١١ حتى ٥ فجراً . سألته هل يخاف وحده في الليل ، فأدهشه سؤالي ، وأدهشتني دهشتــه ! أليس الخوف شيئاً إنسانياً وطبيعياً ، فلماذا تعارف المجتمع

على ان من واجب الرجل عدم الخوف أو البكاء أو الحنان ؟ ! . الحارس توفيق . ع. لا يشكو . يبدو قانعاً وراضياً. لم يحدثني عن متاعب الليل وانما أصر على الحديث عن جمال طلوع الفجر . « حتى لو كنت متعباً ، فحين ينبلج الفجر فانه ينشق عن شيء ما يغسل روحي ، فأشعر بالراحة والبهجة » .

وكيف لا يشعر بذلك والفجر مرسوم « عفو عام » تصدره الشمس لكادحي الليل ؟ ..

قاع المدينة

نمر بشارع الحمراء الشهير في بيروت . فارغ تماماً إلا من جرسون جلس على احدى الكراسي . الذين يظنون ان بيروت هي شارع الحمراء سيسرهم أن المدينة بخير . تنام بسلام ... ولكن تعالوا معي الى منطقة البرج وسوق الخضار والفرنج ، الى قاع المدينة. فبيروت ككل مدينة عربية اخرى لها قاعها حيث الفقر والبؤس ودموع الكادحين المسحوقين وقبضاتهم الغاضبة الملوحة في وجه تاريخنا ! .

منطقة البرج مليئة بالحركة والحياة والزحام . وقبل الفجر تصب خضار الضواحي في بيروت ويبدأ عمل طبقة بائسة جداً من الكادحين هم الحمالون . والحمال في بيروت يتراوح عمره بين ٧ سنوات و ٧٠ سنة . وهم يحملون على ظهورهم أثقالاً تذكرك بعهد السخرة . أنفاسهم لاهثة ومتقطعة ، وعروقهم منتفخة، وتخجل من مخاطبتهم لانك تعرف ان أنفاسهم لا تكفيهم للحمل والكلام ! (العرب من الشعوب البائسة النادرة التي ما زالت حتى عصرنا تستعمل ظهورها كالدواب !) .

اذا أردت أن تعرف مدى بشاعة بيروت وقسوتها وطبقيتها الاجتماعية وفضيحة الانسان فيها فاذهب مع الفجر الى سوق الخضار وستعرف لماذا الأفق دام عند خيوط الصباح الاولى ! .. انها دماء الكادحين النازفة والشمس تطلع كل يوم ماشية على جرحهم . وفي آخر السوق يطل من الاعالي وجه زعيم سياسي في لوحة زيتية هائلة الحجم والرداءة انتقصت من عمره ربع قرن . تبتسم شفتاه ، وعيناه في الصورة زجاجيتان لا تريان مـــا يدور في السوق تحتها من بؤس . والى جـــانب صورة السياسي صورة هائلة لامرأة شبه عارية (على مدخل سينما الجندول – فيلـــم « العمالقة ») والكل راكض وراء لقمة العيش . العيون على الارض محنية تحت الاثقال . وفكرت : (هذا هو الشعب الذي يتحدث الجميع باسمه ويساومون

باسمه . ماذا يعرفون عنه ؟ أكثر أولئك الزعماء الذين لا تخلو خطبهم من الكلام عن الشعب الكادح ، هل بينهم من استيقظ مرة مبكراً وجاء ليرى الشيء الذي يتحدث عنه ولو على سبيل الفضول ؟) .

غادرت سوق الخضار وأنا أحس الفواكه والخس وكل شيء مسموماً . وعلى مدخل السوق دكان لبائع الدمى ينفض الغبار عن وجوهها ، وخيل الي ان الدموع تقطر من عيونها جميعاً ! ..

ووسط هذا « الكرنفال » من البؤس اليومي، وايقاع الركض الموجع في ساحة البرج وما حولها ، بدت لي ساعة الزهور التي قلدوا بها ساعة الزهور بجنيف امتداداً لاسطورة لبنان سويسرا الشرق — بدت شيئاً مضحكاً وفي غير مكانه .

وفي البرج دار سينما ، واعلان كبير كتب عليه : « قاع المدينة » ! وشعرت بأن الفيلم الحقيقي يدور خارج دار السينما لا داخلها . هذا قاع المدينة ... خلف هذه الجدران المهترئة يقع شارع المتنبي ، وفيه نساء مهترئات بائسات لعلهن فرغن للتو من عملهن المقزز في بالوعة المدينة ! يغمرني ضيق لا حدود له لولا رائحة البن التي تفوح منعشة وأليفة ، وأحد سماسرة مكاتب السفر يلاحقني وهو يقول : « ع الشام ... شام ... شام » . وأتذكر دمشق ، وأرحل الى طفولتي هناك هاربة من عذاب اللحظة . (دوماً افكر في دمشق كما يفكر محتضر في رحم امه . اسمها دوماً تعويذتي في الذاكرة . اسمها درعي في لحظات الدبابيس) .

اللافتات وعقدة الأجنبي

أتابع السير نحو باب ادريس . الشارع خاو نسبياً الا من بعض الحمالين . أستطيع الآن ان اقرأ أسماء الدكاكين ولافتاتها ، من دون خشية الاصطدام بالمارة الكثر طوال بقية النهار . تذهلني عقدة النقص أمام الاجنبي المجسدة في أسماء الدكاكين ! انهم يطلقون على المحل اسماً اجنبياً ويكتبون الاسم بحروف عربية ! هذا دكان اسمه « ذي ليتل كورنر » ومعناها بالعربية « الزاوية الصغيرة » . لم يحدث في لندن أبداً ان مررت بدكان اسمه الانكليزي مكتوب باللغة العربية كما تفعل نحن حين نكتب حتى الاسم العربي بالانكليزية على الشكل التالي مثلاً : AlHana أي « بوتيك » « الهناء » ! هذا مثال طبعاً . لقد أحصيت اكثر من عشرة دكاكين اسماؤها كلها فرنسية ومكتوبة دونما خجل باللغة العربية ! ..

من يقول لاولئك التجار ان فرنسا دولة صديقة ولكنها ليست « أمنا الحنون » ، وان اللغة العربية لا تفتقر الى الاسماء ؟ لقد عرف العالم كله امكاناتنا وقيمتنا ، وبقي ان نسمع نحن بذلك !

بائعات الأزهار

كل صباح تستيقظ أمينة . ح (٣٢ سنة) في الرابعة صباحاً ، وتأتي بالسرفيس من طرابلس الى بيروت حاملة زهورها البرية الجميلة ، لتبيعها على رصيف باب ادريس مع مطلع الفجر ، وترافقها بنات عمها وشقيقاتها ... زهور بريـــة جميلة ملونة تعطي الفجر في بيروت طعماً أقل شراسة ... ولكن لا تصدقوا الازهار ، فخلفها نساء يكدحن . ينهضن قبل الفجر بزمن طويل . يتثاءبن في التاكسي . يساومن . يتعبن .

ومع ذلك فالابتسامة لا تغادر وجوههن وهن يبعن للأثرياء الأزهار البريـــة الوحشية ، أزهار البروليتاريا !

والى جانب رصيفهن دكان للازهار غير البرية ، دكان للازهار المترفة الغالية كالتوليب والزنبق والقرنفل ... نتحدث الى أحد أصحابه الحاج راشد . ش. الحاج يقلّم أزهاره ويبدل ماءها ويعتني بها . ويخبرني ان حياة بائع الأزهار ليست أزهاراً كلها ، ولكن جمال مهنته يخفف الهموم أياً كانت . وقال ان الاجنبيات كن من زمان يشترين الزهور أكثر من العربيات ، بما عرف عنهن من ذوق ورهافة ، أما اليوم فأكثر زبوناته من العربيات ، وأسطورة تفوق الانثى الاجنبية على العربية بدأت تنكشف وتولي أيامها لا في ميدان تزيين البيت فحسب بل على كل صعيد .

سوق الفرنج

زاروب ضيق نظيف ، ومثال جميل للاسواق الشعبية العريقة . كل ما في الامر أن أسعاره مرتفعة وزبائنه من الاجانب . سوق الفرنج ليس راضياً هذه الأيام عن « الفرنج » ، فقد ذهب زبائنه الى « السوبر ماركت » اللعين وتخلوا عنه لبنت البلد التي تعرف كيف « تفاصل » وترغمه على خفض أسعاره ! ومع ذلك فهم يعدون السوق منذ الفجر ليزف الى الزبائن .

الرغيف ينبض كالقلب

داخل دكان الفران الحار أقف . الشاب الذي يدفع بالعجين إلى الفرن يتصبب عرقاً . في الضوء الشحيح القادم من كوة قرب السقف أرى ملامح وجهه بوضوح : طيبة. قوة . صفرة خافتة لسوء التغذية،الشعر في مقدمة جبينه،وحاجبيه،واهدابه شبه محروق بوهج النار ، والنظرة في العين كالفولاذ المسقي بعد ان انصهر طويلاً في النار . عضلات الذراعين رغم الارهاق تنبضان كيدَيْ رجل يتحفز للإمساك ببندقية ، وداخل الفرن كان الرغيف ينمو كما الثورات ، بصمت وسرعة ، وكان الرغيف وهو ينمو في الوهج الأحمر ، يبدو كما لو كان ينبض كالقلب .... هذه الأرغفة كلها تبدو داخل وهج النار وعبر حمرته الثائرة وهي تنبض كالقلب . لم أفاجأ حين اخبرني العامل انه طالب ليلي ، وحين حدثني عن كفاح اسرته (١٢ شخصاً) من أجل الرغيف وقطعة شمس وقطعــة علْم ، احسست غضبه ايضاً ينبض كالقلب .. وكالرغيف ...

المئذنة والمنارة

صوت المؤذن جميل عند الفجر . ذهبت لأتحدث اليه فوجدته شريط تسجيل . فلعنت ماركوني !

أما في المنارة ، فقد كانت تكات المصابيح الآلية وملايين انعكاساتها في المرايا تدحض كل الشائعات عن شاعرية المنارات ... وخرجت هاربة من مصنع النور الاصطناعي الذي طالما ألهم الشعراء . وتكفي زيارة منارة عند الفجر لتعريها من سحرها الخرافي كما يتعرى من السحر وجه راقصة ساحت أصباغها عند الفجر ! .

القرد ما زال عاشقاً !

السيدة انيسي تنام لحظة غروب الشمس ومع خيوط الفجر الاول تستيقظ وتضرب جوانب صندوقها فيخرجها منه صاحبها سليم ع. أحد أصحاب كشك بيع العصير على الكورنيش . وتجلس على طرف الافريز تحدق في البحر اللامتناهي والفجر الهاجم على المدينة . تطالع مجلتها وتشرب « السفن أب » بدلا من قهوة الصباح لان القهوة تسبب لها الارهاق العصبي !

والقردة انيسي في حاجة إلى هدوء الاعصاب كي تحتمل مضايقات ضيوف

الفجر القادمين لشرب العصير بعد سهرة طويلة . « أنام نهاراً وأصحو ليلاً ، فزبائن شرب العصير كثر في الليل . الخمرة تحرق جوفهم فيأتون لتطفئتها عندي في سكون « النجوم » السماوية بعيداً عن صخب « نجوم » الزيتونة والحمراء » ، يقول سليم ع .

علي ي . يستيقظ مع الفجر ليعزف على ناي للاسماك ، واحياناً يرافق القردة انيسي إلى « كاباريه فريد الاطرش » . ومرة أعطاها فريد الاطرش ورقة من ذات الخمسين ليرة فمزقتها باحتقار . القردة تحسن التصرف ... (أم المساومة ؟!) .

بعد هذا الفاصل من الفجر الضاحك نعاود جولتنا في فجر بيروت الدامي مع ناس الفجر المتعبين ...

عن الكاباريهات والصراصير

« الكاباريهات » تغلق أبوابها ، الكل خارج منها متعب وبائس ، ويعد نفسه لنوم ثمل سيصحو منه بقليل أو كثير من الالم في رأسه ... الفجر بالنسبة إلى أهل « الكاباريهات » هو لحظة ذهاب حالة « السكر » ، (راحت السكرة وجاءت الفكرة !) وهكذا فالذي يسهر طوال الليل عاجز عن رؤية الفجر أو التقاط كهاربه . الفجر عنده هو لحظة احصاء الخسائر ! .

يغادر الجميع « الكباريهات » إلى السرير ، بعضهم إلى سرير مخفر الشرطة أو سرير المستشفيات بعد عراك أو شجار ، والاكثرية إلى النوم في سرير البيت . وتخرج الصراصير بعد أن روعها زعيق الليل والانوار الكاشفة على أجساد الراقصات ، فتنعم بهدوء « الكاباريه » النسبي وتقتات بالبقايا — ربما ببقايا الشهقات والغصات والدموع السرية في الأركان ! .

من زمان كان السهر مرتبطاً بضوء القمر . كان نقياً وشفافاً وله علاقة بدورة الطبيعة وغير مفتعل ، ولذا كان ارهاقه للجسد البشري محدوداً .

ويوم أضاء أديسون أول مصباح في تاريخ البشرية لم يكن يدري انه لم يخترع المصباح فحسب بل اخترع السهر في معناه العصري ، وان مصباحه لن يضيء المستشفيات والشوارع والمخابز والمعامل فحسب بل « الكباريهات » أيضاً ، وسيكون العمود الفقري لنمط غير جميل من الحياة الاجتماعية اسمه السهر ! وليلة اضيء أول شارع في العالم بالمصابيح (« فورثي تو أفينيو » في نيويورك ، على ما أظن)

سهر الناس فيه حتى طلوع الفجر ، ومن يومها تزعزع عرش «النوم السلطان» ! .

حزين مشهد النساء المستنفَدات عند الفجر ! حزينة وجوه الرجال الخارجين من المواخير المترفة . لقد اشتروا النساء والخمرة والضحك والضجيج ، ولكنهم يحسون بخيبة داخلية وصداع مرير ! أين هي الصيدلية التي تصرف « وصفات » السلام النفسي ؟ (أدلكم عليها : اسمها المحبة ، ونقودكم فيها أوراق ملونة بلا قيمة !) .

الأولاد يكدحون

علي ح . (١٤ سنة) يستيقظ فجر كل يوم في الثانية والنصف . انه تلميذ في السنة المتوسطة الثالثة ، لكنه لا يذهب إلى مدرسته في هذا الوقت بل يبيع الصحف على رصيفه في محطة الداعوق . يدرس في مدرسة نهارية (مدرسة صلاح الدين) ويساعد والده عند الفجر ريثما يأتي الاب الذي يحترف مهنة بيع الصحف ويستلم العمل منه .

قاسية هي الحياة حين يضطر صبي إلى النهوض كل يوم في الثانية والنصف صباحاً ؟ ربما . هذا قدر علي ح. وحوله أسرة من تسعة أخوة وفي صدره طموح ليكون طبيباً. وجهه الذكي الهادىء يؤكد شيئاً واحداً : هذا الرجل الصغير سينجح . كادح الفجر سينتصر على الظلام .

أكثر باعة الصحف الصغار في مثل سنه وظروفه . انهم من بعض ناس الفجر الكادحين . وبيروت ، كما يبدو تنقسم طبقياً إلى ناس الليل وناس الفجر ، والفجر دوماً يأكل الليل ! وناس الفجر هم الذين يعدون الحياة لناس النهار ويخدمون طبقة الساعة العاشرة (الذين يستيقظون في العاشرة صباحاً) ! .

المقبرة عند الفجر

ماذا عن الفجر في المقابر حيث مدينة الموت ؟

ونذهب إلى مقبرة « الباشورة » . ألا يأتي الناس لزيارة أمواتهم في الفجر ؟ لم أجد أحداً. ناديت ولم يجب أي زائر أو حارس أو حتى ميت لأحاوره . آه لو أقدر على الحوار مع شخص يخرج اليَّ من قبره ، وما أكثر الاسئلة التي نتمنى ان نسمع جوابها منه ! .

المقبرة هادئة ساكنة لا ساهر فيها ولا كادح . وعلى الرصيف المقابل مركز

الاسعاف وسيارات الاسعاف تحدق بي مذهولة . لقد اعتادت ان يأتي الناس إلى المقبرة محمولين في داخلها ، فماذا جاءت تفعل هذه الدخيلة – حتى إشعار آخر !؟ –

محمد علي كلاي يركض

منذ ركض محمد علي كلاي على الكورنيش مع مدربه يوم زار بيروت ، تدفق الاميركيون لممارسة رياضتهم هناك . منظر عجائزهم طريف وهم يمارسون الركض ومنظر حراسهم غير طريف وهم يمارسون الركض ويغنون أناشيد أميركية عدوانية . فكل فجر يخرج حراس السفارة الاميركية من الجنــود الاميركان ، للركض وهم ينشدون أغاني حماسية كان بينها نشيد البحرية وفيه يتحدثون عن « أمجادهم » يوم غزت بارجتهم الحربية شواطىء طرابلس في ليبيا ! .

وقد شعرت بالغيظ وأنا أسمعهم يتعرضون لبلد عربي شقيق .. ترى ماذا يفعل أهل نيويورك لو خرج فريق من الجنود العرب يغنون في وول ستريت مثلاً أغنية : « موطني موطني » ؟!

أما نحن فنتركهم يتحدوننا بأغانيهم وحضورهم العدواني مع كل فجر ! .

شارع الحمراء

نبدل الطريق . الساعة الآن السادسة والنصف وما زال شارع الحمراء يشخر إلاّ من بعض الكادحين اللاهثين : ها هو حمال وقد أثقل كاهليه حمل ثقيل من أعداد احدى الصحف ، نتوقف ونصوره. ونتخيل ان أمام مدخل كل مجلة أو جريدة في بيروت مشهداً مماثلاً . ليت الصحف تكون أول من يعلن الحرب على تسخير الانسان لحمل الاثقال على الطريقة البدائية ، وذلك بشراء عربات يد صغيرة لهم ! نتابع الجولة . أمام احد المقاهي اربعة الواح من الثلج مرمية على الرصيف الوسخ . بعد ساعات ستكون قطعاً مكسرة داخل كأس زبون ما . تفه ! .

ما أكثر القمامة في شارع الحمراء عند الفجر (أيضاً) ! انها هناك ضيف الفجر !

عازف البزق

عالم الكادحين لا يخلو من الحنان والشفافية رغم عذابهم كله ...

ذات فجر (في الرابعة والنصف صباحاً) شاهدت رجلا يحمل البزق ويعزف وحيداً على الرصيف المقابل لفندق «فينيسيا» . اسمه جميل م.ع . ويعزف منذ ٣٠ سنة

لأهل الليل ، وحين ينتهي يعزف للبحر ، حتّى يمر به سائق « تاكسي » مولع بالموسيقى فيوصله إلى بيته مجاناً مقابل العزف له طوال الطريق ! .

السائق اسعاد . ش الذي يحب البزق يتـــولى توصيله غالباً ومجاناً مقابل لحظات من النشوة . وكثيراً ما يذهب العازف ببزقه إلى موقف « التاكسيات » قرب فندق « الاكسلسيور » ويعزف للسائقين . إنها مشاعر الرقة تنبت أحياناً بين المتعبين كما تنمو بعض الازهار في قلب الصخر .

الفجر في بيروت

الليل في بيروت كاذب . لا يروي حكاية المدينة . الفجر أكثر صدقاً . وفجر بيروت يبدأ بمذبحة في المسلخ وينتهي بمذبحة في المدينة كلها تمارسها الأقلية الثرية على الاكثرية البائسة ... هل عرفتم الآن لماذا لون الفجر دامٍ عند الافق ؟ انه لون الدم . الدم . الدم .

٥ / ٤ / ١٩٦٨

البقاع : قرية كبيرة اسمها الاقطاع !

« هذا الشتاء الطويل متى ينتهي ؟ » فقد كنت أبحر بسيارتي داخل كهف من الثلج والضباب يقطن باستمرار قمة جبل لبنان – ضهر البيدر – . « هذا الشتاء الطويل ، متى ينتهي ؟ » . كنت اعرف انه سينتهي بعد عشر دقائق على أبعد تقدير ! .. حينما أصل إلى سهل البقاع ذلك الوادي الشاسع المحاط بجبال لبنان الشاهقة .. (والتقيت الشمس المشرقة والدفء في سهل البقاع . ولكن الساعات التي قضيتها هناك كشفت لي ان شتاء من نوع آخر ما يزال يخيم على البقاع) ... « وشتاء البقاع الطويل ، متى ينتهي ؟ » ..

في قاع الوادي الرحب وقفت . كان علي ان أذكر نفسي باستمرار بانني هنا في أرض عربية بالضبط في سهل البقاع ، ولست في الريف الفرنسي ، ولا داخل شاشة فيلم اميريكي انتخبت كاميراه اجمل مشاهد كاليفورنيا وأغناها خصباً ...

تجاوزت نظراتي المدى الرحب ، وتسلقت الجبال المكسوة بالثلوج المحيطة بالوادي ، تلك الخزانات الطبيعية للمياه ، أو كما كانوا يسمونها « قصر المياه » ... وفهمت كيف كان هذا السهل يمد الامبراطورية الرومانية بأكملها بالقمح والخصب والثراء .. البقاع « اهراء روما » البارحة ... تراها « اهراء البلاد العربية اليوم » ؟ .

صوته ساخر « اننا نستورد القمح اليوم ! » .

صوته ساخر وحزين ابن البقاع الذي رددها ببراءة « لا قمح في البقاع اليوم ! »

وكانت تلك العبارة كافية لردي من الريف الفرنسي ، لسقوطي على وجهي من داخل شاشة مشاهد كاليفورنيا التي كنت اتحرك داخلها ! .. تأكدت من انني في أرض عربية تشارك في مأساة التخلف المشتركة ، وتصادف ان اسمها هذه المرة البقاع ...

ولكن ، كيف ؟ ... ولماذا تحول السهل الغني المنتج، الممول ، لامبراطورية ، إلى مستهلك مستورد ؟ هل اضمحلت زراعته ، أم تراه ازداد رقياً وتحول إلى منطقة صناعية ؟ ...

وابتدأت أدس بوجهي أكثر داخل الاشياء ، داخل التراب ، داخل الوجوه ، داخل النفوس لارى البقاع الحقيقي اليوم ! ...

الاقطاع ، وقصور العصور الوسطى

مجدل عنجر . بر الياس . كفر زبد . المرج . الاسطبل . القرعون . جب جنين ... غيرها .. وغيرها ... تتوالى الاسماء .. ما الفرق ؟ ... كلها اسماء متعددة لقرية واحدة كبيرة بائسة نستطيع ان نسميها : قرية الاقطاع ...

كنت اسير عشرات الكيلومترات قبـــل ان يقول لي مرافقي : هنا انتهت املاك فلان .. وتبدأ اراضي فلان ... عشرات اخرى من الكيلومترات ، مئات من البشر والدواب والقرى الحزينة .. ثم تبدأ أملاك شخص آخر ، (هو في تلك اللحظة حتماً في بيروت يجدد استئجاره لمقعده النيابي أو في اوروبا يستجم !) ...

الملكيات الفردية الشاسعة هي الغالبة في هذه المنطقة ... ذُكرت لي اسماء عديدة... اراضي آل اده .. اراضي آل بسترس .. اراضي آل السكاف ... اراضي .. اراضي... الاسماء لا تهم ... كلها ايضاً اسماء متعددة لاسم شخص واحد يمتلك قرية الاقطاع وكل من عليها .

وسط البيوت الطينية والحجرية المتداعية ، وسط قوافل التعب والفلاحين المنهكين والوجوه الذابلة ، عبر مشاهد الفقر والبؤس الانساني ، كانت تلوح من وقت إلى آخر بيوت فخمة تشبه قصور العصور الوسطى الارستقراطية بابراجها العالية المستديرة والنائية (تُراها عالية هكذا كي لا يرى أهلها النقمة واللعنة تنزف من العيون المتعبة ، من شقوق الايدي المعروقة ؟) ..

جرّة عتيقة تتسول قطرات صنبور ماء بخيلة . كان ذلك اول مشهد طالعني في « دير طحنيش » ، احدى القرى المنكوبة بزلزال الاقطاع (الذي لم يكف عن تدمير جذور حياة الفرد العربي طيلة عصور في أكثر اقطارنا) — الاقطاع السياسي — الاقطاع الفكري — الاقطاع الديني — الاقطاع الاقطاعي ...

كان ذلك آخر مشهد اتوقع ان أراه في هذا السهل الذي تنزف احجاره ماء ، والذي تحيط به الينابيع من كل جانب ، والذي تتفجر من أرضه الآبار الارتوازية ...

ماذا جرى لمياه البقاع ؟ ... « لا شيء . الاهمال . المياه تجري في واد ونحن في واد . سوء في الاستغلال . المياه ما تزال هنا ، والخصب في التربة ، ولكن ... ؟ » هكذا قال ابن البقاع مفسراً ...

ولا ادري لماذا تذكرت رأس برنارد شو ... فقد كان شعر ذقنه كثيفاً إلى أبعد حد ، بينما لم تكن في رأسه شعرة واحدة ... وقد لخص ذلك بقوله : « شعري يعاني من غزارة في الانتاج وسوء في التوزيع » ...

في الحقيقة ، لا اجد افضل من هذه العبارة لألخص مأساة المياه في البقاع : « غزارة في الانتاج ، وسوء في التوزيع » .. وإلى حد المرور من وقت إلى آخر بقوافل حاملات الجرار والامراض والبؤس المتنقل .

الاسطبل : اتحدث عنها كنموذج لعشرات من القرى سواها ... ساعة واحدة قضيتها في القرية اكدت لي انها تحمل اسمها بجدارة ! ...

اذ ليس في القرية كلها مالك واحد لأرضه ! ...

الحاج فلان ... والبيك فلان ... وسيدنا فلان ... يملكون هذه الارض وتلك ...

ومن تبقى يعملون بالاجرة . يمرضون بالتقسيط . يتزوجون بالدين . يموتون في كل يوم جهلاً وتخلفاً وضياعاً ، وحينما يسقط جسد احدهم المشدود إلى المحراث يحل محله ببساطة جسد آخر بلا رأس ، وتدور عجلة الايام إلى الخلف ...

وفي الاسطبل جميع العناصر التي تجعل الاقطاع ممكناً وبالاحرى حتمياً .. ووراء كل رجل اقطاعي شعب متخلف ...

المالك الوحيد لارضه في الاسطبل والمقيم فيها هو محمد علي خ . (٧٠ سنة) . قدموه لي على انه ثري كبير ، وابن القرية الوحيد الذي استطاع ان يمتلك ارضه ويصبح غنياً ...

وقررت : هذا الرجل ظاهرة . انه يمثل احد الذين عانوا الاقطاع ، وعانوا الجوع والفقر ، وانتصروا على هذا كله ... أين هو ؟ وكيف يعيش ؟ وما مدى

علاقته بالآخرين وهو المتحرر من تاريخ اسرة اقطاعية ؟

وكانت المفاجأة حينما رأيته . بدا مثلهم جميعاً . يرتدي اسمالاً بالية . يعيش في دار محرومة من أي شرط صحي انساني ... انه أميّ لا يعرف القراءة والكتابة . أولاده الاربعة شبه أميين . حفيده الصغير كان يدب على الارض القذرة حولنا بساق كسيحة .. ربما كان مصاباً بشلل الاطفال وبحاجة ماسة إلى العلاج . قال الحاج انه سينفق بعض النقود من أجل ذلك ..

تحدثت إلى الفقير المعدم الذي استطاع ان يصبح مليونيراً . اكتشفت ان شيئاً في حياته أو في فكره لم يتغير ! ... إن شيئاً واحداً تبدل : رقم على ورقة — رصيده في البنك — ! ... فهو لا يعي مدلول ان ينتصر ولا يعي كم كان بوسعه ان يقدم للآخرين الذين ينتمي إلى عالمهم . لقد تحول إلى اقطاعي من نوع آخر ، من نوع محروم حتى من أي تقليد متوارث ! كالقراءة والكتابة مثلاً !! .. انه يعيش في عزلة فكرية ونفسية عجيبة عن فكرة الدولة وعن الآخرين . الآخرون ، اهل القرية يقول عنهم : (الخير من الله وقد نلته ، والشر من نفس العبد وهم لذلك محرومون !) .

ولم يصل اليه أي خيط من خيوط التوعية .. علاقته بالدولة تتوقف عند حد العقاب !! ... إنها لا تشعره بوجودها الا حينما تضايقه وهو بالتالي لا يشعر بالارتباط الذي يحسه عادة المواطن الواعي مع الآخرين . فقد حدث ساعة دخلت اليه ، واخرجت أوراقي وقلمي ان قال (شو جايه تعمليلنا ضبط !!) .. أي : هل انت قادمة لتحرير مخالفة ما ؟ وهو لذلك يكدس امواله ، لانه يعرف انه لو سقط فلن تمتد يد اليه ، ولن تفتح مستشفى أبوابها إلا لبريق ذهبه ، ولن يفتح مسؤول أذنيه الا لأصفره الرنان ..

اذن فمأساة البقاع (المصغرة عن بعض المآسي العربية) لا تتوقف عند حد الإطاحة بالاقطاع من حيث هو استملاك للاراضي . المهم ايضاً الاطاحة بالاقطاع من حيث هو استملاك الجهل لعقول الافراد .. وربما كانت هذه الحقيقة البسيطة تفسر إلى حد بعيد فشل بعض الانظمة التقدمية (في بعض البلدان العربية) ،في خلق العدالة الاجتماعية ... اذ ان انتصار « المظلوم » يظل محدوداً اذا كان « جاهلاً » ، وسيتحول إلى « ظالم » بدوره ؟ ...

في كل مكان أقصده ، اشعر بأن العلم هو الخطوة الثورية الاولى ، القاعدة الثورية الحقيقية .. الثورة الأقل تدميراً والاعظم مردوداً من أي ثورة ..

يقول كامو في « العادلون » على لسان احد ابطاله : القنبلة وحدها ثورية ...

واقول : الأبجدية أكثر ثورية من أي حقل الغام ...

قافلة المواشي البشرية

غادرت الاسطبل محزونة . من بعيد ، لاحت على الاسفلت سيارة شحن ظننتها تقل بعض المواشي . لما ازددت اقتراباً ، اكتشفت انها تقل سرباً من النساء العاملات في الحقول . انهن يمثلن قطاعاً كبيراً من ابناء هذا الشعب ، ولذا تكبدت عناء استيقافهن ، واقناع (متعهدهن) بالسماح لي في الحديث معهن ..

سرب من بنات البقاع ،لسن من نجمات المجتمع (لكنهن يحملن تذكرة الهوية نفسها، ولسن بالضرورة أيضاً اقل ذكاء أو أقل اصالة بل ربما كان العكس هو الصحيح !)

تحدثت إلى أصغر فتاة في السرب وإلى أكبرهن .

صغراهن تدعى حواء . عمرها ٩ سنوات . لبنانية من مواليد مجدل عنجر ، وتعمل في الحقول .. في زراعة الشمندر .. أجرتها اليومية ٣ ليرات . لم تذهب إلى المدرسة وطبعاً لن ... (التعليم ليس اجبارياً ولا مجانياً) وقد يتيح عملها العلم لاخوتها الصبيان الثلاثة ! ! ...

كبراهن تدعى نعمة علي (١٦ سنة) . اجرتها ٣ ليرات ونصف . هذا عامها الخامس في زراعة الشمندر والبصل والبطاطا ، وقد تركت المدرسة بسبب فقر أهلها واضطرت للعمل .

انهن يعملن طوال النهار في أراض لا يملكنها من أجل لقمة ليست مغمسة بالدم فحسب ، بل بالجهل ، وبالتأخر لعشرات الاعوام المقبلة ...

وحتى معمل الشمندر الذي يعملن في الحقول لتغذيته بالمواد الاولية ، والذي لاحت من بعيد مداخنه في السهل ، بدا لي في البداية املاً في نهضة صناعية قد تحل محل انقراض الزراعة الخلاقة (والأمل اليوم أولاً وآخراً بالدولة الصناعية) ثم اكتشفت ان المعمل ، هو الآخر ، فريسة لاقطاع اقتصادي احتكاري ككل شيء آخر في هذا السهل الحزين ...

وهكذا ..

وفي شروط للعمل كهذه . في اجواء كهذه . في تراكمات عصور من الجهل والاقطاع ، تحول البقاع من حاضر خلاق للحضارات ومنتج إلى شيء آخر جديد ومرعب ، وظاهرة تهدد لبنان اذ نجدها في مختلف مرافق حياته . ظاهرة اسمها : السمسرة .. الوسيط .. ظاهرة تحول لبنان الوطن ، والاستمرار العظيم لتاريخ عظيم، إلى لبنان الوسيط التاجر ...

حشيش وشعير وذرة

زراعة حشيشة الكيف رغم التدابير الصارمة التي اتخذتها الدولة ما تزال تعسّ في الحقول الحزينة كخلف للقمح ..

الحشيشة – التخدير ، بعد القمح – الحياة والوجود ... واهل البقاع لا يتعاطونها غالباً ... انهم مجرد وسطاء ... انهم يحتقرونها ولا يؤمنون بها .. لكن للجوع منطقاً آخر ... وللرغيف لغة مختزلة .

وحتى حينما منعت الدولة زراعتها ثار الناس علانية ، اذ ان الدولة لم تمنحهم أي بديل .. وحدث لهم معها ما ينطبق عليه قول الشاعر :

ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال له : إياك إياك أن تبتلَّ بالمـــاء ! !

وهمس في اذني بعض ابناء الهرمل (ما يزال المتنفذون وكبار الا قطاعيين يمارسون زراعتها ... وما دامت المراكز الحساسة تشرى بالمال ، لن تكون هنالك عدالة اجتماعية ابداً) ...

تعاونيات طاشناقية

نظرة واحدة إلى هذا السهل العظيم تجعل الانسان يؤمن بأمر واحد : بأنه مكان نموذجي لنشوء مزارع تعاونية .

والمحزن ان تنفيذ هذه الفكرة الرائعة قد تم في قرية واحدة فقط على أيدي اللاجئين الأرمن . رأيت ذلك في قرية عنجر .

فعلى عادة لبنان الذي تعاقبت عليه على طول تاريخه قوافل اللاجئين ، استقبل منذ نصف قرن قافلة من الأرمن في عنجر .

وهناك لا يحق للفرد ان يمتلك أكثر من ٥ دونم ري و ٧ دونم بعل . وهناك شاهدت نموذجاً للقرية النظيفة السعيدة المرتبة !! ...

وأياً كان مدى صحة الاقوال بأن الارمن قد مُنحوا فرصاً أكثر من سواهم ، وانهم يتحكمون في انتخابات زحلة وغير زحلة ، تظل هنالك حقيقة أكبر وأهم ، وهي ان ارض البقاع ليست بحاجة إلى أكثر من ان يمنح ابناؤها فرص الحياة الكريمة وشروطها الانسانية .. لتزدهر وتعطي ...

البقاع الحزين الوسيط

في شتورة عشرات المقاهي والدكاكين . فيها صناعات حرفية من المعدن في عملية اجتذاب باهتة لنقود السياح ، فيها مقاهٍ وفنادق أكثر مما فيها منازل . وهذا يعني انها قرية (وسيطة) ... للغرباء والسواح ..

ولذا نشاهد صناعتها وتجارتها متكيفة مع ذلك ، ونجد ذكاء الفرد فيها وطموحه متلائماً مع هذه الحقيقة ..

أحزان بعلبكية

المواطن احسان : (٣٠ سنة) صاحب محل تصليح إطارات في بعلبك اصر على ان يصلح دولابي مجاناً لانها — ما بتحرز — . (ذلك الشعب الكريم النبيل يستحق الكثير ... في اوروبا يمكن ان اموت جوعاً دون ان يلم احد جسدي من تحت المطر خوفاً من ان يتهم بسرقة حقيبتي !! لديهم التخطيط وليس لديهم الحنان ، لدينا الانسان ولكنه مهدور بلا تخطيط) . احسان يشكو من ازدياد الاحوال سوءا بعد الخامس من حزيران (الفرد اللبناني اذن لا يمكن ان يكون معزولاً عن الهزات العربية حتى ولو شاء . انها على الاقل تؤثر على مورد رزقه) .

في نبي شيت ، قضاء بعلبك ، شكى علي م. — سائق تاكسي — من سوء الطرقات ، قال : حتى السواح سيهربون قريباً .

— وماذا في ذلك . ارضكم خصبة وتستطيع ان تعمل بالزراعة ...

— مستحيل . الاراضي بعل . ليست لدينا مياه ...

وارفع نظراتي إلى الجبال المكللة بالثلوج ويخيل إلي انني اسمع هدير مئات الينابيع .. ومع ذلك ، لا ماء ..

الكلاب قبل الأبقار

يزخر الوادي بعشرات من مزارع الدواجن ... ولكن الجميع يشكو ... وبعضهم عبّر عن شكواه عملياً .

ففي زحلة ، حوّل احد اشهر تجار الابقار مزرعته إلى مزرعة لتربية الكلاب المدللة لسيدات المجتمع !! .. قال لي ان تجارة البقر خسرت .. يبدو ان عصرنا مع الكلب (الكمالي) وضد (البقرة) الضرورية !! ..

مصاصو دم الأشجار

في احدى قرى البقاع ، سمعت حكاية محزنة .. في الليل ، يتسلل الفقراء إلى الغابات ، ومعهم ابرة ماصة خاصة يتم غرسها في جذع السنديانة حيث تمتص ماء الحياة منها الذي يباع بشكل قطرات !! نعم . الحكومة كافحت ذلك كما كافحت زراعة حشيشة الكيف ، لكنها لم تمنح المواطن الجائع المتعب الضائع أي بديل .

مكافحة الصناعات المحلية

ففي مشغرة تأسست صناعة « الدباغة » بمجهود الافراد اللبنانيين ، وتمكنت من غزو أسواق البلدان المجاورة وغيرها بفضل جودة انتاجها وتنوعه وانخفاض اسعارها مما شكل حافزاً لأرباب هذه الصناعة على توسيع نشاطهم وتوسيع مدابغهم فماذا حدث ؟ .

« ان استيراد اصناف البوكس والنعل والاحذية الجاهزة بجميع انواعها قد ازداد بشكل بات يهدد المدابغ اللبنانية بالتوقف عن العمل » ... هذه فقرات من التقرير الذي قدمته نقابة الدباغة باسم رئيسها السيد خليل.س بتاريخ ١٤ ايار ١٩٦٦ وحتى الآن لم يلق أي رد ...

تناولت التقرير من يد الاستاذ البير.ك صاحب اول مدبغة تصادف ان دخلت اليها.. (في وجهه صلابة من نوع خاص ، صلابة جبلية لبنانية احبها) ..

دار بي في انحاء المدبغة حيث عشرات العمال (ارى خلف وجه كل عامل

عشرات الأعين التي تترقب عودته مساء حاملا اليها الخبز .. ماذا يحدث لو كفت هذه الآلات عن الحركة وأغلق المعمل ابوابه ؟) .. يقول لي البير. ك (الرائحة كريهة ولكن بعد دقائق تفقدين قدرتك على الشم . لا يبقى الا وعيك بصناعتنا المنتجة) ... لم يكن جائعاً لان يقول أي شيء ، اكتفى بان سلمني تقرير النقابة في صمت حزين معبر .. يبدو أنه سئم من جدوى ان يقول .. سئم من كل شيء ... ودعني إلى الباب وترك جرس هاتفه يرن .. وحملني تحية إلى ابن اخته الزميل داوود ص .

غادرته إلى اول دكان لبيع الاحذية وجدته في طريقي . وقد اكد لي البائع زيادة في التطمين ان احذيته ممتازة شغل انكلترا وفرنسا ... يا حرام ...

وتظل الشمس تشرق

رغم شتاء الاحزان الطويل المخيم على البقاع ، يومض ظل شمس من وقت إلى آخر .. من قرية إلى اخرى .. فهنالك دوماً هنا أو هناك مشروع ناجح .. أو مشروع مشروع ..

هنالك الكروم الثرية بعنبها ومعاصرها ، والخمرة اللبنانية ، والعرق اللبناني ، وكلها صناعات وطنية جيدة لكن الحاج أبو نديم من زحله مثلاً ، — وهو يملك كروماً عديدة — كف نهائياً عن بيع عنبه لمعاصر الخمر والعرق وذلك بعد عودته من الحج ! .. ماذا يفعل بعنبه ؟ كرسه لصنع الدبس والزبيب بعد ان كرس نفسه لطاعة تعاليم الدين .

في دير عين الجوزة

ربما كان أهم المشاريع الواعية هو مشروع عين الجوزة للمنطقة الجميلة المحيطة بالدير ...

طريق جبلية خطرة ، لا يفوق خطر منحدراتها سوى جمالها ... فهي تطل على بحيرة (ليطانية) جميلة إلى حد غير عادي ... هادئة ورحبة ومرمية في حضن الخضرة المزدهرة حولها ... وتستطيع ان تسقي أراضي شاسعة .

منطقة جميلة إلى حد الغضب . الغضب لانها غير مستغلة ... انك تمضي في

سيارتك دون ان تجد فندقاً أو مقصفاً أو مركزاً للتزلج المائي أو أي شيء .. لا شيء سوى قرى حزينة واديرة ! ... ولذا ، سررت حينما فوجئت بمشهد مطعم عصري ما زال في المرحلة الاخيرة من الاعداد إلى جانب الطريق مطلاً على الوادي الساحر ، اوقفت سيارتي وهبطت . وفوجئت بمشهد انسان طويل القامة يرتدي ثياب رجال الدين ويتحدث إلى العمال (ماذا يفعل رجل الدين هنا ؟) .

وكانت المفاجأة الثانية حينما تحدثت اليه ...

لم اجد فيه صورة رجل الدين التقليدية التي تجعل الحوار معه شائكاً ...

انه باسم وذكي ومحبب إلى النفس ويجعل الاعتراف أمنية !

اسمه الاب جبرائيل. ر. وهو رئيس دير عين الجوزة وايضاً (المدعي العام في المحكمة الكاثوليكية في لبنان ، ورئيس المحكمة الاستئنافية في سوريا ، والاب الروحي لمنطقة البقاع الغربي) وأهم من ذلك كله ، هو متواضع ، وعصري ، وواع ... وحديثه ممتع ...

— يا (أبونا) ، ما علاقتك بالمطعم .

— هذه المنطقة كما ترين من أجمل المناطق السياحية في العالم . ومع ذلك فهي مهملة ، واهلها لا يستفيدون من ميزتها هذه . الدير هو المركز الديني القوي هنا ، وربما الوحيد القادر على ذلك ، والدير لا يغلق ابوابه على نفسه ، انه للناس ، لمصلحة المنطقة ، ولذا قمنا بتشييد هذا المطعم كحلقة أولى في برنامجنا السياحي ... لقد انشأنا مدرسة في صغبين ولكن خير هذه المنطقة الجميلة يفرض علينا مزيداً من الاهتمام بأوضاعها .

— هذا أول دير في لبنان ينشيء مطعماً ، أليس كذلك ؟

— ليس بالضبط ، ففي زحلة سلسلة من المطاعم القائمة شمال الوادي ، وارضها ملك للرهبنة الشويرية .. (رهبنة دير الشير) ..

— وماذا عن الكنز الذهبي العتيق الذي وجد في اراضي الدير ؟ ...

— من الممكن ان يكون هناك ! ..

— قيل ان بعض الافراد وجدوا أشياء كثيرة . نقود عتيقة وذهب وصناديق ... وتماثيل ذهبية ...

ـ أحياناً يأتي بعض الافراد وينقبون سراً .. اننا لا نستطيع ان نمنعهم .. ونتمنى ان تتولى الدولة ذلك وتجد في اراضي الدير كنوزاً ، فذلك جيد لاقتصادنا أولاً ولاقتصاد الدير ثانياً ...

ـ ولكن اذا كان الامر مجرد شائعات ، لماذا تطلق عن هذا الدير بالذات ..

ـ انها ليست بالضبط مجرد شائعات . جاءني مرة مثلا كاهن يسوعي يهتم بالآثار في الجامعة اليسوعية ، وحدثني بأن الطريق الرومانية القديمة للقوافل التي كانت تصل لبنان بسورية تمر بالحريزات وبأراضي هذا الدير في طريقها إلى دير العشائر وميسلون... وان تحت ارض هذا الدير ملتقى طرق القوافل التاريخية ... وهذا ثابت تاريخياً ... اذن ...

ورغم الطقس السيء ، فقد استسلم (أبونا) للكاميرا ... وخرجت من ديره وكلي فرح بهذه الظاهرة العصرية ... ففي لندن ، قضيت احلى امسياتي في الحفلات الاجتماعية الراقصة التي كانت تقام في بعض الكنائس برعاية الآباء الروحيين تعبيراً عن تطور الكنيسة وتفهمها لمتطلبات العصر ...

ان الصورة التقليدية العتيقة لرجل الدين قد تطورت ، ومن الرائع ان نجد لدينا مثالاً حياً واعياً لذلك في بلادنا ...

كأن شيئاً لم يكن

في البقاع أكثر من شاهد على ماضيها العظيم ... في عنجر شاهدت المدينة الاثرية تخرج من جديد إلى وجه الارض ...

وفي منطقة اثرية اخرى حدثني احد الموظفين همساً بعد ان اقسمت له باولياء وانبياء الارض جميعاً على ان لا أبوح باسمه .. (الدولة مقصرة في حق آثارنا ... ريثما يصل الخبر اليها تكون الآثار قد خُرّبت أو سُرقت أو ذهبت ضحية الجهل . في احدى القرى ظلوا اشهراً يستعملون التوابيت ـ والقبور الاثرية زرائبا للحيوانات ، وفي احد الكهوف الاثرية ، كانت تسلية اولاد القرية المفضلة اللعب بالجماجم واحياناً بيعها لعابري السبيل ... تصوري ، كانوا يبيعون مليون عام بليرة لبنانية واحدة ... يبيعون تاريخاً يجهلونه ...)

سفينة الصحراء في البقاع

آخر مشهد التقطته نظراتي وانا في درب العودة من البقاع كان مشهداً جميلاً ، الجمل سفينة الصحراء ، في البقاع « اهراء روما » ... اغمضت عيني هلعاً وكانت فكرة موجعة تستولي علي (اذا ظل كل شيء على حاله ، فلن تنقضي اعوام طويلة قبل ان يصبح الجمل عنصراً هاماً في « صحراء البقاع » ، لا مجرد ألهية للسواح) .. وشتاء البقاع الطويل ، متى ينتهي ؟ ...

٢٦ / ٤ / ١٩٦٨

عكار
الابن غير الشرعي للبنان

« سأقضي اياماً في منطقة عكار . من يرافقني ؟ » .

هكذا قلت لاصدقائي الطرابلسيين الذين طالما تسابقوا الى مرافقتي في جولاتي الصحفية .

ظلو صامتين . ادهشني صمتهم .

كانوا جميعاً يحدقون في وجهي بنظرة تحمل كثيراً من الهلع والاشفاق والاسى ، كنظرة الوداع الاخيرة التي يلقيها الاصدقاء عادة على جثة صديق عزيز ..

سألني احدهم بحذر : هل سبق لك زيارتها ؟ قلت : لا . ولكن معرفة وطننا ضرورة .

واخيراً قال احدهم بلهجة بطولية ، كما لو كان يتطوع للحرب او يعمد فارساً من فرسان المائدة المستديرة : سيدتي ، سأرافقك ! ! ...

مع فجر اليوم التالي ، وانا اطير بابن عكار وبسيارتي الأثرية خارجة من طرابلس متجهة الى عكار ، استوقفني امام دكان بائع السندويش ، ودخل ولم يعد . تبعته الى داخل الدكان ، فوجدته امام كوم من السندويشات والمعلبات والمرطبات . كوم يكفي لاطعامنا اياماً . سألته : لماذا ؟ وهل نحن ذاهبان الى مجاهل افريقيا ؟ . ماذا دهاك ؟ .. قال « اجل . بطريقة ما » ! ..

نبوءة الحفرة ، لا الساحرات

وأنا اقرأ لوحة « قضاء عكار يرحب بكم » واحاول ان ابتسم متفائلة ، اصطدم

رأسي بسقف السيارة حينما هوت العجلات في حفرة من حفر الطريق الوافرة . كانت ضربة مؤلمة فعلاً .

وأحسست ان في تلك الحادثة شبه نبوءة بما سألقاه في رحلتي ، شبه نذير ... كما حملت ساحرات شكسبير نبوءة ايام الاحزان لـ « ماكبث » .

فقد كانت ايامي التالية في عكار سقوطاً نفسياً مستمراً في حفر اجتماعية وانسانية .. وضربات متلاحقة من المفاجآت المؤسفة .

المقبرة ، ملعب للأطفال :

كان أول ما طالعني في ذلك القضاء المثقل بأحزانه ومشاكله المستعصية ، قرية ببنين ، حيث يقوم قصر النائب والوزير السابق بشير . ع .

وعلى مقربة من القصر ، في وسط بيوت القرية الطينية حيث من المفروض ان أجد ساحة القرية ، وجدت مقبرة .. وعلى القبور كان أطفال القرية يلعبون (ربما بالجماجم) ، وكان هنالك حمار سعيد جداً يأكل العشب النابت على القبور وبينها .. قلت لمرافقي : هذا الحمار يبدو سعيداً جداً بما يدور ... همس مرافقي كما لو كان يفضي بسر خطير : لا . هنالك سعداء آخرون هنا . انهم أحصنة النائب في الاسطبل الملحق بالقصر ، فهو من هواة السبق .

قال آخر : لا . أحصنته ليست هنا . انها في بيروت...

ان تكون هنا او هناك لا يهم . ما الفرق . القرية هنا بحقائقها كلها . قرية أخرى من قرى لبنان المتخلفة . فيها طريق ، وليس فيها طريق الى الحضارة . وفيها كهرباء وليس فيها اشعاع . وفيها كثير من المخازي والاحزان .

ولحظتها لم اكن ادري ان هذه القرية بألف خير اذا قورنت ببقية القرى التي تنتظرني ، والتي لا طريق اليها الا الغابات ، ولا وسيلة الا الدواب .

وأُطل على واد جميل ، نهر واسع وسد ، ثم مبان ومنشآت ، ثم لوحة : معامل مشروع نهر البارد . ثم يهمس مرافقي : هنا معامل لتوليد الطاقة الكهربائية .

ــ وكيف تشكو عكار الظلمة ؟ ..

ـ لان بيروت هي التي تستفيد من هذه الطاقة لا عكار . يرجع تاريخ إقامة هذا السد الى ثلاثة عشر عاماً خلت ، ولم تنعم عكار بالكهرباء إلا منذ ثلاثة اعوام ، ولما يتم بعد جر الطاقة الى كثير من مناطقها .

ـ ومن يضيء عكار اذن ؟

ـ طاقة بشري ، اننا ندفع ثمن الكهرباء ، بينما تضيء معاملنا مناطق اخرى ! ..

أسنان في الفم ، أمان من الفقر ! !

تزداد الدرب جمالاً (رغم سوئها) والخضرة كثافة ، وأصل الى برقايل . وفي مدخل القرية تحدثت الى اول بيت فيها .. الى السيد حسن . ح . شكى الي من سوء الموسم لهذا العام ، ثلاثة أكياس من الفول أشار اليها بحزن قائلاً : إنها محصولي كله ...

وحينما تحدث التمع الصف العلوي من أسنانه وكانت كلها من الذهب ، كانت هذه اول مرة في حياتي ارى انساناً اسنانه كلها من الذهب . كان مشهداً محزناً ، فهو يدل على عدم طمأنينة الفرد العربي على مصيره ، على شيخوخته . ليس هنالك ضمان اجتماعي بالمعنى الذي يضمن له شيخوخة كريمة . ليس هنالك ما يطمئن اليه ولا مؤسسة ولا تشريع ولا قانون يوكل شيخوخته في عهدته . انه وحيد في هذا الوطن ، والمكان الوحيد الذي يطمئن الى الادخار فيه (دون خشية السرقة بمختلف أنواعها) هو ذلك الكهف داخل فمه ! ! ..

ثم ان عكار بعيدة عن متناول الدولة ، واقعة في شرك شريعة الغاب ، حيث منطق القوة الغاشمة يسود ، لا منطق العدالة ...

وفي برقايل ايضاً سمعت حكاية تشبه حكايا العصور الوسطى ..

قصر الجثث الثلاث

حدثني مرافقي مشيراً الى قصر جميل لا ابواب له ولا نوافذ ويبدو مهجوراً : هذا قصر المرحوم عبود . ع . ر .

ـ ومن يقطنه ؟

ـ لا احد سوى رجل ميت هو م. بن عبود !

– يقطنه رجل ميت ؟

– اجل ! قتل عام ١٩٥٣ ولم تدفن جثته بناء على تقاليد الاسرة التي تقضي بعدم دفنها قبل الاخذ بثأرها ثم قتل والده عبود ايام الثورة (١٩٥٨) ، وماتت اخته ، وضم القصر خلال اعوام ثلاثة ، جثث الثلاثة : الاب وشقيقته عربية ، وابنه . وعام ١٩٦١ دفن الاب واخته ، وبقي الابن ! ...

خيل الي انني أعيش داخل احد افلام العصور الوسطى . لكن مرافقي المطلع اكد لي هذه الحكاية !

اكتبها لا على سبيل الاثارة وانما لدلالتها ... فهي شاهد على بعض جو المنطقة ... انها دلالة على ذلك المكان العجيب الدموي احياناً الذي تتحكم فيه التقاليد العائلية والعنف والجهل .

علّق مرافقي : لم تري شيئاً بعد ! ..

الجنة في وادي جهنم

نتابع الرحلة بينما تزداد الطريق سوءاً . نصل الى جبال جميلة الى حد غير عادي ... جبال شاهقة ، وفي القاع واد مذهل الخضرة بادي الخصب ، ويقول مرافقي : هذا مدخل وادي جهنم ..

وادي جهنم ! .. لماذا ؟ ..

قالوا : لانه سيكون عليك ان تغادري سيارتك اذا احببت زيارة القرى المزروعة على جانبيه ، وسيكون علينا ان نستعمل في مواصلاتنا اسلوب القرن السابع عشر ... الدواب .. وطبعاً سيكون عليك ان تتوقعي رؤية قرى ما زال اهلها يعيشون القرن الثامن عشر ! ! ...

وقررت : سنتابع الطريق حتى آخرها ، ثم نبدأ مرحلة الدابة ! ..

طريق ترابية فرعية ، والقرية اسمها أبعيد . وغمازتان وعينان شفافتان لواحد من ابنائها .. الخبر له (قضينا أعواماً ننبح من اجل تعبيد الطريق الى قريتنا بلا جدوى .. ثم ، ثم اضطررنا الى القيام بمهام الدولة ، فجئنا بجرافة وتم شق الطريق ! والنكتة له ايضاً (بعد ان تم شق الطريق) ، عشنا اياماً بانتظار تعبيدها وتوسلنا

الى نوابنا ، وصلينا بانتظار ذلك دون جدوى .. ولما جاء موسم الانتخابات ، فوجئنا برجل يرتدي قبعة من القش تكاد تغطي وجهه ، ويحمل ريشة وسطلاً من الدهان الاحمر ، يسير في الدرب ، ويضع ارقاماً وعلامات حمراء على صخور الدرب ، فقلنا صح وعد النائب ، وسيتم تعبيد الطريق . وهكذا منحنا النائب اصواتنا ، ولكننا فوجئنا باختفاء الرجل ذي القبعة القشية والريشة وسطل الدهان ، بعد موسم الانتخابات ، والى الآن لم يعد . وتبينا فيما بعد انه احد عملاء نائبنا الكريم ! ! واننا ذهبنا ضحية الاكذوبة المسرحية ، وسنظل ضحيتها أعواماً اربعة اخرى)...

عسل بدل الخل ، ومجاناً !

قرية اسمها حرار ، وشباب المنطقة التقيهم امام مدرسة القرية المواجهة لمخفرها. المخفر عمرته الدولة . المدرسة ، الم تشيدها الدولة ايضاً ؟ ... قال احدهم : لا . شيدها ابناء المنطقة . مشهد مدرسة في مكان كهذا أمر مفرح حقاً، فالعلم في نظري هو المخرج الاول من هذا الجحيم كله ... انه اول الخيط .

وفي آخر القرية تقوم بيوت حجرية من الواضح انها بيوت للاصطياف سمح الاقطاعي بتشييدها في أراضيه إذ قرر منح ارض لكل من يرغب بتشييد دار في القرية ، وذلك تشجيعاً للاصطياف ، وانعاشاً للقرية ... وهكذا أقدم بعض اهل طرابلس على بناء بعض البيوت ، وماذا كانت النتيجة ؟ ... حدثني أحدهم قال : لقد دفعت اجرة نقل الاحجار ومواد البناء الى هذا المكان اضعاف اضعاف ثمن الارض المجانية .. هذه الدار المتواضعة التي بنيتها هنا ، استنزفت من مالي ما يفوق كلفة بناء ناطحة سحاب في بيروت او في اية منطقة اخرى غير مهجورة ! ... (الاقطاعي تنازل عن ارضه ، لكن ذلك لا يكفي . المهم ان يكون هنالك بديل يلعب دور الجسر الحضاري : الدولة مطلوب حضورها ، وعلم الناس مطلوب كي لا يحل ظلم الدولة محل ظلم الاقطاع) .

قديماً كان يقول المثل: الخل المجاني أطيب مذاقاً من العسل الغالي الثمن.. ولكن العسل المجاني الذي قدمته حرار كان أمرّ طعماً من الخل ، ما دام لا طريق اليها ولا ماء ولا خبير ولا مهندس ولا شيء ... مختار القرية اسعد قاسم . خ يلخص وضعها

المؤسف بقوله : تسألين ماذا ينقص القرية ؟ لم لا تسألي ماذا فيها ؟ .. لا شيء فيها حتى ولا الماء ... ساعة كاملة من الزمن يستغرقها ملء جرة ونقلها الى هنا !

أساليب الزي القديمة

سرت عشرات من الكيلومترات دون ان تمر بي سيارة واحدة . اخيراً مرت (بوسطة) أثرية ، وسيلة النقل الوحيدة ، ويبدو انها نادرة ايضاً اذ كانت متخمة بالناس، حتى سقفها لم يخل من محب (لعزال) السيارة ! ...

بعد قرية « الزعرورة » ، وفي قرية « القريات » كانت هنالك طاحون قديمة ، وقناة ماء اثرية ... وتبينت انها ما تزال قيد التداول ، وما تزال تحول مياه فنيدق الى عدة قرى : حرار — قبعيت — حمشيت — مشمش . وليست الطاحون وحدها اثرية ، وانما وسيلة الوصول الى اكثر من قرية اثرية ايضاً : السير على الاقدام !

بدأت الرحلة الحزينة في مجاهل عكار ... جبشيت وبيت يونس وغيرهما... لا وسيلة اليها الا السير في الاحراش . هنا لا مدرسة . لا طبيب . لا مكتبة . لا هاتف . ولكن هنالك صندوقاً للاقتراع كل اربع سنوات من أجل انتخاب النواب الكرام .

بيت أيوب وصبر أيوب

هنالك حوض ماء تحيط به بيوت طينية . هنالك عدد كبير من أقدام الحفاة الذين يطارد وجوههم الذباب ، ويقطن الرمد في عيونهم ... واسم القرية « بيت أيوب » ، واقترح تسميتها « صبر ايوب » لان هدوء الناس الذين يتحركون فيها وصمتهم الصابر يجعل منهم أهل قرية « صبر أيوب » ...

بعد (قرنة) تأتي قرية (مشمش) وليس فيها شجرة مشمش واحدة وفيها عشرات من اشجار التفاح .. بعد مشمش تزداد الطريق سوءاً حتى خيل الي للحظة انني خرجت بسيارتي عن الطريق وانني اقودها داخل حقل ما،ولاحظ المحرك ذلك اذ اعلن تمرده وتوقف فجأة في مكان تبينت فيه فيما بعد ساحة القرية ، وامام لوحة قرأت عليها « ممنوع الوقوف » ! !

وامام اللوحة وقفت بقرة تحك رأسها بها .

لذا لم يدهشني بعد ان غادرت مشمش في طريقي الى فنيدق ، ان أرى عشرات الجمال تتهادى على الطريق المعبدة (رمزياً) . بل على العكس ، احسست انني اخترت وسيلة المواصلات الخطأ بالنسبة لهذا المكان ... وحسدت راكبي الجمال جداً .. وازداد حسدي حينما شاهدت سيارة لقيت مصرعها داخل احدى الحفر فانقلبت الى جانب الطريق ، بينما اسراب الجمال والدواب تمر بها وترمقها شامتة منتصرة ! .. (في الكتب المدرسية علمونا ان المواصلات شرايين البلاد . اي شلل موجع يصيب الاجزاء المحرومة من الدم والشرايين ؟)

واخيراً فنيدق .. ومشهد الاطفال فيها موجع فعلاً . ذكرني باطفال بعض مخيمات اللاجئين .. والمقابر فيما يبدو ملاعب تقليدية للاطفال في هذه المناطق البائسة . ومع ذلك يتمتع اهل القرية بذكاء فطري متوارث يلفت الانظار ومرح يتحدى الاحزان ، روى لي قروي حكاية طريفة تلخص روح اهل المنطقة : عالم ارصاد انكليزي ، حمل اجهزته الى فنيدق واقام في جوار احد الفلاحين . وقد لفت نظره مشهد (العرزال[*]) فطلب من جاره الفلاح الأمّي ابن فنيدق ان يسمح له بالنوم في العرزال تلك الليلة ... قال الفلاح : ولكنها ستمطر الليلة . رد الفلكي : لا . أجهزتي لا تشير الى ذلك . وأصر على رأيه ، فقبل الفلاح على مضض . وفي الليل تفجر المطر ، وهبط الفلكي الانكليزي مبللاً الى كوخ الفلاح وايقظه ، وسأله بحرقة مجنون : كيف عرفت انها ستمطر ، مع ان اجهزتي نفسها لم تعرف؟ اجابه الفلاح : لست انا من يعرف ، بل كلبي ... فحينما اراه نائماً في الداخل اعرف انها ستمطر ! ! ...

المرعى الساحر

اتابع الرحلة الى نبع فنيدق : القموعة . في الطريق اليها احراج مؤلمة المنظر ، اكثر اشجارها مقطوع بلا رحمة ، وبيوت اقل رفاهية من الاصطبلات مبنية من الاحجار وسقوفها من التنك وبلا نوافذ ، وبشر ناءون عن كل حضارة ، ومحدثهم الوحيد هو فزاع الطيور المصلوب امام قبور ايامهم ...

وأخيراً جرود القموعة ، ونبعها .. منطقة من أجمل ما رأيت حتى في اوروبا .

(*)ما يشبه الغرفة تصنع من أغصان الأشجار وأوراقها الجافة ليبيت فيها الانسان في العراء أيام الصيف.

سهل شاسع على قمة جبل يمكن ان يصلح مطاراً نادراً ! .. ثم بحيرة شاسعة ، يتصاعد منها البخار ، ومرعى وحشي الخضرة ، فارغ من اي اثر للمدنية .. تركض فيه خيول برية وتصهل ... كان المشهد جميلاً كالاحلام .. وفجأة هب الضباب وبدأ يلتهم المشاهد كلها ويغيبها في غلالته الشاحبة ... ومرت جماعة من الصبية تحمل بنادق الصيد ، وضاعت أيضاً في الضباب ، وبدا المشهد بأكمله كما لو كان صفحة في كتاب التاريخ طويت ، وحينما تحدث مرافقي خيل إلي انه يتلو علي الصفحة الاخرى .. قال : في صغرهم يتعلمون الصيد ... وفي كبرهم الحرب .. هنا تدور باستمرار حروب في جرود الهرمل ، وعكار . تقوم حرب بين القبائل من اجل تملك الارض ... الدولة ؟ ... لا وجود لها هنا .. القبائل تحكم بنفسها ، وحكم زعماء العشائر والاغوات لا يُرد ولا يُستأنف ... والحرب لا تتوقف الا في الشتاء حينما يهطل الثلج ..

حينئذ يعقدون هدنة اجبارية واذا طالت الهدنة ، لعبت الدولة دوراً غير مباشر في اشعال الحرب .. فتملك الاراضي هو السبب الرئيسي للنزاع .. وحينما تبعث الدولة بلجان مسح الاراضي ، تنفجر الحرب من جديد ، وتتولى الدولة دفع الدية لأهل القتلى ! ...

وأشار الى صخرة ملاصقة لشجرة تجاور آخر الطريق قائلاً : هنا تتكوم اجساد عشرات الجرحى عادة بانتظار نقلها الى المستشفى .. واقرب مستشفى يبعد ساعات .. والسيارات مفقودة .. يجري نقل الجرحى والمرضى هنا على طريقة «الاوتوستوب»!! ..

ومن لم يذهب ضحية الحرب العشائرية (من اجل الارض والماء والاخذ بالثأر والتقاليد) يذهب حتماً ضحية الافتقار الى طبيب .

وادي جهنم آخر

وادي جهنم الحقيقي في المنطقة هو منطقة وادي خالد والدرب اليها ... قرى حزينة نائية اسمع فيها الشكوى نفسها والاحزان نفسها .. تليل — هتيلا — في الكواشرة لم يفض الناس الي بهمومهم اذ انهم قبيلة من التركمان تتحدث باللغة التركية! ثم خربة داوود والبيرة ... وتتوالى القرى السوداء . السوداء عملياً ايضاً اذ ان احجارها وبيوتها وبشرة تربتها سوداء بركانية . ثم القبيات ، قرية تشارك بقية

منطقة عكار في اشتراكية الفقر السائدة دون تفريق ودون طائفية ! خيل الي ان قراراً بمنع التجول قد صدر في هذه المنطقة اذ كانت شبه خالية من الناس ، ولذا شاهدت سلحفاة تتسكع على الطريق العام سررت واستأنست بها وحملتها معي اذ قررت ان اساعدها على الهجرة الى أول حقل اخضر أمر به ... ولم تكن السلحفاة وحدها هي التي تريد ان تهاجر .. ففي مشتى حسن ذات الطريق الضيقة المحرومة من الاسفلت ، شاهدت حقائب وامتعة اسرة أمام الباب ... اسرة تستعد للرحيل والهجرة ... من يبقى هنا ؟ . بعد مشتى حسن تأتي مشتى حمود ، وكلها اسماء مختلفة لشيء واحد ، لقرية واحدة اسمها قرية البؤس والتخلف . وقبل أن أصل الى وادي خالد ، فوجئت بمركز امن عام (لماذا ؟ لا أريد ان اغادر الاراضي اللبنانية .) ثم اتضحت لي مأساة اخرى يعاني السهل منها ... مأساة انسانية موجعة ...

فعلى باب مركز الامن العام عسكرت قبيلة من النوَر بين افرادها حامل الطبل والدربكة والعود وفتاتان ترتديان ملابس الغجريات وتغطي الاصباغ والكحل ملامحهما الجميلة .. فقد اوقف افراد الفرقة هذه اذ انهم لا يحملون اية اوراق هوية ، ولا اية جنسية ! ...

ففي هذه المناطق التي لم تصل اليها طلائع الحضارة الا إلى ما قبل اعوام (لم تصل اليها تماماً ولكن ..) كانت تعيش قبائل من البدو الرحَّل متنقلة بين ما يدعى اليوم حدود سورية — لبنان .. وبقي معظم اولئك البشر بلا هويّات لبنانية أو سورية ... والمأساة تعدت الرحَّل إلى سكان القرى المقيمين.. مختار قرية «المقابلة»الاستاذ غازي أ.أ. حدثني عن مأساة أهل القرية قائلاً : « صحيح ان الدولة تبذل جهدها لايصال الحضارة إلى قرانا النائية المتخلفة لكن أهم مأساة نعيشها هي مأساة الجنسية ... لقد منح ابناء القرية تذاكر هويات ، جنسيتهم فيها « قيد الدرس » وما زلنا ننتظر »...

والتقيت ببعض اولئك المواطنين مع وقف التنفيذ ، اللاجئين في بلادهم ... ان مأساتهم من نوع نادر وفريد ...

شكوا الي من عدم قدرتهم على التوظف أو الانخراط في الجيش أو القيام بأي عمل غير تسول ما ... وانا اعتقد ان مأساتهم أعمق من هذا ايضاً .. انها مأساة الانخلاع من الجذور ... انهم بلا أي انتماء مشروع مما يجعل منهم فريسة سهلة للانحلال والضياع .. همس احدهم في اذني « انني ازرع الحشيش . هل تحبين رؤيته ؟ » ...

وبكى طفل في الجوار ودخلت امه تحمله فقرر والده حمله إلى (شيخنا) لمداواته. ومن هو شيخنا وهل هو طبيب ؟ ... قالوا نعم . يكتب الحجابات ويطرد الارواح الشريرة التي تسبب المرض ، واحياناً قليلة يعالج الألم بالكي ! ... وفتحت مفكرتي وقرأت تاريخها (١٩٦٨) عدة مرات لاؤكد لنفسي انني اعيش في القرن العشرين!!..

بالقرب من وادي خالد ، شاهدت قبيلة من ناقلات الماء على الحمير تسير مجاورة لسكة حديدية ...

ثم يمر القطار بطيئاً وحزيناً وشبه خائف . يقول مرافقي : انت فتاة محظوظة لانك لم تتعرضي لقطاع الطريق ... هذا القطار تعرض أكثر من مرة (للتشليح) ! ..

ولكنني لست محظوظة بقدر ما يقول ... ففي لقاء لي مع احد ابناء « الأغوات » وهو شاب لطيف لمح الي – بعد ان حاول استجوابي عما سأكتب – بأنه من الأفضل أن لا اتحدث عن المنطقة كثيراً .. فأحدهم كما يقول جاء مرة وكتب عن تخلف المنطقة وعزلتها ، وعلق الاغوات بقولهم : لو كنا نعرف لقتلناه وهو هنا .

لهذا بالذات اكتب واصيح ملء فمي : ان في عكار مجاهل تنافس ببدائيتها ولاعدالتها ما يدور في اية غابة نائية ! ... فيها دولة ضمن دولة ، دولة للتخلف ضمن دولة الاشعاع ، دولة للمتناقضات والعصبيات،القبيلة لها قوانينها وشرائعها المطبقة قبل شريعة العصر ومنطقه . والتقيت بأخ مسؤول وصارحته برأيي فيما يدور ، قال لا تلومي الدولة ... انها لا تستطيع ان تصنع اعجوبة تحول منطقة من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين خلال اعوام ... لو عرفت حال هذا الوادي قبل ستة اعوام لما صدقت ! . ومن خلال هذا المنظار العادل يجب ان تكون نظرتك إلى المنطقة ... تاريخ مد اول طريق اليها يعود إلى أيام فؤاد شهاب منذ اعوام قليلة .

وادي خالد : قرية منظرها وحده يكفي للدلالة على بؤسها وجدبها ...« ومركز مصلحة الانعاش » فيها مغلق وبحاجة إلى (إنعاش) .. وأول رجل توقفت لأسأله عن الطريق إلى المستوصف الشهير الذي سمعت عنه الكثير ، بادرني هو بالسؤال، بينما كان يغمز بطريقة ذات معنى : هل تفتشين عن شيء بالذات ؟ وفسر لي مرافقي الاحجية : يقصد ، هل تودين شراء « حشيشة كيف » ! اذ لا يخطر له ان تحضري إلى هذا المكان إلا اذا كنت مجنونة ... أو حشّاشة ! .

وعلى ذكر الجنون ، من السهل جداً ان يصاب الانسان به في هذه المنطقة ! ...

لقد مررت بقرى ما تزال رياحها تحمل آهات بشر ماتوا سجناء في الدهاليز المظلمة ، وربما ما تزال السلاسل تحيط بهياكلها العظمية .

في قرية البرج ، بعد حلبا وجبرائيل وتكريت وبيت ملاد ، يوجد بناء يشبه القلعة ... وهي ملك لآل م. ما تزال حلقة مشنقتها قائمة .. والزنزانات التي ما تزال الحلقات المعدة لربط السجناء تطل من حجارتها العتيقة .. وروى لي احد ابنائها تاريخ بعض الأسر الاقطاعية هناك ... وتاريخ بعضهم حافل بكل ما يمكن لفيلم مثير عن الاقطاع ان يحفل به ! .. وهكذا فالصراع بين مختلف الأسر الاقطاعية هناك هو صراع على الزعامة ، وليس صراعاً فكرياً أو عقائدياً ، وحتى اذا ظهر بينهم شاب تقدمي له اساليب جديدة وموقف فكري جديد فانه سيواجه تكتلاً ضد وصوله إلى الزعامة ريثما ينجحوا في تدجينه فكرياً .

مع عكارية مثقفة

اسمها لا يهم . اتحدث اليها لا بوصفها امرأة — ومن المفروض تلوين موضوعي (بوجه ناعم) — وانما أحدثها بصفتها مواطنة لبنانية جامعية الثقافة ومسقط رأسها عكار . انها ترى الاشياء بوضوح علمي . تقول (ليست عكار وحدها المتخلفة ، ولكنها تشارك بذلك مناطق أخرى كثيرة في لبنان وفي الوطن العربي كله .. الحكومة مسؤولة إلى حد بعيد ، ومن الضروري ان تبدل خطتها في الاهتمام بالعاصمة وضواحيها كما لو كانت العاصمة وضواحيها مواطن شرف وبقية ارجاء لبنان«مواطن بالتبني» . من هو المسؤول عن التخلف في عكار بالذات ؟ بصراحة ، الاقطاع إلى حد بعيد، هذا في الماضي ، لكن اقطاع الجهل عند الفلاح بديل آخر خطر) أي ان خطوة نسف الاقطاع هي غير مجدية اذا لم تواكبها خطوات اخرى كثيرة على كل صعيد. يحز في نفسي ان المثقف العربي ايجابي فكرياً وسلبي عملياً (أي يعرف الداء والدواء ولا يقدم على خطوة عملية للعلاج) وجدتني اسألها : كل ما تقولينه صحيح وجيد ، ولكن انت كمثقفة ، هل الحل هو بهربك من المنطقة وتخليك عنها ؟ ... ماذا صنعت لاجلها ؟ ..

تقول سوف نؤسس جمعية لانعاش المنطقة.. ولكن .. عليّ ان انتظر اعواماً .

فابناء المنطقة لا يثقون بالشباب ولا يتوقعون العلاج والحكمة الا على ايدي كبار في السن !! ...

لم يدهشني كلامها . فتقديم السن على الثقافة هو من أول المفاهيم القبلية والعشائرية التي سيستغرق التخلص منها اعواماً طويلة بلا شك . (ثم ان الجمعيات لا تجدي الا على طريقة مداواة السرطان بحبة أسبرو !)

وبعد ...

عدت من رحلتي « العكارية » معكرة المزاج والهيئة ... وعلى جلدي آثار لسع حشرات الغابة واشواكها .. وعلى جلد رأسي من الداخل آثار احزان المنطقة ، وغربتها ، ومآسيها المنسية .

في خاطري آلاف المناطق المشابهة توقظ الألف عكار الاخرى المبثوثة بكثرة من المحيط إلى الخليج ...

٢٦ / ٥ / ١٩٦٩

في الهرمل : الثأر لعشائر الثأر

لم أشأ أن أكتب عن تصاعد السيولة الدموية لجرائم الثأر في الهرمل وبعلبك وعكار عندما كان دم الثأر لا يزال حاراً ، كي لا أكتب تحت وطأة أبخرته التي تعمي البصر قبل البصيرة ...

واليوم ، بعيداً عن زبد النزف وأخذ الثأر من الثأر ، أكتب بما في طاقتي من الموضوعية ، وأنقل صرخات أصحاب الثأر ...

في طريقنا — المصور زهير سعادة وأنا — إلى جرود عكار والهرمل . الاسفلت يركض تحت عجلات السيارة ، وشريط الاحداث المروعة التي طالما قرأت عنها وسمعتها يركض داخل رأسي .. دماغي شاشة عرض لفيلم مغامرات مروع عمره قرون — من عمر العشائر — وقد يستمر قروناً ...

وأسقط فريسة المشاهد التي سمعت بها وقرأت عنها مؤخراً ..

(العروس ترتعد خوفاً . تدور في غرفة الحريم كأرنب مذعور . كلهن خائفات . صمت متوتر ثقيل كان ينزف تلك الظهيرة ، كالصمت الذي يخيم على الحقول قبل انفجار المعركة .. وعبر نافذة غرفة الحريم كانت الخضرة تنام في الحقول دون ان تدري ان وجهها سيتلطخ بعد دقائق بالدم وهباب البارود .. كوجه العروس .. كوجوه بقية النساء في غرفة الحريم ..

كلهن يجلدهن ذلك الصمت المتوتر .. يتلصصن من النافذة على ما يدور في فناء الدار والحقول .. ها هي طاولة « وليمة المصالحة » قد مدت في الهواء الطلق لتتسع لعشرات الرجال .. الأطعمة الشهية مكدسة ، وكل شيء يدور كما لو أن المصالحة بين العشيرتين ، بين أهل العروس التي ذهبت خطيفة — آل علو — ، وأهل العريس — آل شمص — سوف تتم .. ولكن في الجو رائحة مبهمة .. رائحة توقظ الحس بالخطر والخشية .. العروس تنظر عبر الستائر إلى « وليمة الصلح » . ترى جثث « الفراريج »

والذبائح ، وفي منتصف الطاولة مكان فارغ لطبق لمّا يأتون به .. لا تدري لماذا تحس أن هذا المكان الفارغ في وسط الوليمة معد لها .. انها ستكون الطبق الرئيسي في الوليمة .. بل الطبق الأساسي . عما قريب يذبحونها .. بعد لحظات .. ربما الآن .. تشهق . تقترب منها حسناء أخرى صغيرة وتهمس : رتيبة ، لقد وصل الرجال !! .. من بعيد ترى عريسها علي ووالده ح . شمص يتقدمان جمعاً من الرجال . يصبح لوجه رتيبة برودة وشحوب وصلابة تمثال وهي تردد : قلبي يحدثني بالشر .

تصل مجموعة الرجال . عريسها الشاب يتوسطهم .. كل ما تفهمه هو انها تريد أن تعيش معه بسلام ولا تستطيع أن تفهم لما يدور أي معنى .. ها هم الرجال يتقدمون.. عشيرة عريسها يسلمون عشيرتها صبية صغيرة في مثل عمرها .. انها « الترضية » التي دفعتها عشيرة عريسها لعشيرتها مقابل الصلح (بالاضافة إلى مبلغ ٦٠٠٠ ليرة لوالدها) .. الفتاة الاخرى قيل لها أن اسمها « ب . شمص » وهي تبدو شاحبة مثلها وترتعد مثلها . أم الفتاة تطل من النافذة بهلع حزين . فأبنتها « ذبيحة » لأله الانتقام.. النساء في غرفة الحريم يتزاحمن على النافذة قطيع أرانب تجلدها سياط الذعر .

وسيط الصلح (المدعي العام الاستاذ اديب علام) ينسحب من بين الرجال ، ومن المفروض أن تبدأ وليمة الصلح . ما يزال مكان الشاة الاخيرة على المائدة شاغراً . يغمرها يقين غامض بأن ذلك المكان مرصود لها .. تضيق انفاسها . تتلاحق .. التوتر ينزف من كل شيء .. من حركات الرجال الذين لم يدعهم أحد بعد إلى مائدة « طعام الصلح » من نظرات الحذر المتبادلة . من التجهم . من العروق النافرة في الجباه . اين شقيقاها عدنان وحسن . ع ؟ .. وابن عمها غانم . ع الذي كانت مخطوبة له منذ ولادتها (!!) ؟ لماذا لا يصافحون زوجها وصحبه ويدعونهم إلى الطعام وينتهي الكابوس ؟ تتلفت برعب . ولا تدري لماذا تصرخ .. ربما قبل أن تصرخ يفتح الباب . يدخل الثلاثة — اخوتها وابن عمها — وينفجر سيل من الرصاص .. تسقط العروس الذبيحة .. تسقط نساء اخريات والرصاص يدوي ممزوجاً بالصراخ والعويل .. لحظات ، وعلى الارض اجساد تتخبط في دمائها: العروس . وأم الفتاة « السيدة أم ن . شمص » وفي رأسها احزان كثيرة ورصاصة .. أم س . شمص تصاب في خدها برصاصة طائشة .. طفلة في عامهـا الاول تصاب برصاصة قاتلة (فرحت لاجلها بقدر ما حزنت .. ما جدوى أن تكبر اذا كانت مرصودة للمصير ذاته أو

لمصير مشابه) .. يهرب العريس ع. ووالده ح. شمص باعجوبة .

(ستار) ..

عفواً . نسينا . الصحف وتقارير الشرطة تتابع ..

المكان : محلة « المرح » المتاخمة للهرمل . لبنان الاشعاع . — ويومها ذبح المرح أبدا في محلة « المرح » ..

الزمان : عصر الفضاء . القرن العشرين . بالضبط أواخر عام ١٩٦٨ ، لا عصر روميو وجولييت ، ولا القرون الوسطى .

الفصل السادس : بل السادس عشر أو السادس بعد المئة بعد الالف من مسلسل داحس وغبراء العشائر . (بالمناسبة ، هذه ليست مسرحية ، ولا رواية خيالية وابطالها ليسوا من صنع اوهام مؤلف مجنون . انهم مواطنون لبنانيون .. ولكنها ليست مسرحية لبنانية فقط .. انها مسرحية عربية من مسرحيات التخلف تدور في أكثر من قطر عربي بين أكثر من عشيرة وقبيلة) ..

الفصل السابع : كرة الانتقام في لعبة (كرة القدم) الثأر بين يدي آل شمص . يشوطونها إلى مرمى آل علو . القتيل هذه المرة رئيس عشيرة علو ..

المكان : ليس جرود الهرمل وبعلبك وعكار هذه المرة ، وانما عين الرمانة في قلب بيروت ! محطة بنزين عند مفرق شارع الشيخ بيار الجميل .

الزمان : قبل خمسة اسابيع ! ..

الاحداث : العريس ع.ح. شمص يقتل زعيم عشيرة علو (ثأراً لعروسه ، القتيل بيد أهلها منذ أشهر) .. لماذا زعيم عشيرة علو ؟ ما علاقته بالامر ؟ انه منطق العشائر الذي لا يميز الافراد الا بحكم انتمائهم لعشيرة أو لاخرى . انه المنطق ذاته الذي قاد إلى تقديم « ب . شمص » كترضية ليتزوج منها شاب من عشيرة علو !! ..

انه المنطق الفادح الخطأ الذي تدفع الاطراف كلها ضريبته .

الفصل الأخير

(الاخير حتى اشعار آخر .. تلاحقت الاحداث بسرعة . بدأت سلسلة من الجرائم لتصفية تراث من الخلافات المجمدة بين العشيرتين . تصاعدت (السيولة

الدموية) على أثر إقدام كل من الفريقين على صرف (شيكات الانتقام) .

ومنذ اسابيع عثر في احد وديان بعلبك على محمد ياسين طبيخ (٣٥ سنة) مقتولا بطلقات نارية في انحاء مختلفة من جسمه .. لماذا ؟ لانه سبق أن اتهم قبل ستة اشهر بقتل أحد افراد عائلة شمص – فضل الله محمود شمص – وتوارى يومها .. وظل متوارياً حتى تدخل المحكّمون لاجراء الصلح قبل اشهر .. وكانت « وليمة الصلح » يومها ، مسرحاً لمجزرة ، مشابهة لمجزرة وليمة صلح « عروس العشائر القتيل » ، فقد قتل يومها والد القتيل الثاني (!) على يدي م. شمص والد القتيل الاول .. والمسلسل يدور وتختلط الاسماء والقتلى .. كرة الثأر تروح إلى مرمى كل من الاسرتين حاملة الموت والدمار لأبرياء جدد ، ثم ترتد بسرعة إلى المرمى المقابل .. وهكذا .. وترتفع حمى لعبة الموت لتصبح على أشدها في الايام الاخيرة .

(كرة الانتقام تروح .. ترتد.. قتيل هنا .. قتيل هناك .. مجزرة معاصرة لا يملك القانون وسيلة للسيطرة عليها ..) ..

يوقظني صوت الزميل زهير : وصلنا .

واقرأ : بعلبك .

عن الثأر والبنادق

في مكان ما في بعلبك ، اسأل صديقاً مثقفاً من العشائر ، ما تعداد العشائر؟. وما هي؟..

يرد : سيدتي ، تعداد العشائر بالبنادق لا بالرجال !! يفوقون عشرات الالوف . ولكن البنادق أولاً .

تلك بعض آثار العصر على العشائر ! .. صارت البنادق هي البديل عن الكثرة العددية في داحس وغبراء العشائر !! ..

وحزنت ! ..

ما جدوى أن يستبدل البدوي قطيع نوقه بكاراج من سيارات الكاديلاك اذا كان سيستخدمها بالعقلية ذاتها وللأغراض ذاتها ؟ ..

تذكرت صورة مروعة التقطها مراسل صحفي ذكي وسيء النية ونشرتها (الاوبزرفر) : صورة انسان عربي في قطر ما ، عاري القدمين ، ممزق الثياب، ينوء تحت ثقل جهاز تلفزيون يحمله على ظهره .. نشرت (الاوبزرفر) الصورة دون

تعليق .. فالحضارة ليست أدواة وآلات تستورد بقدر ما هي سلوك وعقلية واسلوب في الاستعمال ..

تاريخ مجازر كالأساطير

بعلبك وآثارها عبثاً تذكرني بتاريخ مجد انساني مزدهر ، فحكايا الشاب العشائري عن تاريخ جرائم الثأر ينتزع عن عيني كل ما في الماضي من تراث عظيم ..

يقول : هذه الاصقاع شهدت عشرات من حوادث الانتقام يرويها الكبار للصغار ، يربونهم عليها ليكون سلوكهم امتداداً لسلوك آبائهم واجدادهم في العشيرة . والسبب البارز والاساسي لحوادث الثأر هو المرأة . .

– المرأة ، أم الارض ؟ المواشي ؟ المياه ؟ المراعي ؟ ..

– المرأة .

– هذا رائع .. أن يحب الرجل المرأة إلى حد أن يقتل لأجلها أمر قد يكون رائعاً ..

– انتظري حتى تذهبي إلى هناك ، وترين بعينيك ما « المرأة » في مفهومهم .. وكيف تعيش ! .. انه لا يقتل من أجل المرأة ، وانما من أجل انانيته . المرأة ليست كائناً (يحالفه) وانما شيء (يمتلكه) ! وقبل أن أذهب إلى (هناك) ، إلى جرود الهرمل وعكار حيث العشائر ، يتابع « البعلبكي » حديثه : هنالك حوادث ثأر روعت المنطقة في الآونة الاخيرة ابرزها ثلاثة ..

١ – الثأر بين آل (مفلح) وآل (المصري) ..

لقد وقعت مجزرة كانت حصيلتها ١٢ قتيلاً ! .. المروع أن حوادث القتل الجماعية ومجازر الثأر صارت تحدث خلال محاولات الصلح ..

– ......

– من تقاليد الصلح أن يتدخل كبار العشائر الاخرى الصديقة ، أو يؤتى ببدوي أصيل يقبل الجميع تحكيمه ، اذ أن عادات العشائر بما فيها قواعد الثأر ترجع إلى عادات بدوية قديمة ..

– جاهلية ؟ .

– ليس بالضبط . فيها من روح العصبية القبلية الجاهلية .. وفيها من الفهم

الخاطىء للقاعدة الاسلامية « العين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم » وفيها تراث من المرارة الكربلائية ..

— كنا نتحدث عن آل مفلح والمصري ..

— اجل . سقط ١٢ قتيلاً اثناء محاولة اجراء المصالحة .. يومها مشى في درب الصلح آل المصري خلف آل مفلح واخذوا بالثأر . كانت مجزرة مروعة . ومن يومها ، والاطراف التي تريد عقد مصالحة تتحاشى أن يسير بعضها أمام بعض ، أي أن تتقدم فئة أخرى.. حدث ذلك في (منطقة الشرقي) ، قرب بريتال وحور تعلبايا ..

— ......

— في حوادث مماثلة قتل من آل دندش ٦ افراد دفعة واحدة .. العشيرة الاخرى دفعت الثمن غالياً ..

— ......

— أحياناً يتم الثأر بين أولاد العم في العشيرة الواحدة ، ولكن حينما يتعلق الثأر بعشيرة أخرى ، ينسى ابناء العم خصوماتهم ، بالضبط ، يرجئونها ويتماسكون في وجه الغريب وفقاً للتقليد العشائري : أنا وأخي على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على الغريب ..

— ......

— من آثار العصر على جرائم الثأر هو دخول المصالح الانتخابية كعامل بارز من عوامل اختيار (القتيل) من العشيرة الاخرى الذي يثأرون منه .. مبدئياً ، في حال الثأر لقتيل ، يتم اغتيال أي شخص من العشيرة (المثؤور) منها .. صار اختيار الضحية يتم اليوم وفقاً لمصالح انتخابية (!!) ، أي أن النظام البرلماني الديمقراطي لم يفعل شيئاً لايقاف النظام العشائري المتخلف وانما سخره لخدمته !!

— ......

— كمثال على ذلك اذكر لك قصة اسرة ياغي وأسرة حيدر الاخيرة .

والتقيت بعد عودتي الشاعر والمحامي الشاب الاستاذ طلال حيدر . يروي لي حكاية مقتل خاله المرحوم سهيل حيدر الذي تم (اختياره) هدفاً للثأر لاعتبارات انتخابية بحتة !! .. وبحكم منصبه كرئيس للبلدية !! ..

ويروي لي طلال حيدر اية مأساة هي تطور جرائم الثأر البدوية إلى جرائم ثأر

برلمانية وسياسية !!) .. يتابع صديقي العشائري : لقد أفسدت (المدنية) العشائر .. خرق بروتوكولات الثأر لم يتسرب إلى العشائر الا مع تسرب لاأخلاقية حضارتنا العرجاء ، المستوردة من حيث الصورة قبل المضمون ..

— ......

— تسألين عن (بروتوكولات العشائر) ؟ .. تابعي دربك واسألي أصحاب العلاقة ..

بروتوكولات الثأر

الدرب قفر . خضرة البقاع غابت . نخترق طريقاً موحشة . اقتربنا من الهرمل ، وفي الجرود الصحراوية تركض قطعان الماعز والاغنام ، تستجدي الارض البخيلة حفنة حشيش وفرح .. تتوالى اسماء القرى الصغيرة الفقيرة .. واقرأ على لوحة : (بلدية النبي عثمان ترحب بكم) ، ولكن اللوحة مزروعة على سور مقبرة !!

(يا الهي أي ترحاب) .. واسأل رجلاً عجوزاً يقف أمام سور المقبرة كأنه أحس بدنو أجله فجاء بنفسه إلى المقبرة ، جسده تابوته ، وساقاه مشيّعوه ! ..

— ......

— نعم . انا من عشيرة (...)

— ......

— حينما أقرر أخذ الثأر ، هنالك اشياء عديدة اقوم بها :

١ — اخلع عقالي وعباءتي . لباس الرأس يدل على انني مكرم ومحافظ على شرفي ، ولذا أخلعه ريثما أسترد شرفي بأخذ الثأر . يتعب صوته . يتدخل في الحوار شاب ملتهب الحيوية مفتول الشاربين والعضلات لو لم يكن ليرتدي لباس الرأس لظننته في طريقه للاخذ بثأر ما .. يتابع ..

٢ — أترك ذقني تطول .. لا أحلقها الا بعد الاخذ بالثأر ..

٣ — لا اقرب زوجتي ، ولا اقرب اية انثى الا بعد الاخذ بالثأر ..

٤ — لا استحم حتى آخذ بالثأر .. (تكبر الحلقة حولنا . يقول احدهم باعجاب شديد : هل تعرفين أن احمد آغا شبلي حيدر قضى عشر سنوات دون ان يستحم حتى أخذ بثأر اخيه !! ..)

٥ – لا يشترك بمباريات الفروسية و (ضرب الجريد) حتى يأخذ بالثأر .
– والصلح !
– لا يتحدثون عن الصلح الا بعد انقضاء ثلاثة أو اربعة اشهر على وقوع الجريمة.. أي ينتظرون حتى (يبرد) الدم ، و (يجف) تراب قبر القتيل !!

الصيد البشري

نتابع الدرب ، وهذه الصور المروعة تتنامى في مخيلتي ، وأحس بكثير من الضيق والخشية من لقاء العشائر ..

يمر بي فريق من الصيادين (تراهم في طريقهم لصيد الطيور أم لصيد الطيور البشرية ؟)

أرتعد . اتساءل (يا إلهي إلى أين أمضي ؟ وماذا اقول للعشائر ؟ .. ترى كيف يكون لقاؤهم ؟)

كل ما سمعته كان يساعد على رسم لوحة مرعبة قاتمة لعشائر ما تزال تعيش في القرون الوسطى وتمارس طقوسها .. وحينما مررت بـ « جديدة » وشاهدت ساعة الكنيسة التي تتوسطها متوقفة (كأن الزمن مات) لم يدهشني ذلك بقدر ما أدهشني مجرد ان اجد ساعة ميكانيكية لا ساعة رملية كأيام شارلمان وهارون الرشيد مثلاً .

تمر بنا سيارة شحن محملة بأثاث اسرة نازحة كتلك التي طالما شاهدتها على الخطوط الامامية في الاردن والسويس .. (ها نحن أمام نازحين جدد .. نازحون في أرضهم .. في وطنهم ..)

(اثر مقتل زعيم عشيرة علو ، نزح عن الهرمل عدد كبير من افراد عشيرتي شمص وعلو خوفاً من تتابع مسلسل الثأر الاعمى) ..

الهرمل .. نتابع الصعود إلى الجرود ، التي تلتقي بجرود عكار في اعالي جبال لا يطالها القانون ولا رجال العدالة .

شربين ، وآل ناصر الدين

الطريق لم تعد معبدة . الوجوه صارت قاسية التعبير ، كالصخر الذي يملأ الجرود المقفرة ، وهنالك امرأة تشير لسيارتنا بالتوقف (اوتوستوب عشائري) .. واتذكر

(المرأة هي المبرر الاول لجرائم الثأر .. في المدينة حينما تخون المرأة زوجها نجد بعضهم يذهب إلى طبيب نفساني) !! ..

في المدينة صار عدد من ابناء حضارة خدمات الموانىء يقدمون زوجاتهم مقابل كسب مادي في مدينة المادة ..

هنا ، ما يزال الرجل يقتل لاجل امرأة . يقضي عمره طريداً لاجل امرأة . فلنوقف سيارتنا ، ولنترك هذه المرأة المجهولة تصعد لنرى نموذجاً (لهيلين العشائر) ، كما كانت (هيلين طروادة) مبرراً لحروب اسبارطة وطروادة ..

تصعد إلى السيارة .

نسألها إلى أين ؟

تقول بلهجة بدوية : شربين .

— متزوجة ؟

— لا . مطلقة .

— عمرك ؟

— لا اعرف .

— انت اخترت زوجك ؟

تضحك بذهول . لم يخطر لها قط ان امرأة ما تختار رجلها ..

— أولادك ؟ ..

تذكر الصبيان فقط والمواشي ! . اسألها عن البنات . يدهشها أن احداً يسأل عنهن !!! ..

تزداد الصورة كآبة .. حينما أصل إلى دار مختار شربين حيث عشيرة ناصر الدين يدهشني أن يستقبلني رجل طلق المحيا رقيق التحية والكرم .. وتتوالى المفاجآت ..

الثأر لرجال الثأر

أكتب من غرفة في تلة لا تصل السيارة إلى بابها ..

غرفة ابن احد زعماء عشيرة آل ناصر الدين ، (٣٠٠٠ شخص تعداد افرادها ولا ادري تعداد بنادقها) . هنالك ع . ناصر الدين ، شاب وسيم وذكي ، ممدد في فراشه وقد ثبت ظهره إلى جبيرة ..

هنالك ايضاً المختار م.ع. ناصر الدين ، وشاب يدعى ف. ناصر الدين يجلس امام (منقل) .. جمر .. وقهوة عربية .. واطفال .. ويدخل رجال آخرون .. كلهم من عشيرة آل ناصر الدين .. وتتوالى الاسماء .. خ. ناصر الدين ،ش. ناصر الدين ..

وجوه طيبة .. كريمة .. حتى البنادق التي يحملونها لا توحي بالشر ..

عبثاً أذكر نفسي بانني في (مركز) عشيرة .. أن اولئك الرجال يمثلون تلك الاشياء المروعة التي طالما سمعتها .. الجرائم التي لا تطالها العدالة .. والاصقاع التي يعجز رجال الامن عن بلوغها ..

واسأل ع . ناصر الدين الممدد في فراشه وانا ارشف القهوة العربية وأدخن سيجارة (لف) تولى أحدهم تقديمها لي مع شهادة تزكية بانها زرع ايديهم : سلامتك . مم تشكو ؟

— البارحة هطل المطر . مشيت نحو البئر لأرى كم من ماء الشرب تجمع فيه . زلت قدمي وسقطت على الارض .

— ......

— نعم . لا ماء لدينا . من البئر نشرب .

— ......

— لا مستشفى . لا مدرسة . لا وسائل نقل .. لا .. لا .. لا شيء ..

— ......

— اننا نعيش في شروط للحياة لا حد لقسوتها .. اذهبي بنفسك وتجولي في بلدتنا ..

يتدخل آخر : لن نسمح لها بالذهاب قبل أن نذبح لها ذبيحة ..

— وماذا لو اعتدى علينا احد ونحن نتجول ؟ ..

— ماذا .. في ارضنا ؟ .. ابداً .. ما دمت في ارضنا فأنت منا ..

(ويروون لي حكاية مسافر مر ببلدتهم وتعرض إلى حادث سرقة « تشليح » . لقد جمع أهل العشيرة له قيمة المسروقات !)

حدثني آخر (حتى في حالات الانتقام ، يكفي أن يأتي غريمي من العشيرة المعادية ويلجأ إلى داري كي احميه !) ..

طويلا تحدثنا ..

عبر اصواتهم كنت اسمع اصداء العادات العربية البدوية الاصلية .. كنت اشهد

بقايا الاخلاقية التي جعلت العرب يهزمون العالم ذات يوم ..

ماذا حدث ؟ ..

لماذا تستحيل تلك العادات إلى عامل تمزيق وتشتيت وتخلف ؟..

أمامي وجوههم الطيبة الكريمة النبيلة ، التي تسوطها قسوة الحياة في تلك الجرود النائية ، واهمال السلطات المسؤولة ..

يقول ع . ناصر الدين ، الشاب المتعلم الذكي : مأساتنا ان العصر لم يمنحنا البديل عن عاداتنا العشائرية .. المدنية أفسدت عاداتنا دون ان تحضّرنا على طريقتها .

مثلا ، حوادث الغدر هذه اثناء « الصلح » أمر لم تكن العشائر لتعرفه من قبل ..

ذات مرة ، قتل آل عبيد خمسة من اسرتنا ، ثم جاءوا حسب العادات العشائرية في حالات النوم فناموا عند قبور قتلانا .. جاء حوالي ٦٠ منهم بلا اسلحة ، وناموا حول القبور ، ووفقاً للعادات العشائرية غفرنا لهم ! ..

— اذن ما حدث بين آل علو وشمص ...

— اجل ان ما حدث يشكل خرقاً للقوانين العربية العشائرية الاصلية !! ..

— ......

— في الصيف نعيش في خيام من الشعر في الجرود .. يكفي أن يأتي القاتل ويتمسك بأوتاد الخيمة حتى نعفو عنه .. ليس الخطأ في قوانين العشائر .. الخطأ في تسرب الفساد إلى تطبيقها ! .. لقد تمزقت العشيرة ، وفشلت الدولة في أن تكون الأب الحنون البديل .

يتحدث المختار : العلم هو الحل . نأمل أن تمدنا الحكومة بالبديل . لا يكفي أن تطالبنا الحكومة بتطبيق القوانين (أي تقديم الواجبات والطاعة) . المهم ايضاً أن تمنحنا ما تمنح بقية المواطنين (من حقوق) . نأمل أن تمدنا الحكومة بالمدارس والمياه والمواصلات .

يتدخل آخر : كيف تطالبين الطفل الذي يتربى في ظل البنادق بأن يطيع سلطة لم يشهد منها سوى الاضطهاد واللامبالاة ؟ ..

بصراحة ، أدهشني وعيهم الرائع لقضية (العلم) ! .. واعجبت بفهمهم التلقائي لمأساتهم ولاسلوب حلها .. ع : (العلم لا ينقض عاداتنا ، وانما يحافظ على الاصيل

منها كالكرم والمحبة والاخلاص ، ويطور ما تبقى منها) ..

شجعني كرمهم ولطفهم ، فسألت : هل صحيح أن أحد رجال العشائر كان ذاهباً لقتل آخر من عشيرة أخرى دفاعاً عن عرضه ، وحينما قيل له لماذا لا تذهب إلى اسرائيل ، رد : ما في ثأر بيننا وبين اسرائيل ؟ .

بعنف رد أحدهم : لا والصوت (هذا قسم . انهم يقسمون بالصوت والصوت لديهم تسمية لمحمد وعلي عليهما السلام) .. أنا ش . عندي ولدان من مغاوير الجيش اللبناني .. الولاء للوطن قبل الولاء للعشيرة ..

الزوجة تدخل وتخرج بصمت . تهتم بالاطفال . تضيّف القهوة . لكنها صامتة لا تنطق بكلمة واحدة .. صامتة تماماً . واسأل ع : المرأة ليست لديكم كائناً هاماً لذاته ، بدليل زواج اكثركم من أكثر من واحدة ، واهمالكم تعليمها ورأيها و ...

و ... فلماذا ، اذن ، تقتلون لاجلها ؟! هذا تناقض .

يعترف بذكاء : حسناً ، نحن لا نقتل لاجلها . نحن نقتل لاجل أنانيتنا ..

أسأل المختار : مثلاً ما عدد اطفالك ؟

يرد : ولدان : حسان ، وعلي ، وشوية بنات !! ..

(شوية بنات . البنات بالجملة والصبيان بالتفصيل .. ولكن ! .. هذا طبيعي ما دامت المرأة عضواً مستهلكاً لا عضواً عاملاً ..)

لا مدرسة . لا مستشفى

أُغادر آل ناصر الدين وحفاوتهم لن تغادر ذاكرتي قط .

أمرُّ ببناء عتيق مؤلف من غرفتين . المفروض انها المدرسة . هنالك طفل صغير يلعب بخنجر امام بابها . أليس من الطبيعي أن يرث الخنجر ما دام وطنه لم يورثه العلم ؟

اتجول في منطقة الجرود ، من عشيرة إلى أخرى اتحدث إلى الناس الطيبين البسطاء الذين ليس (اجرامهم) سوى رداً على (اجرام) السلطات نحوهم واهمالها لهم ! ..

هنالك اشياء لا تقال لا مفر من أن تقال .. نتائج خرجت بها من تجوالي بين أكثر من عشيرة وألخصها متجاوزة ذكر الاسماء لان المقصود من هذا البحث هو تسليط النور على المشكلة بصورة موضوعية وحيادية .

١ ــ من بعيد تبدو جرائم الثأر لبشاعتها من صنع أيد فرغت قلوب أصحابها من الرحمة .

عن قرب تختلف الصورة تماماً . يصبح واضحاً أن رجال العشائر هم الضحية الحقيقية لما يدور ..

٢ ــ ليس انطلاقاً من نظرة (نظرية) ، وانما انطلاقاً من واقع اقتصادي مفجع يلمسه كل من يكلف نفسه عناء الرحيل إلى مجاهل لبنان وجروده ، أقول أن من الطبيعي أن تستمر العادات العشائرية ، وأن تتشوه ، وتنحرف ، ما دامت الدولة لا تصنع شيئاً من أجل تحويل ابن العشيرة إلى ابن الدولة .

ان غريزة الحرص على البقاء ستظل تجعل من قاعدة «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قانوناً الا اذا استطاعت الدولة الوصول إلى مجاهل الهرمل وعكار بالضمان الصحي والعلمي والاجتماعي والتساوي بين المواطنين جميعاً والغاء امتيازات طبقة الـ ٤٪ المترفة البشعة حيث تصبح القاعدة : أنصر الدولة التي تنصرك مواطناً .

٣ ــ حينما يمر (عسكري) بأحد ابناء العشائر الذين يحملون (الجفت) ويسأله أين رخصتك ؟

يرد ابن العشيرة : في ماصورة الجفت !!

(أي لن تنتزعها مني ما دمت حياً) . هذا ليس تحدياً للدولة ، وانما هو اتهام للدولة التي لا تفعل شيئاً لاجله ، والتي تضطره إلى كسب رزقه في الغاب .. وحينما يكون المجتمع (غاباً) من اللاعدالة ، من الطبيعي أن يسود قانون الغاب .

٤ ــ الاعتراض العام في المنطقة هو على اهمال النواب لهم . في جرود عكار اضطررت إلى ركوب حمار اصيب بالاغماء في منتصف الطريق ، عندئذ اضطررت لمتابعة الطريق سيراً .

في جرود الهرمل كان الجميع يتوسلون إلي : إيصال صوتهم إلى المسؤولين .. كانوا جميعاً يشكون الفقر وقسوة الحياة وافتقارهم إلى أبسط ضرورات الحياة الكريمة الصحية .. المدرسة . الدواء . الحمام . الكتاب .

٥ ــ كلما قلت لهم أن نقل طلباتهم واصواتهم هو من واجب حناجر نوابهم ، ضحكوا بمرارة كما يضحك انسان لنكتة مكررة : اننا لا نراهم الا في موسم

الانتخابات . اننا نطالبهم بالسكن هنا معنا ، لا في بيروت . كلما صار احدهم نائباً تركنا ، وانضم إلى بيروت وصرنا لا نرى وجهه الا في الصحف ، في صور الحفلات والأكل !!

المطلوب الثأر من الدولة للعشائر

وبعد ،

هذه صورة حزينة عن رجال اشداء نبلاء ، فاضلون ضمن اطاراتهم التي لم تعد معاصرة ، شجعان ونبلاء ضمن قيم متوارثة اهترأت ولم تمنحهم بديلاً عنها ..

احزانهم كثيرة كأحزان رياح الثلوج التي تحاصرهم اياماً وتقطع المواصلات عنهم .. كرمهم ما يزال بدوي الصيغة ..

عواطفهم حارة وهوجاء ، وقواهم طاقات مهدورة، وذكاؤهم يفتقر إلى بوصلة الوعي ..

١٢ / ٤ / ١٩٦٨

الشوف : مات الحرير واضمحلّ الزيتون !

« ايها المار في هذا السفح الذي شاهد على كرّ قرون التاريخ ثورات الجدود من اجل الحرية والاستقلال والشرف والكرامة ، تذكر اننا ناضلنا وحاربنا واستشهدنا لأجلك ، ولأجل تحرير بلادك من الطغيان ومن الفساد والاستعمار ... » من نصب مقبرة الشهداء — الشوف — جبل لبنان .

« ايها المار في هذا السفح » وكنت في طريقي اليه ، إلى الجبل الذي « شاهد على كر قرون التاريخ ثورات الجدود من اجل الحرية والاستقلال والشرف والكرامة » ...

جبل لبنان ، البركان الملتهب على مر التاريخ ، قلب لبنان الأصيل العتيق ، ماذا يدور فيه اليوم خلال هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا العربي ؟ ...

وانا اتجه اليه كانت رفيقة الرحلة ودليلها الاستاذة رجا . ح (خريجة الجامعة الاميركية وابنة الشوف) تحدثني عن « الشوف » اليوم ... الجبل اليوم ... وكانت تجيئني كلماتها كالدوائر التي ترتسم على سطح الماء لدى سقوط الحصى ... وفي قاع بحيرة أفكاري ، كنت احاول ان استوعب الشوف ككل .. كماض .. كتاريخ.. لأراه من خلال هذه النظرة ...

تقول رجا : الجبل متوتر جداً في مرحلة الانتخابات هذه... لا أقول لها ان الاساطير اليونانية تروي (الجبل إله رأسه في السماء وجسده على الارض ... وهو حينما يغضب يمزق مَنْ فوقه وما حوله .. وحينما يرضى قروناً ، يغذي من فوقه وما حوله بالخصب والصلابة والشعر والشهامة والفداء ، أي بالحضارة) ...

تراه غاضباً الاله الجبل : جبل لبنان ؟ ..

مهزلة الانتخابات أبداً !

بعد ان تجاوزنا بلدة الدامور ، بدأنا بالصعود عبر ذلك السفح العظيم ... (هذه

المرة ، لا بد انني ساشهد أشياء جديدة ومختلفة) ...

الخيبات تتوالى بسرعة . ففي الدقائق الاولى لصعودنا من الدامور في الطريق إلى برجا (اقليم الخروب) ، لاحظت ان الاسفلت جديد والطريق في حالة — اعادة تعبيد — وفسرت لي رجا ذلك « دوماً هكذا ... لا يتذكر نواب المنطقة ان في « الخروب » بشراً بحاجة إلى طرقات الا في موسم الانتخابات ! صارت الجرافة (والمدحلة) من طلائع موسم الانتخابات ! .. » وحتى اللحظة الاخيرة ظللت مصرة على ان لا اصدقها كي لا تتقوض احلامي بلقاء شيء جديد في الشوف ... وقررت « ربما كانت تتحدث من خلال احقاد عائلية انتخابية » .. ولكنها للاسف كانت صادقة ، اذ بعد المئتي متر الاولى التي تمت اعادة تعبيدها ، كانت الدرب بائسة تأكلها الحفر كما لو انها لم تلتق بعامل منذ اربعة اعوام ... (اذن يعبد النواب واجهة الطريق فقط كما يرص بعض البقالين الثمر الشهي على واجهة الصندوق ... والغش فيما تبقى) ...

هاربة إلى الماضي العظيم

أكلتني خيبة الامل . تعبت من رؤية هذه الاشياء الحزينة المفجعة في كل مكان اذهب اليه ... وربما رغبة في الهرب من حاضر الجبل الموجع إلى ماضيه العظيم سألت رجا : الا توجد آثار في الجبل ؟ ..

— آثار ؟ ... طبعاً سنذهب فيما بعد إلى بيت الدين ...

— لا . الآن . فوراً ... يجب ان ارى آثاراً والا انفجرت . (اذا كان الحاضر بائساً هكذا فلأهرب إلى عظمة الماضي من وقت إلى آخر كي لا ينفطر القلب !)

« مجانين ، الادباء كلهم مجانين » حملتها نظرتها الصامتة . قالت مستسلمة :

— سمعت ان آثاراً وجدت في قرية الشميس الملاصقة لبلدة برجا سنذهب اليها.

في مدخل « برجا » استوقف رجا شبه موكب انتخابي يؤيد أحد المرشحين .

كان العرق يتصبب منهم حماساً وصخباً ، وفوجئوا بكلمات رجا حينما سألتهم : هل تعرفون الطريق الى آثار الشميس ؟ .

اصيبوا بالذهول ! آثار ! والانتخابات بعد غد ! هل جنت « ابنة البيك » .. وعبّر السيد شامل . ر عن استنكاره : « آثار؟ وهل الآن وقت الآثـــار والماء البارد ! ! » ..

وازددت اصراراً . وفي برجـا رافقتنا بعثة من ابناء البلدة لزيارة آثار الشميس . اكتشفت ان اكثرهم لم يسمع بها . الأمر لا يعني أحداً مما زاد في عنادي .

التنقيب عن الآثار

امام كنيسة الشميس الجديدة وقفنا نسأل عن كنيسة الشميس القديمة التي كشفت عنها الحفريات كما يقولون ...

لم تكن هنالك اية علامات طريق او لوحات ترشد الى الآثار او تـــدل على طريقها ...

وأشار اهل القرية الى درب جبلية وقالوا من هنا ... وسرنا في الدرب دون أثر لأثر . وطوال الطريق كان ابناء(بـرجا) اعضاء بعثة التنقيب غير قانعين بموضوع رؤية الآثار ، وكانوا يتابعون حوارهم السياسي الذي بدأوه في ساحة بلدة برجـا ... وكانت كلماتهم ترسم صورة لحاضر الجبل المؤلم ... وفي ذلك السفح الشاسع حيث كاد حتى ماضيه يضيع – اذ لم نجد الآثار – كنت انصت الى حديث الجبل المؤلم وواقعه ... (لم أجد الآثار لكنني ربحت التقاط الحديث العفوي لرفاق الدرب عن مآسي الجبل الأشم) .

كان الحوار نموذجاً لما سمعته يدور في كل مكان،لكن الكلمات كانت أكثر حدة وعنفاً . الحروف مبطنة بالخناجر « فلان مات ابوه ... يجب ان يزوره المرشح للتعزية .. في الزيارة ٤٠٠ صوت ! .. يكسروا الصناديق ؟ . بخناجرنا نتصدى لهم . بيت « فلان » راح يصوتوا إلى « فلان » . حسابنا فيما بعد » ... وتشعب الحوار .

ورغم ان نسبة المتعلمين في المنطقة ٨٠٪ فان الحديث عن المرشحين ما يزال يتصف بالارتباط الاعمى بفكرة الأسرة ايام الانتخابات حتى لدى المنادين بأفكار تحررية تقدمية خلال السنوات الاربع التي تفصل بين معركة انتخابية واخرى ... ان الاقطاع الفكري ما يزال يهيمن على أكثرية المتعلمين.

رجا . ح تفسر التفاف الناس حول الأسر بقولها : نائب المنطقة لا يخدم الا (جماعته) ... ولذا يستميت كل فريق ليفوز مرشحه ... ان ذلك يؤثر مباشرة على خبزه ومورد رزقه ... احياناً تصل الكهرباء إلى نصف القرية الموالي قبل النصف الباقي المعارض بأعوام !

– ولكن ذلك دليل على ضعف الدولة وضعف تطبيق القانون بحيث صارت

(المحسوبيات) عرفاً وعادة وقانوناً داخل القانون ...

— فعلا . للاسف . وكل من يحاول التمرد على ذلك ينتهي ... ان مصير أي مرشح منفرد هو الفشل .. إنه مضطر للانتماء إلى قائمة ما ...

وعدت من التنقيب عن الآثار وقد صممت ان اكف عن الهرب ، وان اواجه مأساة الجبل الذي كان في ضميري من اساطير التاريخ .

الحرفيون وحيدون

في كل جبل عريق صناعاته الحرفية الخاصة التي تتطور مع العصر إلى صناعات أو تبقى كما هي ذات قيمة فولكلورية وذات سعر جيد لأنها مصنوعة باليد ... من هذه الصناعات صناعة الحياكة في جبل لبنان . ولها مأساة .

سليم . ل من مواليد برجا. في حانوته شبه المعتم يقول من خلف نوله اليدوي : صناعتنا تموت هنا بينما تتقدم في بلاد اخرى . لماذا ؟ لاننا لا نلقى اية مساعدة . اية حماية . الحماية لاصحاب المعامل الكبيرة . لجبر والعسيلي . نحن نعرف « المصلحة » قبله ! .. كيف اعيش ؟ على وعود مصلحة الانعاش الاجتماعي ... وعاد إلى نوله اليدوي . وخلفه بدت لوحة « يد الله مع الجماعة » عتيقة ومهترئة ، واصحاب الحرف اليدوية في الجبل وحيدون ...

الأجداد .. الأجداد

الناس هنا يعرف بعضهم بعضاً . فهذا الجانب من الجبل — اقليم الخروب بالذات — ليس سياحياً وبالتالي ما يزال منظر الغريب يثير الدهشة ...

السيد شيبان. ش خياط في برجا ، ادهشه ان اكون «بنت المنطقة » ولا يعرفني ، ولم يسترح الا حينما اعترفت له رجا بانني غريبة . الاجداد وابن فلان وبنت فلان وشجرة العائلة قضية هامة هنا . رجا كانت تحيي كل انسان يمر بنا (شي لا يطاق) . يتمتع الناس هنا بحرارة غريبة ، برغبة في الشجار ، مررت بأكثر من مشروع شجار ... واخيراً ، في احد الأزقة شاهدت ديكين يتقاتلان دون سابق انذار بعنف ، وريشهما يتطاير ... واحسست انني في جبل الديكة المتقاتلة ولكن المقاتلة ايضاً .

وصدق حدسي . انفجر شبه شجار لان احدهم جاء يوزع صور احد المرشحين

في منطقة نفوذ آخر ... وتوسط اولاد الحلال من غير اصحاب الميول (الديكية) ... وذهبت صور المرشح إلى مجموعة من الاطفال ليلعبوا بها فرحين ..

وسألت الاطفال ان كانوا يعرفون صورة من هذه التي يفرحون بها ... ؟ قالوا لا ... المهم أنها صور يلعبون بها ... وطبعاً (كما قالوا) هم يفضلون لو كانت صور قطط وارانب واشياء اخرى حلوة ! ..

مات الحرير

عيناه عتيقتان حزينتان كشجرة توت ميتة . التقيته قرب ساحة القرية . حدثني عن (ايام العز) ايام كان يربي دود القز ... ايام الحرير والشرانق ... حينما اختنق صوته شيخوخةً وكمداً ، تولى ابنه الشرح :

– ليست هنالك اية حماية للصناعات الوطنية أو أي اهتمام .. سنوات الصقيع تأتي على الشجر ويفلس المزارع اذ لا يجد من يأخذ بيده في كبوته ... أنا ؟ ... طبعاً ذهبت إلى المدرسة ... بعنا الارض كي اتمكن من التعليم ... وانا الآن كما يقولون « موظف كبير » ... اعيش في بيروت ... لولا ابي لنسيت كل شيء عن الجبل والحرير والارض ... أرقص ... واظهـــر في حفلات الكوكتيـــل كلها ... سعيد ؟ أبداً .. اني تعيس . ما امارسه بلا جذور في ماضيَّ ... اني ممزق يا سيدتي .

ربما كان لسقوط الزراعة في الجبل وتأخر اقتصاده سبباً في ارتفاع نسبة متعلميه وهجرتهم إلى المدينة ... وهذا طبعاً يؤدي بالتالي إلى زيادة افتقار الجبل إلى العنصر البشري للتطور فيزداد تأخراً .. ويزداد ابناؤه هرباً ... وهكذا ... سألت الموظف الكبير المثقف : وماذا عن بقية زراعات المنطقة ؟.. قال ... تابعي رحلتك لترى بنفسك ...

وغادرت البلدة ذات الهدوء المتوتر كقرى الاقليم كله ، ولاحظت ان احد مقاهيها واسمه « مقهى الانشراح » مغلق ...

وخلال الايام التالية التي قضيتها في الجبل ، تأكدت من ان « مقهى الانشراح » لا يمكن الا ان يكون مغلقاً !! ..

الخرنوب والزيتون

مساحات شاسعة تغطيها خضرة شاحبة بين برجا وشحيم ... شجيرات الخرنوب... واشجار الزيتون ...

تقول رجا : المنطقة فقيرة جداً ... الماء مفقود ...

— ولكن الزيتون ليس بحاجة إلى ماء ..

— اجل ولكنه بحاجة إلى اشياء اخرى ، وهي غير متوفرة ...

شحيم مجموعة من البيوت الحزينة المنثورة في حقول الزيتون ... زيتون ولوز ... وزنبق بري أسود غريب وموح كأنه احلام الزيتون مجسدة ! ..

وكالعادة ، يسقط الشعر فريسة لحقيقة ما ، حقيقة صغيرة تطل ببساطة وبلا افتعال ...

كان هنالك رجل يشبه شجرة زيتون ، مسن وقديم وأصيل وجبلي .. شاهدني ألتقط صورة لشجرة زيتون واقترب مني يسألني من أصور ؟ .. فقلت له : « هذا الرجل ... الشجرة ... أليست الشجرة حياة » ...

وانفجر الرجل ، قال : « زحف الثلج هذا الشتاء على الحقول وأكل الموسم ... هذا الشتاء ايضاً ... معاصر ... رحم الله أيام المعاصر ... وأيام بيع الزيتون ... انها سنين نحس ... حتى اللوز يحترق ... انها أيام النحس قادمة .. »

أيام النحس

في منطق العلم ، لكلمة ايام النحس أكثر من مرادف . السيد منصور. ب . المزارع المثقف حدثني عنها بمزيد من الوضوح ...

قال : فتكت الدودة والامراض الاخرى بكثير من الزراعات في المنطقة وذلك بمساعدة الاهمال وسنيّ الصقيع ، ولم يحدث أي تطور صناعي فيها ليعوض عن سقوط الزراعة ... ولم يجد المواطن لدى السلطة أي عون . مثلا ... بدأ الناس بزراعة التفاح ... نجحوا في ذلك ... ثم جاءت كارثة التفاح ... لم يكن هنالك تصريف ... لم تكن هنالك حماية ... مات التفاح وهرم الزيتون وتعب المواطن ... هذه الاراضي الشاسعة من تلك الزيتونة العربية المباركة التي يكاد زيتها يضيء ، زيتها لا يضيء في جبالنا ... حتى المعاصر اغلقت ابوابها ... القديمة، تجاوز العصر حجرها ورحاها ، وصارت تكاليفها أكبر من ثمن مبيعها ... ولم تصمد امام الزيت الحديث التجاري ... ولم يتم تطويرها ... لا شيء كما ترين ... وكانت اشجار الزيتون

بخضرتها الكامدة مشهداً حزيناً ، كما لو كانت اغصانها الممدودة نحو السماء اصابع قطيع من المصلين القدامى لمّا يكتشف بعد ان في الحياة شيئاً آخر إلى جانب الصلاة والسماء ..

في ساحة شحيم من جديد . لا شيء يشغل الناس سوى حديث الانتخابات . وتسبب احياناً جريان الدم أكثر من الينابيع .. جبل لبنان سخي بالدم أكثر من الماء ! .. ومن صفات ابن الجبل الاهتمام بالسياسة الداخلية أولاً فهي الركيزة للانطلاق الخارجي .. ليس في جبل لبنان اقطاعية اراضٍ .. فيها متناقضات ... يلخصها احد ابناء شحيم (ايضاً بعد ان اقسمت له بقائمة مرشحيه على عدم ذكر اسمه) بقوله : تعيين الناطور عندنا اهم من الحرب العالمية ... حملة الدكتوراه ينتخبون على اساس قبلي اسمه الاسرة . الدم يسيل انهاراً في الشجار أكثر مما يسيل في الحرب . مواكبنا الانتخابية كالاعراس ، يطلق فيها الرصاص غالباً على الناس ... وأحلافنا السياسية مهزلة ، آخر ما يبحث فيها هو المبادىء ! ! .. ولكن نحن ننقد أنفسنا ولا نسمح لاحد بانتقادنا ! ! هذا ايضاً من جملة التناقضات . وايضاً ، في هذا الجبل أصالة لن تخبو ...

الدواجن قبل البشر

« لطفاً ممنوع التزمير » ... لوحة في غاية اللطف إلى جانب الطريق . ما الحكاية .. مستشفى ؟ لا ... انها مزرعة للدواجن ...

ما أسعد الدواجن !...

كل ما في هذه القرى من الامور المؤلمة يشبه ابواقاً تقرع داخل أذن الانسان بلا توقف .

في قرية الوردانية ، شاهدت مجموعة من الاطفال شبه حفاة ويلعبون بصور الناخبين . واحد منهم بالذات ظلت صورة وجهه تطاردني :

كان اعور .. كانت له عين واحدة مبصرة ، يثبتها بشراسة على الاشياء .. احسسته عيناً واحدة كبيرة تتهم .. تتهم الجبل كله .. كل ما يدور ... تنزف مرضاً ونقمة ... انفجر داخل اذني بوق يرفض ان يهدأ « لطفاً ممنوع التزمير » ؟ فليركض القلب صارخاً ...

في « كترماية » ، وامام مركز بلدية القرية المغلق النوافذ والابواب ، عسكَرَ

بائعٌ جوال ، واطلت من عينيه أحزان الجبل ... « انتخابات ... متناقضات ... مزايدات » ... هذه لا يفهمها ، كل ما يعرفه انه ابن هذا الجبل ، وانه متعب وتائه ومشتت وبلا لقمة وبلا يقين ...

وانفجر داخل اذني بوق جديد ... « طوبى للدجاج في جبل لبنان » ... لا .

لقد قضت ٤٠٠٠ دجاجة من أصل ٨٠٠٠ في ريعان الشباب نحبها متأثرة بثلوج هذا الشتاء وصقيعه ..

حدث هذا في مزرعة شاكر . ح من عين زحلتا .. قال الاستاذ شاكر : الحكومة في واد ونحن في واد ... لم تعوض علينا ولا من يحزنون ! .

في هذا الجبل العظيم الذي يضطهد نفسه بنفسه ، يبدو أي عمل بناء أمنية .. لذا ، خمدت الابواق في اذني برهة لما رأيت بناءً كبيراً تدخله افواج من الشبان وعليه لافتة : « مركز التدريب المهني » .. وعلى تلة مواجهة لتلة « مركز التدريب المهني » صومعة صغيرة قيل لي ان كمال جنبلاط يتنسك فيها حين يحلو له ان ينقطع عن العالم .. (ليراه بوضوح أكثر وليبتدع لنا مراكز اخرى للتدريب نحن بحاجة اليها) .

لا ماعز في الجبل

وعلى ذكر عنزة كمال جنبلاط ، قد لا يكون مهماً انه يحبها بقدر ما هو مهم انها موجودة ! ! ... حتى الماعز في طريقه إلى الانقراض كتجارة لحوم ... وتلخص ذلك والدة الاستاذ معروف ر. بقولها : اننا نذبح الذكور ونبقي على الاناث من أجل حليبها ... (تقصد الماعز) ... نعم . نحب « انثى » الماعز ولكننا ما زلنا نفضل « الذكر » بخصوص الاولاد ... هذا بينما ارتدى الاخ معروف زي « الاغباني » الوطني (احضرته من الشام .. انظري الا يناسبني) وعبرت عن اعجابي بالتقاط صور ثلاث له ، خصوصاً وانه من أنصار أنثى الماعز !

النصر لكم يا عرب

احب قراءة العبارات المكتوبة على الجدران أكثر مما يطيب لي أحياناً الاستماع إلى رأي شخص ما ... في العبارات المكتوبة على جدران الشوارع بعفوية كما في

العبارات المكتوبة على مؤخرات سيارات الشحن .. صدق في التعبير عن واقع الناس وحقيقة تفكيرهم ... ولذا سرني ان اقرأ في « ضهور شحيم »، وسط فوضى صور المرشحين التهريجية، هذه العبارة مكتوبة بالدهان الاحمر وربما الدم «النصر لكم يا عرب » ... كان لهذه العبارة طعمها الخاص في جبل الزيتون الحزين ، جبل التوت الذاوي ، جبل الدم والعروبة .

ان اصالة الشعوب دليل لا يتيه .

فعلى مؤخرة سيارة شحن حاولت عبثاً تجاوزها كانت هذه العبارة تصفع عيني « يا ظالم لك يوم » .. واحسست ان كل ما ينقص العبارة هو التوقيع : «الناخب» .

الجمال أولاً في الجبل

وسط هذا المهرجان من الاحزان ، هنالك أشياء جميلة ... في قرية عانوت قال صديق يرافقني بحرارة : ما يميز هذه القرية هو جمال بناتها ...

وكنت أتأمل مزاراً اسمه مزار « الشيخ عثمان » مقابل لبناء « مركز الانعاش الاجتماعي » واتساءل : كرامات ! مَنْ أكثر اهمية واشد مفعولا .. الشيخ عثمان أم مركز الانعاش ؟ .. عاد يكرر : لا شيء اجمل من الجبل سوى عيون الدرزيات ... وهنا فقط تذكرت ان في الدنيا شيئاً اسمه الجمال .. الجبال التي امر بها جميلة ... جميلة فعلاً ... هنالك في حضن حقول الزيتون مقابر رخامية أشد فخامة من البيوت... مقابر يحتضنها صمت الزيتون واصالته ، تجعل الموت أمنية عذبة ...

الزعرورية ... حصروت ... لولا الحديث عن معاصر الزيتون التي بدأت تصبح آثاراً ... لولا مشهد الجسور التي لا انهار تحتها وانما مجاري سيول جافة ، لكانت تلك الجبال الشاسعة جميلة ومريحة ...

ولكن ...

القرى السعيدة

وفي قرية جميلة ، بناتها جميلات ، ورجالها رجال ، التقيت فريقاً من ابنائها ... الاستاذ حلمي. ف... زوجته اسمهان أ. ح... وشقيقتها اكرام،ونبيل. ف... وكمال ي . ج . قال الاستاذ حلمي انهم من « السعداء في الارض » . كل شيء عظيم .

المنطقة لا تشكو من أي شيء ، وهنالك معاصر زيتون حديثة ومصافي يبنيها المغترب الاستاذ نايف . ع العائد من البرازيل ...

ورغم انني اعرف انه موظف ولا يمكن ان يقول الا ما قال ، احببت ان اصدقه.. ولكن ..

ما كدت اغادر غريفة حتى سقطت في سلسلة من الاحزان اليومية المعيشية التي تؤجج عنفواناً فكرياً عروبياً يتنامى في الشوف مبشراً بزخم من الوعي والعمل المقبل .

وتتابع الاسماء ، عين بال ، بعقلين ، وانعطف صاعدة في الدرب إلى المختارة ، وتطل مفاجأة لم تخطر لي .

المقبرة المقاتلة

مقبرة عجيبة لم أرَ لها مثيلاً في حياتي . مقبرة الشهداء . في سفحٍ على رأس جبل تقع المقبرة وكل ما فيها رمزي كموقعها ، للشواهد رؤوس مدببـــة كرؤوس الحراب ... تحف بالقبور صفوف مدافع حجرية منحوتة في الصخر ، والاسلاك الشائكة المحيطة بالمقبرة تخلق ايضاً جو الحرب ... ونباتات الصبار توحي بجو من الصلابة ، انه الموت الصلب، موت الشهداء ، لا الموت الرخو المكلل بالازهار للناس العاديين ... وتقول سطور منحوتة في الصخر باسلوب مباشر غير رمزي : « ايها المار في هذا السفح الذي شاهد على كر قرون التاريخ ثورات الجدود من اجل الحرية والاستقلال والشرف والكرامة تذكَّر : اننا ناضلنا وحاربنا واستشهدنا لأجلك » . واحسست انه ليس المار وحده بهذا السفح بحاجة ليتذكر ... بعض ابناء السفح انفسهم بحاجة الى ان يتذكروا ... لو فعلوا لبرهة بصدق وكثافة لتبدلت اشياء كثيرة ولعاد جبل لبنان ، مركز الثقل السياسي في لبنان ، ليلعب دوره الطليعي العربي .. ما تبقى في المقبرة رموز .

في المقبرة اكثر من رمز سوريالي مدهش وكلها منحوت من الحجر ، وهي تحفه فنية .

هنالك شمعة هائلة من الحجر ، ربما كانت ترمز الى النور الالهي . هنالك نسر هائل صخري راكع امامها ... وبيضة الى يسارها ... ولم اتمكن من القفز من فوق الاسلاك الشائكة والتسلل الى داخل المقبرة لمزيد من الاستطلاع لان السيارات العابرة

من اجل الحملات الانتخابية كانت تمر بي ولا تهدأ برهة واحدة ...

ولا تتوقف سيارة واحدة لتقرأ كلمات المقبرة ورموزها وتعي مدلولها وتمزق بعض صور مرشحيها .

المختارة ، القرية المسحورة

كان فاصل من « الروحانيات » ينتظرني في المختارة ، بلدة الاستاذ كمال جنبلاط . كان غائباً ، وكان له حضور . من بعيد لاح بيت في ذروة التلة يشبه صومعة اخرى ، قيل انه بيت الست نظيرة والدة الاستاذ جنبلاط التي لعبت دوراً سياسياً هاماً .

الجو هناك يوحي بشيء غامض ، وربما كان موقع القرية في ذروة الجبل ... ولكن ، حينما سلطت « الكاميرا » لالتقط صورة لوحة « المختارة » تعطلت الكاميرا فجأة . فعلاً قالوا انه سحر الاستاذ جنبلاط .

وفي مثل هذا الجو النفسي وقفت امام قصره ، وكان الغروب قد بدأ يسدل غلالته الرمادية الغامضة وسقطت فريسة ما يشبه الرؤيا الموجعة .

طفت بقصر الاستاذ جنبلاط المزروع ايضاً بالرموز والتذكارات ولا أدري لماذا أحسست انه هو حتماً الذي صمم المقبرة ...

فداره متحف انساني للخيال والغرابة .. كانت هنالك خوابي ضخمة خيل الي ان رجالاً ملثمين يختبئون داخلها ! سقط زوج من السنونو في الباحة ، والتقطها « مشهور » وكيل القصر واطلقها للريح من جديد ... تذكرت فجأة تقمص الارواح وتساءلت : مَن مِن أصدقائنا كانوا ...

وفي جلسة حوَت فنون الكرم الدرزي التقليدي ، بعيداً عن خناجر (كمال بك) وسيوفه المعلقة على جدرانه ، وفي ظل رموز ذلك العلَم الحريري الكبير ذي الالوان الخمسة ، يحدثني المستقرىء العالم الروحي الشيخ كامل أ . ج . انا مستقرىء لا فلكي .. متعبد .. أصوم اياماً واعيش طقوس ديننا كي ازداد اقتراباً من النور الالهي ، فالنور الالهي اشراق ، والاقرب من المصدر هو الاغنى .

ولم ينس ان يريني كنوزه التي يعتز بها : اهداءات الاستاذ كمال جنبلاط الى

الشيخ كامل ، بخطه وعلى الصفحات الاولى من كتبه ، ثم نموذج صغير مذهب للصاروخ الاصطناعي الاول الذي أطلقه الاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٧ . وهذا الرمز هدية خاصة له تم تقديمها خلال زيارة لاتوريسون زاده عضو مجلس السوفيات الاعلى خلال زيارته لقصر المختارة عام ١٩٦٠ .

العودة إلى الواقع

بعد هذا الفاصل الروحي في الجبل المتناقض الذي يضم كل شيء ومع فجر اليوم التالي عدت الى عالم الواقع امام لوحة « معاصر بيت الدين » .

لم يكن في هذه القرية معصرة واحدة ! لم يبق فيها « معاصر » الا في اسمها فقط .. لقد نكس الزيتون راياته .

وبعد جولة طويلة ليوم مرهق التقيت بمجموعة من البسطاء وجوههم صادقة قادرة على الحب والعطاء والغضب ايضاً . حدثتهم عن جولتي في بيت الدين والباروك ودير القمر ... والوديان الجميلة المذهلة ... والناس السعداء والتعساء ... وطلبت منهم ان يحدثوني عن اساطيرهم ، عن اعيادهم ... اجابني احدهم بعينين فيهما بعض من انكسار خضرة الزيتون وشراسة نسور القمم : سيدتي ... لم تبق لدينا مواسم لتكون لنا اعياد ... أحياناً يقيمون مهرجانات سياحية في قصر بيت الدين حيث ينقلون زيف بيروت وأصباغها وأقنعتها لليلة وبعض ليلة ثم يمضون ... سيدتي ، باختصار ... الجبل مقهور ... مقهور .

ملح الأرض

في طريق العودة ، المشهد نفسه . قبيلة من البسطاء المجهولين المتعبين : ملح الارض ... حتّامَ يظل اولئك في بلادنا يعاملون كما لو كانوا دود الارض ؟؟ ... أم ان الحل سيأتي به إله الجبل ؟

٢٨ / ٦ / ١٩٦٨

الولايات المتحدة اللبنانية أم لبنان العربي ؟

آخر من يؤخذ بسحر الأوطان الجميلة ، ويتعبد في محرابها ، بعض ابنائها ! ... ربما لأنها قريبة المنال .

واستهتار الانسان بما يملك ، وجهله بالقيمة الحقيقية للاشياء – الا في حال فقدها – ، وولعه بامتلاك الصعب والنادر مهما كان ، هذا كله جزء من الطبيعة البشرية ، وموقف انساني عام يتخذه الانسان من الاشياء في كل زمان ومكان ...

ولعل ظاهرة جهل ابناء البلاد عادة ببلادهم تعود جزئياً إلى السبب نفسه ... إلى امتلاكهم لها ، وسهولة تجوالهم فيها بلا دليل ، وبلا اسعار اقامة ومنامة في الفنادق – لوجود الاقرباء والاصحاب – وإلى رخص اسعار السفر .

حتى ان السائح يغادرها أحياناً وهو يعرف عنها أكثر مما يعرفه ابناؤها ...

هذا بصورة عامة ... ولكن الامر يتخذ احياناً – في بعض البلدان المتخلفة عن تاريخها – شكل الظاهرة المرضية والمؤذية كما في لبنان مثلاً :

سألت مرة أحد جيران « متحف بيروت » عن المتحف فقال بانه لم يزره ... وحدثني بالتفصيل عن اكتشافاته في متحف اللوفر بباريس وغير اللوفر ..

ومرة دفعني الغيظ والفضول إلى ان اقضي نهاري في سيارات تاكسي (سرفيسات) عاملة على الخط الذي يمر بمتحف بيروت ، خصيصاً لافتعل حواراً حول المتحف ...

وصعقني ان اكتشف ان الجميع تقريباً لا يعرفون عن « المتحف » أكثر من انه موقف ! ودفعني ذلك إلى مزيد من الاستفسارات في أكثر من مجال وصعيد ، فوجدت ان بين اللبنانيين من لم يطأ القموعة ولم يسمع بوادي قنوبين ! .. ولم يزر آثار صور المدهشة على قربها ، ولم يطلع على قلعة صيدا إلا يوم انتخاب ملكات

الجمال فيها ، ولم يزر قلعة طرابلس الا يوم اضطر لمرافقة سائحة حسناء ..

انه يشتري البيض واللبنة من مزرعة الراقصة بديعة مصابني في شتورا ويعرف تاريخها جيداً أي تاريخ الراقصة ولكنه لم يسمع بأن في عنجر القريبة شواهد مجد رائعة ...

ان في لبنان ظاهرة عجيبة : هي ان ابناءه يجهلونه ككل ، كتاريخ ، ككيان ، وان كل فئة تعرف كل شيء عن الجزء الذي تحتكّ به مباشرة ، وان ابناء كل منطقة يعرفون منطقتهم ويعيشونها كما لو كانت ولاية مستقلة ، وهم بالتالي يتعايشون مع لبنان كما لو كان : الولايات المتحدة اللبنانية ! !

بل ان سكان بعض المناطق المتوسطة الحال يجهلون حقاً مدى الفقر الذي تنوء تحته أكثرية لبنانية ومدى البؤس والبشاعة الطبقية التي تعشش في قرى محرومة من ضرورات الحياة . هنالك في لبنان « وهم الجمال » الذي يحاول البعض تكريسه وبصورة خاصة وسائل الاعلام الرسمية وذلك ضد إرادة التبديل العادلة أو الانفجار المحتوم .

اقول هذا كله لانه تصادف انني سائحة محترفة ! ...

حياتي رحلة سياحية مستمرة ، اعيش في الفنادق وانام في حقيبة سفري ، واستيقظ مرات كثيرة في الصباح وانا احاول ان اتذكر : في اية مدينة أنا ...

اربعة اعوام ، منذ غادرت بلدي دمشق ، وانا غجرية بلا مرفأ ... يسعدني انني ابحث عن مرفأ انتماء .

لبنان كان محطتي الاولى ، واعود أبداً اليه بعد كل رحلة ، ألملم ذاتي المبعثرة وأرتب افكاري وقناعاتي الجديدة .

لبنان أحببته منذ المرة الاولى ، حباً له صفات الحب الأول : عنف ، وصدق ، مع جهل بالمضمون ...

ولكن ، حينما قذفت بي شهيتي — لمعرفة كنه ما أحب — إلى التجوال في لبنان طيلة الشهور الأخيرة الثلاثة وتجاوزت لبنان الروشة والحمرا والمجتمع المكرس للسواح — والممتع بلا شك — ومجتمع الأثرياء أصحاب الامتيازات لأكتشف لبنان التاريخ والانسان والطبيعة والخصب والعراقة .. والتخلف أيضاً ، صارت عندي للبنان رؤيا جديدة ... ووعيت انه ببساطة مجرد وطن عربي آخر يقاسي ، ولا خلاص له خارج هذا الاطار ! **ووعيت أيضاً سواقي النار المتدفقة من ينابيع القهر في مختلف المناطق .**

مما لا شك فيه ان اللبناني يحب لبنان ربما (**أكثر**) و (**وأعنف**) مما يفعل أي مواطن آخر في أي قطر من اقطار الدنيا .. ولكن ، ليس بالحب وحده تبنى الاوطان ، ولكن بالمعرفة ... والحب الذي لا ترافقه المعرفة بالشيء المحبوب ينقلب إلى ضده ...

احداث كثيرة تمر بلبنان ، تؤكد حب اللبنانيين المفرط لوطنهم ، لكنها ايضاً تؤكد في الوقت نفسه انهم لا يعرفون كيف يحبونه ، حتى انهم احياناً يفكرون حتى باحراقه من أجل تطهيره من الجراثيم وخوفاً عليه من المرض !! . (الفتن الطائفية مثلا) ..

وبعد ،

كسائحة محترفة اقترح ...

اقترح فرض « نظام السياحة الاجبارية » على ابناء لبنان واعتقد بأن هذا النظام لا يقل اهمية عن « نظام الجندية الاجبارية » ... فبالسياحة الاجبارية في الوطن سيتعرف الجميع على سواقي النار التي تتجمع يوماً بعد آخر ، وتصب في نهر من النار قد يحرق كل ما حوله ذات يوم !

٩ / ٥ / ١٩٦٩

كوكتيل مولوتوف

مشهد مروع لن أنساه . صبيحة أحد الاعياد . قطيع من الأبقار والثيران يقودها الجزار إلى المسلخ ، ليتم (اغتيالها) بمناسبة مهرجان (البطون) في الأعياد ..

كان القطيع يسير باستسلام ، وفجأة قفز أحد الثيران على بقرة في لحظة غريزية جنسية . قال الجزار بحزن : « لقد قطعت حتى الآن أكثر من ألف رأس بقرة وثور ، ولم ترتعش لي يد ، ولم يرف لي جفن .. شيء واحد يحزنني ، هو أنها في طريقها إلى الموت ، تتابع حياتها وتمارس رغائبها ، دون أن تدري أي مصير يترصدها بعد دقائق .. يحزنني ذلك ، بل ويجعلني أشعر بالذنب .. »

كلماته ملأتني حزناً ، ولكن لسبب آخر ..

فجأة استحال القطيع في عيني إلى آلاف البشر من شعبنا العربي .. ورأيت في اسرائيل ذلك المسلخ الحديث الذي تم زرعه في منتصف ساحة المدينة العربية الكبرى الممتدة من المحيط إلى الخليج ..

ورغم المسلخ القائم .. رغم الجزارين (المحترفين) المزودين بأحدث المعدات التكنيكيــة ، لنحر الشعب العربي .. ورغم عمليــات (النحر) الــتي بدأت في مسلخ دير ياسين وامتدت عامــاً بعد عام إلى مسالخ سيناء والضفــة الغربية وجنوب لبنان ، ورغم سكاكين النابالم ورغم صيحات التحذير ، ما تزال هنالك (طبقات) من الناس ، وما تزال هنالك (عقليات) ، تعيش كما يعيش ذلك القطيع الذي شاهدته صبيحة ذلك العيد ..

سهراتها الصاخبة اللامبالية ، غزوات نجومها (الدونجوانية) تذكرني بتلك الثيران التي (تقفز) لتضاجع أبقارها على عتبة المسلخ ..

آلاف من العابثين امام عتبة المسلخ رغم مجزرة ٥ حزيران ، والتي لم يعد بعدها

مجال للحذلقة الصالونية الفكرية حول امكانيات ايجاد حلول سلمية .. فالحرب مفروضة علينا شئنا أم أبينا . الحرب هي التي اختارتنا ، ونحن لم نخترها ..

حتى اعيادنا ، باتت في عيني بلا مدلول ولا معنى : مجرد لهو تقليدي في ايام معينة .. بينما المسيرة نحو المسلخ مستمرة .. مسلخ الكرامة العربية .. مسلخ غسل الدماغ العربي ..

وكلما احتفل (القطيع) بأحد الاعياد ، هجمت إلى عيني صور ذكريات العار في مسالخ دير ياسين .. وإلى أذني صرخات التحذير التي طالما أطلقها أكثر من صحفي عربي ومفكر : حذار فمدننا كلها سيصير اسمها يوماً ما : دير ياسين .

صورة ذلك القطيع بثيرانه التي لا تدري ، هجمت إلى عيني ذلك الصباح حينما قرأت على باب الفندق إعلاناً : « بشرى إلى الزبائن الكرام . بمناسبة عيد البيرة ، وتمشيا مع التقاليد الغربية الخالدة ، ولأننا في بلد الاشعاع ، نبلغكم بكثير من الفخر والاعتزاز اننا استحضرنا فرقة موسيقية أجنبية من موطن البيرة الاصلية ، لتعزف لكم ولتحي هنا كرنفال البيرة على أصوله !! .. »

(عيد البيرة ! .. وماذا عن اعيادنا ؟ عيد الشهداء .. عيد ٥ حزيران ..

اعياد ؟ .. متى نخجل ونعلن عيد الغاء الاعياد ؟ ..)

لم أقل ذلك لأول صديق قابلته ، فقد كانت تدور ذلك اليوم احداث اخرى ..

سألته : ما هي آخر اخبار التظاهرة التي قُررت لحماية العمل الفدائي بالجنوب ؟

— أخشى من حدوث تصادم ما ..

قلت : قلبي يحدثني أن شراً سيقع الليلة .. فلنصلِّ ، لا إلى الآلهة ، وانما إلى (الوعي) — فهو — الإله الذي نفتقر اليه — ، فلنصلِّ كي لا يحدث ما نخشاه .. كي لا يحارب أعضاء الجسد الواحد بعضهم بعضاً .. كي لا نستيقظ ذات صباح واذا باليد اليمنى تطلق الرصاص على اليد اليسرى .. والعين تصوب نظرات الضغينة القاتلة إلى العين الاخرى في الوجه الواحد ..

بعد الظهر كانت المأساة .. وكان الصدام .. وسقط القتلى والجرحى .. وسقط الليل الحزين المتوتر ، وسقطت الحسرة في القلوب كلها ..

التجول ممنوع .

لذا الفندق يزخر بالناس .. الحزن ينزف من الامسية المتوترة .. من العيون الغريبة .. لم يبق مواطن عربي من أي قطر الا وفي عينيه تاريخ جرح ..

تجمع النزلاء حلقات ، فيهم المتحمس ، واللامبالي ، والمفجوع ..

في الركن جلست وحيدة اتظاهر بمطالعة كتاب ..

رأسي صحراء شاسعة ، تمضي عبرها مسيرة صامتة لكلمات عارية الاقدام ممزقة الملابس دامعة العيون ..

أما الطالبات والطلاب الكُثْر الذين يقطنون الفندق ، فقد تجمعوا في حلقة تعلو أصواتها حيناً ثم تخفت .. بنات .. شبان .. كانوا باختصار فئة تمثل الجيل الجديد ، الجيل الطالع . الذي اعتدنا (إدانته) دون أي فهم لحياته الداخلية وما يدور في رأسه..

فجأة ، انفجرت الموسيقى في المكان . عزفٌ عال للفرقة الموسيقية الأجنبية التي تفضلت بافتتاح اسبوع البيرة ..

موسيقى صاخبة . قرع طبول .. أبواق .. تماماً كما في الكرنفال في شوارع بلادهم .. ولكن ، هل استيراد الفرح ممكن ؟ وهل استيراد الأعياد مقبول ؟

كان من المفروض أن نغني معهم . أن نحيط بهم في البار حيث برميل البيرة والكؤوس المجانية .. والشرب بلا حساب .. وتعيش البيرة .. يا .. تعيش تعيش .. تصفيق . رقص . عربدة . حب . هذا على الأقل ما توقعه الكبار من الأصغر سناً .

وكانت المفاجأة ..

لم يتحرك انسان من نزلاء الفندق . لم يبرح إنسان مكانه ! ! كانت هنالك قطة ... وحدها ركضت في الردهة وانطلقت هاربة بقرف من احدى النوافذ ! كان واضحاً ان أفراد الفرقة الغربية يحسون بالحيرة والارتباك رغم انهم تجلدوا متابعين العزف .. ظل الوجوم مخيماً . كأن آذان الجميع مشغولة بالانصات لأصوات اخرى ، لهتافات اخرى ، لنقاشات أخرى .. لمخاوف أخرى ..

الفرقة تتجلد وتتابع ، لا يتحرك أحد من اولئك الفتيان . « جيل الخنافس » .. كفّت الفرقة فجأة عن العزف . بدا افرادها في منتصف الردهة حائرين ، بل وخائفين .. كان في وجوههم ذلك التعبير الذي يرتسم على وجوه الحواة والدجالين حينما يقابلهم

الجمهور بالبرود لانه اكتشف سر ألعابهم ..

رئيس الفرقة حاول أن يرمي بالقنبلة الاخيرة لاثارة الاهتمام فقال وقد وقف خطيبا : مفاجأة السهرة ستكون كوكتيلاً جديداً من ابتكارنا ، نصنعه من مزيج البيرة ومشروبات سرية أخرى .

ظل الصمت جلاداً ، لم يبال أحد ، لم يلتفت اليه أحد ..
وانما عاد الطلاب إلى التهامس .
بعد دقائق ، بفضول لا يقاوم وجدتني جالسة بينهم لأسمع ،
وسألتهم في محاولة جس نبض : لماذا لا تجربون كوكتيل البيرة هذا ؟ ..

ورد علي أحدهم بهدوء رصين : لاننا كنا نخطط لكوكتيل آخر نحن بأمسّ الحاجة اليه ..

— ما هو ؟
— سيدتي : انه كوكتيل مولوتوف !!

١ — كوكتيل مولوتوف هو مزيج متفجر تصنع منه القنابل .. تلك التي يستعملها الفدائيون عادة ... والثوار .

٢ — سادتي اخواني المخدرين بالهزيمة المرتبكين بمفاجئات العصر ، هنالك جيل آخر قد ولد ، جيل ليس (مسلماً) ولا (مسيحياً) ولا (يمينياً) ولا مستزلماً للشعارات أياً كانت . .

إلى القطيع الذي بلغ عتبة المسلخ ، ولم يعد هنالك أمل في انقاذه، دعوة ليهدأ برهة ، وليشرب نخبهم : نخب كوكتيل مولوتوف .

٢٩ / ٨ / ١٩٦٩

في مضارب قبيلة « اللهيب »

الصدأ يعلو مفاصلي .
الطحالب تغطي حنجرتي ولساني .
غبار قمري يكسو عيني .
اهدابي سور من الاسلاك الشائكة .
افكاري بارود مبتل .

قلمي جندي هارب من الخدمة الاجبارية ، ربما لأنني أعي اليوم جيداً ، أن مدينتي صحراء من الاسفلت ، وانني من بدوها الرحل في عصر الفضاء ! على الاسفلت أعوم وحيدة ، — مثلكم جميعاً — بلا جذور . بلا جذور ...

كل شيء يعوم ... بلا جذور ...
الابنية .. الناس .. العلاقات .. المواقف ..الشعارات ..

ذلك بالضبط ما كنت أحس به لحظة استيقظت صباح الاثنين الماضي متوعكة المزاج دون أي سبب واضح . نهضت من فراشي ميتة ، وجسدي تابوت له ساقان ، تحملانه ليؤدي مرغماً ترحاله اليومي في مدينة يحسها أحياناً صحراء من الاسفلت ...

وقررت أن اهتف إلى الاستاذ مدير التحرير ، واقدم استقالتي ليوم واحد . لاصابتي بـ (ربو الاسفلت) ! ..

ثم سأهرب إلى الجبال النائية والغابات ، فهي الطبيب النفساني الوحيد الذي أومن به .. وهناك التقي بحقيقتي كلما ضاعت مني ، وأعيد (لملمة) ذاتي الممزقة تحت ركام التناقضات وزحام الخيبات ...

لذا ، لما ذكرتني مفكرتي انني على موعد مع الاخ د. اللهيب ، والزميل المصور زهير سعادة وكاميراه ، للانطلاق بعد نصف ساعة إلى مضارب « قبيلة اللهيب » في ذرى الجبال ، والعودة منها بتحقيق صحفي ، غمرتني فرحة حقيقية ...

فالتحقيق سيتيح لي ان أمضي في إجازة من بيروت دون ان اضطر إلى طلب إجازة من عملي .. هذا أولاً ... ثم انني سأعيش من جديد في عالم رجال العشائر ، رجال الجبال الطيبين الأشداء الذين طالما ذهبت اليهم في جرود الهرمل وعكار ، وطالما كتبت عنهم بمحبة ، لانني فهمتهم ... وقدّرتهم لانني وعيت مأساتهم ...

ثم أنني سمعت اشياء كثيرة مثيرة عن « عشيرة اللاهيب » بالذات .. تلك العشيرة القرشية الاصل التي تنحدر من أبي لهب وأبي جهل (!) والتي يقال أن رجالها ورثوا عن جدهم أبي لهب (الذي ورد ذكره في الآية القرآنية) ورثوا عنه العنفوان والرجولة .. فقط .. وورثوا عن جدهم « أبي جهل » حبه للنساء والخمرة . فقط ... ولم يرثوا إلحادهما ..

قبيلة ما يزال افرادها مصرين على الإقامة في خيامهم ، اذ ينصبونها إلى جانب بيوتهم الحجرية العصرية ، ويهجرون البيت اليها ، كأنما يلبون نداء اوتادها كما يلبي الحصان الوحشي نداء الغاب العتيق في دمه ، هارباً من الترويض حتى ولو كان مكانه فندق هيلتون مثلاً أو ناطحة سحاب مكيفة الهواء ...

وسمعت بأن اثرياءهم أو مغتربيهم ينصبون الخيمة إلى جانب « الكاديلاك » ... وبأن الثأر لديهم لا يموت حتى ولو مرت أجيال ، لأن عنفوانهم العشائري (لهبي) يفوق في (ذاكرته الانتقامية) ذاكرة العشائر الاخرى ... بل انهم على استعداد لمتابعة حرب داحس والغبراء فوراً في حال اكتشافهم لثأر منسي لهم ! ... وأنهم كرماء .. كرماء ، وان ذلك الاعرابي الذي كاد يذبح ابنه ليطعم ضيفه كان منهم ... وبأن لهم اساطيرهم وتقاليدهم وطقوسهم واسرارهم التي تستفز الشهية لسبر اغوارها ...

اكتشافهم أم اكتشافي لذاتي ؟

وهكذا « التهبت » حماساً وانا في طريقي إلى مرتفعات (اللقلوق) ، حيث المضارب الرئيسية لامبراطورية « قبيلة اللاهيب » العريقة ...

احسستني أنبض بالوديان العميقة الجميلة التي تحيط بالدرب الجبلية الخطرة . أنبض بالمنعطفات المفاجئة ، وخلف كل منعطف لوحة طبيعية رائعة الجمال (واحياناً سيارة مفاجئة سائقها مجنون مثلي) .. أنبض بأحاديث الاخ « د . اللهيب » عن تاريخ القبيلة التي ينتمي اليها ، حديثه عما كان من ماضيها ، وتمهيده لما سأرى من حاضرها.. أنبض بالمغامرة ، بمفاجآت منتظرة غامضة .

ولكن لم يــدر بخلدي في تلك اللحظة اني سأعود من مضاربهم وقد اكتشفت بعض ذاتي الحقيقية عبر اكتشافي لهم !.. وأن معرفتي بهم ستكون ايضاً بمثابة مرآة، أرى في وضوحها المدلول الحقيقي لركام التناقضات الذي أنوء تحت اعبــائه ... التناقض بين ماضي البدوي – رسوبات ألفي عام في دمي – وبين حاضري الاوروبي المظهر والسلوك في صحراء بداوتنا القمرية ! مدننا ... ذلك التناحر الداخلي في ذات كل فرد عربي ، الذي يؤدي إلى حس بالضياع والحيرة والقلق سببه انقطاعــنا عن جذور ماض كان ، هو حقيقة قائمة في دمنا سواء رفضناه أم لا ...

ضياع يتخذ لديّ احياناً صورة (فوبيا اسفلتية) ، أي حس مرعب بالعوم فوق الاسفلت بلا جذور .

هذا الانقطاع عن الجذور ، الذي لا يملك كل فرد عربي إلا أن يحسه في هذه المرحلة ، يعبر عنـــه كلٌ على طريقته ... المتحذلقون فكرياً يغطونه بقناع كنقاش مستحدث الالفاظ والتعابير هو أقرب إلى ممارسة (البينغ بونغ) الفكرية منه إلى مواجهة الذات ... كثيرون لا يَعُونه . لديهم حس غامض بأن هنالك خطأً ما ، لكنهم لا يملكون المقدرة الفكرية على اكتشاف مدلوله ، فيعايشون تناقضهم ، ثم يألفونه ، ثم يستميتون في الدفاع عن ازدواجيتهم ...

لقد كان أعظم ما هزني في « قبيلة اللهيب » قدرة افرادها على رؤية واقعهم الممزق بين الماضي والحاضر :

ماضٍ يرغمهم العصر على مفارقته ، ومستقبل لمّا يغرسوا فيه بعد جذوراً بديلة جديدة ... وجرأتهم على الاعتراف بهذا الواقع ، ووعيهم به ، ومواجهتهم له ، بل وبحثهم عن حل واقعي لمشكلتهم تلك ، التي هي أبرز ما يعانيه الفرد العربي المعاصر من عقبات ...

سقوط الأمبراطورية !!

د. اللهيب ، مرافقي في الرحلة ، ووسيطي إلى عشيرته ، هو ابن لأحد كبار رجال العشيرة ... ما نزال في طريقنا إلى اللقلوق وهو يروي لي جانباً من تاريخ القبيلة ... يقول بلهجة فيها جلال الماضي ، كأنه صوت عرافات « دلفى » يأتيني في حلم : في قاموس محيط المحيط للبستاني يذكر أن اللهيب قبيلة عربية كانت تسود في اليمن وينحدر منها أحد أئمة اليمن السابقين ، وقد خرج من هذه القبيلة أبو لهب وأبو جهل . وأسأله : وماذا تقول أنت ؟ يرد : أضيف إلى ذلك أننا خرجنا من الجزيرة العربية في موجة الفتوحات الاسلامية . كنا مع أبي عبيدة الجراح يوم انتصر على الروم واستولى على بعلبك ... هنالك قسم كبير من قبيلتنا يستوطن العراق اليوم ...

وتابع : « استوطنا في اللقلوق (قرب الأرز) منذ مئات السنين حيث كان المركز الرئيسي لعشيرتنا ... ثم ؟ ثم سقطت أمبراطوريتنا ... انتشرنا في لبنان ... توزعنا بين شكا والبقاع وصيدا وصنين وحتّى الشوف .. ليس هنالك تاريخ مكتوب للعشائر ، وانما هي تُروى خلفاً عن سلف — وما آفة الأخبار إلا رواتها !! ... ما أعرفه أن عشيرتنا جاءت من الحجاز إلى العراق ابان الفتوحات الاسلامية واستوطنت هناك ، ومنها امتدت إلى سوريا ولبنان — هذا ما رواه لي شيخ القبيلة الجليل علماً وثقافة عربية ، الشاعر ع . ش. اللهيب » .

ما الفرق ؟ جاءوا من العراق إلى سوريا ولبنان أو العكس . المهم انهم هنا . وانهم إلى ما قبل أعوام ليست ببعيدة كانوا يشيدون في اللقلوق امبراطورية من خيامهم وتقاليدهم واساطيرهم ... وانهم كانوا معزوفة بدوية حملتها ريح الفتوحات الاسلامية من قلب الجزيرة العربية لتطلق انغامها وعاداتها ولهجتها في ذرى لبنان ... ما زالوا يعيشون عنفوان الجاهلية الاولى ، وحنين الاعرابي إلى ارضه ، إلى الوقوف على اطلاله ...

هذا ما تأكد لي عبر تنهيدة حزينة لها كثافة معلقات الوقوف على الاطلال ، أطلقها د . اللهيب بعد ان تجاوزنا اللقلوق بقليل وبدأنا نقترب من مضاربهم . التفت ، فوجدته يتأمل أرضاً بدت لي فقيرة ، وانصاب التفاح فيها هزيلة كأنها مصابة بشلل الاطفال ، الا ان د . اللهيب قال والشرر يقدح من عينيه : هذه الارض كانت لنا .

— واليوم ؟

— نحن في بيروت ...

– والرزق ؟

–بألف خير .

– لماذا تنهدت اذن ؟

– لأنها أرض لهيبية ...

(وستظل أرضاً لهيبية) ، هذه العبارة لم يقلها . خيل الي انني احسست بها في لهجته ؟؟

لقد تمزقت امبراطوريتهم مكاناً ، وطريقةً في العيش . هذه الارض مثلاً ، صارت عام ١٩٦٦ ملكاً لنائب هو م. ي. بعد أن اثيرت ضجة حول (شرعية) حادثة البيع تلك ، وقال يومها شيخ العشيرة وكبيرها الشاعر « ع . ش. اللهيب » في حديثه له :

« تأكيداً لمواطنيتنا الصالحة ، سمحنا لاهالي العاقورة أن يأخذوا من مياهنا ، ويرووا أراضيهم ، ولكن يبدو أن روح التساهل عندنا قد جرت علينا أوخم العواقب ! . وسط جو التساهل هذا أصبح النائب م.ي ، لقاء مبلغ خمسين ألف ليرة فقط ، مالكاً لنصف أراضي اللقلوق ! كيف ؟؟ وبأي قانون ؟؟ كل الذي حدث ان مختار اللقلوق السيد م.م « اللهيب » استطاع ان يجمع عشرة أشخاص من « هواشر » العشيرة ، ويزين لهم بيع أراضيهم في اللقلوق ، بطريقة فيها من الخدعة الشيء الكثير ، وحملهم إلى مكتب النائب م. ي. ومن هناك ، واثر جو « تطبيقات » كان فيها الجماعة كالأطرش في الزفة ، انتقل الجميع إلى دائرة الكاتب العدل في جبيل ، وتنازلوا للنائب م. ي. عن أراضيهم بمبلغ خمسين ألف ليرة لبنانية .. »

ومن قوله كذلك :

« والمخجل أن التنازل حدث في مكتب الكاتب العدل ، لا في الدوائر العقارية كما تقضي الاصول القانونية . أما لماذا لم يتم هذا الاجراء في الدوائر العقارية ، فذلك لان هذه الدوائر رفضت اجراء عقود التنازل على اعتبار أن الحجة الملكية الموجودة في حيازتها لا تعطي لهؤلاء أو لغيرهم حق التنازل أو البيع !! .. » .

ويومها قال أيضاً : « نحن بدو ... والبدو أعرف الناس بالدفاع عن حقوقهم ... »

ولكن،ها قد مر عامان ... أكثرهم نزح عن المكان سعياً وراء الرزق . منطق العصر قاس وشرس ، ولكن لغريزة البداوة نوازعها التي يصعب اخمادها وترويض

طبائعها في سنوات قليلة ... ودون تعويض فكري وروحي ومادي مناسب ...

كان ذلك هو الانطباع الذي داهمني حينما بلغت أحد مضارب القبيلة .

خيمة كبيرة ملاصقة لدار حجرية .. لكن أهل الدار فيما يبدو ما زالوا يفضلون الخيمة ، لأنني وجدت الدار خاوية ، واصحابها في الخيمة ...

العودة .. ألف عام

خطوة واحدة من خارج الخيمة إلى داخلها ، عتبة واحدة اتجاوزها ، فأجدني وقد عدت إلى ما قبل ألف عام ... كانت هذه اول مرة ارى فيها خيمة عربية من الداخل .. انها جميلة إلى حد لم يخطر لي قط ... الخيام الوحيدة التي رأيتها من قبل كانت خيام اللاجئين .. انها لوحات للبؤس والفقر بارضها الترابية وجدرانها المثقوبة الملطخة ابداً بالبارود والوحل وبقايا الدم ... منظر الخيام مرتبط في خاطري بالبؤس والتخلف .. حتى الخيام الحريرية التي تتعرى فيها ممثلات هوليوود في أدوار جواري ألف ليلة وليلة تمثل في نظري بشاعة انسانية اخلاقية رغم جمالها الخارجي ...

هذه الخيمة ، خيمة السيد ع . اللهيب كانت حضارة قائمة بذاتها . كل ما فيها يشهد بالاصالة والعراقة والفن الشعبي الحقيقي ... الشيء الذي يذكر بكلمة تراث بابعادها كلها ... الخيمة واسعة ، كأنها دار من البسط والمساند والارائك . متعددة الغرف . سقفها من الخيش المدروز بالثقوب بحيث يحجب من الشمس حرارتها ووهجها ويبقى على نورها ... الارض مغطاة بالحصر ... ثم تكايا ... ثم مساند بيضاء مطرزة تذكرني بمساند جدتي في دارنا العتيقة في دمشق ... ابرز ما يلفت النظر هو نظافتها المدهشة .. بياضها الناصع جداً الذي تتألق فوقه جلود مصبوغة بألوان حمراء خضراء بنفسجية صفراء رائعة التألق ... كأنها قوس قزح مسكوب باتقان على مرتبة الخيمة التي تغطي ما تبقى من ارضها حصر جميلة الجدل ...

(لا ادري لماذا شعرت براحة غامضة عميقة وانا اخطو إلى داخل الخيمة .. كأني اعود إلى داري التي فارقتها منذ ألف عام .. ألف عام قضيتها في التسكع على ابواب الحضارات .. لذا ارتميت على الاريكة بتعب عصفور طار ألف عام تحت المطر والريح ، وعاد للتو إلى عشه !) ...

وقال لي صاحب الخيمة ما كرره فيما بعد رئيس القبيلة : وقعنا في التناقض

لأننا لم نجد البديل لحياتنا البدوية الاصيلة !

زاهية ابنة صاحب الخيمة تعد لنا القهوة . تدقها بالمهباج .. (كم المهباج بشع حينما اراه في البيوت البيروتية ، يستعملونه للزينة في صالون ستيل انكليزي الطراز ! !) المهباج هنا في مكانه . يستعمل لغير الزينة . زاهية تطرق حبات البن بطريقة خاصة .. تذكرني بقرع الطبول في الغابات ... تفوح رائحة البن والهال ... (احسني لم اشرب قهوة حقيقية منذ عصور . شيء غامض يشدني إلى كل ما في هذا المكان . يجعلني أتآلف معه كما لو كان « مربط خيلي » الحقيقي ، بلذة ارشف القهوة التي استغرق اعدادها أكثر من نصف ساعة ، ثم فجأة يغمرني احساس عميق بالذنب يفسد علي متعتي . اية طاقة مهدورة أن يستغرق اعداد فنجان من القهوة ما يستغرقه صنع قنبلة مثلاً ! ! ... أليس تناسينا لهذه الحقيقة هو الذي جعل أكثر خيامنا العربية العريقة تتحول إلى خيام لاجئين ممزقة ؟ ... وما تبقى مهدد بالمصير ذاته إذا لم ... يا لتناقضنا !)

يدخل طفل زاهية وبيده لعبته . اكتشف انها عصفور حي ! ! ...

(لا ادري لماذا تذكرت بقرف دكاناً فخمة لبيع لعب الاطفال في الروشة . قررت : اذا نكبت بالزواج وبالاولاد ، سأعطيهم دمى حية ... دبباً وعصافير وافاعي حية ... لن أروضهم منذ طفولتهم على التحنيط ، يجب ان يعرفوا ان العصفور يتألم ويموت،والافعى تلدغ لتدافع عن بقائها ، والعالم ما زال غاباً ، لكنه يصدر الينا تحديره ، وبابانويل العصر لم يحمل لنا في جعبته منذ عصور سوى الافـــاعي والديناميت) ...

ع . اللهيب ... ربما كان في الاربعين ، أو الخمسين .. له وجه صقر لذا يصعب تحديد عمره ... حدثني طويلاً عن الماضي حتى استيقظت من خدر الخيمة .. رغم كرمه العربي (الصفة المشتركة بين العشائر كلها) وإلحاحه (حتى ولو بقوة السلاح) على ان يذبح لنا ذبيحة ، انتهزنا فرصة قيامه للصلاة وهربنا ..

فصورة الخيمة هذه هي الجانب العشائري السحري المكون « لقبيلة اللهيب » ...
يبقى الجانب الآخر .. الواقعي .. المرير ... واقعهم كمواطنين ..

قافلة من الموتى

في خيمة اخرى ضربها إلى جانب داره التقيت بالسيد ط . اللهيب ، ذكي جداً ،

مرح جداً ، يبدو عليه حب الحياة . يخفي مصائبه خلف حيويته وحديثه الذكي (لم يذكر لي من مصائبه سوى زواجه بامرأتين !!) ... لديه ١٥ ولداً ... ٦ منهم يتعلمون في (مدرسة المعارف) بالكورة ... (ابرز ما لاحظته لدى جميع من قابلته من اللهيبيين ، وعيهم الذكي لأهمية العلم وضرورته ، وسعيهم لتعليم أولادهم بأي ثمن ... انهم في مقدمة العشائر العربية التي تناضل لتعلم اولادها) ...

كان يحدثني كيف صارت خيامهم مجرد (صيفية) بعد أن كانت وجودهم كله ، أيام كانت الحياة ترحالاً بدوياً في الصحراء ، وقبل ان يصبح الامريكان بدو الفضاء الرحَّل !... وفجأة وجدت ضحكاتي تختنق امام مشهد مؤلم مؤلم أعرف جيداً انه لن يكون وقوداً لحروفي الثائرة فحسب ، بل سيكون مشهداً جديداً ينضم إلى قافلة كوابيسي الليلية ... اجل ! شاهدت قافلة من الاغنام ، حوالي ٥٠ غنمة أو أكثر ، كلها تسير مريضة منكسة الرؤوس وتعرج ... تقفز على ثلاثة قوائم وتجر بجسدها قائمتها الرابعة المريضة ، وثغاؤها يستنزف الحزن والشفقة ... (انه مرض العراج . منذ مئة سنة كانوا يداوونه بالشبة البيضاء والزرقاء . ويبدو ان المسؤولين لدينا كلمتهم ثابتة حتى في حقول العلم ، اذ ما زالوا يداوون المأساة بالعلاج العتيق ذاته .. وها هي الاغنام تنفق) .. علمت فيما بعد من أحد مثقفي المنطقة — وقد طلب الي عدم ذكر اسمه كي لا يهتم المسؤولون بمداواة فصاحته ! — ان خسارة لبنان هذا العام من امراض المواشي تفوق الـ ١٠٠٠٠٠٠ ليرة . وانها لمهزلة ان هذه الارض التي كانت تصدر اللحم أيام الرومان يستورد اليوم ابناؤها اغنامهم من تركيا وغيرها !! ...

تجولت بين الخيام . تحدثت إلى الكثيرين ... شكوا الي من كل شيء .. لا ماء ، لا كهرباء . لا مستوصف . لا رعاية زراعية . التفاح مضروب ... المدارس نائية ... المأساة نفسها في كل مكان ...

(ما الفرق ؟ في عكار ! في اللقلوق ! في البقاع ! في وادي خالد . في الهرمل . ما الفرق ؟ سأجدني أمام الصورة نفسها . رجال قبليو المفاهيم ، شجعان واشداء واذكياء ، يمزقهم حرمانهم من رعاية الدولة واستئثار احدى طبقاتنا الاجتماعة بخيرات الوطن كله ... ستتكرر المشاهد .. وان تبدلت الاسماء ... ستتغير الصور وسأعود بالمدلول ذاته .. صرت أعرف ما يدور في/ تلك المناطق النائية حتى انني استطيع كتابة تحقيق كامل دون ان اغادر مكتبي بل وتحقيق مصور أيضاً ... صارت

صور الرجال المسلحين الاشداء ودلائل اهمال الدولة لهم على أكثر من صعيد متوافرة في ارشيفنا المصور . لدينا صور خيام . صور اطفال حفاة ملعبهم مقبرة . صور مستوصفات موصدة الابواب . صور نساء يحملن الماء في الجرار ، وينابيع شحيحة . صور مدارس مهدمة كبيوت الاشباح لقرى ما تزال تضاء بمصابيح الكاز . صور رجال ايديهم مشهرة احتجاجاً وغضباً بينما كانوا يحدثوننا عن الزيارة اليتيمة لنائب منطقتهم في موسم الانتخابات .. وعن الدود الذي يأتي على الموسم ... والمرض الذي يحصد ماشيتهم ... أكثر من مرة كتبت عن العشائر ، وتقاليدهم في أخذ الثأر ، والزواج ، والصلح ... واعتمادهم على بنادقهم ، لا على بنادق السلطات الرسمية ... وأكثر من مرة ذهبت اليهم وعايشتهم ، ولانني عرفتهم احبيتهم ... وأكثر من مرة ناديت بضرورة فهمنا لوجهة نظرهم ، ولمدلول تماسكهم العشائري وتمسكهم بقوانينهم القبلية ...

لقد لقيت لديهم جميعاً ايماناً حقيقياً بتقديم الولاء للوطن على الولاء للعشيرة ، ولكن في حال غياب عدالة (الدولة) واهمالها لهم واعتبارهم مواطنين درجة عاشرة لا نستطيع ان نلومهم اذا وجدوا في تماسكهم العشائري الوسيلة الوحيدة للحفاظ على بقائهم ...)

الثأر لعشائر الثأر

من جديد اجدني مرغمة على اتخاذ الموقف السابق ذاته ...

ان « عشيرة اللهيب » تواجه وحيدة ضرورات التكيف مع الحياة المعاصرة ... مثلها كمثل العديد من اهل العشائر اللبنانية ، النازحين عن ارضهم وماضيهم سعياً وراء العيش الكريم ، لانهم يعيشون في مناطقهم (النائية !!) حياة مواطن محروم من ابسط شروط الحياة الكريمة والحقوق الانسانية ... (قال لي أحدهم : شكراً للامطار ، فلولاها لماتت القبيلة من العطش !) .

اني من جديد انتصر للعشائر التي اعرف جيداً انها تخالف (قوانين الدولة) وتقتني السلاح وغير السلاح ... فغياب الدولة هو المسؤول ، وليس غياب الاخلاق لدى رجال العشائر ... بل انهم وحدهم ما زالوا يحملون طابع اصالة الاخلاق العربية القديمة التي لما تفسدها بعد مدنية تقديم الخدمات للسواح وثراء لااخلاقيات اقتصاد الخدمات ... من جديد ، أطالب بأخذ الثأر لهم من الدولة — قبل ان ينفجر شيء

ما بطريقة ما — ، لإهمالها هذه الطاقات البشرية العربية التي يشرنقها الاهمال والنسيان ، والتي طالما اسأنا فهمها ، واتهمناها بالتخلف ، متجاهلين مسؤوليتنا في تكريس هذا التخلف ... نمنع عنها الخبز ثم نتهمها بالسرقة ! نتركها بلا حماية ثم نتهمها بحيازة غير مشروعة للاسلحة ! ... لا نشيد لأطفالها مدارس ، ثم نلومهم شباناً حين نقودهم الى السجن ! ...

واذا كانت «عشيرة اللهيب» تشارك بقية العشائر متاعبها ومآسيها واكثر تقاليدها في الثأر والافراح والاتراح ، فان هنالك ما تتميز به في نظري شكلاً ومضموناً .

اللهيب : اسم على مسمى ! ..

لما بلغنا خيمة السيد ع . اللهيب تأمل في وجه د. اللهيب (الذي لم تسبق له رؤيته) وقال له فوراً : أنت لهيبي ! ...

ومما لا شك فيه ان الشبان اللهيبيين الكثر الذين قابلت كلهم يتميز بـ «طلّة» خاصة ...

وجه اللهيبي بدوي السمات . نظرته المباشرة الصريحة بدوية . عيناه صقراويتان متسعتان . في نظرتهما نوع من اللهيب (يحرق ام يطهر لا ادري) . يشوب بياضهما بعض الحمرة (كحمرة رجل نزق المزاج حاد الطبع شهواني وثمل) .. سمرته القاتمة ملتهبة اللون . جبهته صحراوية الشموخ . فكه العريضة تدل على العناد ، ابتسامته تتحول الى قهقهة لها صوت طرطقة خشب يلتهب . قبضة يده صحراوية الاتساع وتصافح بحرارة لهيبية ...

هذا شكلاً . اما مضموناً ، فاللهيبي يمتاز باعترافه بمساوئه ونقاط ضعفه ومواجهته لذاته ...

التناقض ... ولكن بلا رياء

في دار شيخ القبيلة الجليل ع . اللهيب الرجل الذي يحفظ نصف الادب العربي القديم ويفتخر بنظمه للشعر وبخطه العربي الجميل (ثلث ، رقعي ، و ..) استمعت الى عرس بدوي عمره الف عام ... الربابة نفسها .. الشعر نفسه .. الالحان نفسها ، لكنها مسجلة على آلة تسجيل حديثة ...

شعوب اخرى تطورت حتى اخترعت آلة التسجيل . رافق تطورها العلمي تطور انساني وفني وفكري ... نحن استوردنا الآلة ، وبقينا على ما كنا عليه من موسيقى وشعر وأدب وقيم ...

أظن ان ماركس هو القائل بأن درجة رقي الشعوب انسانياً تقاس وفق نظرتها الى المرأة ، وهنالك اجماع على صحة هذه النظرة لدى الاطراف كلها من يمينية ووسطية وشاقولية وافقية ...

(اذكر ان الاخ د . اللهيب الشاب المهذب و (المودرن) ، سألني فجأة حينما اقتربنا من مضارب اللهيب : هل ستتولين انت قيادة السيارة عندما نصل الى (الربع) ؟ ...

— طبعاً .. وماذا في ذلك . ألا تعجبك قيادتي للسيارة ؟ ..

— بلى ، تعجبني ، لكنها لن تعجبهم ! ! ...

وفهمت فوراً الوضع الاجتماعي للمرأة في « عشيرة اللهيب » ، وجاءت كل الاجوبة التفصيلية اللاحقة تأكيداً للواقع الذي لخصه د . اللهيب في سؤاله العفوي البسيط الذي طرحه علي .. ناقشت زعيم القبيلة حول ضرورة عمل المرأة كي تكف عن ان تكون عضواً مستهلكاً مهدور الطاقات ، وكي تساعد في رفع المستوى الاقتصادي للاسرة وبالتالي للوطن .

قال : نحن نعارض حرية المرأة . ونعترف بأن هذه من مساوئنا . البنت منذ ولادتها عندنا (نجيرها) باسم احد اولاد عمها . نعترف ايضاً بخطئنا هذا (انه على الاقل يعترف . اكثر شباننا المتخرجين من جامعات اوروبا لديهم النظرة ذاتها لكنهم يرفضون مواجهة ذواتهم . يرتدون أقنعة التناقض) .

يتابع الشيخ : — لكن التخلي عن ماضينا ليس امراً يسيراً ، والبقاء عليه ليس امراً مستحباً ايضاً ، وهذه الحيرة تعذبنا ، لان الحضارة والبداوة ضدان لا يجتمعان ونحن وقعنا في التناقض لأننا لم نجد البديل لحياتنا البدوية الأصلية ... (البداوة والحضارة اجتمعتا على شريط التسجيل الذي كنت قد سمعته للتو . كانت دقائق استماعي للشريط تملؤني باحساس غامض بالحيرة ... تثير في نفسي عشرات الاسئلة : احقاً ان البداوة والحضارة امران لا يجتمعان ؟ .. هل النسف الكلي امر لا مفر منه ؟ ام

أن الاحتفاظ بالاصالة مع التطوير امر ممكن ؟ ثورة ام تطور بطيء ؟ بدم ام بدون دم ؟ ..

تراها تلك الحيرة مبعث ضياعنا وعذابنا ، وتناقضاتنا وضيقنا ، واحساسنا بأن اوتاد خيامنا مغروسة في الرمل ، بينما عماراتنا ما تزال تعوم على الاسفلت .. مثلنا ؟ ..) ..

يا نحن ...

وبعد ،

لقد ذهبت لاكتشف « قبيلة اللهيب » فلم اكتشف لديها اشياء اسطورية مثيرة جديدة ، الا انني اكتشفت فيها بعضاً من ذاتي العربية أنا الشريدة في وهج العصر ، واكتشفت فيها صورة مصغرة لتيه شعبنا العربي في هذه المرحلة بين ماضيه وحاضره ... بين ما يؤمن بضرورته . وما يقوى على القيام به ... وجدت صورة مصغرة لوقفتنا على جسر الحاضر ، بين شاطىء الماضي الذي لم نعد نملك الا ان نفارقه ، والمستقبل الذي لما نغرس فيه بعد جذوراً بديلة جديدة لنا ، وكل ما ينتج عن وضع كهذا من تناقضات وحس بالضياع ...

لقد عدت من مضارب اللهيب وانا قانعة بان شعبنا العربي في هذه المرحلة ليس الا « قبيلة لهيبية » تعدادها مئة مليون ، لا تقطن ذرى اللقلوق في لبنـــان فحسب، بل وتمتد من المحيط الى الخليج ! .. والفرق الوحيد ان عشيرة اللهيب تدري تناقضاتها وتعترف بها، بينما ترفض أكثرية « عشيرة » الشعب العربي ان تعترف !! .. وتخفي رأسها كالنعامة في اسفلت صحراء المدينة المخدر .. واذا تصادف ان مرت ببعض افرادها لحظات صحو ، فانهم يصرخون كما صرخت .. يعومون في فضاء من الاسفلت .. يرون كل شيء مثله رمادياً .. قاسياً .. نائيـــاً .. بلا جذور ... وكل ما هو بلا جذور يظل غير حقيقي ، وعابرا ... وجوده مخلخل وسقيم ...

واذا كانت قبيلة اللهيب خيمة حزينة في صحراء تجاوزها العصر ، فنحن ايضاً لسنا أكثر من طحالب بائسة على اسفلت العصر بلا جذور ..

تلك هي مأساتنا ...

اليس تشخيص الداء نصف مرحلة العلاج ؟ ...

٢٤ / ٥ / ١٩٦٨

وادي قنوبين

« قنوبين كلمة ترجع الى اصل اغريقي ، اغلب الظن ، هي Konnobion وتعني الدير او مكان التنسك . وسمي الوادي كذلك لكثرة وجود الاديرة فيه . ويرجع بناء دير قنوبين بالذات ، الى القرن السادس للميلاد ، ويقال ان احد تلاميذ « تاردوسيوس » ، صاحب الطريقة الرهبانية المنسوبة اليه هو الذي بناه .

« ويقع الدير في الجانب الايمن من وادي قاديشا، تحت غابة الارز المشهورة، وهو عبارة عن مغارة عادية طبيعية عمدت الى تنظيمها يد الرهبان فأصبحت مع الزمن ديراً قائماً بذاته ، اتخذه بطاركة الموارنة كرسياً لهم .

« وقد وصفه « دانديني » الراهب الايطالي الذي زار لبنان بمهمة كهنوتية، في آخر القرن السادس عشر ، وتحدث عنه مؤرخو الكرسي البطريركي باسهاب ومن الطريف ان هذا الدير كان عبارة عن استراحة يلجأ اليها عابرو السبيل في تلك المنطقة دون تفريق بين اديانهم ومذاهبهم فيجدون فيه الرعاية كما يجدون فيه اسباب الراحة للنوم والطعام ويقول دانديني المذكور ان موائد الدير كانت مبسوطة في كل ايام السنة لجميع الناس دون استثناء لا لأبناء الملة المارونية فقط بل لجميع المسيحيين على اختلاف مذاهبهم وحتى المسلمين ، فكان الدير يقدم لهم الطعام مدة اقامتهم » .

— الشيخ طه الولي —

من جديد ، احمل عيني « كاميرتي » ، وأذني قلمي ، وقدري ، قدر البحث عن المعرفة ، عن حقيقة ما ، وارحل بها مع ساعات الفجر الاولى ... الى وادي قنوبين هذه المرة ... الى منطقة لبنانية نائية اخرى ... هذه الرحلة ايضاً ، لماذا ؟ ...

لا لأنني مريضة بحب اكتشاف المجهول فحسب ، ولا لأن الصحافة في نظري هي أولاً لقاء مباشر وهادف مع أبناء الشعب البعيدين عن مسرح الاضواء في أسواق

مجتمعنا ، ولكن – أيضاً – لانني أجد في هذه المناطق اللبنانية نماذج بشرية واقتصادية واجتماعية عربية. متكررة في كل قطر عربي وان تبدلت الاسماء والامكنة ... ولانني أجد في عرض مشاكلها وقضاياها تصويراً لمشاكل وأحزان عربية تواجهها عادة البلاد المتخلفة في فترات وعيها الاولى وسعيها لاعادة بناء تاريخها المغدور .

بعبارة اخرى ...

كتبت عن طرابلس مثلاً ، تلك المدينة العريقة ذات الامكانات المهدورة ، وكنت احس اني في طرحي لنماذج من مشاكلها انما اتحدث عن كل طرابلس في اكثر من قطر عربي ... وعكار ، الابن غير الشرعي للبنان ما هو الا نموذج يتكرر في عالمنا العربي ... هنالك اكثر من عكار واحدة ، واكثر من طرابلس واحدة ، واكثر من شوف واحد ...

واليوم ، اذ اتحدث عن وادي قنوبين ، فلأنه صورة جغرافية عن الاعماق الانسانية للفرد العربي المعاصر ...

وادي قنوبين العجيب ... بما يضمه من قديم مفرط في القداسة والقدم ، وحديث الكتروني الجدة ، وامكانات طبيعية ليس لجمالها مثيل الا إهمالها ... وادي قنوبين بالاضافة الى ذلك يطرح قضية هامة وحساسة ، هي قضية الدين ، ودوره في مرحلتنا الراهنة .

وادي الدير والصومعة

افضل تعريف لوادي قنوبين هو اسمه ... فقنوبين كلمة يونانية قديمة معناها : الدير والصومعة ...

وهو بحق وادي الاديرة والصوامع ... يقع قرب وادي قاديشا ، وقاديشا معناها القديسين ... اصلها « خلهون قاديشيا » اي « كل القديسين » ... والمنطقة مركز ديني منذ اقدم العصور كما يدل اسمها ...

وادي الصوامع والاديرة قنوبين يمتاز بطبيعته غير العادية ...

فهو وادٍ سحيق ينفتح في صدر الارز ، عند قرية بشري ، وانت تهبط من ارتفاع آلاف الامتار الى مستوى سطح البحر دفعة واحدة ...

جمال الوادي أخاذٌ فعلاً ، والى حد لا يوصف ، والى حد يُنسي الزائر متاعب السير على الاقدام ... اذ ليس في الوادي اية طريق الا القادومية ! .. (صدق أو لا تصدق) ! ..

انت معي الآن في واد مذهل الجمال والخضرة ، ومن القمم الشاهقة المحيطة به تنحدر شلالات غزيرة .. ولا عجب اذا اسمي احدها « الميسيسيبي » .. هدير الشلالات هنا انشودة غامضة لا تنقطع لحظة واحدة ... والماء والخضرة رداء يكسو الوادي بأكمله .. بلا نهاية ...

شيء ما في الطبيعة الجبارة يذكر الانسان دوماً بقوى ما وراء الطبيعة .. شيء ما في السماء الشاسعة — حيث لا تلمح أبداً ناطحات السحاب و (انتينات) التلفزيون ومداخن المعامل — يذكر دوماً باسرار الوجود المختبئة خلف قناع السماء الازرق ... شيء شفاف ، المدى الرحب يذكر بالمطلق . .

ولعل العامل الجغرافي كان من اهم اسباب نشوء الاديرة هناك منذ اقدم العصور ، والصوامع ، والقديسين ، كأن الانسان امام الطبيعة الجميلة لا يملك الا التعبد لصانعها ، والبحث عنه ، ومحاولة التقرب منه بالتنسك والعزلة ... والواقع اننا نلحظ دائماً وجود الأديرة في مناطق خلابة الطبيعة ، صاعقة الجمال .. ويضم هذا الوادي عدداً لا حد له من الاديرة اذكر منها : ام السبعة ، دير الصليب ، مار انطونيوس ، مار سلوان ، مار جريس ، مار يوحنا ، مار ميخائيل ، مار آسية ، القديسة بربارة ، مار سمعان ، سيدة طورزا ، سيدة حوقة ، مار ليشع ، سيدة قنوبين ، وغيرها... ولا اظن ان في العالم منطقة ، كثافة الاديرة فيها تفوق كثافتها في هذا الوادي .

مع « الحبيس » والنبوءات

يتحدثون في الوادي عن راهب حبيس صومعته منذ اكثر من عشرين عاماً ... يقولون انه يتمتع بقوة خارقة في معرفة المجهول ، وينسبون اليه كثيراً من المعجزات ، ثم يشيرون الى دير في صدر الجبل الصخري ويقولون : هو هناك ... وكان ذلك كافياً لأتسلق الدرب الجبلية اليه كأية ماعز محترفة .. وانا اسير على التراب الندي ، وانا اشم رائحة النباتات البرية ، وأنا انتزع من ذراعي بعض اشواك الدرب ، وأنا ألامس الطبيعة الجبارة بصورة مباشرة وحقيقية ، بدأت سخريتي من أمور « القوى

الخارقة » و « معرفة المجهول » تفارقني ...

كنت اتسلق الجبل في ذلك الصمت غير العادي ، واصوات الطبيعة التي نسيتها منذ زمن بعيد توقظ في أعماقي أشياء مبهمة منسية وأحاسيس غامضة .. كنت واثقة من أمر واحد ... لو استطعت الوصول امام باب المعبد بسيارتي لدخلت اليه معبأة بالسخرية والرفض لاية محاولة يقوم بها انسان آخر مثلي لكشف حجب المجهول ... ولكن في تسلق الجبل والبعد عن مظاهر الحضارة الحديثة ما يضعف مقاومة الانسان امام عالم الروحانيات ... (ترى هل هذا هو السبب في عدم شق طرقات في هذا الوادي ، وعلى نفقة الاديرة الثرية التي تملك أراضيه كلها ؟) وتملكني الغضب ، من اجل ابناء الوادي . لكنهم متدينون وسعداء وليسوا معي في غضبي من اجلهم ولا تبدو في عيونهم أية ثورة أو رغبة في التبديل !! .. ترى هل تبرر الرغبة في انقاذ طاقاتهم غير المستغلة علمياً إرغامنا لهم على التبديل ؟... والى اي حد يحق للدولة التدخل في حياة الافراد ؟ . وهل هنالك وجهة نظر معينة او صيغة قومية يحق لنا ان نقيم اسلوب الناس في حياتهم من خلالها ؟ ..

اصعد الجبل ، وفي رأسي تتشابك هذه الاسئلة كلها ، وآلاف النظريات والاجوبة الناقصة ...

صلاة للقرويين المتعبين

امام باب الدير أقف .. الباب موصد ، تكسوه مئات الاسماء المحفورة على خشبه العتيق ... اسماء واسماء وتواريخ ، وتحت الاسماء ، ارى مئات العيون الدامعة بجوعها الى الطمأنينة واليقين ، التي جاءت الى هنا ، تصلي ، وتبحث عن سطور المجهول في همسات كاهن ... هنالك أبداً من يدق هذه الابواب العتيقة ، هنالك أبداً من يسعى اليها ويجد لديها بلسماً ما ...

ولكن ، أين أهل الدير ؟ ... باب جانبي صغير مفتوح . قرب عتبة الباب جلس شابان . بدأني احدهما بالكلام هامساً : لن يراك قبل الثانية . ونحن ايضاً ننتظر ... انه يرفض الكلام مع اي انسان قبل الساعة الثانية ... تدخل الآخر : انه يصلي ، كأنه في عالم آخر .. لا يرى احداً ولا يحس بأحد ... لقد جئنا من بيروت خصيصاً لمقابلته !! ...

تقدمت من الباب المفتوح . هاجمتني رائحة بخور وطيب ، ممزوجة بصوت جميل يرتِّل باللاتينية ... كان من الصعب ان اسمع بالضبط ما يقوله ذلك الصوت الراعش المتصاعد مع البخور عبر تلك الطاقة الصغيرة في السقف المرتفع ... وتلفت حولي مذهولة .

كنيسة من نوع خاص ، كنيسة مندورة للطبيعة بطريقة ما ... فالطحالب الخضر تكسو الجدران وتخلق جواً من (العتق) والبساطة وليال طويلة باردة ورطبة ، وصلوات حزينة بلا آخر ... وفي صدر المكان صورة عتيقة جداً ككل شيء ... وعلى المقاعد الخشبية البسيطة جلست قرويتان تصليان في خشوع لا حد له ..

لم يلتفت الكاهن لحظة دخولي ، ولم يبد عليه انه في عالمنا ، وكان مستغرقاً في الصلاة داخل غيمة البخور الى حد لا يصدق (لو اطلقت على نفسي الرصاص الآن منتحرة امامه لما التفت !) .. وبدأت اطوف في ارجاء الكنيسة بهدوء ، اتأمل محتويات خزائن زجاجية ... في احدى الخزائن كانت هنالك مجموعة من علب الاسبيرو والقطن وبعض ضمادات الاسعاف الاولية ... (ترى أيها أهم للجريح ، علبة الاسبيرو ام وصلة الصلوات ؟ ولكن ، اليست هنالك اوجاع داخلية لا تشفي منها حضارة العصر كله ، وتسكِّن أوجاعها لحظة طمأنينة نفسية واحدة ؟) ... شيئاً فشيئاً بدأ صوته الراعش المتعبد يستولي علي فيما يشبه التنويم المغناطيسي . كففت عن التجول في القاعة ، وتركت نفسي اسقط على المقعد الخشبي خلف القرويتين الخاشعتين ... اغمضت عيني ، ولا ادري كم من الوقت بقيت هكذا ، منحلة الى ذرات ، ضائعة عبر صلوات الصوت الراعش ... لم ار وجهه ، فقد كانت الكنيسة شبه مظلمة ، كل ما استطعت ان اراه ظهر ثوبه الابيض المذهب باشارة صليب على طول الثوب ... وحينما كان يرفع يديه الى الاعلى بالعبادة ، كنت احسه بطريقة ما مصلوباً .

أخيراً ، وجدت قدميّ وحملتاني الى الخارج ..

الشيخ والجبل

انتهت الصلاة . وقفت امامه وقلت له انني ارجو مقابلته. لم يجب . كانت نظراته تخترقني كما لو كنت شبحاً دون ان تراني ، فتحسست جسدي في خوف. كان له وجه عتيق ، وعينان نائيتان وغامضتان كوجه بركة بعيدة ساعة الغروب .. لحيته طويلة جداً ، مشعثة كأوراق الاشجار والحشائش ... ووجهه متعب وغريب

كالتراب العتيق في قارة قديمة عريقة ... بهذه النظرة العجيبة ، تأمل الجبل والسماء عبري ، ثم اغلق الباب ببطء شديد ! ..

قالت القروية مفسرة : — ليس قبل الثانية .. ما يزال تحت تأثير الصلاة .. سألتها : ماذا يمنح الناس في الوادي ؟ ..

أدهشها ان يسأل احد في الدنيا عن شيء تعتبره من مسلمات وجودها .. تقول ببراءة : يشفي المرضى ... يقدم النصح والنبوءات .. اننا نؤمن به ...

ولذا ، حينما فتح باب آخر بعد زمن ما ووقف على عتبته مرحباً احسست بالفرح لانني اريد ان اسمع ماذا لدى هذا الانسان يقوله لمئات المؤمنين به وبما يمثله في هذا الوادي ...

قال في لطف بالغ بصوت بطيء متعب ولهجة قروية : اهلاً وسهلاً .. تفضلوا ...

دخلنا أنا والشابان اللذان كانا في انتظاره وهما جورج . خ — وأمين . ه وقد تصادقنا في ساعات الانتظار ! . غرفة صغيرة ، تحتلها منصة مغطاة ببساط عتيق . جلسنا عليه .. على الجدران ، كانت هنالك بطاقات زيارة .. مئات البطاقات التذكارية التي تركها اصحابها في الدير ، وقرأت « هنري لحود وزوجته — ٧ تشرين ١٩٦٧ » ، وقبل ان اتابع قراءة بقية الاسماء سألني : ماذا استطيع ان افعل لاجلكم ؟ قلت : أبونا ... سمعت عنك الكثير .. واريد ان أتحدث اليك . فنهض ، واشار الينا بان نتبعه ... وعبر شق في جدار ضيق جداً لا يسمح إلا لإنسان واحد بالمرور ، دخلنا الى قلب الدير المبني داخل الصخر .

ظلام . غرفة التنسك . جلس على الارض وبدأ يشعل النار وفاحت رائحة الحطب ، وعبر لهيب النيران وخفق ظلالها بدا وجهه غامضاً وعجيباً ، يروح ويجيء كأنه ذكرى وجه .. ظل جورج وامين على صمتهما ... كان كل ما حولنا يبعث على الذهول .. الظلمة ، رهبة الدخول الى باطن الصخر ، الى قلب الجبل .. والاحساس بعشرات الاسرار تحيط بنا ...

قال : تستطيعون التجول اذا احببتم .. ونهضنا .. لم تكن لدي رغبة في الحركة ، لكنني احسست بانني فقدت ارادتي ، وان اية اشارة من هذا الكاهن هي بمثابة أمر

لي ... وارتقينا درجاً ضيقاً الى ممشى طويل في قلب الصخر تنفتح على جانبيه غرف حقيرة الاثاث وليس فيها شيء من متطلبات الراحة ... حتى ولا الضروريات ... ايقونات وصور دينية فقط .

وعدنا اليه برؤوس محنية كالرايات المنكسة ، والتففنا حول النار ، فالبرد شديد في هذه الغرفة المغارة ..

قال : ماذا تريدين ان تسألي ؟ ...

ــ الكثير ... عنك اولا ... هل تعيش وحدك في هذا المكان الموحش ؟
ــ انا ، وربي ، والسيدة العذراء .
ــ منذ متى ؟ ..
ــ من حيث الغبطة والسرور لي ساعتين !
ــ ومن حيث توقيت العالم الخارجي للزمن ؟
ــ عشرون عاماً ! منذ نعومة اظفاري هنالك شيء مجهول يشدني الى الرب . كنت قد قررت ان اطوف العالم على قدمي واناديي بالايمان ..

ولكن صديقاً هو « داوود . م » اسدى الي نصيحة غالية اذ قال : اعمل راهباً تخلّص مزيداً من النفوس ... وهكذا كان .. في كتاب الاقتداء بالسيد المسيح « يا بني ، كن منفرداً كالعصفور على السطح .. ينبغي لنا ان نعتزل كي يتسنى لنا ان نحظى بالخالق » ... صمت ... ظل جورج وأمين على صمتهما ... بدا لي المكان موحشاً ، وسألت الاب اقليموس انطونيوس التنوري (من تنورين) :

ــ الا تخاف في الليل ؟
ضحك .
ــ الا تخاف من البرق والرعد ؟ ..
ضحك .

ــ لست وحيداً فأنا مؤمن ! .. ليلة الهزة الارضية ، استيقظت ، وظللت حيث انا داخل الجبل وعدت الى النوم ببساطة .
ــ والناس ، ماذا لديك تمنحه لهم ؟
ــ اتمنى لهم ايماناً صادقاً ، ذلك اثمن من اي شيء في العالم .
ــ ابونا ، قل لي ، هل صحيح انك تملك قوى خارقة ؟

ـ القوة من الله ...
ـ قل لي ، متى سأموت ...
(يبدو انني قلتها بصوت جنائزي جداً اذ انتفض جورج وعبس امين في وجهي) ..
صمت طويلاً . ثم لفظ ببطء شديد رقمين .
سألته : ماذا تعني ؟ لم يرد ، وتدخل جورج مفسراً .
ورفض ابونا ان يوضح ! ..
سألته كيف سأموت ؟ لم يقل شيئاً وانما بدا في وجهه ظل مفاجأة محزنة كما لو انه كان يرى مشهداً فاجعاً ..
همس : في هناء روحي ولكن سينغص عليك « عدم الانجاز » !
ـ ابونا ، وماذا عن الآخرين ؟ ... ماذا عن نبوءاتك ؟

ـ انا تنبأت بنجاح ديغول ، وبمقتل كنيدي ، واتنبأ الآن بنجاح اخيه في انتخابات رئاسة الجمهورية ذات يوم ... بعد هذا كله ، وقد اطمأن أبونا الي وأنس بالحديث معي ، سألته السؤال الوحيد تقريباً الذي كان يهمني ان اطرحه : قضية فلسطين ، ومشاكل الشعب العربي من وجهة نظره ، ما نظرته اليها ؟ ..

(هنالك واقع ، وهو ان هذا الانسان يؤثر في نفوس ابناء الوادي ، كما يؤثر جميع رجال الدين في نفوس المواطنين في كل مكان .. ولذا فللحوار معهم اهمية) ...

وجدته بعيداً تماماً عن اخبار حياتنا اليومية ، بعيداً عن عالمنا الخارجي ، لا يستمع الى المذياع قط ، ويسمي المذيعين والمذيعات (بنات آوى !) .. قضية فلسطين يطرحها من وجهة نظر دينية مجردة ... لا علاقة له بمشاكل الشعب العربي ، لبنان في نظره يكفي . لا يقرأ ولا يطالع الا الكتب الدينية ، وهكذا فان مواقفه كلها مستوحاة من هذا المصدر فقط ، ومطروحة من هذه الزاوية وحدها ، ولذا فلبنان كسويسرا الشرق اقرب الى افكاره من لبنان العربي ، وتدويل القدس خير من الحرب لتحريرها ! ! ..

الانسان والقبر

ولا اكتم ان آراءه في القضايا العامة اثارتني وحتى جورج وامين خرجا عن خشوعهما ودخلا معه في مناقشة طويلة ...

وفجأة قطع المناقشة وهو يقول لي ببراءة وفرح طفولة عذبة : تعالي أريك قبري !

— عفواً ؟ ..

— قبري أنا ... لقد حفرته وبنيته بنفسي ..

(قلت لنفسي في تلك اللحظـــة : لو لم يكن الدين ليمنح الانسان اكثر من هذه الطمأنينة والثقة في مواجهة الموت لكفى) ...

وسرنا خلفه في دهاليز محفورة في قلب الصخر... تماماً كما في الافلام الغامضة. حمل الشمعة وتقدمنا ، بينما أحنينا رؤوسنا وتبعناه الى الداخل ... كنت خائفة ، تذكرت افلام الرعب كلها التي رأيت ، وتوقعت في اية لحظة ان ينفتح تحت قدمي سرداب او يسقط باب واسجن في الصخر الى الابد .. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث .. قفل داخل قفل .. باب بعد باب .. سرداب بعد سرداب .. واخيراً ، غرفة في قلب الصخر ، وقبر لم أشهد لتصميمه مثيلاً من قبل ...

الجدران ، والارض والقبر ، كلها مبنية بحجارة بيضاء مستديرة بيضاوية صغيرة ... والكتابات فيها مكتوبة بحجارة مماثلة ولكن سوداء ... وعلى الشاهدة كتب تاريخ مولد ابونا ١٩١٥ ، دخل الرهبنة المارونية ١٩٢٥ ، دخل وادي قاديشا المقدس ١٩٤٩ ، وتوفي سنة ٢٠٠٠ ! ! التاريخ الأخير أثار ذهولي ... أبونا ، كيف حددت تاريخ وفاتك ؟ .. لم يجب .. جرني من يدي الى مدخل القبر وقال ، تعالي وتأملي ... دخل الى قبره محني الرأس ، وتبعته الى حيث سيكون جثة هامدة ذات يوم وقشعريرة باردة تجتاحني ... وقبل ان يحتج جورج ، ويصرخ أمين ، كنت داخل القبر ...

الغريب انني شعرت في الداخل بسلام حزين الايقاع يفيض مني ... كان القبر من الداخل كالرحم ... فعلى أرضه فرش ابونا انطونيوس قصاصات من اكياس (نايلون) وفوق هذا البساط الحنون تركت نفسي لحظات ، استرخي ، واعايش فكرة انني ساكون في مكان كهذا ذات يوم ، وحيدة ، وعاجزة عن الصراخ ! ..

وداخل القبر تمنيت اكثر من اية لحظة في حياتي يقيناً يريحني .. وداخل القبر احسست انها لجريمة ان نحرم اي انسان من اي شيء يؤمن به ...

خرجت من القبر ، وكان في وجهي جورج وأمين وعي مشترك بتجربة واحدة

عشناها معاً للحظات ، تجربة ان نعي بوضوح عملي اننا سنموت (كلنا نقول عادة اننا سنموت ولكننا في الوقت ذاته لا نستوعب ذلك حقاً ... نتحدث عنه كما لو انه يخص الآخرين) ...

هذه المرة ، كان هنالك صمت وتفاهم ، وشعرت بصداقة تشدني اليهما ، رابطة مشتركة اقوى من كل تجربة ورابطة : الموت ...

ولذا ، لما غادرنا ابونا انطونيوس ، وقلت لهما اني أريد أن أزور بقية أديرة الوادي ولو استغرق الامر أياماً ، أبديا استعدادهما لمرافقتي بقية النهار ... كأن في هذا الوادي سحراً يقود من يزوره الى الركض بين الاديرة بحثاً عن شيء مجهول .. ربما عن ذاته . وغادرت « ابونا انطونيوس » وصوته يرن في اذني « هذا الوادي قديم ... يعود تاريخه الى ما بعد المسيح بثمانين سنة .. كان قبل ان تكون الكنائس والبطاركة ... كان فيه الف صومعة ومحبس » ... وأنظر الى مغاور الجبل فأكاد ألمح بصماتهم واسمع صدى صلواتهم يتصاعد من شقوق الصخر ...

الروح والعصر

في دير « مار ليشع » لم اجد سوى حارس الدير ليشع بطرس . ب .

أين أبونا ؟ سأله جورج ... أجاب : ذهب إلى طرابلس .

سمح لنا بالتجول في الدير والدخول إلى الكنيسة التي كانت جميلة وتحوي لوحات رائعة قديمة ... وسألناه عن الدرب الى سيدة قنوبين ..

وروى لنا بعض اساطير الوادي .. حكاية كنيسة مار يوسف ، وكيف اسسها كاهن حلبي وآخر من ابناء المنطقة ، ثم اختلفا ، وصارت هنالك رهبنة حلبية ورهبنة بلدية .. وحدثنا عن اساطير اخرى في الوادي ... عن « بطرك التيان » المدفون منذ مئات السنين والذي ما يزال حياً في مغارة ... يبارك الوادي والناس ...

وغادرته واساطير كثيرة تتضارب في رأسي ، وعلى مسيرة دقائق من دير مار ليشع تصادف ان مررنا بمعمل مار ليشع لتوليد الكهرباء ... وامام الباب التقينا باحد (كهنته) الموظف سليم ج . من بشري ... ولم اتمالك نفسي فسألته : ايهما أهم لأهل الوادي ؟ مار ليشع الدير أم مار ليشع المعمل الذي يولد الكهرباء ؟

أجاب ببساطة وقناعة : كلاهما ضروري .. كل منهما يسد حاجة ضرورية في الانسان ...

أهل الوادي في غاية اللطف والكرم ... إذ لما أظلمت السماء فجأة وامطرت بغزارة مطراً دافئاً ، ساحت الطريق الترابية ، كان لا مفر من هجر السيارة والسير على الاقدام خاصة بعد ان غرقت دواليبها في برك الطين ، وعلى رأي اهل الوادي (غرّزنا) ... ولم يمر بنا عابر سبيل إلا وتطوع في إرشادنا إلى الدرب .. ولم يمر انسان إلا وألقى التحية و(ضيّفنا) بشيء مما يحمل ... (الكرم العربي الاصيل يتجسد في القروي اللبناني في كل منطقة ذهبت اليها) ...

بعد مسيرة ساعة ونصف ، وبعد سؤال كل من نشاهده عن الطريق تكرمت سيدة بارسال ابنها الصغير ليرشدنا إلى طريق قائلة : وصلتم .. بقيت ربع ساعة من المشي .

وسار امامنا دليلنا الصغير توني . ي ، وكانت الدرب إلى الكنيسة ملاصقة لقناة ري وكان توني يقفز على طرف القناة المشرفة على واد سحيق بفرح غامر .. من الواضح انهم يحبون الغرباء ويفرحون (بهدايتهم) إلى الاماكن المقدسة .. أما جورج الذي لم يصدق اننا وجدنا دليلاً ، فقد خاف من قفز توني الخطر ، وركض وحمله ، وأصر على حمله بقية الطريق لمزيد من الاطمئنان على سلامة وصولنا !! ...

ابونا ليس في الدير . المفتاح مع عم توني السيد الياس. ي.. استقبلنا الاخ الياس بلطف فائق وتكرم بمرافقتنا إلى الدير رغم تعبه (فقد عاد للتو من بشري .. وسيراً على الاقدام) اعتباراً من معمل توليد الكهرباء ، إذ لا طريق ! قال انه يضطر لذلك كل يوم ... قال أن شق طريق في هذا الوادي الجميل هو اول الضروريات وهو اول خطوة لتطوير المنطقة ... في الطريق إلى الدير ، ورغم انفاسي المتقطعة استطعت ان أفهم من الاخ الياس الشيء الكثير عن أهل الوادي ، انهم يحبون الغرباء ، وليسوا حريصين على عزلة واديهم ، لكنهم حريصون على اخلاق ابنائه .. فالوادي بحكم القوى الدينية المسيطرة عليه نقي وأهله متدينون ولما تصل موجات التهتك التي ترافق الحضارة الآلية إلى سفوحهم الطاهرة ... انهم يحبون الكنيسة ويرتاحون إلى الآباء فيها ، ويعيشون في سلام على أرض الوادي الذي تملك الاديرة معظمه ...

وأخيراً دير سيدة قنوبين أقدم الاديرة هناك،وله فيما يبدو مكانة خاصة بسبب جثة البطرك يوسف التيـــان المحفوظة فيه .. تسلقت الدرج العتيق وقافلة من أطفال

القرية تتبعنا وترافقنا .. ولانني تكبدت عناء المجيء سيراً على الاقدام ، ولان جورج ركع لحظة وصولنا وصلى بخشوع ، قرر الاخ يونان مكافأتنا بالسماح لنا بمشاهدة الجثة الأعجوبة للبطرك القديس .

غير عادي فيها كما قال انها ليست محنطة ، ومع ذلك فما زالت كما كانت لحظة وفاته قبل ٥٠٠ سنة ندية وتفوح منها رائحة عطرة ... وقررت انا إبنة القرن العشرين ان لا أصدق إلا بعد أن أرى ... حول تابوت خشبي التففنا جميعاً ، وكان أكثرنا فضولاً أطفال الضيعة الذين رأوا الجثة بلا شك مرات كثيرة من قبل ، ربما مع كل سائح ومتدين .. (ترى كيف يفكر الاطفال به ؟ هل يرونه كما نراه ، أم يرونه فارساً مقنعاً يرحل عبر الغيوم كل ليلة ؟) .. واخيراً رفع غطاء التابوت عن غطاء زجاجي للتابوت .. وكشف الغطاء الزجاجي ، وهناك شاهدت وجهاً لرجل مغمض العينين .. ملامحه بلا شك واضحة ، أي اذا التقيت به في الشارع فانني استطيع تمييزه .. واذا صح قولهم بانه غير محنط فمما لا شك فيه ان في الامر سراً آخر ، أو على لغة المؤمنين بالخوارق : معجزة ..

في ليل جهلنا وضعفنا البشري

ونحن في طريق العودة إلى السيارة ، يسقط الليل الغامض بجسده الثقيل فوق الـــوادي بأكمله .. يصبح للمشي طعم آخر ولصوت الشلالات طعم آخر .. تتنبه الحواس ، ويصبح للظلمة صوت وللاشجار والريح وانتحاب الحيوانات المجهولة سيمفونية غامضة تذكر بعجزنا البشري وجهلنا باسرار الوجود ...

ونسير ... جورج وأمين وأنا ، مثقلين بما رأينا من متناقضات ، من موت وحياة ، من ايمان وإلحاد ... وأسير ، مثقلة بآرائي ووعيي الواقعي بمآسي أمتي وخطر هدر اية طاقة في غير العمل ... ومثقلة في الوقت نفسه بحقائق أخرى إنسانية وجودية كانت وستظل قائمة ابداً... حقيقة ضعف الانسان امام قوى ما وراء الطبيعة والتجائه إلى الدين كأحد اقدم الحلول وأكثرها ثباتاً رغم كل شيء .. وفجأة ، تتدحرج من حافة الجبل صخرة وتسقط امامنا ... كان يمكن ان تقتلنا .. وبلا وعي منا نتحاشى الصخرة ، ويصرخ جورج يا رب !!

وبعدها سرنا جميعاً صامتين ولم نسترح من صراع الافكار إلا حينما وصلنا إلى السيارة التي ما تزال غارقة في الوحل ، وبدأنا نجمع الأحجار والحصى ونعبد

بها درب (الدواليب) ونقطع أغصان الاشجار ونغطي الحصى بها ...

ساعة ونصف من العمل الشاق الجسدي ... ويتخدر العقل قليلاً ... وتنام الاسئلة ...

وأغادر الوادي وفي حلقي مغارة تمطر دمعاً وصلاة ..

وفي قلمي صرخة احتجاج لانه ليس بالصلاة وحدها يحيا الانسان ، ولان الوادي ما يزال حتى بلا طريق !! .. ولان ثروات الاديرة هناك تكفي ليعيش الجميع في رخاء مادي أيضاً لا معنوي فحسب ..

٢٩ / ٣ / ١٩٦٨

العصافير وحدها تذهب إلى فلسطين !

لا ...

ليس لانه موسم الانتخابات أكتب عن جنوب لبنان ، فالجنوب في نظري ليس مجرد منطقة انتخابية نتذكرها كل اربع سنوات .

لا ...

وليس لانه الجنوب الجميل ذو الطبيعة الاخاذة ، لملمت اوراقي والسكين التي بها أكتب ، ورحلت لأضيف ملحمة جديدة من ملاحم التغني بصبايا الينابيع والجرار والزلف والتبولة والكبة النية ! ..

(بالمناسبة ، منظر الصبايا حاملات الجرار يحزنني . يذكرني بقرى لا ماء فيها ولا كهرباء . ويذكرني بالمرض والفقر والجهل . صورنا الرومانتيكية التقليدية لم يعد هنالك مفر من ان نراها من جديد ونقيّمها من جديد على ضوء تطور العالم ورقيه ، وعلى ضوء شيء آخر خطير : عدو يتاخمنا اسمه اسرائيل) .

لا .

لن أكتب عن الجنوب (غنائياً) . فالتغني هو المظهر الخارجي للحب .

ولكن الحب الحقيقي البناء هو (معرفة) ، وحماية .

ان تحب لبنان يتطلب أولاً ان تعرفه كي تحبه هو بالذات — لا صورته التي تتوهمها — وبالتالي تكون قادراً على تحويل ذلك الحب إلى عمل ايجابي بناء .

عصرنا ، وظروفنا السياسية لم تعد تسمح لنا بممارسة حبنا (الغنائي التقليدي) للوطن ... ولا مفر لنا من ممارسة حب جديد . معرفة ، ومصارحة للذات ، ثم عمل .

لماذا الجنوب ؟ ..

لأن أول صوت طالعني هذا الصباح كان صوت المذيع وهو ينقل انباء الاعتداء

الاسرائيلي الاخير على الضفة الشرقية المتاخمة ... (حدودنا ايضاً مهددة . بروتوكولات حكماء صهيون لم تترك مجالاً للشك . يريدون أراضينا كلها ، من النيل إلى الفرات)...

وفي لحظة ، اشتعلت داخل رأسي صورة الحدود الجنوبية للبنان ، ورأيت العيون الجبلية تتجه نحو الأدغال المواجهة حيث اسرائيل بقلق .. وقررت ، سأذهب أولاً الى الجنوب ... إلى اقصى الجنوب ...

الحس بالخطر

في الطريق إلى صيدا شاهد تاريخي مروع .

لا ـ لا أتحدث عن البحر الذي شهد مولد أول أبجدية على شواطئنا وإبحار اول سفينة .

عن خط حديدي أسود مواز للبحر وللدرب الاسفلتية اتحدث . انه الخط الحديدي الذي كان يصل بيروت بحيفا ويافا من زمن بعيد ..

اجتازه فجأة قطار اسود بطيء وحزين ولا تمتد من نوافذه يد طفل ملوحة . قطار تاريخنا الموجع في هذه المرحلة ... حدقت في قضبانه السود الملتوية وشعرت بما يشبه المطر يهطل داخل حلقي . فالطريق إلى فلسطين مقطوعة عند الناقورة ، وجرح الحديد ما يزال حاراً في القضبان . وامام هذا الشاهد التاريخي ، مرت فجأة قافلة من السيارات تزعق وتصفر وتتطاير منها الاوراق الملونة والمناشير ، وتلتمع تحت أشعة الشمس صور المرشحين وتعلو الهتافات ، مر الموكب دون ان تسقط نظرات احدهم على الخط الحديدي فتنكسر ، ودون ان تختنق صرخاتهم في حلوقهم لمرآه ... أدهشني أن ذلك يحدث كل يوم عدة مرات ... يمرون امام الخط الحديدي المقطوع عدة مرات ، ولم يحدث في اية مرة ان توقف الموكب وسكتت الاصوات ونكست الرايات ووفرت الطلقات ، ولم يحدث مرة ان هبطوا جميعاً في موكب صامت ، وجلسوا امام حديد القضبان في مأتم مواجهة ذاتية تتحول إلى مسيرة من نوع آخر ...

وتساءلت : ترى هل الحس بالخطر مفقود ؟ أم أن هنالك سراً آخر ؟ ...

في صيدا كانت محطتي الاولى في غرفة المحامين بقصر العدل ... اسعدني انهم حين التفوا حولي ، كان أول سؤال وجهوه الي : ما أخبار جبهة الضفة الشرقية ؟

وبدأ الحديث يدور عن انباء العدوان الاخير ... وكان حس مثقفي عاصمة الجنوب بالخطر أكيداً ولكنه شبه غامض ... اذ انه لم يصل إلى حد تبديل نظرتهم إلى ما يدور حولهم ، ولم يتخذ صفة نقطة انعطاف أو نقطة تحول جدية في مواضيع نقاشهم .. فقد تحول موضوع النقاش بسرعة إلى موضوع آخر ، موضوع الانتخابات ، لدى دخول أحد المرشحين إلى القاعة ، ودار بالحماس نفسه ...

لقد ظل حسهم بالخطر منفصلاً عن ميزان تقييمهم للأحداث ... وتلك ظاهرة عامة غريبة يشترك فيها أكثر المثقفين العرب .. بوضوح أكثر .

هنالك رجال يموتون الآن بالذات في الدفاع عن الارض ضد اسرائيل ... ذلك يكفي ليوقظ حسّنا بالخطر وخوفنا على أرضنا (هذا اذا كنا قد نسينا مشهد مدننا الحزينة ايام التعتيم خشية الغارات .. ايام الخامس من حزيران) ...

الحس بالخطر يزداد ، كلما تقدمت جنوباً

النبطية ، بعد دير الزهراني وحبوش . بلدة راقية وميسورة نسبياً ، ويرجع السبب جزئياً إلى كثرة مغتربيها الممولين من ناحية ، وإلى ارتفاع نسبة المتعلمين فيها ... ويعتاش أكثر مزارعيها من تجارة التبغ ..

كانت مجموعة من قوى الامن تعسكر في ساحة البلدة ، وعلمت ان السبب يعود إلى وقوع اربعة صدامات مسلحة ذلك اليوم بسبب الانتخابات ! .. (خسارة) . كان ذلك كافياً كي أفكر بشراء علبة أسبرو . ودخلت إلى صيدلية تدعى « صيدلية الشعب » ، وكان لي حديث مع صاحبها الاستاذ طالب . ك .

كان الاستاذ من النادرين الذين التقيت بهم في رحلتي ، والذين تحدثوا بمنتهى الصراحة دون ان يطلبوا الي عدم ذكر اسمائهم .

هنالك ظاهرة مؤسفة لا مفر من الاشارة اليها ...

وهي ان الناس بصورة عامة حين تعرف بوضوح اسباب مأساتها وتعرف بوضوح (اعداء) تقدمها ، لا تجرؤ على الاعلان عن ذلك (ربما لان الاعلان عن ذلك يتضمن ضمنياً التزاماً بالانسجام في العمل مع الافكار !) ولأن أحداً لا يريد ان يكون البادىء وبالتالي (الضحية) ...

ملاحظة اخرى ...

هنالك إلى حد بعيد وعي جماعي ، وحس بالخطر مما يدور من احداث في الداخل وعلى الحدود،ولكن «مهدي» الجنوب لما يلد بعد ... لم يأت الذي يبلور هذا الموقف ويلتف حوله وعي الناس الضائع ...

وقد عبر عن هذا الاستاذ طالب . ل بصراحة ووضوح . وأكد ان مأساتنا ليست بحاجة إلى (باحث) اجتماعي بقدر ما هي بحاجة إلى (منفذ) واقعي ... (مأساتنا ان الناس ما زالوا ، ربما بحكم العادة والوراثة ، يتقاتلون من أجل زعامتين هما زعامة آل (أ..) وزعامة آل (ع ..) ، رغم انهم جميعاً يحسون بالخطر الاسرائيلي ويعرفون ان مواجهته تتطلب الكف أولاً عن هدر الطاقات . والزعماء ما زالوا يفضلون مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة ، رغم ان الاحداث اثبتت ان تحالفهم مع الشعب هو الذي يبقى ، وتحالفهم مع قوى أجنبية يرمي بهم إلى الضياع النهائي .. فالشعب لا يبدل زعيماً أحبه ووثق به .. اما الغرب فيبدل ببساطة عميلا بعميل !) ...

— وانت ، مع من ؟ ..

ببساطة وصراحة اجاب : انا اولا مع عادل. ص .. انه شاب يساري نفخر به.. وهو يخوض معركة غير متكافئة ضد قوى رجعية تقليدية .

(نفتقر إلى أن يصرح كل منا ببساطة من هو وبماذا يؤمن . سئمنا من المداورات السياسية والمزايدات وسياسة شد الحبل والاختباء خلف قواقع الكلمات) .

والحل ؟

— الانطلاق من قاعدة الشباب المتعلم ، والوقوف ضد الزعامات التقليدية ..

— كيف ؟

— بالعلم ، والتساند . والجرأة . والوعي . ان ما يدور في فلسطين يكفي ليوقظ حسّنا بالخطر وعلينا ان نحوله إلى عمل . لم يهزمنا مليون اسرائيلي . هزمتنا العصور الوسطى التي ما تزال تجثم على صدورنا ...

وسرت في السوق ...

وفي احد مقاهيه الشعبية ، كان الرجال يشربون القهوة وربما يساومون على ثمن (اصواتهم) ، ولكن صوت المذياع كان يخيم ، وكان ينقل آخر انباء المعارك في الجبهة مع العدو الاسرائيلي وكان في الوجوه المتعبة وعي فطري نبيل ، ولم يبق

الا من يخطط لتلك الايدي المعروقة الحائرة ويدلها من أين تبدأ ...

النبطية بلدة عريقة. ما تزال (السوق) تقام فيها كل اثنين حيث يفد الناس اليها من القرى المجاورة وتتم المبادلات ...

الصهاينة قتلوا مخترع لبنان الكبير

ولانه ليس بالرصاص وحده يحارب الانسان ، ولكن بالرقي العلمي والفكري ، احسست بالرغبة في زيارة قبر المخترع الكبير حسن كامل الصباح ابن النبطية الذي اعترفت نيويورك بفضله على العلم وباختراعاته ... يقول شقيقه الكولونيل المتقاعد محمد سعيد الصباح (٧٠ سنة) وهو شيخ جليل المظهر له عينان شفافتان كأنه يرى اشياء لا نراها: (وفاة اخي لم تكن طبيعية . اليهود هم الذين اغتالوه . لماذا ؟ لانه رفض التعاون معهم . رفض الذهاب إلى فلسطين وتنفيذ مشروع روتنبرغ الصهيوني ، لقد كان طاقة علمية مذهلة . انه اول مخترع للتلفزيون ، ولكن دائرة الاختراعات سجلت اختراع زميله البريطاني بيرد ... نعم ، أسموا الشارع الرئيسي في البلدة باسمه ... وماذا في ذلك . انه لا يكفي . حتى ولا التمثال الذي سيقام له . يجب ان تقام منح باسمه . جوائز باسمه .. ان تكريم لبنان للعلم ظاهرة حضارية تثبت اننا بلد الاشعاع) ...

فلافل ويساريون وفراريج ويمينيون

الانسان اللبناني ذكي ومحبب إلى النفس ، اذ انه يتمتع بقدرة غير عادية على عرض المفارقات .. ففي النبطية ، لاحظت ان صور المرشحين اليساريين كانت ملصقة على دكاكين باعة الفلافل ، بينما اختصت واجهات باعة الفراريج المشوية (الدجاج) بعرض صور المرشحين اليمينيين ! ..

أجرة الدابة أكثر من الرجل والمرأة

المورد الرئيسي والاساسي لغنى الجنوب يقوم على زراعة التبغ ...

حقول شاسعة حيث بشرة الارض بنية داكنة وجسدها غني ومعطاء وأجود انواع التبغ تنمو هناك ...

تعمل المرأة إلى جانب الرجل . واجرته اليومية من ١٠ إلى ١٢ ل.ل ، اما هي

فمن ٧ إلى ٨ .. واجرة الدابة أكثر من أجرة كليهما ! ..

اما في موسم القطاف ، فتتدنى الأجور .. وتقوم به فلاحات الجنوب ابتداء من منتصف الليل حتى مطلع الفجر ... تماماً كما في الاساطير . في ظل الاضواء الشاحبة والليل الاخاذ تقطف اسرابهن اوراق التبغ ... ولكن ذلك ليس من أجل الاسطورة ، وانما لان التبغ يريد ذلك .. فمن الضروري قطف التبغ ليلاً اثناء سقوط الندى كي لا تكون اوراقه ملتصقة بعضها ببعض . وهذا المشهد الشاعري لقاطفات التبغ يتشوه نهائياً حينما نعرف مأساة التبغ في الجنوب .

(حتى التبغ سقط فريسة للاحتكارات تحت اسم استصدار رخص ، وتحول إلى أداة يُساء استثمارها) هكذا لخص الموقف الاستاذ كمال. ف ، مزارع التبغ . وأضاف إلى ذلك أخٌ احرق خلال مناقشة موضوع التبغ علبة سجائر كاملة: (قضية استصدار رخص للتبغ واشراف الدولة على الزراعة هو مظهر تقدمي نجده في البلاد المتطورة والاشتراكية ، ولكن الاحتكار والاستغلال وتسلط الاقطاع جعل من هذا التشريع مثالاً آخر من امثلة سوء الاستعمال وانقلاب الشيء إلى ضده !) ...

واجهة الحيوانات المحنطة

وانا اغادر النبطية ، كان من الصعب ان امحو من ذاكرتي بسرعة مشهد واجهة « صيدلية الشعب » .. ففي الواجهة مشهد غريب .. عدد من الحيوانات المحنطة بينها غزال وتمساح وطير وغيرها ... لا أدري لماذا وجدتني اتساءل : هل واجهة «صيدلية الشعب» تلك تمثل الصورة التي يرى الحاكم فيها الشعب ؟

أم ان العكس هو الصحيح ؟؟ ...

مجنونة النبطية

آخر صوت ختمت به أحاديث التبغ والانتخابات هناك ، كان صوت امرأة تركض في الشوارع وتضحك ضحكات هستيرية ...

قال احدهم مفسراً : انها مجنونة .

لم أسأل لماذا تترك المجنونة تدور في الشوارع معولة ضاحكة هكذا ، واين السلطات المختصة كي (تلمها) .. فقد احسست انها ليست أكثر جنوناً من الآخرين ومن كل ما يدور ... ربما كانت العاقلة الوحيدة التي تضحك من كل ما يدور .

قلعة آل الأسعد

على رأس تل مرتفع يقوم قصر كبير يلوح قرميده الاحمر من بعيد . قصر الاستاذ كامل الاسعد ...

حول الدار مجموعة كبيرة من الرجال بعضهم يحمل العصي وعيونهم تحمل كثيراً من التحدي والحب المتعصب لسيد القصر . احسست انني اتحرك داخل رواية (زوربا) وفي قرية جبلية اهلها يعرفون عاطفة الحب حتّى الذروة وعاطفة التعصب حتّى القتل ، وقد سلموا مهمة التفكير إلى زعيمهم بلا مناقشة أو جدال . وغمرني مزيج من الخوف والضيق في غابة الرجال القبليين تلك حيث أداة اللغة مفقودة . واستحلتُ راداراً امتص كهارب الجو تلك ، وخيل الي ان طعم الهواء مالح جداً في فمي ! .. وانتابتني رغبة غامضة بالعودة من حيث أتيت بينما كنت اتسلق السلم الطويل ، وأُقاد إلى احدى الغرف وهناك تبدد ضيقي كله ، اذ فوجئت بمشهد لم أكن أتوقعه .

غرفة نوم بسيطة . رجل يجلس إلى جانب السرير . سيدتان تجلسان على مرتبة فوق الارض . الجميع يتبادلون الكلام في جو من الالفة والتفاهم والمحبة .

تبينت في الرجل وجه الاستاذ كامل الاسعد . رحب بي ، وقدّم السيدتين : أمي ... وخالتي ...

اذن ، هذه « سيدة القصر » ، والدة الاستاذ كامل الاسعد . غادر الغرفة .

غلبتها الام فاتقدت عيناها حناناً : ولدي كامل زين الشباب ، وفيه ما يرضي كل انسان .. هو ايضاً كوالده .

أحتج : ولكن ، كيف تستطيعين ابداء الاحكام وانت لا تحتكين برجال السياسة ولا تطلعين مباشرة عما يدور ...

ترد بثقة كتلك التي نراها في عيون القادرين على التنويم المغناطيسي : أستطيع من كلمة واحدة ، أو من تصرف واحد يقدم عليه انسان ما ان اقول لابني ما يضمره بالضبط هذا الشخص ومن هو وما هو .. وقد أثبتت الايام صحة أقوالي ! ..

وخرجت « سيدة القصر » لتصدر الأوامر إلى (قبيلة) من النسوة الغارقات في الطبخ واعداد ما لذ وطاب لضيوف (سيدنا) كما يسمونه هناك .

وتركت السيدتين تشرفان على وليمة الابن وأجبت على استفساراتهما عن موعد قدوم « ناصيف بك » إلى الطيبة — قدر الامكان — ، ثم طاردت كامل بك بكاميرتي حينما تصادف ان دخل فناء الدار ومر بين قبيلة النساء العاكفة على صب الطعام واعداده ... اكتفى بان احتج بلطف ، باللطف نفسه الذي تدخل فيه عندما بدأت حديثي مع والدته طالبة منها ان تحدثني عن المرأة في الجنوب وعن حياتها اذ قال ساعتها : أمي لا تمثل في نمط حياتها امرأة الجنوب ... انها امرأة استثنائية ... عليك ان تبحثي عن امرأة الجنوب في الشارع والحقل والبيت وبوجه عام ...

وقلت له انه على حق في ذلك . واني في طريقي اليهما استوقفت عدداً من نساء القرية المجهولات وتحدثت اليهن . لكنني اريد ان اسمع رأي والدته بالذات .

وبحثت عنه لاتحدث اليه .. ولانقل اليه عشرات الاتهامات التي سمعتها وأنا في طريقي اليه .. الاتهامات المنصبة على الاقطاعية والاحتكار الانتخابي وغير الانتخابي ، ولكنني لم اتمكن من ذلك ، فقد كان من المستحيل السباحة اليه عبر بحر من آلاف الرجال الذين احاطوا به لحظة خروجه اليهم في حماس ظاهر بدائي عجيب ...

هذا (الولاء — الظاهرة) أثار فضولي .

سألت السيد محمود خليل . ن ، الوكيل في قصر ن . الاسعد الذي يقوم في العديسة على ذروة تلة مواجهة لقصر كامل الاسعد في الطيبة :

— هل تحب آل الأسعد ؟

— طبعاً .. إلى حد الموت .

— لماذا ؟ ...

أدهشه سؤالي « لماذا » إلى حد عجيب (ربما لم يخطر له قط ان احداً يمكن ان يبحث عن لماذا ؟! .) أدهشه إلى حد الذهول . ربما عاش عمره كله دون ان يتساءل « لماذا ؟ » ...

— لقد كان والدي من قبل يحمل الولاء ويموت فداء لأبيه ... وانا ايضاً احمل هذا الولاء لابنه .. كنت اعرف ان سؤالي سيستفزه . مع ذلك قلت : ولكن ، كيف يكون الولاء وراثياً ... أعني ، أليس ممكناً ان يولد لإنسان عظيم ابن أقل عظمة ؟ (لم اجرؤ على ان اقول له غير عظيم) .. أو العكس ؟

بدا على وجهه التعب من اسئلتي ، رد باصرار : طول عمرنا معهم ولهم ، ونحن بألف خير ما داموا بخير ...

أشرت إلى الطرف الثاني من الجبل حيث لاحت أراضي فلسطين وقلت له في مزيد من الاستفزاز : انظر ، الاسرائيليون هناك ، ماذا يحدث لو جاءوا ...

ــ نحارب خلف سيدنا حتى الموت !

ــ ماذا لو لم يحارب وسقطت داره ودارك ؟

ــ .....

ــ هل انت متعلم ؟

ــ أقرأ وأكتب . ما يكفي للحسابات والشغل .

ــ لديك اولاد ؟

ــ صبيان وثلاث بنات .

ــ تحب الصبيان أكثر ؟

ــ طبعاً .

ــ لماذا ؟ (لاحظت انه يمقت بوجه خاص ان اطرح عليه«لماذا» بشأن امور يعتبرها من مسلّمات وجوده) ، أجاب وأمره لله : احب الصبيان أكثر لانهم يُحيون ذكرى والدهم .

ــ لماذا ؟ .. وهل قضية المواطن في الحياة إحياء ذكرى الاجداد والسير على هديهم .

هنا لاذ بالصمت . وأنا ايضاً !

اشتراكية الماء بين البشر والدواب

وتتوالى القرى واحدة تلو الاخرى على الحدود الملاصقة لفلسطين ...

وكانت الرحلة مؤلمة لا نفسياً فحسب ، وانما جسدياً ، فالطرق سيئة وتملأها الحفر إلى حد انني تساءلت فيما اذا كان هناك من يحرثها خطأ !

والبحث عن الدرب مأساة اخرى ... فحال اللوحات التي ترشد إلى القرى كحال القرى ... يعلوها الصدأ إلى حد استحالة قراءتها احياناً ... هذا اذا لم تكن مغطاة بصور المرشحين الكرام ! ... في الامكنة حيث يتصادف وجود اعمدة

كهرباء ، لم يكن أي عمود ليخلو من صورة حتى بدأت اعتقد ان أهم استعمالات الكهرباء الحديثة هي الصاق صور المرشحين على اعمدتها ..

وذلك كله محتمل ...

ولكن مشهد شريط من صور المرشحين على خط النار كان فوق طاقتي ... احسسته نابياً ، كأن يلصق اعلان عن مسرحية هزلية فوق قبر الجندي المجهول مثلا ... في قرية « بليدا » كانت بركة ماء تقليدية تتوسطها ، وفريق من النسوة منكبات على الغسيل ، وطفل يغسل وجهه وتزاحمه بقرة تشرب وحمار يرطب ذنبه في الماء ! ... وهذا المشهد لقيته في كل قرية مررت بها . بركة الماء تلك هي المصنع الرسمي للامراض والاوبئة . لذا ، فرحت حينما شاهدت في « عيترون » عشرات الاطفال خارجين من المدرسة ، راكضين متدافعين تطفح عيونهم خبثاً عذباً وحياة .. وتوقف بعض الزملاء لالتقاط صورة والتحدث اليهم ، وفوجئت بانسان يحمل خيزرانة يطاردهم .. وظننته في البداية راعياً ثم اكتشفت انه الاستاذ رضا . د وقد حزن لذلك الاطفال الذين كانوا قد تزاحموا فرحين بالتقاط صورة ، وشيعونا إلى السيارة ، ولم يفوتهم ان يبلغوني ثورتهم على الاستاذ : انه يضربنا .. وصاح تلميذ عفريت : لا تصدقي .. اذا ضربنا ضربناه !! ...

ان بذور الثورة مغروسة في نفوس جيلنا الجديد .. المهم ألا تنحرف وان نحسن تنميتها والتخطيط لها ... في عيونهم شعاع شمس لا مفر من ان تبزغ ... جيلهم لن يكون تعيساً وممزقاً وحائراً كجيلنا ... أم العكس ؟

فلسطين أولاً وأبداً

في القرى الجنوبية ، حيث تقع العين كل صباح على مشهد الاراضي السليبة ، وحيث يرقب الناس المستعمرات تشاد والابنية ترتفع يوماً بعد يوم والطرقات يتم شقها ، هناك يعي الناس بوضوح تام وحار معنى أن تضيع فلسطين ، ويغمرهم حس عجيب بالخطر .. وقال لي حاج عاد من الاراضي المقدسة : لقد احسست بالذنب وانا أرى مليون رجل ينفقون الاموال من اجل اداء فريضة الحج ، مع ان فريضة الجهاد المقدس تأتي أولاً ...

– وماذا عن المسنين ؟ ...

— يدفعون نفقة الحج لاعالة اسرة فدائي استشهد وتعليم أولاده ! ..

الهرب أولاً وآخراً ...

في « عيتا الشعب » فوجئت بحادث من أغرب ما وقع لي طيلة عملي الصحفي . توقفت بسيارتي امام بعض الصبية وتطوع احد الزملاء الذين يرافقونني بسؤالهم عن الطريق إلى قرية يارين . وفجأة ، دون سابق انذار ، وقبل ان يفتح فمه ليقول شيئاً تفرق الاولاد في الحقل وانطلقوا راكضين بذعر لا يلوون على شيء ... كان مشهدهم مضحكاً .. ضحكنا أولاً ونحن نبحث عن عشرات التفسيرات لذلك . ثم ماتت الضحكة في فمي . لا . من يعلّم اطفال قرى الحدود الخوف والهرب ؟! ... من يأتي اليهم ويستجوبهم ؟

رامية ودامية

رامية قرية تلاصق الحدود، بالضبط كما يلاصق مخيم دامية في الاردن الحدود. اغمضت عيني هلعاً ... (هل يمكن ان تأتي رامية بعد دامية ؟) ..

ويارين ايضاً ...

قرية تستطيع ان تقف فيها وتحمل حجراً وترميه باقصى قوتك ، فيقع في الارض المحتلة !! ...

احساس مروع ... في يارين يصبح للمأساة طعم جديد ، ويصبح اسم (يارينغ) مهزلة ... من الواضح انه لا يملك شيئاً لما يدور ... انه مخدر آخر جديد ... ففي مواجهة يارين تم تشييد قرية مضاءة بالكهرباء وتبدو بوضوح قساطل المياه فيها وشوارعها ...

حدثني أحمد. أ، وهو عامل بناء عن ايام ٥ حزيران ... (اضطررنا لترحيل الاطفال والنساء وبقينا نحن . لا . لست مسلحاً . من الضروري تسليحنا نحن المتاخمين للجبهة، ولكنني سأبقى وسأحارب ولو بهذه الخشبة) والتقط عن الارض ببساطة غصن شجرة ولوح به في الهواء وكنت مذهولة كيف استطاع حمله . هذه الطاقات العضلية والحماسية مهدورة .. بلا تخطيط ... بلا تكثيف وتجميع حول نواة عمل ايجابي ...

ليس في القرية ماء ، هنالك برميلان لكل بيت فقط — في السنة ! — . يكفي ؟

لا ... (لقد حفرت بئر تجميع) . همس في اذني احد الناس (مقبرتنا مشتركة مع اليهود ! .. وهم ايضاً يسطون على مياهنا) .

العصافير وحدها ...

نعم . للارض طعم آخر هناك . حينما تكون الارض مهددة يعي الانسان بالضبط معناها . تكف عن ان تكون مجرد حجارة وتراب ، يصبح لها نبض ودفء ورائحة ، تصبح بطريقة ما امتداداً لجسد الانسان ، يحس ان دورته الدموية بطريقة ما مشتركة مع جسد الارض ، ويتخذ حبه لها صفة حب الذات في صورته الواعية : الكرامة ...

كانت تمزقني فكرة واحدة : هي انه يكفي ان أركض دقيقتين كي اصبح في الدغل المجاور وعلى تلك الارض التي تدعى فلسطين .. لكنني لا أستطيع . لا احد يقدر ! ..

وفجأة طار سرب من العصافير طار ببساطة فوق رؤوسنا واتجه إلى هناك ... إلى فلسطين ... هكذا ببساطة كان السرب يروح ويجيء ...

والعصافير وحدها تستطيع الذهاب إلى فلسطين ... وتحسست كتفيّ بمرارة ، فحزن العالم كله لن يقوى على زرع جناحين فيهما لأرحل انا ايضاً ...

مركز الجمارك القديم

ننحدر نحو الناقورة ... يلوح البحر من بعيد خلف اشجار الحصب ..

طبعاً اسرائيل تعرف مدى ثراء هذه الارض .

قرية صغيرة اسمها ضهيرة . تبدو نظيفة وتقوم فيها مدرسة وأكثر من كنيسة .. وقال لي يوسف. غ – احد ابنائها: لدينا ماء وكهرباء وأكثر من مدرسة ... وللمغتربين دور في ذلك . وللزراعة ايضاً .

واخيراً الناقورة . وهناك شاهدت مركز الجمارك القديم على حدود فلسطين والذي لم يستعمل منذ عام ١٩٤٨ وقد بدأ يتداعى ... لقد سقط . هل نستطيع ان ننسى ؟ .. التفت بحثاً عن أي عابر سبيل لاستوقفه واسأله . لا أحد سوى حقل حزين

على الشاطىء والشمس بدأت تغرب وفزّاع طيور يحرس الحقل . وقد سألته ، وظل صامتاً ولم يجب ففهمت جوابه ! ..

كانت لنا أيام ...

في صور شاهدت منطقة اثرية نادرة . اذ تكشف الحفريات التي تدور على طول منطقة واسعة عن آثار قديمة نادرة ...وشاهدت الرجال يذهبون إلى العمل في الدروب طاقات مهدورة بلا تخطيط وشاهدت الاشغال الشاقة التي تمارسها المرأة هنالك .. وفقدت الشهية لمشاهدة القلعة الصليبية في تبنين . والليطاني ذلك النهر الغزير التقيته عدة مرات في أكثر من مكان خلال رحلتي ... ولم يوفره (حكماء صهيون) في تصريحاتهم . لقد أعدوا منذ الآن مشاريعهم للاستفادة من مياهه في ري الاراضي بعد عدوانهم المقبل (لا أحد يدري متى . ولكن في ضعفنا وتشتتنا اغراء لهم) ..

وقفت احدق في المياه المهدورة تروح في البحر حينما مر بي مواطن مجهول ... سألته فجأة : لمن ستصوت ؟ ...

قال : لمدفع .

١٦ / ١ / ١٩٧٠

الجنوبي : من «مرشح لاجئ» إلى « مشروع مقاتل » !

كانت أول مرة يدوي في سماء القرية رعد كهذا ... لذا نهضت أم أسعد من نومها مذعورة ، وكان صوت الانفجار ما يزال يملأ ليل القرية ويهز بيوتها كلها .. في البداية ظنته رعداً أو زلزالاً . وصمتت لأن « أبو اسعد » النائم إلى جوارها لم يتحرك ، القطة فقط ابتدأت تموء . انفجار آخر عنيف أعقبته سلسلة من الطلقات . القطة ركضت إلى الباب المغلق وصارت تموء تريد الخروج ... أبو أسعد لم يتحرك ولم يقل شيئاً ولكن صوت انفاسه المتسارعة اكدت لها انه ليس نائماً ... ولكن لماذا يتظاهر بالنوم ؟ لماذا لا يقول شيئاً ؟ لماذا لا يفعل شيئاً ... هل هو خائف أم خجل منها ؟ ..

انفجار جديد .. انفجار عنيف جداً .. قريب جداً .. هذه المرة انهار زجاج النافذة ، وانقضت على الغرفة ريح قارسة محملة برائحة الدخان وهشيم الاشجار والصخور . وهنا قفز ابو اسعد ، بينما أم اسعد تصرخ : « دخلك يا ابو اسعد ، شو صار ؟ » .

خيل اليها أن شاربيه الكثين المعقوفين إلى الاعلى كجناحي نسر قد نكسا إلى الاسفل كراية احرقتها الهزيمة ، وان صوته كان يرتجف وهو يقول « اليهود يا أم اسعد عم يضربوا البلد » .. اجل . كان صوته وهو يكرر « اليهود يا أم أسعد » يرتجف بطريقة لم تسمعها في لهجته الصلدة الحازمة الا منذ عشرة اعوام أو أكثر ، يوم روى لها كيف قابله الضبع بينما كان عائداً من الحقول إلى داره في القرية .. كلهم في القرية كانت ترتجف اصواتهم بالطريقة ذاتها حينما يتحدثون عن الضبع .. اقتربت من النافذة ولم تشعر انها تدوس على الزجاج المحطم لانها كانت تفكر في الشبان الذين يفوق عددهم الخمسين والذين تؤويهم في دارها ، وتحبهم كحبها لابنها الوحيد أسعد الذي يسكن بيروت . واغمضت عينيها وهي تصلي من اجلهم صلاة

قروية بريئة ، فقد خرجوا مع الغروب يحملون رشاشاتهم ، وها هو الفجر يكاد يطلع ولم يعد أحد منهم ..

التفتت إلى « ابو أسعد » لتسأله عنهم ، لكنه كان قد غادر الغرفة صامتاً ، وقد لحقت به القطة وهي ما تزال تموء بجنون ، والقصف مستمر ..

جارتها أم حسن استيقظت من نومها مذعورة ايضاً .. صرخت بزوجها : « شفلك شي بارودة وطلاع قوصهم .. هودي اليهود » .. ونكس أبو حسن رأسه ولم يقل شيئاً .. كانت القذائف ما تزال تهز القرية ولم يكن يملك سلاحاً .. ولم يكن مسموحاً له بذلك ..

أم جميل مدت رأسها من النافذة وصرخت بأم أسعد بأعلى صوتها عبر الزقاق : « انتم السبب .. من يوم ما لقّيتوا الفدائيين عندكم ، والبلد تحت الضرب » ..

صرخ ابنها جميل : « فدائية ولا من غير فدائية .. اليهود بدهم يضربوا » ..

وبدأت أم جميل تنوح « اسكت يا جميل .. يا ريت ما علمتك .. قوموا نهاجر .. البلد ما عادت تنسكن .. خربوها من يوم لفّوا الفدائية » ..

وصرخ بها أبو جميل « اسكتي يا مرا .. البلد كانت خربانة من قبل وما بتنسكن من قبل، لا امان ولا ماء ولا كهرباء ولا طريق ولا مواسم وفقر وتعتير ومرض.. لولا الفدائية كنا « طفشنا » من زمان .. الحق على اللي ما سلحونا » .

وبدأ بكاء الاولاد يتعالى ، ولم تسارع اليهم أم جميل لتدفئتهم ، لان « جميل » انتزع « جفت » الصيد المعلق على الجدار وخرج كالمجنون إلى الساحة . وفي التماع الصواريخ كانت تراه بوضوح من وقت إلى آخر وهو يطلق رصاصه على السماء كأنه يصوب النار على ضبع غامض أو طائرات غير مرئية .. وصرخ به أبو محمد صاحب الدكان المجاورة : « انضبّ يا مجنون .. بدك تقوص طيارة بجفت من سفربرلك » .. ولكن « جميل » لم « ينضبّ » حتى استنفد القذائف القليلة في جيبه ، وحينما مر به ابن عم المختار ورجل لا يعرفه يحملان شخصاً ينزف الدم منه ــ أو هكذا خيل اليه ــ عاد إلى الدار وانهار تحت الزيتونة العتيقة يبكي .. (يهاجر ؟ إلى اين ؟ لقد جرب « الغربة » في بيروت .. عمل معلم « عمار » ، ولم تكن الليرات القليلة التي يتناولها كل مساء بيد ممزقة تكفيه اجرة « بوسطة » كل اسبوع من بيروت

إلى قريته لرؤية اهله .. لو كان في قريته مدرسة ثانوية لتابع علومه ولصار مثل المهندس الذي كان يأتي من وقت إلى آخر ليشرف على البناية ويؤنبهم ثم يركب سيارته الفخمة ويمضي .. حتّى التبغ الذي كان يقضي الشهور في زراعته وقطفه ورعايته كانوا يأخذونه منه بأبخس الأثمان ... وتخرج اليه أم جميل وتكرر بهستيريا من الرعب : « ما بعرف شيء غير اني خايفة .. خايفة .. دخلكم خايفة » .. وتلتهب شجرة الزيتون العتيقة فيهربون إلى الداخل ويستمر القصف زمناً طويلا أو هكذا يخيل لاهل القرية ، وبعد ان يهدأ تركض أم أسعد في الجبل إلى كوخ – مغارة هو أحد مراكز ابنائها الفدائيين ، وتجد البناء مهدماً بعد ان استهدفه القصف ، وقبل ان تصرخ باكيةً ابناءها الخمسين ، تراهم يخرجون اليها من بين الاشجار .. ويقول لها احدهم « كاسترو » : كلنا بخير يا أم اسعد .. ولكنها تظل للحظات واجمة اذ ترى قطتها بين الانقاض وقد مزقتها الشظايا حين سبقتها لتطمئن عليهم ! .. وكانت القطة يومها ضحية الغارة الوحيدة في مركز الفدائيين ..

هذه ليست صورة خيالية . الحوار ليس من اختراعي . ولا الشخصيات . والاحداث تتكرر وتتشابه كل يوم منذ اسابيع في جنوب لبنان .

أم اسعد مثلاً هي مواطنة لبنانية في الخامسة والستين من عمرها طويلة الجدائل ، طيبة وصافية كماء النبع ، وزوجة لابو اسعد « محمد . ج » من قرية « الهبارية » في المواقع الامامية التي لا تبعد عن فلسطين المحتلة أكثر من اربعة كيلومترات ..

وأم حسن ايضاً ليست من اختراعي ، بل هي مواطنة وزوجة ابو حسن « زكي ش » من اهل القرية نفسها ..

وحتّى الضبع الذي تذكرته أم اسعد ليس من اختراعي .. انه « ضبع الهبارية والفريديس » الذي طالما روّع قرى المنطقة كلها بما فيها كفرحمام وكفرشوبا وراشيا الفخار ، ايام كان للضباع وحدها شرف اقلاق القرويين وتخويفهم وارغامهم على الهرب الى بيوتهم متى سقط الظلام على القرية ، وتحولت الاشجار خلف النوافذ الى اشباح ضباع تتحرك في دروب القرية على ضوء الكاز او « اللوكس » .

يومها كان لكل قرية ضبع .. وكان الليل هو الضبع الاكبر ، والى جانبه مجموعة من الضباع الصغار التي تشارك في تخويف الاطفال والكبار وسجنهم داخل

ملاجئهم ، اي بيوتهم ، مع سقوط المساء .. اما ضباع الرعب الجديدة في عصر الكهرباء فلم يجدوا الملجأ منها بعد .

وابو حسن « زكي . ش » من اهل القرية نفسها يروي لي حكاية لقائه مع ضبع المنطقة المشهور . كان ذلك منذ عشرة اعوام .. الليل بارد ، الثلج يغطي الارض ، وقمر شاحب يحيل اشجار الحقول اشباحاً ، وكان عائداً الى داره وحيداً حاملاً غلال النهار أعزلاً من السلاح ، حينما اضاءت امامه عينان وجثم جسد ضخم في منتصف الطريق وفاحت رائحة الضبع وهمهمته .. ثم صرخ ابو حسن في الضبع .. ثم .. ثم .. ثم ماذا ؟ .. ماذا صرخ ؟ لا يهم ! ماذا حدث؟ لا يهم ! المهم ان هذا الضبع وسواه من الضباع ظلت تروع القرى كلما سقط الليل حاملاً معه اشباح الضباع ، لكن احداً يومئذ لم يفكر بلملمة اطفاله والنزوح عن قريته هرباً من الضباع ..

فماذا حدث اليوم ؟

ترى ما هي ضباع الرعب التي تجتاح جنوب لبنان اليوم ، وترغم أهله على النزوح من قراهم وهجر مزارعهم واراضيهم وحقولهم وطفولتهم ومواشيهم وفزاعي طيورهم ؟ ..

هل اسرائيل هي وحدها ضبع الجنوب الذي يدفع بأهله الى النزوح ؟ هل الضبع هو نابالمها وصواريخها وطائراتها التي كثرت زياراتها وافتراسها للاهل واختطافها للقرويين من بيوتهم الدافئة كما كان الضبع من زمان (يسبع) الرجل ، فيتبع الرجل (المسبوع) الضبع الى وكره حيث يفترسه الضبع ؟ ..

أم ان في الجنوب أكثر من ضبع يثير الرعب ويجعل سكان القرى يغادرونها من بؤس الى بؤس أعظم ؟ ..

جنوب لبنان أم « أغوار » لبنان ؟

بحثاً عن اجوبة « غير نظرية » لهذه التساؤلات ، كان لا بد من ان أذهب الى الجنوب الملتهب لالتقي بأم أسعد وأم حسن وبسهيل نجم (ابو مؤنس) وبدوي حمود (ابو احمد) وابو قاسم الشعار وعشرات غيرهم من ابناء الجنوب ، ولالتقي

بالفدائي البعلبكي ابو السعد ورفاقه وأطوف في مراكز الفدائيين تحت جنح الظلام ، ثم التقي ببعض ضباط الجيش اللبناني ليدور بيننا كثير من الصمت وقليل من الحوار على خطوط النار .. اكرر « خطوط النار » لان حدود لبنان الجنوبية لم تعد « مناطق هدنة » وانما « جبهة قتال » بمعاني الكلمة كلها أو بالاحرى بنصف معانيها: اذ ان هنالك طرفاً يقاتل بدهاء ووفقاً لخطة هو اسرائيل ، وطرفاً ما يزال يملك « ارادة القتال » من دون « خطة القتال » وبالتالي ما تزال ردوده مشتتة وممزقة وغير فعّالة هو لبنان (دمنا بيتحرك لما الصواريخ بتصيب جبلنا وزيتوننا . اللي معهم سلاح بيوقفوا بالوعر وبيضربوا . نحنا اتكينا بالحاكورة وبكينا حد الزيتونة) — من اقوال بدوي ح . من قرية الهبارية الصامدة على الخطوط الامامية التي لم تهاجر منها بعد اسرة واحدة — .. ولكن حتامَ يدوم الصمود الاعزل في أغوار لبنان ؟ ..

قبل ان أغادر بيروت صباح السبت الماضي قرأت جريدتي وشاهدت فيها صور الجرحى والقتلى من المدنيين الذين أودت بهم غارات الطائرات الاسرائيلية على السيارات المدنية والمواطنين العزل (مثل احساس رجل راكب في طائرة ويقرأ في صحيفته انباء سقوط طائرة ومصرع ركابها ، هكذا احسست) ، ومع ذلك مضيت ..

اسمي لم يعد غادة . صار الممرضة سميحة ، والزميل المصور زهير سعادة لم يعد مصور « الحوادث » صار الممرض « عودة » كما تقول اجازات الفدائيين التي مررنا بموجبها الى خطوط النار .

مررنا بسيارات مكسرة النوافذ مشلّعة الابواب وما تزال نار القصف الاسرائيلي تتصاعد من بعضها . بعضها الاخر تفوح منه رائحة الدم . ابو السعد ، الفدائي الذي كان يقود السيارة لم يرتعش له جفن . فقط اشتعلت عيناه بالغضب مثل غابة صنوبر . لم تكن اول مرة أغامر فيها كأي مراسل حربي ، واتعرض للنابالم الاسرائيلي . في الاغوار منذ أكثر من عام ، في السويس منذ أقل من عام عايشت اكثر من غارة وكتبت عنها . هنا للخوف طعم يشبه الرعب لانه ممزوج بالاحساس بأن المعركة ليست متكافئة .. وبأن الرد لا يتضمن ارادة القتال كلها .. ليس صحيحاً ان الشعب اللبناني مسالم بطبيعته .. لا استطيع ان أفهم معنى لسقوط اربعة قتلى في احراش عاريا من أجل « سمّنة » ، ومعركة تدور بين الاربعة لخلاف على صيد ، في حين يتم اصطياد عشرات المواطنين من قبل اسرائيل دون ان يكون هنالك اي رد ، وبالاحرى دون

ان يكون الرد على مستوى التحدي .. ما الحكاية ؟ ما هي الضباع التي (تسبع) المواطن اللبناني وتشله ؟ ..

مررنا بقرية كفرحمام . نوافذ موصدة . شوارع شبه خالية من السكان . كثيرون نزحوا ، واكثر النازحين من (القبضايات) الذين كانوا على استعداد لقتل قتيل من اجل خلاف على « سمنة » أو حفنة تبغ .. ترى ماالذي يحول دون صب هذه الروح القتالية في التزام وطني ؟ ..

كفرحمام هي لبنان كله بنسب مختلفة .. كيف نفسر هبوط الاسرائيليين في مطار بيروت دون ان تُطلق رصاصة واحدة ؟

كيف نفسر دخولهم الى قرية كفركلا وأسرهم لعشرات المواطنين دون ان تُطلق رصاصة واحدة ؟ .. مثل كومبيوتر جهنمي واحد كان افـراد العملية الاسرائيلية .. نفذوا كل شيء كما هو مرسوم لهم دون ان يرتفع صوت بالاحتجاج ..

روى لي صديق شاهد صورة العملية كما صورها التلفزيون الاسرائيلي وبثها على الهواء .. قال لي : تقدمت بعض المجندات الاسرائيليات وأعطين الاطفال الباكين بعض الشوكولاتة والسكاكر لتهدئتهم بينما حرصت الكاميرا على التقاط هذه المسرحية لايهام العالم (بإنسانيتها) .. الاسرى الذين ساروا بالبيجامات بدوا مثل الرجال (المسبوعين) او (المضبوعين) الذين كانت تتحدث عنهم حكايا الجدات ، ساروا كالمنومين مغناطيسياً دون أية مقاومة .

لقد قيل لي ان التلفزيون الاسرائيلي عرض شريطاً كاملاً لعملية كفركلا بعد تنفيذها بـ ٢٤ ساعة .

لقد اصطحب معه آلات التصوير كما اصطحب معه أحدث انواع السلاح .

انه يعلم ان معركته هي معركة نفسية ايضاً .

ومن المؤسف اننا نعلم ايضاً ان معركتنا مع العدو هي معركة نفسية ومع ذلك نتصرف عكس ذلك .

الكاميرا ممنوعة في الجنوب ! لماذا ؟ يقول الذين يتولون عملية المنع ان الحرص على « الاسرار العسكرية » هو السبب .

وضحكت . هذا الكلام يعبِّر اما عن سخف صاحبه او عن سذاجته . وفي

الحالتين لا يملك الانسان الا ان يشعر بالاسى عندما يصطدم بمثل هذه العقلية المتخلفة .

ولم استطع ان أمنع نفسي من تصور الآثار التي احدثها عرض التلفزيون الاسرائيلي لعملية كفركلا . قطعاً ، أحدث أثراً لا يقل عن أثر أية عملية مثيرة رهيبة يقوم بها جيمس بوند .

أن من يتذكر هذه الحقائق يتأكد له ان الشعب اللبناني ، كالشعوب العربية كلها ، يكاد يذهب ضحية نغمة المبالغة في تضخيم حجم القوة الاسرائيلية ، والنغمة التخاذلية التي يرددها البعض : لقد فات الاوان .. خرج الامر من ايدينا ولم يعد بوسعنا اللحاق باستعدادات عدونا .. وليتزح اهالي الجنوب لانه لم يعد هنالك مفر من سقوطه .

هذا غير صحيح . ليس من الناحية النظرية فقط ، أي ليس انطلاقاً من القول « ان تشعل شمعة واحدة خير من ان تلعن الظلام الف مرة » ولكن انطلاقاً من حقائق أخرى تجب مواجهتها والاعتراف بها .

أم حسن التي صرخت بزوجها : « أطلع قوصهم » كانت تعبّر ببراءة وسذاجة عن حقيقة موضوعية : ضرورة الرد على العدوان .

والرد العاطفي لا يجدي . الرد الغوغائي بالتسلح غير النظامي قد يكون هو الحل اذا لم تقر الدولة خطة التجنيد الاجباري .

أم اسعد التي تؤوي الفدائيين في بيتها وتعتبرهم ابناءها ليست ملامة . انها تستسلم ببساطة للحل الوحيد العملي المقدم لها ، والرد العملي الوحيد المجدي ..

ذلك الاسرائيلي اقوى لانه يحمل رشاشاً وزوجها لا يحمل رشاشاً ، والفدائي يحمل كلاشنكوف ويذهب كل ليلة فريق منهم قلما يعود بأكمله .. انهم يدافعون عنها بدلاً من ابنها أسعد . يحمونها من خطر النزوح ، فلماذا لا تتمسك بهم ؟ ..

أم جميل ايضاً ، حينما تعتقد ان قدوم (الفدائية) الى الضيعة هو سبب الكوارث الاسرائيلية وتصاعدها بشكل لم يسبق له مثيل منذ ١٩٤٨ ، تعبر ايضاً بسذاجة وبلا سوء نية عن كل ما استطاعت ان تفهمه من ظواهر الاحداث .. انها لا تفهم مثلاً ان أم اسعد وزوجها وغيرهم ممن (يُلفّون) الفدائيين لم يسببوا الصدام ، وان كانوا ربما قد عجلوا بوقوعه ، وان الصدام واقع لا محالة ، وانه من الخير ان يحدث اليوم لا غد ما دام تأخير (الصدام) اللبناني — الاسرائيلي لم يتم وفقاً لخطة وانما هو مظهر من

مظاهر الهروب ومجرد تقاعس وسوء تقدير وتخاذل من قبل المسؤولين وهرب من الواجب ..

في بنت جبيل طالعني مشهد مفجع : رجل يلملم اثاث بيته على (كميون) ويتأهب واولاده للنزوح .. تذكرت انني رأيت المشهد ذاته مرات كثيرة عند جسر الملك حسين في الاردن . سألته :

– هل انت هارب من ضبع القرية ؟ ..

قال : من الضباع كلها . اسرائيل . وغياب الدولة اللبنانية عى كل صعيد . لا حماية . لا ملاجيء . لا اهتمام . لا مدارس . فقر ومرض ، ووعود بالراديو وتوائب لا يطلون الا كل اربع سنوات .. اريد سلاحاً فقد أحسست وانا احفر الملاجيء انني أحفر قبري ! ! ..

ولذا تجرأت على سؤال ضابط لبناني من القوات الموجودة هناك : لقد قذف اليهود بنت جبيل من مستعمرة الخالصة بقنابل الهاون ، فلماذا لم تردوا عليها رداً يشفي قلوب المواطنين ، وكان ردكم اقرب الى (رفع العتب) ؟ ما الذي يكمم افواه مدافعكم ؟ ما الذي يلجم ايديكم وطاقاتكم المشهود بها ؟

في البداية لم يرد .. ظل واجماً حزيناً يخفي تحت قناع صمته غيظاً مكظوماً ، كغيظ بطل الاسطورة الاغريقية الذي قيدته آلهة الشر ورمت به لاذلال بعوضة تعقصه باستمرار في بؤبؤ عينيه دون ان يملك رداً ..

تابعت استفزازه : اليست لديكم مدافع هاون ؟ ..

وهنا انفجر : لدينا مدافع ١٥٥ مم ، وهي تكفي يا سيدتي لايصال قذائفنا ليس الى الخالصة فحسب ، بل والى ما بعد عكا ، والى تخوم حيفا .. ان مدى مدافعنا التي عيارها ١٥٥ مم هو ٢٢ كم على اقل تقدير ..

– وماذا تنتظرون للرد اذن ؟ ..

– لاننا نتساءل : وماذا بعد ان نربح جولة رد واحدة ؟ .. ليست القضية ان نستنفد القوة التي لدينا وينتهي الامر بنصر صغير . المأساة ان اسرائيل لن تسكت . سيكون ردها كالعادة : حارس اسرائيلي بدزينة مواطنين .. وقنبلة بدستة صواريخ .. وسوف تتصاعد العمليات وستضرب طائرات اسرائيل بقوة تدميرية ليست لدى جيشنا اللبناني القدرة على مقاومتها طويلاً مهما استبسل ! ..

البطل ليس قديساً

سألت قروياً من مناصري العمل الفدائي وكان الليل قد بدأ يسقط على القرية ورائحة ضباع الرعب تفوح : لماذا تؤوي الفدائي في بيتك وتحبه ؟

قال : لانه بطل . كنت فيما مضى احلم به ، وها هو اليوم معي . انه فارس العرب الذي كنت أقرأ عنه في حكايا عنترة وابو زيد الهلالي .

رغم ما في رده من (وطنية) احسست بالحزن . هذا (الحب) المتخلف يجب ان نتخلص منه . هذه الرؤية الرومانتيكية التقليدية للفدائي كبطل اسطوري هي ضد العمل الفدائي وضدنا . فيها ظلم للفدائي ولنا .. ففي قرية مجاورة ، حدث ان (نرفز) فدائي لسبب يومي حياتي عابر كما يحدث لاي مواطن من اهل القرية ، وانقلبت القرية كلها ضد العمل الفدائي حينما اكتشفوا انه (انسان) مثلهم ، وليس قديساً منزّهاً . وكأي انسان له لحظات من الضعف.اضطر الفدائي الى الاصرار على الخطأ لانه اقتنع بهالة القداسة التي رسمها البسطاء حول رأسه وارغموه على ارتدائها .. ان مثل هذه الصورة تحول دون الالتحام الحقيقي بين الجماهير وبين الفدائيين ، وتنقل الى منظماتهم (التي نعتبرها النبتة النقية الطالعة في مستنقع الهزيمة) امراض التخلف العربي وابرزها هدر الطاقات .. ردد القروي الطيب مشيراً الى الفدائي « ابو السعد » : هذا فارس العرب من قديم الزمان فكيف لا نحبه ولا نحميه ؟

قلت له : شهر العسل العاطفي مع الفدائيين لا بد له وان ينتهي ... الرابطة بينكما ليست في رأيي مجرد غزل تراثي رومانتيكي وانما هنالك قضية اساسية تربطكما : انها بيتك وارضك واولادك ... انها المصلحة المشتركة ، والقيم التي تربط الثوار أيا كانت اقطارهم في نضالهم الواحد لاجل الخبز مع الكرامة .

واني بصفاء نية أحذر الفدائيين من هذا الحب العنيف الخطر لانه لا يقوم على ركائز من الوعي العقلي . وأحذر من ان تكون العلاقة بين الفدائي والمواطن كالعلاقة بين البطل على الشاشة والمصفق في الصالة ، وألفت الى ان من مصلحة الطرفين ان يبنيا علاقتهما منذ البداية على اسس من المشاركة والوعي وتقاسم المسؤولية ...

ولانني اؤمن بانه لا شيء فوق النقد الموضوعي غير المتحامل ، لا بد لي من ان اذكر مرضاً آخر من امراض العمل الفدائي التي تتجلى في جنوب لبنان بصورة

انقسامات تصل احياناً الى مستوى الصدام كما تتجلى في أقطار عربية اخرى ، واعني بذلك تعدد المنظمات الفدائية وروح الصراع الداخلي فيما بينها بدلاً من توجيه طاقاتها كلها نحو العدو ...

ولذا احب ان اسجل احترامي لافراد « إحدى المنظمات الفدائية » لانني لاحظت في أحد مراكزها في الجنوب صور شهداء المنظمات الاخرى كفتح والصاعقة... كما احب ان اسجل احترامي لمفهوم افرادها المتطور للعمل الفدائي وهي التي تضم شباناً من لبنان والعراق وفلسطين وارتيريا وسوريا تجمعهم ثوريتهم .. وكاد يدمع قلمي وانا اسمع « كاسترو » — احد افرادهم — يقول لي ببساطة : جزمتي من فتح . بنطلوني من الصاعقة . الجاكيت من الجبهة الشعبية ..

— وسلاحك ؟

— سلاحي هو أنا . منذ ايام حومت الطائرة الاسرائيلية فوقنا ... كان معي رفيق من فتح وآخر من الجبهة الشعبية .. ضربناها .. أصبناها ... انفجار .. قتل مناضل فتح . اغمي علي .. وهذا من بعض حطام الطائرة ...

ويتدخل الرفيق طارق : سنصنع منها خواتم واساور تذكارية نبيعها كما في فيتنام ...

وأسألهم : وهذه الخوذة ؟ ...

— زرعنا لغماً اطاح باسرائيلي ، ولم يبق منه الا خوذته ! ...

وتلفتّ حولي اتأمل معروضات مركز الفدائيين في ضوء الشمعة الذابل ، كانت هنالك قنابل ..

— لقد أفرغناها .. وسنعيد تعبئتها ونستعملها الغاماً ضدهم . بذلك نحقق عملياً الشعار القائل : يرتد سلاحهم الى نحورهم .

فلنقتل ضباع الرعب

على بعد مسيرة دقائق كانت تبدو مستعمرات إسرائيلية وهي تضيء بينما كانت القرى اللبنانية التي نتجول بينها مظلمة وخاوية ، وشوارعها فارغة مثل اغصان تينة يابسة ...

في اية لحظة من الممكن ان يغسلنا شلال من القذائف الاسرائيلية ، ولكنني لم

اشعر بالخوف كما احسست به وأنا بعيدة اقرأ عناوين الصحف . ان مواجهة الخطر هي اسهل من التفكير به ... ان الخروج الى الليل وصب غريزة القتال في تنظيم وطني واضح التخطيط خير من النزوح عن القرى أو الاختباء في (التنور) والانصات لدبيب ضباع الرعب في داخل انسان الجنوب اللبناني قبل خارجه ... والنظام المتخاذل الذي يطعم ضباع الرعب ويساعد على تكاثرها مطالب بأن يوقف ذلك ، لأنها لن تكتفي بالتهام الجنوب ، بل وستلتهمه هو أيضاً حين يخرج الامر من يده ، هذا اذا لم تلتهمه ثورة يكون الجنوب وقوداً لها والفدائي نموذجاً ومنارة ..

مثقفو النبطية

في طريق العودة كان لا بد من وقفة في النبطية حيث المأساة ذاتها ولكن السكان اكثر وعياً وثقافة ... ياسر وعفيف وزعل وغيرهم من شبابها تحدثوا الي طويلاً ، وألخص آراءهم في هذه النقاط :

١ – أيا كانت اخطاء العمل الفدائي تظل كفة حسناته راجحة ، اذ لولا الفدائيين لرحل اللبنانيون ولتم اخلاء الجنوب .

٢ – اللبناني الاعزل الهارب من قطعة سلاح بيد الضبع الاسرائيلي ، يتعلم من الفدائي كيف يقاوم. حينما يرى بين يديه قطعة سلاح مشابهة ... يكف الضبع عن ان يكون رعباً اسطورياً ويكف تصوره للحل عن ان يكون غيبياً واتكالياً ... مواطن الجنوب يستلهم درب الحل الحقيقي من الفدائي ، ويتحول بذلك من « مرشح لاجيء » الى « مشروع مقاتل » ...

٣ – الجيش يجب ان يقاتل ما دام تأجيل الصدام لا يتم ضمن خطة عمل ، وانما هو مجرد ظاهرة هرب لطبقة معينة كل ما يهمها هو حماية مصالحها بأي ثمن .

قطاع الطرق

ابو السعد الفدائي يصر على مرافقتي في طريق العودة ليلاً . قلت له : لو اصابت السيارة قذيفة لكانت ميتتنا مشتركة ولما استطعت حمايتي . ولست خائفة من عتمة القرى التي قطعت الغارات اسلاكهـا الكهربائية ... قال : هنالك ضباع رعب اضافية : قطاع الطرق .

عبر الدرب الموحشة المقفرة ، والقرى الحزينة كنا نطير ... ادار زر الراديو .. سمعت بلاغاً رسمياً عن حفر الملاجىء وحماية قرى الحدود ، وكلاماً آخر كثيراً من ذلك النوع الخطابي المائع المزيف الذي لا تقدر اذاعة في العالم على صياغة مثله : جثث كلمات بلا مضمون . بدا لي هذا الكلام وانا في قفر الجنوب ، (وضباع الرعب تنبت من الصخور والاشجار حولي) مثل نكتة مهترئة ... اسكتُّه بغيظ وانفجرت اضحك كما لم أبك من قبل ...

لم يضحك ابو السعد . لم يقل شيئاً ...

ولا ادري لماذا وجدتني أسأل حينما مررنا بلوحة عليها اسم الفريديس : ماذا حدث لضبع الفريديس وكفرحمام والهبارية الذي حدثوني عنه في القرية ؟ ..

رد الرفيق طارق : قتله فدائي منذ اشهر ... بالضبط ، قتله ابو السعد ...

واغمضت عيني وظللت ارى بقية ضباع الرعب التي تجتاح الجنوب ، والتي لا يستطيع الفدائي وحده الاجهاز عليها ... من اذن ؟ كائن اسطوري ؟

لا ... ربما حينما يتحول المواطن العربي في لبنان من لبناني بالهوية الى لبناني بالممارسة ... وحين يصير كل شبر من أرض لبنان أغلى من السُّمنة التي ذهب في سبيلها اربعة من القتلى .

١٩٧٢/٦/٢

زارونا وراحوا ...

سياسي لبناني كبير دعى السفير الاميركي في الاسبوع قبل الماضي إلى رحلة للحدود اللبنانية الجنوبية ، كي يريه بعينيه — لا عبر البلاغات والتقارير — أن اسرائيل قامت عملياً باحتلال جزء من الاراضي اللبنانية ، وانها عمدت إلى شق الطرق فيها واقامة المراكز العسكرية ... هذا بالاضافة إلى نسف البيوت داخل القرى اللبنانية الامامية وإلحاق شبه دمار كامل ببعضها ...

وأنا أدعو الكادحين والطيبين الكثر في شعبنا اللبناني والعربي إلى رحلة مماثلة ، لأضع امام عينيهم الجواب على سؤال بسيط وبديهي وهو : هل هنالك حقاً أراض لبنانية محتلة ؟ .. وهل هنالك خطورة أفظع من تجاهل الدولة لوجود قوة أجنبية على أراضيها ؟ وهل هنالك ما هو أشد ايلاماً من جهل المواطنين بذلك أو لامبالاتهم بمدلوله ومدى خطورته ؟ ...

وهكذا وفي اليوم الذي دعيت فيه إلى حفلة تتويج احدى ملكات الربيع وإلى حفلة أخرى لانتخاب ملك جمال أحلى شارب (شنب) ، اتجهت باكراً والزميل المصور ابن الجنوب حسن حوماني إلى حدود لبنان الجنوبي ، وعدت ليلاً بعد ١٢ ساعة من السير على طول الحدود الجنوبية .. عدت مرهقة ، وتمنيت أن أهتف (لأُهنىء) الفائزين في الحفلتين ، ولأقول لهم انهم سيكونون ملوكاً وملكات بلا أرض .. ولأقول للراقصين اللاهين أن أرض لبنان تسحب من تحت اقدامهم كالبساط ، بينما هم مشغولون بتعلم خطوات آخر رقصة .. وآخر صرعة .. والتهامس بآخر فضيحة .. وربما بانشاء جمعية لانقاذ مدينة البندقية التي تغرق بينما لبنان كله يغرق .

عن فمي أمزق اختام الشمع الاحمر وأروي ما شاهدت وما سمعت .. بكل صدق وبكل ألم ، وبكثير من الخجل .

الاستعمار داخل الوطن !

ان من يغادر بيروت إلى الجنوب — أو إلى أية منطقة لبنانية أخرى عدا منطقة جبل لبنان — يحس فوراً بانه انتقل من منطقة الرفاهية (والعز) إلى منطقة البؤس والعذاب .. وكلما توغلت جنوباً كنت أشعر بأنني أعود قرناً إلى الوراء وتحيط بي أنماط من الحياة تنتمي إلى عصور ماضية .. ومع كل كيلومتر نحو الجنوب تقطعه السيارة ومع كل دورة دولاب كنت ازداد احساساً بهذا الواقع المؤلم ..

نحن الآن عند مشارف النبطية ، وها هي اللوحة الكبيرة الزرقاء التي تحمل أسماء قرى الجنوب كلها مرمية على الارض كأنما مرت فوقها دبابة أو أطاحتها رياح عاصفة عاتية .. وتشاءمت ..

فهذه اللوحة المرمية على الارض كانت ترمز ببساطة إلى ما يدور وما يتهدد القرى المكتوبة اسماؤها عليها .. كانت شبه نبوءة وانذار .. وكانت ايضاً بنت الاهمال الذي هو الأب الشرعي لكل المآسي التي تدور .. نتجاوز النبطية نحو مرجعيون .. فنمر بكفرتبنيت .. حقول من (الدخان) الاخضر (الدخان: التسمية المحلية للتبغ) يضيء تحت أشعة الشمس (ترى هل ستقطفه أيد غير الايدي التي زرعته ؟ وهل ستنفث دخانه حناجر عدوة ؟ وفي أي موسم ؟) .. الطريق تزداد ضيقاً وتعرجاً وجمالاً .. ها هو نهر الليطاني ومياهه المخطط لمصيرها في أكثر من خطة وخارطة في درج اسرائيلي .. (متى يخرجون الخارطة من الدرج ويذهب النهر كما ذهب سواه وكما يخططون لمياه الحاصباني والوزاني ؟) ..

وعلى تلة جميلة تشرف فوق النهر لفت انظاري بيت جميل مهجور مبني من الحجر لكنه بلا أبواب ولا نوافذ . والرياح والاشباح تدخل وتخرج منه كما تشاء وحينما تشاء كأنه لبنان ! .. وسألت فلاحاً عابر سبيل عن سر هذه الدار فقال انها لآل الصلح ..

نتابع الرحلة .. ها هي قلعة الشقيف فوق قمة جبل تقابلها في مكان ما المراكز الاسرائيلية التي تعتلي الذرى وتشرف على القرى اللبنانية التي تمتد تحتها (كأنها في صحن — على حد تعبير قروي) ..

مرجعيون . وحركة غير عادية ، فاليوم الجمعة والبضائع المكدسة على الارض هي « سوق الجمعة » .

توقفنا قليلاً . أهم بضائع السوق اليوم هي قمصان الجيش الاميركي ! .. قمصان عليها عبارة U.S. ARMY يتهافت عليها ابناء البلدة . أحدهم جربها بالعقال العربي ، واضحكتني المفارقة : العقال ، ورتبته في الجيش الاميركي (الحليف) .. سنموت بقنابلهم ونحن نرتدي قمصانهم — أكفاننا من صنعهم .

الخطوة الأولى : تدمير القرى !

نحن الآن في راشيا الفخار ، والدمار في كل مكان حولنا .. وفوق كل بيت مدمر تعلو لافتة (خطر الموت) التي يلعب حولها الاطفال ويقفزون بمرح (مشهد الاطفال هو وحده بصيص الامل في لوحة الدمار المنصوبة أمامنا المشدودة بين السماء والحقول ..) .

القرية شبه فارغة من الشبان .. يقطنها الشيوخ والصمت والذكريات الموجعة والبيوت المهدمة كما في قرى الاساطير .. أكثر البيوت مغلق ومهجور وتفوح منه رائحة الاعشاب التي بدأت تنمو حتّى فوق مزالج الأبواب المكسورة .

واشعر بأن راشيا الفخار الحالية ليست سوى صدى لراشيا الفخار القديمة .. والجنوب كله صدى شاحب كالذكرى .

من يبيعنا زيت الحقيقة ؟

استوقفنا في الطريق أكثر من حاجز للجيش . وسألونا إلى أين نحن ذاهبون ؟ ولم أكذب . قلت لهم الحقيقة .. قلت لهم انني ذاهبة لشراء الزيت .. وكنت اقصد بذلك شراء زيت لاضاءة مصباح الحقيقة . زيت لمصباح (ديوجين) . وقبل ان أتابع وأقول لهم عن مواصفات الزيت الخاص الذي أنا ذاهبة لشرائه ، كانوا يفسحون لنا الطريق بكل تهذيب وبكل الدماثة المعروفة عن الجيش اللبناني ..

« أم كامل » .. وبعدها الاعتداء

نتابع السير في دروب وعرة وفقيرة . نحن الآن في كفرحمام .. قرية أخرى شبه مهجورة .. شبه مهدمة .. نتوقف امام بيت ونطلب (شربة ماء) .. بكل بساطة ابناء القرى وكرمهم وفضولهم أيضاً يتم الترحيب بنا . نجلس مع الست لميا وزوجها . يبدو انها ليست وزيرة داخلية فحسب بل وزيرة اعلام ايضاً لانها تتولى الكلام ويعتصم

هو بالصمت. بنظرة كلها شك تسألنا : هل انتم من الفدائيين ؟ أم من جماعة الحكومة؟ أم .. (واحسها تكاد تسأل أم من الاسرائيليين) .. وقلنا لها اننا من القادمين لشراء زيت الحقيقة .. وقالت بلهجة كلها مرارة : « زارونا نواب وراحوا (ولن يرجعوا قبل اربعة اعوام) وزارونا الفدائيين وراحوا .. وزارونا الصحافيين وراحوا .. وزارونا اليهود وراحوا .. وانتم ماذا تريدون ؟ .. كنا نتوقع زيارتكم بعد أيام لا اليوم .. »

– لماذا بعد ايام ؟ ..

– لان (أم كامل) – وهو الاسم الذي يطلقه أهل قرى الحدود على طائرات الاستكشاف الاسرائيلية – حامت فوقنا البارحة ، وهذا يعني ان اعتداءً من نوع ما سيتم خلال ايام .. دوماً تسبق حركاتهم وانزالاتهم تحويمات أم كامل .. وبعدها يتذكرنا لبنان .. ويتدفق علينا الصحافيون .. يتفرجون على بيوتنا المهدمة ويصوروننا ، ثم يذهبون . (كم هو مؤلم الوعي العفوي لابن الجنوب واتهامه لنا .. كم هي على حق . كلما جرى اعتداء نتذكر الجنوب . نهرول إلى سيرك الجنوب . كالسياح نتفرج على جراحه ودماره ، ونلتقط الصور التذكارية قرب اطلاله ثم نودعه ونعود إلى ممارسة تخديرنا ، ونتلقى كل «التّنْفيه» الرسمي الذي يبث في حياتنا على كل صعيد. ونرقص بانتظار الاعتداء التالي .. لن تبقى لنا أرض نرقص عليها .. ولا حتى مقبرة) .

تتابع الست لمياء حديثها وهي تقدم لنا رغيفاً من الصاج نلتهمه : عشنا ثلاثة ايام في الملاجيء بلا طعام ولا ماء .. كانت طائرات اسرائيلية ترش النار في البيادر .. خرج الفدائيون إلى الحقول يقوصون على الطائرة .. مات الكثير منا ومنهم .. وجاء الجنود الاسرائيليون ليلاً .. ونسفوا البيوت .. ومشّطوا القرية .. واستولوا على أراضينا واكوام الحصاد شبه المحروقة ما تزال فيها .. وبقينا وحدنا نلملم قتلانا ، ونودع النازحين .. لم نعد نجرؤ على فتح ابواب بيوتنا ليلاً لاننا لا نعرف من الطارق ، أهو فدائي أم اسرائيلي .. أم الدولة ؟ والدولة لا نعرف عنها شيئاً ولا تعرف عنا شيئاً ، ولولا ايصالات شركة الكهرباء التي تتولى تحصيلها مرتين بدلاً من مرة ، لما تذكرنا وجودها .. » .

وهنا أخرجت ايصالات الكهرباء (المغلوطة) وعرضتها علي قائلة : ثلاثة اشهر هجرنا بيوتنا ولم يضاء فيها نور ، ومع ذلك هنالك من يطالبنا بدفع بدل عن

الاضاءة ! .. وتأملت سيارة صفراء تخص مصلحة البرق والبريد والهاتف تسير في القرية . وكنت قد ظننتها جاءت تضيء بعض الامل واذا بها جاءت تجبي اموالاً عن الاضاءة لبيوت لم يضأ فيها نور الامل منذ اعوام ..

نتابع المسير في القرية . ها هي عفيفة. ز تقف خلف جدار بيتها الذي جعلت منه القنابل فجوة كهف مرعبة — بيتها مجاور لبيت الاستاذين أحمد ومحمود . س — وها هي العجوز حليمة . ح ترفض ان تتصور لانها (ضجرت) وتؤكد انه رغم كل ما حدث فقد قررت ان يكون بيتها قبراً لها ولن تنزح ..

ونغادر كفرحمام ، نسير في درب حرثتها المجنزرات الاسرائيلية وخربتها ونصل إلى كفرشوبا .. واعيش كابوساً وأحس كأني في احد افلام فيلليني حيث الحقيقة كابوس مروع .

بين الجامع والمقهى

هنالك دكان تجمع فيه شبان البلدة. ندخل . نجدهم يلعبون الورق (لعبة الكاتورز). لماذا لا تعملون ؟ لأن حقولنا استولت عليها اسرائيل ! وعلى جدار المقهى كتبت هذه العبارة : يا نواب الشعب ، أين ومتى مطالب الشعب ؟ .. (ولم اقل لهم ان شعباً يقضي وقته في لعب الورق بعد ان أُغتصبت ارضه هو الذي يصنع دون ان يدري نواباً كنوابنا .. وان كلاهما — للاسف — امتداد للآخر) .. دخلنا إلى احد البيوت .. منزل يوسف . ق .. وطفلة جميلة بين يدي امرأة حامل،وأخرى تمتص ثدي أمها بشراهة .. والنساء يتحدثن بشراسة بعيدة عن رقة الامومة : أخذوا أراضينا .. لم نعد نزرع ولا نعمل أي شيء سوى الانتظار .. الرجال يلعبون الورق ونحن نرضع الاطفال وننتظر .. وأشارت لي بيدها إلى الاراضي التي زرعتها ولم تعد تستطيع قطافها ، وإلى المراكز الاسرائيلية ... وكان الضباب قد بدأ يشرنقها كأن الضباب هو وجه الطبيعة حينما تخجل .

وتابعنا التجوال في كفرشوبا التي فقدت أكثر حقولها الزراعية بالاضافة إلى المركز الاسرائيلي الاستراتيجي الذي أقيم في جرودها والمشرف عليها .. ها هي سنديانة ضخمة عتيقة اصابها منذ أشهر مرض غامض قال لي اهل القرية : انه مرض جاءت به الرياح الجنوبية .. والسنديانة (رمز القرية) تموت ببطء وصمت كالقرية .. وقرب

السنديانة جامع ابيض خرج منه بقية الرجال (الذين لم يكونوا يلعبون الورق) وانما كانوا يصلون ، وتجمعوا حولنا ، المصور حسن حوماني وأنا ، وقرب جدار كتب عليه برقية إلى النواب تقول (نسيتونا ١٣٠٠ يوم ..) تابعوا رسم صورة الجنوب اللبناني الجريح : (ذهبت أراضينا. ونحن كما ترين لا شغلة ولا عملة ولا فلحة ولا زرعة ولا الدولة تساعد ولا تسمح لنا باستخدام رخص الدخان في أراض أخرى غير أراضينا المسلوبة ولا شيء سوى الصلاة وانتظار الفرج من الله) ..

وأحزنني الرجال فعلاً في وقفتهم الاليمة بين السنديانة التي تموت والجامع الصامت وجدران البيوت التي لم تهدم بعد ، والبيض كالكفن .. وغرقت في حزن حقيقي حينما استوقف الاخ حسن رجلاً عجوزاً ليصوره ، والتقط له صورة بوضعه الطبيعي (أي وهو عابس) ثم طلب منه ان يبتسم ، ويبدو ان العجوز قد نسي كيف يبتسم ، عضلات التبسّم لديه تحجرت وماتت لكثرة ما مرت به سنابك جياد الاحتلال والاهوال طيلة حياته .. وتجمد وجهه على تعبير من الألم واللامبالاة لن انساه . انه هو الانسان العربي منذ عصور الانحطاط الغابرة حتى عصور الانحطاط الحاضرة .. وغادرنا القرية .. ومن بعيـــد كانت الطريق الاسرائيلية التي شقها الاسرائيليون في يوم واحد (كما قالت امرأة من آل قصب) تلتمع تحت الشمس كالافعى .

الهبارية ، شاخ أطفالها

نحن الان في الهبارية . البيت الذي زرت فيه الفدائيين منذ عامين صار أثراً بعد عين ، وكل البيوت المحيطة به . الأطفال استقبلونا بحذر ، وحدثونا بدبلوماسية ، ويبدو ان زيارات الاسرائيليين لهم صارت مألوفة ولم يعودوا يعرفون متى يؤمون ملجأ الصمت أو استراحة الكلام .. تذكرت بيت المختار حيث كان الفدائيون ، وتذكرت وجوههم وسألت عنهم .. قالوا لي في القرية : « لم يعد هنالك أحد منهم .. ذهبوا جميعاً » .. وها هي عجوز اسمها يكاد يكون تاريخياً هي « خزنة أم نعمان » تشير بعصاها إلى الاراضي التي انتزعت من القرية وإلى المركز الاسرائيلي في التل .. وحدثتني عن (الكَلّة) — أي القنبلة — التي ضربت شجرة الزيتون ونجت هي(هي التي تبدو اعتق من زيتون الانجيل) .. كان كل ما في القرية مهدماً ولم يعد بناؤه ، والشيء الوحيد القائم كما كان ، هو معبد روماني أثري ! .. كان يبدو جديداً أكثر

من خراب القرية كله ! ..

قرية الفريديس أيضاً نالت نصيبها من الدمار وأحزان النازحين والمقيمين .

ورغم اللافتات الكثيرة المزروعة – أكثر من الالغام – في قرى الجنوب التي تحمل اسم مجلس الجنوب فقد كانت الشكوى الموحدة في القرى كلها هي اهمال الحكومة ومجلس الجنوب لهم .. الذي كانوا يسمونه « مجلس الجيوب » !

الحوار الصامت الحزين

نتجاوز عدة مراكز عسكرية لبنانية ، مستمرين في البحث عن الزيت (زيت لمصباح ديوجين) ونلقى كل لطف من الجنود اللبنانيين .. بعضهم تلطف بتقديم القهوة المرة لنا .. وكان الجنود الذين التفوا حولي .. المرشحون للموت ، المقيمون في عراء الخيام يتزفون صلابة وحيرة ، كأن الأوامر المعطاة لهم متناقضة .. وتجاوزنا مخفر الخربة ، وسرنا في طريق لبنانية تفصلها عن الارض اللبنانية سابقاً ، الاسرائيلية حالياً ، أسلاك غير شائكة لكنها تدمي بخناجرها اللامرئية قلب كل عربي يقف أمامها . وأمام لافتة كتب عليها بالعبرية « خط الحدود » وأخرى تحذر من التصوير ، وقفنا نصور . وكأننا نريد ان نعصي أمراً للعدو .. فقد كان ذلك كل ما في استطاعتنا ان نفعل في هذه اللحظة ! ..

تحدثنا إلى راعٍ عجوز ذكرني حديثه بمجانين روايات « فولكنر » وكان هو يسير على الجانب اللبناني من الطريق ، وكانت بقرتاه ترعيان على الجانب الاسرائيلي .

وتابعنا المسير .. شاهدنا سيارة متوقفة قرب الاسلاك في الجهة الاخرى «الاسرائيلية» من الارض وشابّين قربها .. احدهما يبدو عليه انه عربي والآخر يهودي اوروبي . توقفنا واقتربنا من الاسلاك .. واقتربا .. وسألت فلسطيني الوجه عن اسمه فقال انه من آل عيسى من الناصرة . وسألته « كيف الحال ؟ .. »

وبدلا من ان يجيب ، رمى الي بثمرة دراق ، (تفاحة الخطيئة ؟ !) وقلت له : « سلّم على الاخوان ... » ورمى الي بدراقة أخرى .. أربعة اسئلة .. وأجوبة تشبه الصمت .. وأربع دراقات من فلسطين .. وحفنة من الكرز الأصفر والاحمر .. كل هذا والشاب الاشقر الآخر صامت (تراه يعرف العربية ؟ . تراه .. تراه ؟ .) وصورناهما .. واقتربت لأتصور معهما والاسلاك تفصل بيننا ولكنها بدأت تمطر

في حلقي دمعاً مالحاً .. تذكرت الجسر في الاردن .. واللقاءات المبتورة .. وقررت : لن . سأتصور خلف الحاجز أو لا

وكانت الحقول خلف الحاجز مثل الجنات الموعودة في التوراة .. ثمار وأشجار مزدهرة .. وكانت الارض على شاطئنا الآخر من الأسلاك مهملة .. كأن أرضنا هي شاطىء العذاب .. والإهمال والحرمان ..

ولم نكد نتابع المسير ، ولم أكد أقضم حبة كرز حتى خرج علينا رجال غاضبون (كأنني أكلت حقاً من تفاحة الخطيئة) ، كانوا يركبون سيارة بيضاء اعترضت طريقنا وفيها ثلاثة رجال هبط أحدهم ، وظننته جاء ليساعدنا في جمع الحقائق وتقديمها للرأي العام (وهذا في نظري هو أقل واجب على المسؤولين تقديمه) ، ولكنه بدلا من ذلك ازداد ثورة حينما أبرزت له بطاقتي الصحافية وقال : « عودوا فوراً إلى مخفر خربة .. انتم مطلوبون هناك ! » وعدنا لكننا (ضيّعنا الطريق) إلى مخفر خربة (!) ووجدنا انفسنا نمر بطريق جانبية ثم نعبر كفركلا وبيوتها المنسوفة ونشاهد جندياً اسرائيلياً يتمشى باسترخاء عند خط الحدود وهو يقرأ مجلة (البلاي بوي) لا (الوصايا العشر) حتماً ، ثم وجدنا أنفسنا نتابع رحلتنا كما خططنا لها إلى الناقورة ، مارين بصور ، ثم بمخيم الرشيدية حيث سمعنا زخات كثيرة من الرصاص من بنادق مصوبة حتماً نحو السماء .. (تراه عرساً ؟ أم حداداً ؟ ومتى تصوب البنادق إلى حيث يجب ان تصوب ؟) ..

وعلى طول الشاطىء اللبناني الجميل كانت هنالك سكة الحديد القديمة التي تصل بيروت بحيفا . وقبل الناقورة بقليل انهدمت الارض كانما بفعل زلزال ١٩٤٨ ، وانتهى الخط الحديدي في انقطاع مفاجىء وطرفاه على الهاوية .. وفي الناقورة هنالك لافتة (مرطبات وبوظة حداد) ولكن بعد كل ما رأيناه ، أحسسنا ان كل جليد العالم عاجز عن تبريد دمائنا الفائرة ..

ومن الناقورة نصعد إلى يارين ومروحين فرامية ورميش وشبعا .. القرى التي فقدت من أراضيها أكثر من الف دونم منذ حرب حزيران .. (رميش ، وحدها فقدت ٥٠٠ دونم من أراضيها منذ حرب حزيران) .

رامية أم دامية ؟

لوحة الطريق التي تحمل اسم قرية « رامية » مرمية وشبه ممسوحة بالصدأ (أم

بالدم ؟) وانت حر في ان تقرأ « رامية » أو « دامية » .. فأكثر أراضيها ضاعت .. وها هو (اوتوستّراد) حصة الاسرائيليين في الاراضي اللبنانية يلوح على بعد أقل من عشرات الامتار ، وتبدو في منتصفه بوضوح تخطيطات بيض ، وخلفه مستعمرة بدت تضيء بجمال يلهب خيال المحروم في أرض الدمار اللبنانية ، والغروب بدأ يحتل كل شيء .. واتحدث إلى فتيات عائدات من الحصاد يحملن المناجل .. (زينب ، أميرة ، جميلة) .. ما زلن يرفضن مجرد الوقوف في صورة مع مواطنيهم الطلاب الذين يدرسون وهم يتمشون في الطريق ويتأملون المرتفعات التي كانت تخصهم ولم تعد .. واتحدث إلى محمد. خ ، وعبد الكريم . ح ، واحمد.ع حديثاً ذا شجون ..

ماذا يمكن ان نقول ، والبيوت المدمرة في قريتهم على بعد أمتار منا ، والمستعمرة الاسرائيلية بكل فخامتها و (تكنولوجيتها) على بعد أمتار من الناحية الأخرى ؟ .. وعبد الكريم ابن الـ ١٧ سنة يتميز بشعر أشيب .. سألته لماذا ؟ قال ساخراً : « من الخوف ! .. »

وترك لي ان افهم لماذا ؟ ..

ان أي مواطن عربي يقف هناك لا يملك إلا بعضاً من المشيب النفسي ، ان لم اقل المشيب الجسدي . ما يدور فوق أية طاقة على الاحتمال والتصديق ، وبصورة خاصة اذا تذكرنا ونحن نقف هناك التفاهات اليومية التي ما يزال معظمنا يغرق فيها ببيروت ، واساليبنا غير المتطورة في العيش .. ولبنان كله يغرق .. وما يحدث في الجنوب هو البداية ..

حنجرة الجنوب

الاسماء لا تهم . حنجرة الجنوب كلها تشكو من كل شيء .. من اسرائيل .. ومن العرب .. ومن الحكومة .. ومن الفدائيين .. ومن نفسها .. ومن ضبع الهبارية ، ومن سنديانة كفرشوبا ، ومن مجلس الجيوب (عفواً الجنوب) ومن الشعب اللبناني ومن السماء ومن كل شيء ..

كل ما في الجنوب يصرخ كجسد يُسلخ بالتقسيط ..

انسان الجنوب ممزق .. انه طيب وبسيط وساذج وحائر والكل يستغله . لقد تحول إلى بضاعة جديدة في سوق المزايدات العربية .. وارض الجنوب تضيع ..

ولبنان يرقص ويغني كما يغني الخائف في الظلام (لا أظنه ثملاً !) ..

والمطلوب ؟

المطلوب فتح الجنوب . تعميره . تنويره . اقامـــة مستعمرات وعي تستطيع أن تواجه المستعمرات المقابلة لها . ما دام الجنوب خاوياً من السكان فان احتلاله سيتم بصمت كما يتم الآن ، وقد نذهب اليه كسواح ، أو نجعل منه حائط مبكى جديداً .

ألغام الانسان العربي

مع الليل الحزين اعود . على الاسفلت جثث كلاب وقطط دهستها السيارات (أم تراها رؤية مستقبلية لجثث بشر سيموتون قريباً دفاعاً عن هذه الارض أو هرباً منها ؟) .. الدرب مزروعة بالالغام .. وانفجرت ضاحكة بصوت عال كمن أصابه مس في عقله .. الألغام ؟ ما أهمية عشرات الالغام اذا لم نفجر اللغم في اعماق كل فرد عربي ، لغم الثورة على ما يدور .. مئة مليون لغم .. من ومتى ؟ ..

نسيت ان أقول لكم :

بعد عودتي من الحدود اتصلت بصديق فدائي مسؤول وأخبرته عن اختفاء الوجود الفدائي في الحدود الجنوبية عن العيان ، فقال لي حرفياً : الوجود الفدائي ما يزال في جنوب لبنان وهو اليوم أقوى منه في أي يوم مضى .. وكل ما في الامر هو انه غيّر مواقعه .

٤ / ٣ / ١٩٧٤

الجنوبيون الصامدون على خط النار

طوال الليل كان المطر يلتهم جسد الارض . مع الصباح استيقظت الشمس ، وفاحت رائحة التراب كما هي دائماً بعد المطر : نفّاذة شرسة . مهيمنة .

على طول الطريق إلى الجنوب ، فجر ذلك الاحد المشمس ، كانت رائحة الارض هي الايقاع الاساسي لسيمفونية النهار . الارض . انفاس الارض . همسات الارض . عظمة حكايات الارض . وكلما أوغلت بنا السيارة جنوباً كلما تعالى صوت الارض واستحال زفرات حرى . زفرات احتجاج وحزن وقهر . رفض وحرمان . وحين تصل السيارة إلى حدود لبنان الجنوبي وفلسطين ، تتحول الزفرات إلى صوت صارخ مهدد .

هذا كل شيء في اختصار . تريدون قليلاً من التفاصيل ؟ ..

مسيرة الوداع

ها نحن نخلف بيروت وراءنا ...

ها نحن نمر بالدامور في طريقنا إلى الجنوب الحزين المهمل ، كما لو كان الابن غير الشرعي للبنان ...

حقول الموز التي تحيط بها جميلة . تتدلى من شجيرات الموز قناديل زرق فيبدو المشهد اسطورياً للوهلة الاولى ، ثم تتبين ان القناديل الزرق هي أكياس من النايلون الازرق لحماية اقراط الموز من برد الليل . لا تملك الا ان تتذكر ، وانت ترى الموز المدلل ، اطفال الجنوب الذين ينامون عراة من حماية الدولة تحت ليل الرعب والرصاص في الجنوب ... واذا كانت السماء تمطر في بيروت ماءً فقط ، فالسماء تمطر في الجنوب رصاصاً وناراً ... الدرب الى الجنوب جميلة ، ولكنه جمال يملأك بالحزن

لانه يذكرك ببشاعة ما يحدث من ظلم داخل هذا الاطار الطبيعي الساحر ! ..

زحام السير شديد . كل الناس ذاهبون إلى الجنوب ؟ (ذاهبون لوداع الجنوب مثلا ؟ وداع الارض التي لم تخف اسرائيل مطامعها الاكيدة فيها) ... أجل الوداع ... ان السياسة العامة تجاه الجنوب ، المتمثلة بالاهمال والحرمان ، لا تبقي لنا سوى موقفين : اما الذهاب لوداع الجنوب ...

أو الذهاب إلى ...

وأنا من انصار الحل الثاني ! ..

مررنا امام محطة الجية الكهربائية التي تتعطل كل يوم تقريباً كأنها مركز لتوليد الظلمة أو لتنشيط استعمال الشموع الرومانتيكية !!! ولكن منظر شمعة امام جسد مريض يتلوى ليس رومانتيكياً ! ...

لنتابع الرحلة إلى النبطية . هناك يرافقنا الاخ ظافر . م الذي تطوع ليكون دليلي في رحلتي إلى مجاهل الجنوب ! ..

نمر بزفتا (اسم على مسمى) . وتمضي بنا السيارة في دروب شبه خالية الا من أهل القرى أو الباحثين عن المتاعب أمثالي ...

ها هو نهر الليطاني بمياهه الراكضة كأنما هرباً من مطامع اسرائيل لانها لم تجد من يحميها . المذهل ان الارض حول النهر غير مزروعة ولا مستثمرة ، حتى ولا على بعد عشرة سنتمترات من الماء ، كأن هنالك من يرش مواداً ضد الخصب حول مجرى النهر ! ...

فوق تلة عالية رجل وامرأة يعملان في اراض مجدبة والماء على مرمى حجر ! وتوقفت السيارة ونزل الزميل المصور عدنان ناجي ليصورهما وهما يحصدان الشوك والبلان ... ولكن الشعب المحروم لا يمكن ان يقضي بقية حياته في حصاد الشوك ، والتاريخ يقول أشياء اخرى !

تمعن السيارة إيغالاً نحو الجنوب . مساحات شاسعة غير مزروعة — مرة واحدة زرعت ، زرعها الاسرائيليون بالالغام والدمار ! ..

امام السيارة يطير عصفور صغير ويترنح ، لكنه يجاهد كي لا يسقط . يترنح

مثخناً بجراحه ، لكنه يطير . قلت لمرافقي : « هل تعرف اسم هذا العصفور ؟ »
قال : « لا » قلت له : « اسمه الجنوب . »

وحلّق العصفور ...

القنابل سيمفونية الجنوب

وصلت إلى كفر كلا بعد أن قطعت « اوتوستّرادها العظيم » الذي يندر وجوده ! تخيلوا معي درباً ضيقة لا تتسع لدراجة نارية ، وقد حولت مياه المطر حفرها العميقة إلى فخاخ معدة لصيد كل من تسول له نفسه الذهاب إلى تلك القرية الصامدة واكتشاف ما يدور فيها بنفسه .

ولكننا وصلنا . قال لي احد ابنائها حسن . ف : « كل ليلة يبدأ الاسرائيليون الضرب . كل ليلة بينما الناس في بيروت ينامون على ألحان الاذاعة و اسطوانات الطرب ، ننام نحن على لحننا اليومي ، القنابل ! »

ولم يكد ينهي حديثه حتى دوى انفجار أحدثته طائرة اسرائيلية اخترقت جدار الصوت ، ثم حامت طائرات أخرى كأنها تؤكد بالدليل الحسي قول حسن . ف ، أو كأنها تصرخ بنا : « نحن هنا . »

وضرب شيخ صامد الارض بعصاه ، وقال للطائرات بصوت الانسان الذي هو دوماً صوت الرعد : « ونحن هنا ... وسنبقى هنا ... »

والواقع ان كفر كلا مدهشة الصمود ، فرغم الارهاب الاسرائيلي والقمع الرسمي لا يزال أهلها متمسكين بأرضهم رافضين تماماً فكرة النزوح . والحال في كفر كلا هي كحال قرى الجنوب كلها ، اسوأ قليلا أو افضل قليلاً ، وكلهم في الهم جنوب !

الماء ؟ يقول أهل البلدة انها تأتي مرة كل اسبوع أو كل ١٥ يوماً حسب مزاج المسؤولين ! .. الطرقات داخل البلدة ممتازة لتعريض الارواح للخطر .

سكانها ٥٥٠٠ تقريباً.. مواردها : الزيتون ثم التبغ وكل ما يستتبع ذلك من مآس تبغيّة سنتحدث عنها في ما بعد .

المدارس ؟ لماذا الطمع ؟ .. هنالك مدرسة رسمية من المفروض ان تستوعب

٧٥٠ تلميذاً وقد ذهبت إلى غرفها المتفرقة الغارقة في المطر فوجدتها تصلح تماماً لزريبة غير مثالية لتربية الأبقار لا البشر . ويبدو ان البقر لاحظت ذلك لان احد الطلاب اخبرني انها تمد رأسها باستمرار من نافذة الصف المكسورة الزجاج وتحدق غضبى بالطلاب « المغتصبين » لزريبتها ثم ينهق حمار بجانبها مطالباً اياهم بالخروج من « حظيرته » ! يا حرام ! ..

وفي أحد فخاخ « اوتوستّرادات » كفر كلا ارتطم رأسي بسقف السيارة . وسألت بعفوية : « يبدو ان السيارة ستتحول إلى تابوت لنا جميعاً . هل من طبيب في المنطقة ؟ » وقيل لي ان في البلدة مستوصفاً . وذهبت لرؤية هذه الظاهرة الصحية والعجب يملأني وقلت : « حسناً ، اذا لم يهتم المسؤولون بصحة الطرقات فهم على الاقل يهتمون بصحة الناس ! » ولكنني كنت على خطأ ، فالمستوصف لم تنشئه الدولة بل انه انشيء بالرغم منها ! .. لقد انشيء بجهود أهل البلدة مع بعض القوى الوطنية (المؤتمر الوطني لدعم الجنوب) وكان ذلك في ٢٩—١—٧٣ . وحدثني أحد ابناء القرية ، ولنسمه فهد : « رغم مماطلة الدولة ووعودها الا انها بذلت جهوداً هائلة لتعطيل انشاء المستوصف . كانت دوماً تجد ذريعة لتعرقل عملنا . مرة طلبت الدولة أرضاً فلما قدمناها رفضتها بحجة انها تحت الطريق العام والمفروض أن تكون فوق الطريق (كأن الجريح الذي يموت يحول دون موته ان يكون تحت أو فوق أو وسط الطريق !) . ومرة اغلق مستوصف في الجنوب لان كراسيه ليست مطلية ، وعلى بابه كان رجل يحتضر ! »

قلت له : « هنالك في بلادنا بيروقراطية تؤدي احياناً إلى تصرف الموظفين كما يفعل الحصان الملجوم الممنوع من الرؤية الا عبر مساحة ضيقة هي الطريق التي يريد منه سيده ان يراها ولا يرى سواها ... »

قال : « لا . هنالك تعمد لعرقلة أعمالنا ! .. الاقطاع السياسي مُصرّ على احتكار كل شيء هنا ... الارواح هنا ليست هامة ، المهم الزعامات و (الحرتقات) ، هذا بينما الشعب في الجنوب يأكله المرض والحرمان ... لقد سُدت المنافذ في وجوهنا ولم يبق لنا من بديل سوى العمل الشعبي ! »

داخل المستوصف المكون من غرفة صغيرة مليئة بالادوية اطلعت على مشروع شعبي لا أملك الا الانحناء أمامه : ها هي بطاقات اشتراك لابناء الشعب ٥٠ قرشاً

معاينة — ٥٠ قرشاً دواء — أي ليرة واحدة فقط يدفع المريض ، أياً كان مرضه مع ثمن الدواء. ويشارك في سلسلة المستوصفات هذه مجموعة من الاطباء الانسانيين المتطوعين الذين لا ضرورة لذكر اسمائهم لأنكم على الارجح لم تسمعوا بها ، فأصحابها ليسوا نجوماً اجتماعية في الصالونات المخملية ، ولا يرقصون في المقاصف الفخمة وليسوا من « دونجوانية » البلد ، وهم لا يذهبون إلى التزلج يوم الاحد وانما يذهبون إلى ذلك الطائر الجريح الذي اسمه الجنوب ليداووه . وخلال سنة واحدة استطاع مستوصف كفركلا ان يداوي ٩٧٢ مريضاً ، ٤٥٪ منهم من الاطفال. وأغلب المرضى من أهل القرية كما انهم يأتون من القرى المجاورة كالعديسة والطيبة وغيرهما ، فالناس يمرضون حتى في قرى « البكوات » ! ..

بقايا من بقاياه !

تغادر كفركلا وفي قلبك يتجمع شيء غامض شيئاً فشيئاً . لؤلؤة حزن في محارة القلب ؟ .. لا ، بل شيء آخر له طعم الدمع والبارود ، وأخطر المتفجرات هو البارود المغسول بالدمع والقهر والمعتق بليالي الاضطهاد ...

ها هو بيت كبير منسوف باتقان على الطريقة الاسرائيلية . ما هو ؟ انه المخفر وقد نسف عام ١٩٧١ ولم يزل مهدماً ولم يبن غيره . ولكن ، هل نحن في حاجة إلى أطلال وشواهد تؤكد غياب الدولة ؟! .

نتابع رحلة الحزن . لا ، بل رحلة الغضب ! ..

فالغياب الرسمي عن الجنوب — إلا على صعيد الخطب والزيارات الموقتة مع مصالح خاصة — ليس سراً .

ها هي الاراضي الشاسعة متروكة للريح ولفزاعات الطيور ، مهملة ، محرومة ومنسية ، الا في حالات الابتزاز . وعودة قصيرة إلى الاحصاءات الرسمية تؤكد مدى الغبن الذي يلحق بالجنوب على صعيد الخدمات ، هذا بالرغم من الغنى الطبيعي للمنطقة ...

ها نحن نمر بالأسلاك التي تفصل أرض لبنان عن فلسطين المحتلة ، وها هو عصفور صغير يطير من فوقنا ومن فوق الاسلاك ليحلق قليلاً فوق الارض المحتلة ثم يعود !

مركبا ، وڤاليوم الدولة

ها نحن في « مركبا » ...

بركة كبيرة من الطين والماء الموحل ، حيث يغتسل الشعب ويشرب ! .. كتلة بشرية هائلة تحيط بأحد البيوت . اسأل : « ماذا هناك ؟ » قالوا : « مستوصف ! »

صف طويل من المعذبين في الارض ، كلهم في حاجة إلى ماكينات التصوير الشعاعي وعدسات « اشعة اكس » لكننا لا نملك غير عدسة كاميرا عدنان ناجي .

وها هي تحاول عبثاً الاحاطة بآلامهم وأوجاعهم ... فأهل الجنوب ، كالماء العميق ، مفعمون بالكبرياء، وما يطفو من أحزانهم على السطح هو عُشر ما يختفي في القاع ...

أجد انساناً غارقاً بين المرضى في ثوبه الابيض يقولون لي ان اسمه الدكتور محمد د مشغول بمجموعة من الاطفال المرضى دفعة واحدة ، ووجهه مرفأ حنان. صف هائل من الادوية . سألت : « الادوية مساعدة من الدولة ؟ »

ضحك الحاضرون بمرارة . قال لي الاخ و. ع . : « تلقينا طن ادوية من مصادر طبية مثل « النجدة الشعبية الفرنسية » .

— « والدولة ؟ »

— « هذا نوع من الادوية قدمته لنا الدولة ! انظري إلى هذه الاكياس ، في كل كيس ٢٠ حبة ضد الاسهال ، والمطلوب ٧٠ حبة منها اسبوعياً لكل مريض ولمدة سنة . أي ان معونة الدولة السنوية لا تكفي مريضاً واحداً ! »

ولعل من مهازل القدر ان بناء المستوصف يقوم على « شاطىء » بركة الماء الآسن المولِّدة لكل الامراض الممكن الاصابة بها ! .. الدواء والعلاج جنباً إلى جنب !

سألتهم : « ألا تبعث الدولة بأدوية مخدرة ، كالفاليوم مثلا ؟ »

قالوا : « قليلاً . »

وأدهشني ذلك ! من المفروض اذا ظلت الحال على ما هي ان يوزع المسؤولون كميات هائلة من المخدرات وان يُسن قانون بارغام شعب الجنوب على ابتلاعها ،

كي لا يحدث « ما لا مفر منه » والملقب بلاغياً بـ « ما لا تحمد عقباه » .. بل ما تحمد عقباه ! فليحدث !

تابع أحد الشبان في مركبا وقد سكب أحزان الجنوب في قلبي . قال احمد . ق : « فقر الدم في هذه المنطقة مروع ، والسبب فقر الحال وسوء التغذية . ثم ان الجرب منتشر بشكل هائل ، والدولة لا تبالي به في مستوصفاتها . في كل بلاد العالم تداوى هذه الامراض مجاناً ، إلا عندنا ، فهي تنتشر مجاناً ! ففي كل بيت من ٦ إلى ٧ اطفال ، والعدوى حتمية . »

الغلاء .. الغلاء ...

المواطن محمود. ج من بني حيان ، شاعر شعبي يعبر عن أحزان الجنوب على طريقته ... قال لي زجلا :

السؤال بوجهو مني إلى
اهل ميس ومركبا وكفر كلا
والقرى الامامية اللي حاوطها البلى
شافها الزعيم ، اجا يساعدها فلا
الا الشباب الواعية وقفت صفوف
تنادي وتوقف وحدها
ضد الغلا ...

(وهي كلمة القاها في مؤتمر الطيبة ضد الغلاء) . والواقع انه بالاضافة إلى اسرائيل على الحدود ، هنالك سرطان آخر ينهش جنوب لبنان هو الاهمال على الصعيد الاقتصادي والطبي والثقافي والانساني... كيفما تحركت لم أسمع الا الشكوى...

ومزارعو التبغ ...

قال لي الاخ محمد . ع ، من اللجنة التأسيسية لنقابة مزارعي التبغ التي انشئت بعد سقوط الشهيدين في النبطية (هل نسيتموهما ؟) قال لي حرفياً : « مورد المعيشة في قرانا يقوم على زراعة « الدخان » . كنا نأمل هذا العام في زيادة اسعار مبيعنا أكثر من السنين السابقة وذلك بسبب موجة الغلاء في لبنان ... ونحن كمزارعي دخان

فقوتنا اليومي وقوت اولادنا مرتبط بأسعار الدخان ... وكل عائلة من عائلاتنا تخرج إلى الحقول لتعمل كل يوم ٦ ساعات كي تجمع محصول كيلو دخان واحد . وبعملية حسابية صغيرة (باعتبار ان كل اسرة مكونة من ١٠ — ١٢ يد عاملة) تجدين ان معدل اجرتنا اليومية كعمال هو نصف ليرة لبنانية . تصوري ! نصف ليرة لبنانية واحدة للفرد يومياً . كيف نربي أطفالنا ؟ كيف نطعمهم ؟ كيف نعلمهم ؟ بل كيف لا يمشون حفاة ؟ »

قال لي زميل له : « كل ذلك البؤس بسبب استغلال شركة الريجي . هم يستغلوننا ويمتصون دماءنا . ولذا نطلب من السلطات اللبنانية حمايتنا بتحسين أسعار الدخان وبزيادة ١٥ في المئة عن اسعار سنة ١٩٧٣ لان لنا حقا مشروعاً في ذلك . لم يبق في لبنان غير الدخان لم ترتفع اسعاره . » (وقلت في نفسي : « والانسان ايضاً . الانسان وحده هبطت اسعاره رغم موجة الغلاء ! »)

الحكاية نفسها ؟ ..

كفركلا . مركبا . حولا . بليدا . عيترون ... اسماء واسماء لقرى كثيرة تستطيع ان تضيف اليها ما شئت من اسماء قرى الجنوب فالحكاية واحدة ... الوجوه تختلف والاسماء تختلف والصرخة واحدة ... موكب عرس يمر بنا ... وقبله بقليل مرت بنا جنازة ... الحياة تتابع دورتها رغم كل شيء !

فضيحة ميس الجبل

بعد ان مررنا بمستوصف ميس الجبل ، الذي ما يزال يستقبل المرضى مستعيناً بمساعدات المغتربين من أهل الجنوب ، توقفنا امام لافتة مكتوب عليها « مجلس الجنوب » . هبطنا وتلفتنا حولنا فلم نجد سوى بركة ماء آسن . وهنا لا بد لي من ملاحظة هامة وهي انك لا تجد لوحات اشغال « مجلس الجنوب » الا امام الجسور المهدمة والبرك المستنقعية والخرائب ، كأن الذي وزعها يقصد تنفيذ نكتة عملية ساخرة (أم تراه يحب ان يقول الحقيقة ؟) .

التف حولي بعض الناس . كلهم يصرخ بي : « اكتبي هذا ... اكتبي ذاك ... اكتبي ! »

سألت أحدهم عن اسمه وماذا يريد ان اكتب . قال : « اسمي محمد . م من

بليدا ... قولي اننا نحن أهل الجنوب محرومون من كل شيء في بليدا . لا مدارس . لا طرقات . لا مستوصف. لا ماء. لا كهرباء . اكتبي ان بليدا معدمة . واسرائيل تضرب طوال النهار . »

لم تكن سنه تزيد عن ١٣ سنة . وقبل ان اتابع الحوار معه جرني بعض أهل بلدة ميس الجبل من يدي قائلين : « تعالي انظري إلى هذه الفضيحة ! انظري كيف يستغلوننا ... كيف يسرقون الملايين باسمنا . » وتسلقنا تلاً . وصلنا إلى بناء اثري المظهر حديث البناء تبينت في ما بعد انه المدرسة الرسمية التي من المفروض ان مليوناً وربعاً من الليرات اللبنانية رصدت لبنائها واستقبلت التلاميذ لاول مرة منذ اربعة اشهر فقط . قال لي احد ابناء البلدة : « انظري إلى الجدران المشققة ، إلى الماء الذي يسيل من السقف وينبع من الارض . لقد اصيب التلامذة بالروماتيزم وكادت تنشأ مذبحة بسبب « افساد » بعضهم ضد بعض .. لكن هذا البناء القائم امامك حقيقة موضوعية . كيف ترينه ؟ »

وكالعادة اصف بصدق ما رأيته . وكالعادة لا أعرف من هو متعهد البناء . أي من الذي سيكون غاضباً مني . كل ما اعرفه هو نقل الحقيقة كما أراها .

بناء مشقق الجدران . الابواب ليست أبواباً وانما هي الواح ملصقة بعضها ببعض بصمغ رديء . حوض الماء بلا صنابير ، والارض تسيح فيها المياه القذرة ، والمطر يقطر من السقف مثل بيوت مدينة مهجورة . كل ما اعرفه هو ان الامر بشع ومحزن ، وان البناء الذي اراه امامي لا يمكن ان يكون قد كلف أكثر من ٢٠٠ الف ليرة ! .. الباقي في جيب من ؟ مسروق من لقمة من ؟ من ثمن دواء من ؟

المنطقة جميلة . ميس الجبل ساحرة الطبيعة ، وزهر اللوز فيها يضيء مثل عيون المقاتلين ... لكن أحاديث الناس الغاضبين تجعلك لا ترى حسناً ... (غالون الماء في السنة الماضيـــة كان ثمنه بين ٢ ــ ٣ ليرات . كيف يشرب الناس هنا ؟ كيف لا يمرضون ؟ كيف لا ؟ ! .) .

نهرب من مأساة قرية لتطالعنا مأساة اخرى . بليدا ... عيترون ... بنت جبيل ... برعشيت ... مجدل سلم ... ها نحن ندخل إلى تولين يقول فهد بعينيه اللتين تقدحان شرراً : « هنا دهست الدبابة الاسرائيلية السيارة اللبنانية التي كانت تقل ٨ اشخاص

وحولت الجميع إلى كتلة معجونة بالدم والحديد واللحم . » (اتساءل : لماذا لا يجعلون رسمها طابعاً بريدياً يحمل إلى العالم كله مأساتنا ؟!)

مصيدة في تولين

امام حفرة عميقة في تولين وقفت مذهولة والرفاق يقولون : « احزري ما هذا ؟ »

قلت لهم : « مصيدة ؟ »

قالوا : « نعم . حالياً مصيدة للاطفال ، لكنه كان أصلاً ملجأ . حفرناه واهل البلدة ، وجمعنا الاموال لبناء ملجأ ... ثم منعتنا السلطة من ذلك ! »

هل تصدقون هذا ايها القراء ؟

الطائرات الاسرائيلية تتنزه كل يوم في سماء الجنوب وتتسلى ببعض القصف ، ترافقها في عزفها الدموي المنفرد فرقة المدفعية والقناصة . المنطقة مهددة بالاجتياح ، وفي مثل هذه الظروف واجب الدولة الاول بناء الملاجىء ! واذا لم تفعل فلتترك القوى الشعبية والوطنية تؤدي واجبها القومي . اما ان لا يُبنى الملجأ ، ولا يُسمح للآخرين ببنائه ، بل ويسجنون لمحاولتهم ذلك ، فأمر ينطبق عليه قول الشاعر العربي :

ألقى به في اليم مكتوفاً وقال له   إياك إياك ان تبتل بالماء

وها هم يقيدون الجنوب ، ويرمون به في بئر الاهمال والحرمان والعذاب ، ويمنعونه من التقاط أي خيط انقاذ يرمى به اليه ، صائحين « إياك إياك ان ... »

عليا . م، بيتها يجاور الملجأ — المصيدة ويقع في املاك زوجها وشقيقه ، تقول ببساطة: في الليل، حينما أسمع (الضرب) الاسرائيلي اتمنى لو تم بناء الملجأ رغم أنف السلطات » « ونحن نغادر المصيدة التي كاد يسقط مصورنا فيها وهو يحاول التقاط صورتها ، مرت بنا احدى نساء القرية ، واسمها فهيمة. ح وسألتني بغضب: « متى تكملون بناء الملجأ ؟ » قلت لها : « انا صحافية واتمنى ان يكملوا بناء السجن الحديث الجديد قبل صدور هذا التحقيق والحكم عليّ بالسجن المؤبد !! »

كان مشهد الملجأ — الحفرة محزناً كمشهد قبر مفتوح لدفن أي جهد شعبي لا يرعاه

« بكوات » الجنوب . دخلنا دكاناً وكانت تملأ المكان اغنيات رجل هو النسخة الجنوبية عن «الشيخ امام» المصري ، وهو يرفق غناءه بنقرات عصاه على الارض من اجل الايقاع (أم دلالة على الغضب والتهديد ؟) .

في بيت المختار تناولنا القهوة العربية المرة . ابنته تزوجت اليوم ، اذن الجو غير مناسب لفتح سجل احزان المنطقة . قالت لي سيدة : « كانت ابنة المختار متطوعة « لضرب الابر » في المنطقة . كانت فتاة عاملة رائعة . » وتابعت رشف القهوة العربية بصمت .

عدنا في طرقات الليل والجنوب . خربة سلم . بير السلاسل . كفردونين . شهابية . لم تمر بنا سيارة واحدة .

طوال النهار لم نمر بعمل واحد !

طوال النهار لم نمر بساعة بلدية عامة واحدة ! (ولماذا الساعة الرسمية ما دام الزمن الرسمي واقفاً في الجنوب ؟) مررنا بجسر القاعية المهدم منذ ١٦ ايلول ٧٢ . قد تكون هنالك لافتة قرب خرائبه تحمل اسم « مجلس الجنوب » . المهم لم يعيدوا بناءه !

الجنوب ! الجنوب !

هل يمكن للاذلال ان يصير روتيناً ، ولقطعة من ارض الوطن ان تصير مناسبة سياحية ؟! .

الجنوب هناك يتعذب ابناؤه في كل لحظة . يقاسون الحرمان . منذ اعوام وأنا اذهب إلى الجنوب لاكتب ، لا شيء تبدل أبداً على الصعيد الرسمي ، وكل صرخاتنا كانت مثل اغنية في مقبرة آذان المسؤولين . شيء واحد تبدل اليوم في الجنوب : هو العمل على صعيد القوى الشعبية التي بدأت توحد صفوفها ... فهل تدخل الدولة في سباق العمل لخدمة الشعب أم تظل مصرة على الا تعمل وألا تسمح لاحد بالعمل ؟

١٨ / ٣ / ١٩٧٤

بيت الطاعة الفكري العربي

هل كان يجب أن أذهب ذلك الاحد لكتابة تحقيق عن الجنوب اللبناني بدلاً من الثرثرة في بيروت عن آخر صرعات الأزياء والأفكار ؟ ..

هل كان يجب ان نتوقف أمام مستوصف ميس الجبل لنرى صفاً طويلاً من المرضى الفقراء ، أطفالاً وكباراً ، ينتظرون دورهم في المعالجة شبه المجانية ، ونكتشف أن الدولة ليست هي التي انشأت المستوصف بل انه أنشيء بالرغم منها ؟

هل كان يجب ان تذهب يا دكتور كارلوس يوم الاحد ، يوم عطلتك الاسبوعية ، الى قرية ميس الجبل لتطبيب المرضى وبؤساء مجاهل الجنوب اللبناني مجاناً في مستوصفها ، ولتقضي ليلتك بعدها في السجن عقاباً لك على ذلك ؟ ! .

لماذا يا دكتور كارلوس . م لا تتصرف كأي مواطن مخدر ومدجن وفاهم لأصول اللعبة القائمة في الجنوب ؟ ..

لماذا لم تشتر « شاليهاً » في الأرز ، تدفع اجرته من استئصال زائدة دودية غير ملتهبة لسيدة مجتمع موسوسة وملولة تتسلى باختراع أمراض موهومة ؟ .. لماذا لا تداوي الاثرياء ، وتخترع لضجرهم أسماء أمراض فاخرة تليق بهم (أسماء فخمة باللاتينية وطويلة جداً) ، ولماذا ذهبت لتداوي المرضى حقاً ، البؤساء حقاً في جنوب لبنان الذين يجلدهم الرصاص الاسرائيلي ورصاص الاهمال اللبناني معاً ؟ ! .

لماذا لا تقضي « الويك اند » في التزلج على الثلج مثلاً مع أبناء الطبقة المخملية و « الهاي سوسايتي » ؟ لا تحب التزلج ؟ هذا ليس سبباً . تستطيع أن تجد لنفسك هواية ارستقراطية أخرى ، كركوب الخيل والمقامرة والسهر في الكازينو والسونا والتدليك وتربية الكلاب والرقص وهندسة الحدائق وجمع الفراشات أو النساء أو التحف . لا تحبها ؟ ! .. ما رأيك في إقامة الحفلات بعد اختراع مناسبة لها ، كعيد

ميلادك أو عيد قص أظافرك او شفائك من الرشح او أية حجة أخرى ؟ المهم الحفلة والسكر وسيدات المجتمع اللواتي سيزيّنها بوصلات من (الرقص الشرقي) وفلاش المصورين وصورك في الصفحات الاجتماعية . لا يمتعك ذلك ايضاً ؟ ..

حسناً . العب فليبرز يوم الاحد . او اقرأ الكتب الدينية او حتّى الجنسية . او تشاجر مع زوجتك ...

لا تميل الى ذلك كله ؟ ..

اذهب ونم . نم يوم الأحد بطوله . المهم ألا تتحرك . تخدّر بأية وسيلة ، ولكن حذار من ممارسة إنسانيتك التي لا مفر من ان تدفع بك الى سلوك الطريق « غير المستقيم » في مفاهيم هذا البلد البائس ، طريق الجنوب حيث المرض يحصد الناس ، وحيث يدفع بك واجبك الى التواجد ، أنت الذي أديت قسم ابقراط ذات يوم .

ولكن ابقراط لا يهم . الإنسانية لا تهم . المهم عدم إزعاج « بكوات » الجنوب ! ..

ومستوصف ميس الجبل – وغيره من المستوصفات التي اقامتها قوى وطنية شعبية اخرى (كالمؤتمر الوطني لدعم الجنوب ، مثلاً) بالتعاون مع أطباء انسانيين أمثالك – تزعجهم . ان حضوركم يكشف مدى غيابهم . ان عطاءكم يكشف للشعب البائس مدى تقصيرهم .

ان عملكم يذكر الناس بما كان يجب على الدولة ان تفعله هي . ولذا يضيق بكم البكوات والدولة معاً ، ولذا يُنصب لكم الكمين تلو الاخر وتأكلون « فلقاً » تلو الآخر ! ..

ان نشاطكم الإنساني شوكة في حلق جمعية المنتفعين من دفن الشعب اللبناني في البؤس والجهل ...

ولذا كان لا بد من تأديبكم ببضع رصاصات وبضعة جرحى ، فقط لا غير ، فلماذا الضجيج ؟ ! . وحين حملت الجرحى يا دكتور كارلوس في سيارتك ، راكضاً بهم الى المستشفى ، لماذا لم تمتثل لأمر الدرك بالوقوف لاجراء الروتينيات تاركاً الشباب الجرحى ينزفون حتّى الموت ؟ اليس المطلوب ان ينزفوا حتّى الموت ويتخلص البكوات من تمردهم ؟ ..

وأنت يا دكتور محمد . د ، الذي كان الكمين يستهدفك أيضاً ، أتعرف انه

سيكون في انتظارك كل اسبوع الا اذا وجدت لنفسك هواية مرخص بها رسمياً ، كالتفاهة والرخص مثلاً ؟ لماذا لا تعود « مواطناً صالحاً » يمارس كل وسائل التخدير البورجوازية المتوافرة في لبنان المنفتح السعيد ؟ ! .

التهديدات الموجهة اليك جادة ... والذين لا يهتمون حين تهاجم اسرائيل الارض اللبنانية مستعدون لاطلاق الرصاص عليك وعلى كارلوس . م ، وعلي انا ايضاً ...

ومصيركم لا يحزنني ، اياً كان ، فقد اخترتموه بوعي ...

ما يحزنني هو مصير فئة من شباب الجنوب ما تزال تدين بالطاعة لمن هم اسباب بؤسها ، وتقدم الولاء (للبكوات) الذين يقطعون اصول حياتها، ويحرصون على إفقارها وتجهيلها ، لأن في بؤسها دوام عزهم وقوتهم ! . .

ويا عزيزي كارلوس . م ، ألا ترى معي انهم « يؤدبون » كل من يتجرأ على الخروج من « بيت الطاعة الفكري اللبناني » ، حتى ولو كان نائباً ؟ ! . واذا كانوا قد صفعوا النائب حسين . ح داخل المجلس النيابي ، فهل كثير عليهم ان يقتلوك ؟ ! .

وأنا حين أكتب عنك وعن ميس الجبل لا اكتب عن طبيب وقرية فحسب ، بل ألخص مأساة الشعب العربي ، في اكثر من قطر ، مع القوى التي تعتاش من تخلفه ، وتحرص على بقائه مريضاً وبائساً وضعيفاً ، وعلى بقاء بيته وعقله مظلماً ، وعلى بقاء تفكيره داخل نطاق بيت الطاعة الفكري المتوارث .

ولكن ...

لا بد للشمس من ان تشرق ذات يوم .

٢٧ / ١ / ١٩٧٥

تأديب مواطن من الجنوب !

العرب اكثر الناس تزميراً واطلاقاً لأبواق سياراتهم . ثبت ذلك في احصاء دقيق أجراه فريق من الباحثين في احدى الجامعات . وقد وجد الباحثون ان معدل استخدام السائق العربي للمنبه بلغ عند المفترقات ١١٥٠ مرة يقابلها ١٧ مرة فقط عند السائق الروسي الذي هو أقل الشعوب تزميراً ...

وصحيح ان العرب أكثر الناس تزميراً لكن ذلك لا ينطبق على تعاملهم وسياراتهم بقدر ما ينسحب على السلوك العام لزعمائهم وسياسييهم في « قيادتهم » للناس وسط دروب التاريخ الوعرة المعاصرة .

وتتجلى سياسة بعض الزعماء « التزميرية » — على طريقة « أسمع جعجعة ولا أرى طحيناً » — في كل محنة يمر بها الوطن العربي ... وفي كل مناسبة نسمع خطباً وتصريحات تطلق فيها الوعود الكبيرة ويخلو منها السلوك اليومي العملي .

لنأخذ محنة تعرض لها الوطن العربي مؤخراً كمثال : كفرشوبا .

كفرشوبا قرية لبنانية على حدود فلسطين ، هدمتها اسرائيل بيتاً بيتاً ولم تبقِ فيها حجراً على حجر وتشرد أهلها . الكلام كثير حولها في خطب المسؤولين من الاطراف جميعاً . فمن تشجيع لأهلها على الصمود ، الى لوم لهم لايوائهم الفدائيين (ذريعة اسرائيل لتهديمها) ، الى وعود باعادة تعمير القرية ، الى قصائد ندب وتهديد — من ذلك التراث اللغوي الذي اعتدنا ان نواجه به كوارثنا العسكرية ، حيث يوجه الينا العدو مدفعيته الثقيلة ونطلق نحن عليه قذائفنا الأبجدية فقط — الى ندوات حول مشكلة جنوبي لبنان ... وكلام كلام كلام ... تزمير تزمير تزمير ... !

ولكن أهل القرية ما زالوا ينامون في عراء التشرد . واهل القرى الباقية المتاخمة لاسرائيل ، مثل كفرحمام وراشيا الفخار وغيرهما ، ينتظرون دورهم وقد باشر

بعضهم بالنزوح سلفاً . والسلطة تطلب من الناس أمرين متناقضين : تطالبهم بعدم النزوح وتحرم عليهم السلاح ؛ تطلب منهم البقاء عزلاً في بيوتهم وتحجب عنهم المال والسلاح والملاجىء والعيش الكريم ، وتؤكد وجودها في الجنوب باعتقال الناجي الوحيد من اسرة شرف الدين وشقيق اللبنانيين اللذين استشهدا حينما دافعا ببطولة عن بيتهما ضد الاسرائيليين ، وتعتقله بتهمة حمل السلاح ! هذا في حين ان السياسة اللبنانية بأكملها متهمة بعدم حمـــل السلاح في وجه العدو . ثم تحيـــل الشاعر حبيب صادق ، ابن الجنوب ، الى المجلس التأديبي بتهمة محاضرة كان فيها واعياً ومتحسساً لمأساة وطنه ، وهي تهمة لا تغتفر ، بدلاً من احالة وسائل الاعلام الرسمية اللبنانية كلها الى المجلس التأديبي او مجلس توعية يبلغها بما يدور على ارض الوطن لتذيعه بدلاً من نكاتها السخيفة عن الزوج والحماة . وهكذا يحال على التأديب أي مواطن جنوبي يتحسس مأساته أو يحمل السلاح أو القلم دفاعاً عن نفسه وأرضه ! (صبيحة يوم ضرب كفرشوبا ، سمعت لكم من اذاعة لبنان هذه النكتة الفريدة بدلاً من بلاغ عسكري . تقول النكتة : الزوج الناجح هو الذي يستطيع ان يكسب اكثر مما تنفق زوجته ! يا سلام ! اي حكمة خالدة صبيحة ضرب قرية لبنانية بأكملها وتهديمها بزلزال العدوان ! ما نسيت الاذاعة ان تقوله هو ان الزوج اللبناني وحرمه المصون لن يجدا ما ينفقانه حين يسقطان تحت نار الاحتلال المحتمل والتشرد الأكيد اذا دامت الحال على ما هي عليه . كفرشوبا ليست اكثر من نموذج لما ينتظرنا جميعاً) .

والمهم ان المأساة الجنوبية لم تواجـَه حتى اليوم بغير الكلام والتزمير والمزايدات الخطابية . ولم يتم تحويل الجنوب الى جنوب مقاتل بل كل ما في الامر ان كلمات « بليغة » أُلقيت في تشجيع أهل الجنوب ! وحتى اليوم التاسع على التوالي لم يصل لأهالي كفرشوبا اي مساعدات معاشية او سكنية رغم كل « الزيارات » والوعود . (ويقال ان مجلس الجنوب سلم المنكوبين شيكاً بمبلغ ٢٥٠٠ ليرة لبنانية رفضوه طبعاً في حين كان قد عوض على منزل احد الوزراء الجنوبيين بمبلغ مليون ليرة فقط لا غير ، علماً بان الوزير الكريم ليس لاجئاً في مدرسة مرجعيون الرسمية وانما يعيش في بيته البيروتي محاطاً بالتحف والرياش والمخمل ... وهو طبعاً قول لا يصدق لفظاعته) !

المهم ان شيئاً لم يحدث . والحشيش بدأ ينبت على خرائب القرية مع النسيان

واللامبالاة . ويبدو أن أحداً لن يفعل شيئاً .

ولكن ، لماذا لا نصدر على الاقل طابعاً بريدياً تذكارياً باسم كفرشوبا ، يحمل مأساتها الى العالم أجمع ، ويذكرنا بها ، ويرصد ريعه للقرى الجنوبية ؟ ..

جميل أن يصدر لبنان طابعاً يحمل وجه ملكة الجمال اللبنانيةالجميلة حقاً جورجينا رزق ، ولكن وجه جورجينا الجميل يعبر عن جزء من واقع لبنان « الجميل » لا كله . فهنالك أيضاً لبنان المكافح ، ولبنان البائس ، ولبنان الضحية . وصورة كفرشوبا ، المهدمة كالقنيطرة ، قد لا تكون جميلة كوجه جورجينا لكنها حقيقية تعكس واقعنا والمصير الذي يتهدد لبنان كله وكل ما فيه من جمال ...

اصدروا طابعاً بريدياً لكفرشوبا ! انه على الاقل اقتراح « حيادي » وخطوة بسيطة وعملية لا تتطلب عبقرية في التنفيذ .

أم أن كفرشوبا محكومة لا بالموت فحسب،بل باللامبالاة أيضاً ؟ ! . والذين يعتاشون من مصائب الشعب العربي في لبنان يهمهم باستمرار غسل دماغه ومسح كل شيء من ذاكرته إلا الدبكة والتبولة و«فليبرز» شارع الحمراء ؟ وهل « التزمير» هو وحده ما يملكه العرب لكفرشوبا الجريح ؟ وللبقية من المدن المحروقة الآتية؟ ...

١٩ / ٤ / ١٩٦٨

طرابلس : مدينة عربية أخرى تكافح ...

« طرابلس ترحب بكم » ...

لم تكن هنالك حاجة لهذه اللوحة التقليدية ... فطرابلس ترحب بنا باسلوبها الخاص الشاعري ... برائحة عطرية زكية لا مثيل لها في عطور العالم اجمع ... رائحة زهر الليمون ... رائحة حارة ، كثيفة ، موحية ، موجعة ، تخترق قواقعنا الحضارية المتكلسة حول سراديب أعماقنا وتكسرها ... فيتفجر الماضي في النفس ، الماضي الحقيقي ، والحاضر الحقيقي ... وتتفجر الذات الحقيقية ... وتعيدني الرائحة طفلة محروقة الحدين ، ضائعة ، وحزينة ، ومتمردة في الليل المذهل ... الليل العتيق ... ليل غابات الاشجار الحية ، لا ليل مقاعد المقاهي الميتة ..

ذلك الجسر القديم الذي كنت أمده الى صدر الليل لأبحر عبره الى عوالمي الحقيقية عاد وامتد . التصقت بجسد الظلمة الحي النابض فيحديقة الفندق . بعد عامين بلا صيف ولا ربيع في لندن ، التقيت الربيع للمرة الاولى في طرابلس ... الربيع الحقيقي الذي يفتح المسامات النفسية للحب والحياة ...

ولأن قارورة الوجود العطرية مكسورة على شطآن طرابلس وفي ليلها ، احسست انها لجريمة ان أدخن او حتّى أتنفس ، كي لا يتسخ عطر الليل ...

احسستني مسحورة ، مبهورة ، عاجزة عن كتابة التحقيق الذي جئت لأجله ، وكل ما فيّ يريد ان يكتب شعراً !

طرابلس العريقة

مع انحسار الليل ، تنحسر رائحة زهر الليمون ، وتحت الشمس الحادة ، تلتمع طرابلس بمفاخرها وجراحها وحكاياها ، بقديمها وجديدها ..

كل ما في طرابلس ينطق بعراقتها واصالتها التاريخية ... يتبدى ذلك واضحاً في اسلوب الناس في المعاملة ، وفي الحوار ، وحتّى في باعة القهوة العربية الجوالين في احيائها الجديدة والقديمة على السواء ...

وتلك الاصالة تتجسد حتّى في الحجر في أسواق طرابلس القديمة ، وقلعتها الاثرية ، وجوامعها...وفي جولة سريعة،يلتقط الانسان نتفاً من تاريخها الطويل الذي يفسّر الى حد بعيد أصالة طرابلس العربية، التّربة الغنية للتيارات التقدمية والوطنية ...

ولكن الانسان يخرج من مثل هذه الجولة بملاحظة اخرى : وهي اهمال طرابلس القديمة والاسواق الشعبية العتيقة والخانات والآثار الى حد الاعتداء عليها احياناً ...

هنالك سوق قديمة تم هدمها بأكملها ... بكل ما فيها ! ... ورغم ان ابنية جديدة تحتل اليوم مكان السوق تلك ، الا ان أهل طرابلس لم ينسوا ذلك وما زالوا يتحدثون بمرارة وغضب حول مصرع السوق ... مثقفهم وعاملهم اليدوي ...

السيد عبد السلام . ط ، تاجر الشرقيات ، حدثني في مخزنه الجديد الواقع في قلب طرابلس الحديثة عن مخزنه القديم في سوق النحاسين ... حدثني عنه بمرارة اذ تم هدمه مع ما هدم من معالم السوق ... والاستاذ روني.ع رئيس نادي خريجي الشمال وصف الحادثة بأنها « خطوة خاطئة . كان من الضروري المحافظة على المناطق القديمة في المدينة ، واقامة مساكن شعبية في منطقة اخرى وبالنفقات نفسها » ...

والاستاذ عبد الله . س،الصناعي ابن الشمال طاف بي في المنطقة التي تم اغتيالها باستنكار شديد عبّرت عنه زوجته السيدة سهاد باختصار قائلة « خسارة . شيء مؤسف فعلاً ! » ...

تابع الاستاذ عبدالله . س شبه مازح : والقلعة تضاء في المناسبات وللسواح فقط.. الاضاءة تحت الطلب فقط ! ...

وضحكت مجاملة ، ولكنني وجدت لتلك النكتة مدلولاً خطيراً ...

فالامم الراقية تحافظ على آثارها كتراث أساسي في تربية الاجيال الصاعدة قبل ان تكون أنصاباً تجارية تستعمل للاغراض السياحية فقط ... ورعاية الامكنة التاريخية جزء من التربية الوطنية ، ومن الضروري تقديمها « كخبز » فكري لابناء البلد قبل ان تقدم « كاتو » وطعماً جاذباً لأموال السواح ...

وفي منطقة الميناء ، يقوم خان قديم عمره مئات السنين ، ينطق تاريخ طويل في مدخله الضخم العتيق وجدرانه وقبابه ، ويروي حكايا المناضلين الذين تجمعوا فيه ليتدفقوا منه ، والتجار والقوافل وايام اليسر والعسر ...

ذلك الخان ذهب أيضاً فريسة الاستهتار بمدلول هذه الامكنة العتيقة ... انه اليوم مجرد بناء آخر قديم شبه مهجور ، وقد استُبعدتْ نهائياً فكرة ذكية كانت ترمي إلى تحويله « إلى فندق فولكلوري ذي جو خاص » كما حدثني الاستاذ توفيق . س غاضباً: « كان من الممكن تجديد شرفاته الخشبية وتنظيفه وتزويده باسباب الراحة والاحتفاظ في الوقت نفسه بطابعه الاصيل كما يحدث في بلاد العالم الراقية ، ولكن »... وأشار باصبعه إلى بناء آخر بشع اقيم في مواجهة الخان العتيق حاجباً منظر البحر بالرغم من جميع قواعد الذوق في هندسة الكورنيشات ، وكان البناء كما تدل لوحته – البناء البشع المخالف – دائرة رسمية تدعى الجمارك ! ...

الجوامع الجميلة العتيقة مزروعة في المدينة جنباً إلى جنب مع الجديدة .. جامع « أبو بكر الصديق » هو أحدثها وأضخمها ، وقد بني نقلاً عن جامع واشنطن وفازت مأذنته بجائزة سعيد عقل ...

لكن مأذنة اخرى عتيقة ومتواضعة وأثرية في جامع طينال سمرت نظراتي اليها... كانت تحمل بصمات تاريخ عريق ... لا بصمات عبقرية المهندس فحسب ...

ورغم هذا كله ما تزال المدينة تحتفظ بالكثير من معالمها القديمة ... اسواقاً وشخصيات ! ...

في خان الخياطين

انه المشهد نفسه الذي يطالعك في أية مدينة عربية قديمة ... تراه في دمشق والقاهرة والقدس ... انك لبرهة تنسى فيما اذا كنت في حي القصبة بالجزائر أم في طرابلس ... السوق المسقوفة بأقواسها وقبابها .. وجوه الناس ... الدكاكين ... الغبار والفقر العاجزان عن طمس الاصالة والعراقة ...

وما تحويه الدكاكين من متناقضات ظاهرة اخرى مشتركة بين أكثر المدن العربية .

فدكان الحاج حلمي. س صانع العبي (العباءات) في الخان تشبه أية دكان في

(القباقبية) في دمشق ... هنالك درجات من الخشب يرقى بها الانسان إلى ما يشبه الـ (تتخيتة)، إلى مسرح خشبي هو أرض الدكان . المسرح مغطى بالبسط والسجاد وجلود الخرفان ... والجدران مغطاة بأكثر من سجادة صلاة عتيقة وأكثر من لوحة ...

وفي دكان الحاج حلمي . س شاهدت صور الرئيس جمال عبد الناصر وشارل حلو ورشيد كرامي جنباً إلى جنب مع صورة عتيقة للملك فاروق واخرى للملكة فريدة ولوحة من عوالم ابي زيد الهلالي ...

لماذا صورة (الامير) فاروق ؟ . ما هذه الفوضى العقائدية ...
يقول صديق مداعباً : لأنها صورة وسيمة ! هذا كل شيء .

والحاج حلمي . س هو الآخر شخصية مميزة طريفة .. يبدو انه تعرض قبلي لغارات الصحافة وراقه الأمر ... فقد جلس أمام الكاميرا مع أحلى ابتساماته . الصور أولاً ثم الحديث . وبعد ان التقطت الصور بقيتُ صامتة ، (لم أعد أذكر لماذا . ربما كنت مذهولة بمتحف المتناقضات حولي . لماذا في اعماق كل فرد عربي كما في هذه الدكان : متحف من المتناقضات والاشياء العتيقة والحديثة جنباً إلى جنب ؟) ...

الحاج حلمي . س يحاول مساعدتي . لعله يفكر (مسكينة . تبدو جديدة على هذا الكار !) قال : هيا اسأليني . هل تريدين أن أحدثك عن قصة حياتي ؟ كيف ومتى بدأت العمل . بقيتُ صامتة . (لماذا قصة حياته ؟ ما الفرق ؟ إنها طبعاً كقصة حياة أي فرد في هذا السوق مع اختلاف في التفاصيل . لماذا يظن العربي ان قصة حياته الشخصية قضية أساسية ؟ متى نعي حتمية التشابه بين افراد أمة ما) سؤال واحد وجدت ان هنالك جدوى من طرحه : ما مصير هذه الحرفة اليدوية الجميلة ؟ ...

صرخ : مصيرها إلى الزوال ... هذا الجيل ملول ، وابناؤه يرفضون ان يتعلموا هذه الحرف اليدوية الجميلة ... وانا فوق السبعين من عمري ، سأموت قريباً ، مهما عشت سأموت .. وصناعة العبي ستموت ..

وداعاً أيها الماضي العظيم !

كثيرة هي الاماكن العتيقة هنا التي تخلع عنها رداء الايام الثمين المميز لترتدي حلة (مودرن) مفتعلة دون ان تدري أية خسارة تقترف ... خان قديم جـداً ، عمره مئات الاعوام، كانت حديقته اسطبلاً لنزلاء الخان، تم تحويله إلى مطعم منذ أكثر من

نصف قرن ، هذا المطعم كان مسرحاً لسهرتي الاولى في طرابلس ... روى لي ذلك صاحب الدعوة بينما كنا في طريقنا اليه . وحينما وصلنا إلى المكان ، فوجئت به كما فوجىء المدعوون .. يبدو ان هنالك من لفت أنظار صاحب المطعم إلى جدرانه العتيقة (!!) ذات السقف العالي والقباب وضوئه الخافت ، فتفضل مشكوراً بطلاء الجدران والسقف !! واضافة اضواء نيون لقباب السقف !!

ولم آكل شيئاً ليلتها ، وكنت اتخيل طوال الوقت كم كان المكان جميلاً واصيلاً لولا ضوء النيون الحضاري المريض ببياض جدران المستشفيات !! . والمكان أضاع أصالته .

غسل التاريخ عن جلد المدينة قد يكون يسيراً ... ولكن غسل التاريخ من دماغ الفرد الطرابلسي أمر مستحيل فيما يبدو .. ويتضح ذلك في سلوك قد يبدو طريفاً لمن لا يعرف جذوره . مثلاً الطرابلسي الاصيل ورجل الاعمال التقدمي توفيق . س ما يزال يحمل نارجيلته معه اينما ذهب .. في روف هيلتون لندن يدخنها ... وفي فندق جورج الخامس في باريس ... وحتى في الستيريو... ورغم انه صاحب اضخم (بناية) في طرابلس ووقته مزدحم بالمسؤوليات الخطيرة ، لكنه احياناً يقضي نصف يومه مساعداً عامل بناء في ايجاد عمل ، لانه ابن الحي !

وفي ستيريو « الاركاد » في طرابلس لم يدهشني ان ارى شاباً يرتدي القمباز ويشرب الويسكي مع حسناء ترتدي الميني جوب .. ولم يدهشني ان أراه يرقص الجيرك آخر السهرة ..

ولم يدهشني ايضاً ان أرى مطعم ومقهى «برجولو» المودرن جداً مزروعاً بالشبان والفتيات الانيقات، وهو الملاصق لمقهى«زريق» حيث يحتل « لعب الطاولة » مكان المرأة .. ودخول المرأة ممنوع .

ولم يدهشني ان تظل طرابلس محافظة على بعض صفات القرية بمعنى تدخل الناس في شؤون الآخرين وفضولهم ، وان صارت وسيلة التدخل عصرية ...

مثلاً ، وقوف سيارة فلان أمام دار اسرة فلان يمكن ان يتحول إلى شائعة خطبة أو إلى فضيحة !! ووقوف كاديلاك فلان امام مستشفى فلان معناه ان زوجته قد ولدت ، المهم معرفة صبي أم بنت ... وهكذا ...

ولكن طرابلس ليست مجرد مدينة قديمة لا تملك من مقومات المدن الا الماضي المجيد والآثار الشاهدة على ما كان ... طرابلس مدينة منفتحة على الحياة تملك المادة الخام اللازمة لبناء أية مدينة عظيمة ... وما تاريخها الا بوصلة موجهة ... وما عراقتها الا الجذور العظيمة القادرة على تجديد ذاتها ...

عن طرابلس الاخرى أتحدث الآن .. مدينة تضم ما يفوق ٣٠٠ ألف انسان ... كيف يعيشون ، وإلامَ يطمحون ؟ .. في طرابلس بذور لكل شيء ... وليس فيها أي شيء مكتمل ... فيها بذور صناعة ثقيلة لما تكتمل ... وفيها ميناء طبيعي لما تمتد يد اليه بالعون والتجديد ... وفيها بذور صناعة السفن بلا حماية ولا اهتمام ... وفيها امكانيات تجارية وعملية لكنها بلا اوتوستراد ولا مرفأ ... وفيها نسبة عالية من المثقفين بلا مردود .. وفيها مناخ تقدمي وعقائدي عربي أصيل مشبع بالحماس ولكن بلا تنظيم ولا تماسك ... وفيها أفكار تحررية جريئة بلا تطبيق ... وفيها ... وفيها ... وفيها مشروع معرض دائم يمكن ان يكون نواة لتطور المدينة فيما لو تم تنفيذه بمعاني الكلمة كلها ...

فالى أين يتجه ذلك كله ؟ ...

معرض طرابلس الدائم

طريق ترابية فرعية بين البساتين . مائة متر ، ثم منشآت معرض طرابلس القائمة في أرض فسيحة . حشيش كثيف . بقايا أتربة بناء . وأبنية بعضها ذو اشكال هندسية مثيرة ...

كان هنالك بناء من الاسمنت المسلح ضخم وواسع ، وتلفتُّ بحثاً عن العمال ، فلم اجدهم ، وجدت بدلا منهم قطيعاً من البقر والماعز يرتع في ارجاء البناء الحديث !.

واقتربت مني بقرة ونظرت الي بفضول ، كما لو كنت قد عكرت على القطيع وجبته الهادئة !! .. كما لو كانت مدهوشة لوجودي هناك ! حتى الراعي كان شبه مغمض العينين مستغرقاً في تأمل مظاهر الطبيعة الهادئة (!) ، وحينما سألته اين يقع مكتب المهندسين تحركت رموش عينيه فقط كما لو كانت تشير إلى اتجاه ما ! ... وشجعني منظر الاغنام الشاردة على التصرف مثلها ، وشردت في ارجاء المعرض

(بكاميرتي) اصوبها على الاشكال الهندسية الجميلة والمثيرة ... بالاضافة إلى البناء الضخم الذي طالعني لحظة وصولي ، كان هنالك بناء غريب يشبه نصف كرة ارضية من الاسمنت نبتت على ارض المرعى ... ثم ما يشبه زهرة زنبق هائلة الضخامة من الاسمنت أيضاً ...

وبناء جميل ذو اقواس وايحاءات اندلسية ، وعبر الاقواس تبدو شجرات النخيل جميلة وهادئة توحي بكتابة قصيدة عن النوم والرعيان ! ..

(ترى كم من الاعوام ستنقضي قبل ان تتفجر الحياة والحركة على ارض هذا المرعى اذا كان العمل يجري بهذه الطريقة ؟ كم من الزمن سوف ينقضي قبل ان تنتقل هذه الرقعة من الارض من القرن الثامن عشر إلى عصر الذرة ؟ . وكيف . ما دام عدد القطعان والرعيان أكبر من عدد العمال ؟) ...

أخيراً مكتب المهندسين . شابان ! المهندسان غسان . ذ (خريج الجامعة الاميركية) وزياد . ك (خريج احدى جامعات اميركا) ...

عن المعرض يتحدث الاستاذ غسان . (يمتاز هذا المعرض بوحدة اجنحته ، بمعنى ان الجمهور لن يكون بحاجة إلى خارطة إو إلى دليل كما هي العادة في المعارض . سيكون هنالك بناء ضخم واحد يضم الاجنحة كلها — وأشار بيده إلى اول مبنى دخلته ، المرعى المفضل حالياً — وهنالك قسم آخر ، قسم الملاهي ويضم المسرح المكشوف وبرج المياه وارتفاعه ٢٥ متراً ، وسيقوم على هذا الارتفاع مطعم المعرض .. وهنالك أخيراً ابنية الادارة . المفروض انتهاء البناء في أواخر آب) سألته ومتى سينتهي فعلياً ؟ وهل سيقدر لابنائنا أم لاحفادنا حضور هذا المعرض ؟ ...

يرد المهندس زياد ببساطة : مهمتنا كمهندسين انهاء المرحلة الاولى ، مرحلة الانشاءات في آب ... وسيتم ذلك ... وتبقى المراحل الاخرى التي لا تدخل في اختصاصنا ...

يتابع المهندس غسان : هنالك أعمال كثيرة يجب استكمالها ... مثلا ؟ القطار الكهربائي الذي يطوف بأرجاء المعرض ... الاتفاق مع الدول العارضة ... وأهم من هذا كله ، وبصراحة اقولها ، تأهيل مرفأ طرابلس لاستقبال السفن التي ستجيء بالمعروضات والعارضين ورجال الاعمال والسواح إلى المعرض وإلى طرابلس مما ينشط مرافق الحياة كلها ، واتمام العمل في اتوستراد بيروت طرابلس . المفروض

ان يتّم المعرض نهائياً ويفتتح عام ١٩٧١ ، واذا أخذنا بعين الاعتبار ان العمل في جزء صغير من اوتوستّراد بيروت طرابلس قد استغرق خمسة اعوام – بين بيروت حتّى طبرجا – فاننا لا نستطيع ان نكون متفائلين جداً ...

وانا ايضاً ، لم اكن متفائلة وانا اغادر المعرض مشيعة بنظرات استنكار الاغنام والابقار .

ليس بالمعرض وحده تحيا طرابلس

وصديق اقتصادي قابلته بعد زيارتي للمعرض لم يكن متفائلاً ايضاً . حدثني بمزيد من الصراحة . (هذا المعرض بلا جدوى اذا لم يرافق العمل فيه تفهم لمدلوله الحقيقي ... بعبارة اخرى ، هذا المعرض بلا مرفأ ولا اوتوستّراد سيكون كقلب بلا رئتين ... وسيتحول إلى ما يشبه حديقة حيوانات يأتيها الناس لمجرد (الفرجة) ... والغرض من المعارض أعمق وأبعد ...

هذا المعرض يمكن ان يكون بلورةً وتكثيفاً لإمكانيات هذه المدينة المشتتة ... يمكن ان يكون المجرى المخطط له بوعي حيث تتجمع سيول طاقاتها المبعثرة ... ولكن هنالك عقبات كثيرة ينبغي التغلب عليها ومواجهتها كي يعطي هذا المعرض المردود المطلوب ، والا تحول إلى حفلة افتتاح خيرية كل ما يهم المسؤولين هو التقاط صورهم في حفل الافتتاح التي يتّم تحديدها مع المواسم الانتخابية ... ان في هذه المدينة نسبة عالية من المثقفين . فيها وعي ، وفيها طاقات كثيرة ... فيها تصاعد في درب التطور ، وهذا المعرض يستطيع ان يستوعب الطاقات كلها ويجسدها .. ان الامكانات البشرية موجودة بصورة لا مثيل لها .. ربما بدا في عينيّ ظل يأس جعله يصرخ في حماس ابن طرابلس العفوي الصريح : اذهبي وتحدثي إلى مثقفي هذه البلد ... ستجدين طبقة من نوع خاص ، بعيدة عن حذلقة أهل بيروت ... وأكثر عمقاً ووعياً بجذورها وأصالتها ..

نادي الخريجين : وعي وأصالة

لم اكن بحاجة إلى اثارة حماسي لاذهب اليهم . كنت قد قررت المرور بنادي الخريجين في الشمال ...

كما تلتف ساحرات شكسبير في مسرحية ماكبث حول النار منكبّات على طبخ أقدار

الناس في القدر المسحورة ، كذلك وجدت مجموعة منهم لدى دخولي فجأة إلى مقر ناديهم ذات مساء ... كانوا حلقة من الشبان والفتيات ، وبدلاً من قدر الساحرة كانت هنالك منضدة صغيرة التفوا حولها ، وبدلا من الرقي والتعاويذ يرمونها في النار ، كانت ايديهم تحمل رقي وتعاويذ القرن العشرين : بطاقات دعوات لمحاضرات وندوات مكتوبة بابجدية عصرية .. كانوا منكبين على العمل الى حد انني احسست بالذنب فور دخولي ، وانسحبت من حلقتهم معتذرة ، وقررت ان اخاطب الجدران ، فعلى الجدران كانت هنالك مشاهد حية يستطيع الانسان ان يتجول داخلها ويتحدث اليها .. كانت هنالك ازقة ضيقة ... كانت هنالك بيوت عتيقة تفوح منها رائحة الماضي والقدم ... كانت كلها داخل لوحات « راتنسكي » ... اسمه « راتنسكي » ذلك الفنان الذي بعث جو طرابلس القديمة عبر دواة حبر صيني وريشة » ... هكذا قال الاخ ابراهيم . ع الذي انسحب من حلقة السحرة ورافقني في رحلتي داخل اللوحات ... اغيب عنه خلف جدار عتيق ، اطل على بحرة من تلك التي تتوسط البيوت في بلدي دمشق ، واعود اليه من وقت إلى آخر ... وهكذا كان حديثه يصل إلى حضوري الغائب متقطعاً ... « نادينا احد نوادي هذه المدينة واهمها ، وأكثرها نشاطاً. لكنه ما زال حتى اليوم محروماً من المساعدة والرعاية الحكومية » ... « لا . ليس لنادينا أية صبغة سياسية أو طائفية ... انه يمثل الرأي الحر الواعي وتبادل وجهات النظر في جو علمي ليس فيه سوى توتر المعرفة وحرارة النقاش » ...

قطعت رحلتي داخل الجدران وعدت اليهم . تبينت بينهم وجهاً شديد الشقرة لشاب سبق لي ان شاهدته ... اين ؟ ... وتذكرت ... مع قافلة من السواح الفرنسيين في قلعة طرابلس ! ... تراه سائح آخر فرنسي ؟ وماذا يفعل هنا ؟

اسمه روني . ع ، قدمته لي الآنسة دلال . س بقولها : رئيس النادي ! .

— ولكني شاهدتك صباحاً مع السواح ؟ هل انت متعهد سواح ؟

يرد روني : نعم يا سيدتي . انا متعهد فكري للسواح ، وهذا من واجب كل مثقف ! اننا لا نعرض عليهم حجارتنا وتبولتنا والعرق والدبكة ، هذه أمور ثانوية ، المهم ان نتبادل واياهم الافكار ووجهات النظر ... نحاول ان نسكب في رأسهم مفهومنا الحضاري ...

لقد قمت باسم نادينا باتصال مع المجلس الوطني للسياحة — قسم استقبال الشباب — وبواسطة رئيس المجلس الاستاذ رشيد . م استطعنا ضم طرابلس إلى جولات السواح ... اننا نتعهد بتأمين اقامتهم في طرابلس بمبلغ زهيد مقابل — تسويحهم— في عالمنا الفكري! .. لماذا نتكلف هذا العناء ؟ فعلا . نحن نخسر الكثير من الوقت والجهد مجاناً — بالمفهوم المادي للكلمة — ، لكننا نربح الكثير لوطننا ، والوطن هو نحن ، منا والينا ...

يتدخلُ ابراهيم. ع : البارحة، بعد جولتهم في الآثار، دعوناهم لندوة نقاش هنا ... سألت احدهم عن تصوره الذهني للعرب ، فقال انه كان يقرنهم بصورة الخيام والبدو والبربرية ! مروان . ف يصوب ضربة (ركنية) : هذا طبعاً يرجع لنشاط بعثاتنا الديبلوماسية .

(يا الهي كم هو على حق في ملاحظته . المؤسف ان أكثر الديبلوماسيين العرب هم من المبعدين عن بلدهم ، أو طالبو شهر عسل مجاني في اوروبا عن طريق أحد « المتنفذين » ، أو ... أو ...)

يتابع مروان . ف : المهم إن مناقشتنا معهم حول قضية فلسطين انتهت إلى شجار فيما بينهم ! عدت أسأل روني . ع عن طرابلس: ألا تحس انها مدينة مظلومة ، مضطهدة ؟ .

— أجل ... هي مدينة مضطهدة من قِبَلِ أهلها انفسهم .. اهلها يحبونها ، لكنهم لا يعرفون كيف يحبون بالمعنى الحقيقي العملي للكلمة (بالمناسبة ، روني طالب علم نفس وطالب حقوق في وقت واحد ، ودينامو النادي) .

وتحدثنا عن اشياء كثيرة ... عن صناعات طرابلس الناشئة ... اسمنت وحديد صب وسكر وسفن. . . عن صناعاتها الفولكلورية، عباءات وطرق نحاس وموبيليا وماء الزهر ... والحديث عن أي شيء في طرابلس يثير الحماس والحزن معاً ... الحماس لان هنالك الكثير الذي يجب أن يتم ، والحزن لأن الاشياء كلها ما تزال بدايات ... الامكانات الفكرية والسياحية والاقتصادية ما تزال شاردة في صحراء الاهمال ...

اما احمد . ك ، وايلي . ص فقد أثارا موضوعاً هاماً يتعلق بالجامعة : لماذا لا جامعة في طرابلس ؟ . يطور الفكرة الاستاذ احمد بقوله : ان أكثر اساتذة الجامعة اللبنانيين من الطرابلسيين ، هذا أولاً . ثم ان مناخ طرابلس اجتماعياً ونفسياً يصلح

تربة جامعية أكثر من مناخ بيروت .. وتشعب النقاش ، وخرج روني بنتيجة هي ان الجامعتين اليسوعية والاميركية تضمان اساتذة متفرغين في حين تضم الجامعة اللبنانية اساتذة يعملون صباحاً في الوزارات ويلتهمون السندويش في طريقهم إلى حصصهم المسائية في الجامعة .

لخص توفيق . س الحكاية فيما بعد قائلاً : الجامعة اللبنانية مدرسة مسائية للتعليم العالي ، بلا هيبة ولا حصانة .

المرأة الطرابلسية

عنها حدثتني دلال . س ، وأمل . أ ، الجامعيتان المثقفتان ... تقول أمل : المرأة المتعلمة في طرابلس تحررت في المجالات كلها ...

– يقال ان لدى الفتاة الطرابلسية نوعاً من الازدواجية ، بمعنى انها تمارس حريتها في بيروت ، وفي طرابلس تلتزم نوعاً من الزيف الممالىء للمجتمع الطرابلسي المحافظ . ما رأيك ؟ أمل تجيب بعنف ، ويتدفق الدم إلى وجهها : لا . هذا ليس صحيحاً . انها تطورت بمعزل عن الميوعة والاستهتار ، وهي لذلك تحافظ على شخصيتها بل وتؤثر في الفتاة البيروتية بدلاً من ان تتأثر بها . الطرابلسية جدية كإنسانة ، وصادقة ومحبة كأنثى . انها لما تتشوه بعد ، وهي لا تدور في أفق حفلات الوجاهة الاجتماعية وانما تتحسس القضايا الوطنية والمصيرية لانها نبتت في تربة مشبعة بالمناخ الوطني ...

حمام السوق ... وأنا

كان لا بد من زيارة حمام السوق « سونا أيام زمان » ، ومقر نشاط الخاطبات ، وأحياناً وكر المؤامرات الوطنية على المستعمر ... حمام السوق الذي طالما شهدت جدرانه الحارة المساجلات الأدبية والصفقات التجارية ، وطالما سمعت أبخرته المتصاعدة حكايا الناس الدفينة ، اذ حينما يسترخي الجسد فوق البلاط الأسود الحار في « سونا أيام زمان » ينطلق العقل الباطن من عقاله ...

اول حمام زرته كان حمام عز الدين . دخلت أحمل « كاميرتي » ... كانت هنالك ردهة واسعة ذات ادراج ، وعلى طول الجدران مراتب ، وعلى المراتب مناشف تبينت ان تحتها رجال يستريحون من عناء الحمام وفي وسط القاعة بركة ماء والسقف عالٍ والبناء عتيق ، وبعض الطحالب والفطور نبتت على مدخله ... رجل ملتف

بمنشفة أشار إلى آخر جالس خلف منضدته : هذا هو صاحب الحمام ... رفع رجل عجوز رأسه من بين المناشف وحينما رآني اتحرك في المكان بلا مبالاة والتقط الصور ، شتم هذا الزمان والنسوان ! .. بدا الذعر في وجوه الرجال ، ذعر طريف ممزوج بالدهشة كما لو كانوا يتساءلون « هل قامة القيامة وبدأت المرأة تطالب بحمامات السوق المشتركة اسوة بالبلاجات المشتركة والسوق المشتركة ؟ » وخنقت الضحكات في حلقي وسألت الجالس المذهول وراء المنضدة : الاسم ؟ ظنّ أني أريد أن أستحم فوراً . حسناً . فليكن ، ولكن .. قال : يجب ان تدفعي دخولية ! ...

عبثاً فسرت له انني صحافية . استسلم لاسئلتي وأمره لله . انه الاخ ديب . ش ، عاش في الحمام منذ اربعين عاماً وقبله كان والده متعهداً لهذا المكان الذي يعود تاريخه إلى ايام الصليبيين كما قال .

وحينما سألته : أيام انتداب الفرنسيين ، هل كان الحمام ملتقى الوطنيين كما سمعت ؟.. بدا عليه الخوف وقد أساء فهم سؤالي وبدا كما لو كان يرد على تهمة : هنا يستحم الرجال ويذهبون . ما في مشاكل أبداً !

مشهور . ع كان واقفاً يستمع ، وهو طرابلسي فهم قصدي فتدخل بالرد : طبعاً ... كانت بلدنا خلية واحدة للمقاومة ... في كل مكان ...

وفي حمام آخر سمعت حكايا طويلة تستحق حديثاً بأكمله ... عن صفقات الزواج في الحمامات ... تقاليد الحمام ... الأكل في الحمام ... الشجار ... الرجل الذي قبض عليه متلصصاً على قافلة النساء العاريات وسط الجدران السميكة... وعن.. وعن ...

أهم ما في هذه الظاهرة الفولكلورية التي ما تزال ناشطة ، إصرار اصحابها على ان حمام البيت لا يُغني عن حمام السوق ، لأن حمام السوق يغسل الانسان نفسياً أيضاً اذ ترافق عملية الاستحمام غالباً عملية اعتراف هادئة ، للذات أو للغير ، عملية مباسطة ومصارحة يخرج بعدها المستحم وقد غسل جلده من الداخل ومن الخارج !.

أنقذوا صناعة السفن !

بعد فاصل حمام السوق الطريف ، عاودني مرض الجدية . قررت زيارة مصنع للسفن . في طريقي اليه ، شاهدت « نزل البحر » حيث التجأ وعاش أكثر المناضلين

العرب ايام بلجوء وتحفز في طرابلس حيث يتوفر مناخ فكري متجاوب مع القضايا العربية التقدمية .

وصلت إلى مصنع خالد. ح كان يصنع قارباً ضخماً بيديه . قال انه للكابتن شريف . ب ، وقــد استغرق صنعه عاماً من العمل المتواصل... يقول خالد: « تعلمت هذه المهنة عن أبي ... وانا ككل من يعمل فيها بحاجة إلى حماية الدولة من الاستيراد ، وتشجيعها لنا ومساعدتنا » ...

أليس مؤلماً ان يظل بناء السفن لدينا حرفة فردية متوارثة دون أن ترعاها الدولة بتطويرها إلى صناعة ثقيلة .

(تذكرت مصانع السفن في هامبورغ وحزنت ، حزنت لان عاملنا موهوب لكنه مهدور مشتت مهمل) ...

لا مسرح في طرابلس

اشياء كثيرة اخرى مهدورة ... مثلاً ، ليس في طرابلس مسرح لائق .. كان فيها مسرح قبل نصف قرن اسمه مسرح « الانجا » شهدت خشبته مشاهير المسرح المصري آنئــذ ... ذهبت إلى حيث كان يقوم ، وعوضاً عنه التقيت بفيلم بوليسي يعرض في صالة السينما التي تم تحويل المسرح اليها !!

الشرقيــات

تقرع اليوم أجراس القوافل القديمة داخل البيوت ... اذ يتم بيعها في دكاكين باعة الشرقيات المصنوعة من النحاس والتي ازدهرت صناعتها في الاعوام الاخيرة في طرابلس ...

عنها حدثني شيخها ، الحاج عبد السلام . ط ... بدأها في طرابلس منذ ربع قرن ، ورافق تطورها وازدهارها ، ورأى مع الايام مشغله الصغير يتحول إلى معمل كبير .

انه غاضب لان زبائن هذه الشرقيات من الاجانب أكثر من زبائنها من العرب ... هذه الظاهرة تدهشه ولا يجد لها تفسيراً ...

صناعة الموبيليا

ربما كانت هذه الظاهرة بالذات هي ما يدفع بصناعة الموبيليا الناشئة إلى تقليد الصناعة الغربية باتقان . فالواجهات تملؤها صالونات موديلات (الستيل) ، وقد اشتهيت ان أرى غرفة عربية مطعّمة بالصدف ومكسوة بالبروكار كما في صالوناتنا الشرقية ... لمَ لا ؟ ... السؤال للمستهلك لا للصانع ...

مع الزمخشري وديك الجن

للمقاهي في طرابلس نكهة خاصة ... نكهة أبعد من مجرد (قهوة نشاط) ... المقاهي في طرابلس اقرب إلى التجمعات الفكرية منها إلى مصائد للحسان ، وهي تعكس وعي اهل البلد واهتمامهم الشديد بالقضايا السياسية والفكرية ... في الميناء يشيرون قائلين : هذا مقهى القوميين العرب .. هذا للبعثيين ... هذا للشيوعيين ... وهكذا . ويعلق أخ يرافقني : في طرابلس صراع عقائدي مثمر غير متشنج . هنالك طبعاً مقاهي للمستقلين ، ولحزب أكلة السمك ... وللعشاق أيضاً ...

ولحديث المقهى في طرابلس نكهة اخرى ... ما زالوا يتحدثون عن الزمخشري ونوادر نهج البلاغة ، وما تزال اشعار ديك الجن الحمصي تتلى ...

واذا التقيت بفنان من الشمال ، فان شخصيته الخجول المتواضعة هي اول ما يلفت النظر . فعلاً . فنانو بيروت آلهة — يكفيهم اعتقادهم الشخصي بذلك — والغرور ينسكب من حديثهم أكثر من الاصبغة على لوحاتهم .

نبيل . م من فناني الشمال الشباب . يرسم (البورتريه) . ويعمل في جريدة الانشاء في طرابلس ، خطاطاً ورسام كاريكاتور ... يتحدث بصوت خافت هادىء.. فيقول : ما تزال الحركة الفنية لدينا ناشئة ...

(وهل هي الا ناشئة في بلادنا العربية ؟ حسب فناني الشمال وعيهم لهذه الحقيقة واعترافهم بهذا التواضع) .

طرابلس : أحببتكِ

المساء ، وأنا اتسلق درجات الفندق متعبة كعصفور مهاجر ، وقبل ان تستلبني من جديد رائحة زهر الليمون ، لاحظت انني في فندق فارغ قطنته أياماً ثلاثة مع

الاشباح .. ومستخدميه ... انه الفندق الوحيد من الدرجة الاولى في طرابلس ، وفارغ ... أليس ذلك مؤسفاً ؟ متى تدب الحياة في هذه المدينة التي كل ما فيها مؤهل للحياة . الكل يشكو . عبد القادر . ع (الميتر دوتيل) في الفندق قال لي انه كان يربح من عمله كبواب في فندق درجة ثانية في بيروت أضعاف ما يربح الآن ...

رائحة زهر الليمون دوماً وأبداً

عادت رائحة زهر الليمون تفوح ، وتأكل من عيني المشاهد كلها ... رغم احاديث البعض (اللارومانتيكية) حولها ظللت مأسورة بها ... السيدة سهاد . س. تصاب (بوجع رأس) يدوم شهرين كاملين في الربيع بسبب حساسيتها للرائحة ... اطباء طرابلس يستقبلون كل يوم عشرات الزوار الذين يشكون مرض الحساسية من زهر الليمون في فترة الربيع ...

الاستاذ رهيج . م يذكرني بزهر الليمون كأداة عملية اقتصادية لها علاقة بالتجارة والارقام قائلاً (يصنع من زهر الليمون ماء الزهر ، وهو تجارة رابحة لطرابلس ، ومربى الزهر ، هل تذوقته ؟) ...

رغم هذا كله ، غادرت طرابلس وانا اعايش رائحة زهر الليمون بحواسي كلها .. ألمسها .. آكلها .. أسمعها .. أراها .. وأشمها ...

وفي هذه اللحظة بالذات ، ما زلت قادرة على استحضارها ، على تذكر رائحتها وشم الذكرى ، تماماً كما يستحضر الناس صورة وجه احبوه ، أو نغمة صوت غابر سمعوه ...

١٤ / ٧ / ١٩٧٢

في لبنان جنوبان مهملان ، أحدهما في الشمال

هل أنت فضولي مثلي؟ إذن سترافقني ثانيةً إلى طرابلس لنرى ما حل بمعرضها الدولي الذي وعدونا بافتتاحه عام ١٩٧١ . ستطوف معي بسيارتي العتيقة في طرابلس وترافقنا احدى بناتها وتسكب مرارتها في قلمي وفي سطوري . تقول : منذ زيارتك لطرابلس عام ١٩٦٨ لم يتبدل شيء ... الا اذا كنت تعتبرين بعض المقاهي والستيريوهات التي افتتحت مؤخراً هي (التبديل) الذي تبحثين عنه ! ... وما عداها لم يتبدل شيء ...

واعترف بانني ظننتها تبالغ ... ولكن بعد ثلاث زيارات متتالية لطرابلس لكتابة هذا التحقيق تأكدت من انها على حق وانه لا ضرورة أبداً لكتابة هذا التحقيق ، وانه يكفي ان أعيد نشر الموضوع الذي كتبته عام ١٩٦٨ عن طرابلس ، وان أنشره كما هو ، وحرفياً ، ودون أي تبديل ! ...واليكم ما شاهدت بلامبالغة :

وصلت إلى المعرض ، فلم يسمح لي بالدخول ، وعلمت ان التجول في المعرض صار محظوراً حتى على الصحافيين ، وحينما تُمنع الصحافة من (التجول) يكون هنالك ما لا يدعو إلى الفخر ...

وكالجواسيس تسللت إلى أرض المعرض لأرى اسباب احاطته بهذا الستار الحديدي ... ووجدت ان (الفضيحة) تستحق التكتم الذي تحاط به ...

فقد كانت ارض المعرض فارغة بكل معاني الكلمة ... وكانت أبنيتها غير المنتهية ، والتي لم تُسكن ، قد بدأت تبدو عليها ملامح العتق وآثار السنين ... لقد اهترأت حتى قبل ان تستعمل ! ... وكنت أتعثر بالحجارة ، والصدى ، والريح الراكضة في المنشآت الفارغة ، العارية من النوافذ والابواب ... قباب رائعة ، وابنية جميلة الهندسة ... كلها مهجورة كمدينة مر بها الطاعون وغادرها أهلها إلى الابد ...

وخيل الي ّ انني في منطقة أثرية ... لا ريب في ان السائح سيعجب بفكرة (صنع الآثار) عندنا ، حيث نستطيع ان نحول معرضاً سياحياً حديث الابنية إلى منطقة أثرية خاوية في اقل من خمسة اعوام وحتّى قبل افتتاحه ! ...

وكان هنالك كلب ينام بسلام ، وحينما شاهدني فتح عينيه بدهشة كأنه لم يألف رؤية الناس ... وبدأت أشعر بالخوف الذي يحسه الناس حينما يجدون انفسهم وحيدين في قرية فرغت من اهلها دفعة واحدة ... وقبل أن أصرخ هلعاً واركض في مجاهل المعرض واسلم نفسي إلى الحارس على بابه ، لمحت حوالي عشرة عمال جالسين على الارض يلتهمون خبزهم الجاف ... وتلفت حولي وأنا أتأمل الابنية شاسعة المساحة ، فقدرت ان اولئك العمال العشرة بحاجة إلى عشرة قرون كي يتمموا بناء هذا المكان وإعداده ، وان العمل هنا يحتاج إلى مئات العمال والمراقبين والمهندسين ... ومرت بي بقرة تلتهم العشب وهي واقفة على شرفة (الباطون) الحديث ، وخيل الي ّ ان البقرة نفسها لم تتحرك من مكانها منذ اربعة اعوام ... وغادرت ارض المعرض كما دخلت .. وفهمت لماذا لم تُعبد الطريق اليه بعد ... لانهم لا يريدون ان يأتي أحد إلى هذه المنطقة (الأثرية) الا بعد ان يتم (تعتيقها) نهائياً ، واصدار كراس عنها في مديرية الآثار ... وربما لذلك يتأخرون في اصدار كراساتهم عن طرابلس بانتظار الانتهاء من تكملة الاوتوستراد ، والاوتوستراد لن ينتهي قبل سنوات !

لقد كانت زيارتي (السرية) إلى المعرض مدعاة لحزني ومما لا شك فيه ان من أسباب احاطة المعرض بستار حديدي ، ومنع الناس من الدخول اليه هو الحرص على سعادة المواطنين وطمأنينة بالهم وحمايتهم من رؤية الاهمال الذي يقض المضاجع... وللمسؤولين شكرنا .

أحزان طرابلس في نادي الجامعيين

وفي يوم آخر ، كانت لي جلسة مع شباب طرابلس المثقف في ناديهم ذي النشاطات الثقافية المتعددة .

ليلى . س، جريئة وصريحة . حدثتها عن زيارتي لمجاهل معرض طرابلس فقالت: مأساتنا متعددة الوجوه ... هنالك المعرض المنسي ... والاوتوستراد الموعود ... وهنالك ميناء طرابلس المظلوم ...

عام ١٩٦٤ حوّلوا كل السفن منه إلى بيروت ، وقالوا مبررين ذلك بأن مياهه ضحلة لا تصلح لرسو البواخر ، وتفريغها من الحمولة غير ممكن الا بمساعدة قوارب اضافية وهذا غير صحيح ... انها حجة لسرقة اللقمة من فم طرابلس ...

(أفكر بصمت : لنفترض ان بعض الموانع الجغرافية تحول دون ان يكون مرفأ طرابلس ميناءً مثالياً ... هذه حجة يمكن ان تساق في العصور الوسطى لا في القرن العشرين ... في عصر تستطيع الآلات فيه ان تعد أي مكان ليصير ميناءً ، فكيف بميناء طبيعي اثبتت العصور صلاحيته على مر التاريخ ... ألا تستطيع الآلة ان تصقل مرفأ طرابلس في عصر تحفر فيه الانفاق تحت البحر من قارة إلى أخرى ، ويتهيأ فيه الناس لبناء مستعمرات في القمر ؟ ... اياً كانت التكاليف ، ألا يستحق إحياء الشمال بعضاً من النفقات التي يستردها لبنان فيما بعد اضعافاً مضاعفة ؟) .

وتتابع ليلى . س سرد احزان طرابلس بحرقة مصرة على ان ميناء طرابلس حتى بحالته الراهنة مستعد لاستقبال السفن ...

فريدة ذ أيضاً ، تحدثني عن تلك الحلقة الكبيرة من الاهمال التي تشل طرابلس ... فالمعرض بحاجة إلى الاوتوستراد ... والميناء ايضاً بحاجة إلى طريق دولية غير طريق بيروت — طرابلس القديمة التي ينتهي الجزء العصري (الاوتوستر ادي) منها في جونية عند الكازينو الشهير « كازينو ده ليبان » .

وتدخل مجموعة من ابناء طرابلس ويشاركوننا ملحمة احزان هذا البلد .. عبدالله . ك (مهندس) ، مصطفى . ح (مهندس ، ورئيس نادي الجامعيين) ، احمد . ك ، معتصم . ع ، وكلهم طلبة جامعيون أو خريجون ...

عبدالله . ك لا يدهشه الاهمال الذي تتعرض له طرابلس وانما يجده امتداداً طبيعياً للاوضاع الموضوعية القائمة في لبنان ... انه يقول : « لن يتحقق في طرابلس أي مشروع قد يؤدي إلى (المضاربة) على بيروت ، فتطور مدينة بيروت هو تطور احتكاري ، وهو مرتبط بتطور البورجوازية في لبنان وسيطرتها عليه،ومصالح هذه الطبقة البورجوازية في بيروت والمركزية ...

ويتابع المهندس عبدالله . ك حديثه (يعدّ في جامعة باريس أطروحة للدكتوراه عن تطور المدن في لبنان وديبلوما في تخطيط المدن) : لا يمكن ان تتطور مناطق لبنان في ظل أساليب النظام القائم ومرتكزاته ... والدليل تطبيق نظام القمع في الهرمل

ويعلبك مثلاً بدلاً من ادخال الحضارة اليهما... وحتى المعرض – لو نُفِّذ – فانهم لا يهدفون منه إلى احياء طرابلس ككل ... وانما يريدون احضار سائح سريع يعود إلى بيروت بأسرع مما جاء ... والدليل ان الطريق إلى المعرض جانبية تبدأ من مدخل طرابلس دون المرور بالمدينة كي يذهب السائح خلسة ويعود إلى بيروت (تهريب)!...
معتصم . ع يقول كلمة تلخص المأساة: طرابلس مدينة تعطي ولا تأخذ. اننا ندفع الضرائب ، ولا نبخل بالجهد البشري ، ولا نتلقى بالمقابل الا الجحود والاهمال ..

منطقة الجامع المنصوري في طرابلس تثير فضول أي انسان أو سائح .. ولكن هنالك نوع من الدعاية السيئة عن طرابلس... حيث تلصق باهلها كافة التهم (اللاحضارية)

عبدالله. ك (متابعاً بحدة) : يقولون ان طرابلس مدينة مناخها الانساني لا يصلح للسياح ... كيف يصلح اذا لم (يصلحوها) هم ؟ .. يتحدثون عما يسمونه بـ (زعران طرابلس) .. كيف يتغيرون اذا لم يؤمنوا لهم العمل ويرفعوا مستواهم المادي ، ويبدلوا واقعهم الاجتماعي المليء بالقهر ... سيدتي .. المركزية هي جريمة لبنان .. قبل مئة عام كانت طرابلس أكبر مدينة في لبنان ، ولكن بعد التطور الاحتكاري لبيروت وجبل لبنان على حساب المناطق الاخرى ظلت طرابلس على حالها .. بل تردت ..

معتصم . ع . د متابعاً : طرابلس هي كنز لبنان الوطني ايضاً ... انها قلعة الخط الوطني .. طرابلس تضحي وتدافع عن عروبة لبنان ...

ليلى . س : لماذا لا ينشئون في طرابلس جامعة ؟ أو فرعاً لاحدى الجامعات ؟ ..

معتصم : لانها ستصير منبعاً للوطنية ومعقلاً ، و (هم) يخشون ذلك ، ولا يريدون لطبقات معينة من الشعب ان تتعلم ...

عبدالله : سياسة الدولة هي ضد الجامعات الوطنية ، ولذا لم تفتتح كلية وطنية الا بعد اضراب الطلاب واصرارهم . الدولة لا تريد الا الجامعة الاميركية والجامعة اليسوعية ! ..

معتصم : النظام القائم في بلدنا هو نظام تهجير وترفيه عن طبقة صغيرة على حساب غيرها من ابناء الشعب وبقية المناطق .. المواطن قد فقد ثقته بالدولة ، وفقد ارتباطه بها لانها لا تشعره بمواطنيته ولا تشمله برعايتها ...

وحينما اسألهم عما يقترحونه من حل : اضراب طرابلس عن الطعام ؟ عن النوم ؟ عن العمل؟ عصيان عام ؟ تظاهر ؟ ثورة ؟.. يقول ئيس النادي مصطفى .ح : طرابلس محرومة ، وما ذلك الا من بعض التخلف الذي تمر به أمتنا ... تخلف على صعيد الشعب ، وبالتالي على صعيد ممثليه وحكامه ، واساليبهم وحلولهم للمشاكل .. انها حلقة مفرغة .. ونحن لا نشعر بالرفض ضد افراد ، وانما نشعر برفض ضد كل ما يدور في لبنان ...

احمد . ك : نحن بحاجة إلى صوت جديد .. إلى تنظيم حزبي جديد .

— ما دام لا شيء يتغير ، ما دمتم لا تطرحون قضية نسف النظام ككل ، لماذا لا تغيرون على الأقل وجوه نوابكم التقليديين الذين اثبتت الايام لكم انهم لم يمنحوكم شيئاً ؟ جواب : مأساتنا التخلف ، وسيطرة الولاءات العشائرية والطائفية علينا ، وذلك ما يعيد الوجوه نفسها إلى المجلس ...

صوت آخر (وتتفجر حرقتهم سخرية مريرة) : ربما لو احتلت اسرائيل الجنوب لا يبقى للدولة الا الشمال ويصير عندها (وقت) لتهتم بنا يومئذ ! ..

صوت : ترى لو طالبنا بوحدة طرابلس مع سوريا ، هل يتذكر لبنان ان طرابلس تقع ضمن اراضيه ، ويقوم بواجبه نحوها ؟ ..

صوت :وانا بالسرفيس سمعت البارحة ثلاثة عمال يشتمون الذين خربوا بيوتهم واوقفوا العمل في (الميناء) ونقلوه إلى بيروت .

وأكرر سؤالي : حسناً . هنالك اجماع على ان الوضع غير عادل وخاطىء ... المهم ، كيف ترون — عملياً — امكانية الاصلاح ؟ ...

رياض . س : عن طريق النواب وضمن النظام الديمقراطي البرلماني القائم ... ربما تفيد طرابلس من نجاح النائب المعارض في الوصول إلى البرلمان ، وقد يكون في التحدي ما يلهب التنافس للعمل .

احمد . ك: اؤيد التغيير عن طريق النظام البرلماني شرط وجود تنظيم حزبي واع .. والا فلا مفر من الثورة ...

مصطفى . ح : لن يتبدل شيء الا اذا وجدت الارادة الشعبية الواعية ونظّمت .. وتتوالى الاجوبة ... وكلها تلح على ضرورة الاصلاح من داخل النظام .. ولما

قلت لهم ان النظام كله فاسد أصلاً ، قال لي عبدالله . ك : الشبان الذين تتحدثين معهم مصالحهم مرتبطة بالنظام القائم ، وصحيح انهم يهاجمونه ، لكنهم لا يريدون نسفه ... الثورة ؟ ابحثي عنها في مكان آخر ...

الثورة ، لا ناطق رسمي باسمها

وكنت اعرف اين اجدها ...

في ازقة الميناء حيث الاجساد المتعبة تجرجر أحزانها وتختزن حقدها ورفضها ..

في الاسواق الفقيرة والاحياء المحرومة من بديهيات العيش والصحة العامة ...

في عيون أهلها الصامتة المزروعة بالدمع والغليان .. في مقاهي الصيادين العارية إلا من الشباك المهترئة المنشورة تحت الشمس مع مآسيهم على كل صعيد ... مع الدولة التي تهملهم وتسلمهم فريسة لمحتكري تجارة السمك ، و (الرؤوس الكبيرة) التي تهرب من صنارة القانون ، وتهلك صغار السمك باحتكارها حتى استخدام الديناميت وغيره من الاساليب التي تضمن لها الربح و (السلبطة) ، وصراع صغار الصيادين مع البحر وعناصر الطبيعة حيث لا ضمان اذا اصيبوا بعطل دائم ، ولا من يداوي أطفالهم ، ولا ضمان صحياً ولا اجتماعياً ولا انسانياً . . والرغيف قذيفة مدفع الثورة .

بعد جلسة معهم في مكان فقير نشرب الشاي الاسود صرت قانعة بأن الصيادين في طرابلس هم فريسة نظامنا الاجتماعي اللاعادل ، وهم الساقطون في شبكة كبار الرأسماليين والمحتكرين ... انهم أسماك النظام ومؤونة موائده .. انهم ملح الارض ، و (ملح) موائد الكبار .. مثلهم مثل عمالها العاطلين عن العمل،وفلاحيها وبقية المسحوقين فيها .. حكاياهم مروعة .. لا يدخلون في تفاصيل النواب وحكايا المستوزرين .. كل ما يفهمونه ان (الجميع) ضدهم ، أوعلى الاقل لايعون وجودهم ولا يبالون بهم ...

كل ما يعونه هو مأساتهم مع الغلاء .. مع اللقمة ... مع الاقساط .. مع المدارس.. مع الدواء .. مع اطفالهم الذين يبتلعهم البحر لانهم لا يستطيعون دفع اتاوة المسابح ... مع الأمية التي تفترسهم لان المدارس (نهيب) .. قد يسميهم البعض (الزعران) أو (المافيا الطرابلسية) ولكن اسمهم الحقيقي : الطبقة المسحوقة . وصوتهم يشبه رعد ما قبل العاصفة .

١٩ / ٤ / ١٩٧٥

فضيحة المعرض المبني ... للمجهول ! .

اذا كنت فضولياً حقاً مثلي ، مصراً على معرفة الحقيقة ومطاردتها عاماً إثر عام ، ستقرر ان العمل في معرض طرابس لا بد وان يكون قد انتهى ونحن في عام ١٩٧٥ وموعد الافتتاح كان عام ١٩٧١ . وسترافقني من جديد إلى طرابلس للمرة الثالثة ، وستفاجأ بوجود لافتات معلقة في الشوارع تقول « موعدكم قريب مع المعرض — هدفنا مليون سائح للمعرض » .

ونقرر ان نبحث أولاً عن المعرض ... ونستنجد بأحد ابناء طرابلس ، الاخ نبال . ب ، الذي تكرم بمرافقتنا .

المعرض المبني ... للمجهول !

دخلنا طريقاً فرعية خربة ضيقة من المفروض ان تؤدي إلى المعرض . ويقال ، والعهدة على الراوي ، ان هناك طريقاً أخرى فخمة (اوتوستراد) تؤدي إلى المعرض . وكانت بساتين الطريق الفرعية مسورة بالقصب والاشجار والخضرة الشرسة. وتغلي في حلقك اجمل رائحة في العالم . رائحة زهر الليمون حارة كنداء غامض ، وتنعش في القلب حنيناً مبهماً إلى ... إلى ما لا تدريه . وتتنهد ... وتكاد تنسى إلى اين انت ذاهب ... ثم تمر بك امرأة تحمل مجموعة من جذوع الاشجار تنوء تحت ثقلها ، فتتذكر سنة المرأة العالمية وثرثرة سيدات المجتمع في حفـــلات الاكل والتصوير و« الفلاشات » ! ويمر بك رجل ينوء تحت مجموعة من الصناديق فتتساءل: متى سنة كرامة الانسان العالمية ؟! وترى فلاحاً يغازل فلاحة وفي يده مسدس ، ويدهشك هذا « الغزل اللبناني » ، ثم تحس بأنك ضائع في بحر من الخضرة، وتتذكر فجأة انك كنت في طريقك إلى معرض طرابلس ... ولكن ، أين منا المعرض ؟ .. في الدرب نفسها نعود حتى بلا خفي حنين ! وندور طويلاً بحثاً عن الاوتوستراد

الموعود ، ونلمحه عن بعد ، فارغاً لا سيارة فيه ، فقط بقرتان تسرحان وتمرحان وترعيان العشب النابت بين الاسفلت المهترىء العتيق كالدمن ... ومع ذلك نصمم على الوصول اليه ما دامت الدرب الوحيدة إلى المعرض .. وندور طويلاً ونحار ، ويشاركنا الحيرة حتى ابن طرابلس الذي يرافقنا ! واخيراً ، كما يحدث في المعجزات ، تنفتح طريق ضيقة على الاوتوستراد فجأة ، ونصل إلى ملكوته من دون ان ندري اننا وصلنا إلى درب الآلام ...

انه اغرب اوتوستراد شاهدته في حياتي ، فيه كل شيء الا السيارات . فيه مباراة لكرة القدم يقيمها ابناء الحي المجاور وقد حدقوا فينا بعيون مغتاظة حين مررنا بسيارتنا في مرماهم واعتبروا الامر تعدياً على حرمة ملعبهم . لا أحد غير فتاة تتعلم قيادة السيارة ، واخرى تتعلم شيئاً آخر في سيارة متوقفة إلى جانب الطريق !

ونمضي في الاوتوستراد واذا به ممتد من التراب وإلى التراب وآخره مسدود ، ونتساءل أي فنان بنى هذا الدرب من المجهول إلى المجهول؟ أي شاعر؟(لانه لا يمكن لمن بناه ان يكون مهندساً) . ونعود من الاوتوستراد « المبني للمجهول » ، باحثين من جديد عن المعرض المبني للمجهول أيضاً ما دامت الدرب اليه سرية هكذا ... ونتساءل: لماذا لا توجد لافتة ترشد بوضوح إلى طريق المعرض ما دامت هناك لافتتان تتحدثان عنه .

« هدفنا مليون سائح للمعرض » ، تقول اللافتة ، ولو صدقت لقالت : « هدفنا مليون ضائع للمعرض » ! ونتابع بحثنا فنهتدي إلى لافتة صغيرة خجول وعليها عبارة « معرض لبنان الدولي » ثم سهم يشير إلى درب فرعية أخرى ... ونتيه من جديد بحثاً عن المعرض السري ، ونتساءل هل هذا معرض أم « حزورة » أم نكتة عملية ، ولماذا كل هذا التكتم عن مكان المعرض كما لو انه فضيحة هنالك من يرغب في التستر عليها ! — أم انه كذلك ؟ — ونمر بسيارة « بيجو » امامها بعض مرافقي السيد رشيد . ك ، ونسألهم عن الطريق إلى المعرض فيدلنا أحدهم بينما يتابع آخر لعبه بعصفور رماه قتيلاً (لأنه اراد ان يتسلى) وما زال جسد الطائر ساخناً — أو هكذا خيل إلي !

وتابعنا السير على هدي تعليماتهم فوجدنا أنفسنا من جديد في الاوتوستراد العجيب الغريب ولكن في الطرف الآخر منه ! وكان البحث عن المعرض لا يزال دائباً حين

مررنا بسكة حديد (ربما كان القطار لنقـل المقطوعين أمثالنا الذين صدّقوا اللافتة القائلة « موعدكم مع المعرض قريباً »!) واخيراً وجدنا أنفسنا ندور حول سور المعرض ثم — صدق أو لا تصدق — اهتدينا إلى المدخل .. وشعرنا ان هنالك من لا يرغب في دخول أحد إلى « قاعدة الصواريخ » هذه حتّى ان الدرب القديمة اليه قد تم اخفاؤها والدرب الجديدة أُحجية ! وكنا نعد كذبة حول كوننا من السياح لا الصحافيين قد يبتلعها الحارس ، ونخبىء كاميرات الزميل عدنان ناجي ، حين فوجئنا بعدم وجود أي حارس على الباب ، إلا دابة سعيدة ترعى ... وفي الداخل أبنية المعرض اللامتناهية التي كانت جديدة وقد بان عليها العتق وصارت بحاجة إلى ترميم وهي لما تستعمل بعد ! ..

كان المعرض لوحة عن جمال الطبيعة ولوحة عن بشاعة إهمال الانسان ! ..

فبين الابنية الضخمة المتناثرة ، وشقوق الباطون التي ملأها العشب هجم الربيع بكل قواه ليخفي بشاعة الباطون العاري الفارغ المبني للمجهول وللرياح والليل ، لا للسياح ولا للعارضين . فلا معرض ولا من يعرضون ، وانما مجرد معرض للمأساة اللبنانية ، ومعرض لهدر أموال الشعب ، ومعرض لإهمال المسؤولين لمدينة طرابلس ، وقد هجم الربيع ليغطي معالم الصورة وها هي ملايين الزهور الصفر تملأ المكان ، وطنين النحل يملأ الاسماع واسراب الطيور تحوم والسماء الزرقاء المدهشة الضياء فوق هذا المشتل الباهر الجمال ، وقد تناثرت الفلاحات وقاطفات الازهار ، وها هم الاطفال قادمون للعب في « المعرض » حاملين معهم مضارب « البينغ — بونغ » والطابات ... وثمة حمار سعيد يرعى وكل شيء يدل على الهدوء (وعلى الارض السلام وفي الناس المسرة !) ولكن لا خبير . لا مهندس ، لا عامل . لا حارس . لا مليون سائح . لا افتتاح موعده قريب ! ...

سبعة اعوام انقضت وكل شيء على حاله .

سبعة أعوام بالضبط ! يا للمصادفة .. فقد زرت هذا المكان للمرة الأولى يوم الجمعة ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٦٨ وأنا أخط هذه السطور الان يوم ١٩ نيسان ١٩٧٥. كتبت يومها : « ترى ، كم من الاعوام ستنقضي قبل ان تتفجر الحياة والحركة على أرض هذا المرعى اذا كان العمل يجري بهذه الطريقة البطيئة ؟ ومتى سينتهي المعرض فعلياً ؟ وهل سيقدر لابنائنا أم لأحفادنا حضور هذا المعرض ؟ »

هذا ما كتبته ذات يوم وقيل لي انني بالغت في التشاؤم . وها انا اليوم اكرره . وآمل الا اكرره مرة ثالثة عام ١٩٨٢ أي ، بعد سبع سنوات اخرى !

يومها قال لي المهندس غسان. ذ: « المفروض ان يتم المعرض نهائياً ويُفتتح عام ١٩٧١ » !

ويومها سألت المهندس زياد . ك عن موعد افتتاح المعرض ورد بوضوح : « مهمتنا كمهندسين انهاء المرحلة الاولى ، مرحلة الانشاءات ، في آب ١٩٦٨ . وسيتم ذلك . وتبقى المراحل الاخرى التي لا تدخل في اختصاصنا » .

وهذا صحيح : فواضح ان المهندسين قد انجزوا مهمتهم منذ زمن بعيد لأن أبنية المعرض بدأ العتق يفترسها . اذاً من المسؤول عما تبقى ؟ من يتمم المعرض ؟ وماذا عن القطار الكهربائي الذي كان يفترض ان يدور في ارجائه ؟ ومتى يتم الاتفاق مع الدول العارضة ؟ ومتى يتم تأهيل مرفأ طرابلس لاستقبال السفن التي ستجيء بالمعروضات والعارضين ورجال الاعمال والسياح ، مما ينشط مرافق الحياة كلها في المدينة ؟ ومتى يتم العمل في اوتوستراد طرابلس — بيروت (مع العلم ان العمل في الجزء الواقع بين بيروت وطبرجا استغرق ٥ سنوات !) ؟

ومتى ... ومتى ...

وخرجنا من المعرض مثقلين بالغم . واذا كان الوصول إلى الاوتوستراد المبني للمجهول صعباً فالخروج منه أكثر صعوبة (والداخل مفقود والخارج مولود) ، والمهم اننا تهنا من جديد حتى التقينا ثانية بـ « ملاكينا الحارسين » من حراس الاستاذ رشيد . ك اللذين ارشدانا إلى الطريق ، وكان احدهما قد استبدل جثة الطائر في يده بسبحة ، ومررنا بالبقرتين اللتين تتجولان بخبرة في الاوتوستراد ، وبراكبي البسكليتات والبنت التي تتعلم قيادة السيارات والاخرى التي تتعلم شيئاً آخر ! .. المهم ، وبعد طول عناء ، عدنا من مجاهل المعرض إلى العالم المأهول ...

ولكن رائحة زهر الليمون التي تفوح حارة كنداء غامض تجعلك تغفر كل شيء... فتتنهد وتعاود طريقك .

الصيادون الكادحون : انهم يسرقون البحر منا ...

انهم يسرقون البحر منا ... مأساة طرابلس تدور في حلقة مفرغة ... الاوتوستراد

اليها ما زال أسطورة ... ومعرضها أكذوبة .. والمليون سائح سراب ... والمرفأ يعمل حين يعمل المعرض ... والمعرض يعمل حين يتم ... وكي يعمل يجب إصلاح الاوتوستراد والمرفأ ... ولا احد يعمل لتحقيق ذلك ... بل ان اهمالهم لطرابلس متقن إلى حد أنه يكاد يكون اهمالاً مدروساً متعمداً والنتيجة : أذرع متدلية بلا عمل ، ومرفأ طبيعي ممتاز محروم من رعاية الانسان ... (لا ، ليس تماماً . ها هو مقطوع اليدين يمر بنا حاملاً صندوقاً على ذراعيه . يا لقوة الحياة والرغيف) .

وحتى الصياد الطرابلسي الراضي بلقمة العيش الجافة وعيش الكفاف والذي يعاني من طرق الصيد البدائية واهمال الدولة ، يتعرض اليوم لقطع رزقه ...

وفي الميناء القديمة التقيت ببعض الصيادين وهم يحيكون شباكهم بحزن لان هنالك من يحاول سرقة البحر منهم .

الصياد يوسف . ط يقول لي : « سيقطعون رزق ٦٠٠٠ صياد مثلي . ستأتي شركة وتأكل البحر ولن يبقى لنا الا الجوع والبؤس » .

الصياد عبد اللطيف . ط يلخص رأي رفاقه المحيطين بنا ويصرخ مشيراً إلى الماء : « هذا البحر ملك الشعب ولا يجوز لأحد أن يأخذه منا . نحن الصيادين كلنا نقف ضد ذلك . منذ ثلاثين سنة ونحن نسمعهم يتحدثون عن « شركة تحتكر البحر » ، لكن يبدو ان السكين قد وصلت إلى عنقنا هذه المرة .

— ...

— ... أضربنا وتظاهرنا وأغلقنا المرفأ بالفلوكة والمراكب ، ونحاول الآن أن نحلها سلمياً مع المسؤولين كما ان نقابتنا تتابع اتصالاتها مع بقية النقابات » .

الكل يشكو . سمعت شكوى من أحد صغار التجار يقول فيها ان المرفأ حالياً فريسة لاحتكار بعض الأشخاص ، وانه ليس الصياد وحده بائساً ، بل الحمال بائس ، ومخلص البضائع بائس ، والكل بائس . بسبب اهمال المرفأ وعدم تحويل حتى ولا باخرة سياحية واحدة من بيروت المحتكرة إلى طرابلس !

قال لي شاب متعلم من أقارب الصيادين بصراحة ، انا اعتقد ان طرابلس هي قلعة من قلاع العروبة في لبنان ، وانها بشبابها المثقف وشعبها الكادح تشكل بؤرة ثورية طليعية تتهدد النظام اللبناني الاحتكاري غير العادل . وهذا من اسباب الامعان في اهمالها . بل لعله السبب الرئيسي !

وتغادر طرابلس مغموماً ومتفائلاً في آن واحد ... وتطل من بعيد جبال مكسوة بالثلج الابيض النقي ، وتضيء الشمس ، وتفوح رائحة زهر الليمون حارة كنداء غامض ، وتنعش في القلب حنيناً مبهماً إلى ... إلى ما لا تدريه ! ..

وتعرف انك لو عدت إلى طرابلس بعد عامين مثلاً ، فقد تجد كل شيء على حاله ، وقد تسمع (الاسطوانة) ذاتها ، والكلمات ذاتها ... وقد تنشر إعلاناً في احدى الصحف تقول فيه : « معرض دولي مفقود . الرجاء ممن شاهده أو سمع شيئاً عنه ان لا يبلغ أحداً ، لان أحداً لا يهمه أمره » !

ولكن ذات يوم ، سيتبدل كل شيء !

٢٢ / ١٠ / ١٩٧١

بيبلوس (جبيل) : حيث النور ينساب عبر قبعة من القش ...

سرت رعدة خوف في جسدي فقد ادركت فجأة انني ضللت طريقي إلى الفندق أو إلى أي مكان مأهول . وبدأت أتعثر على درب الاحجار الرومانية العتيقة وشعوري بالهلع يتحالف والظلام على زلزلة موقع خطواتي ... كانت العتمة تحيط بي من كل جانب ، والريح تصفر من اقدم ميناء في العالم حاملة معها حكايا ٧٠٠٠ سنة من التاريخ بكل رهبتها واسرارها ... حتى القمر الذي بدأ صعوده الصامت شبه الازلي في السماء كان ما يزال قرصاً أصفر شاحباً يرمي بظلال خافتة مخيفة فتبدو المرئيات كلها زائغة كالأشباح ، وأعمدة الكهرباء المطفأة مثل المردة التي تتربص بي ، واستحال المكان حولي إلى مسرح كتلك التي نقرأ عنها في قصص الرعب ومصاصي الدماء ... والقلعة الاثرية القديمة فوق التل القريب بدت مثل قصر تقطنه صرخات مخيفة الحكايا ، وأسرار تفوح منها رائحة الدم ومحاربون قدامى يحملون رماحهم وأقواسهم ونشاباتهم ويطلقون صيحات عدائية ... وقفزت إلى رأسي كل حكايا الارواح والغيلان وأهوال السندباد في مجاهل رحلاته وكل ما حواه التاريخ من اساطير مرعبة ... وكانت اصوات الكلاب التي تعوي من آن إلى آخر تزيد من احساسي بالخوف والوحشة ، ولعنت حبي لاكتشاف أماكن جديدة ، ثم فجأة شاهدت عيناً واحدة كبيرة مستديرة وبلا أهداب تضيء مثل عيون وحوش الاساطير ، وتلوح من بعيد ، وقبل ان أصرخ سمعت اصواتاً آدمية تتبادل الحديث وتبينت فيها أصوات شخصين يسيران وقد اضاءا (بيلاً) — مصباحاً يدوياً — هو الذي ظننته عن بعد عيناً جهنمية ...

وركضت نحوهما ، ودونما خجل رجوتهما إيصالي إلى الفندق ولم يدهشهما ذلك... يبدو انهما اعتادا نجدة الفضوليين أمثالي الذين يحسنون الظن بوعينا الثقافي ويتوهمون ان مكاناً أثرياً في اهمية بيبلوس (جبيل) يقع في ما تسميه دعايتنا (بلد الاشعاع) لبنان ، لا بد وان يكون مضاءً بالكهرباء ، وسرت مع الشابين المنقذين، وكم كانت

دهشتي كبيرة حين اكتشفت انني لم اكن أبعد أكثر من خمسين متراً عن الفندق وراء المنعطف ، ولكنني لشدة الظلام لم أميز الطريق ! ... وأنني لست في الضواحي . وأن بيبلوس – ما عدا طريق السيارات والسوق – هي كلها غارقة في الظلام !

بيبلوس الحزينة

اجل . مغامرة الرعب هذه عشتها لا في مجاهل أفريقيا وانما في أحد أهم المرافق التاريخية والسياحية في الشرق الاوسط وفي مدينة كانت من أقدم مدن الارض ورقعة شهدت أعظم مدنيات العالم القديم وأول مراكز الاشعاع الانساني والضياء الفكري ، وها هي اليوم في عصر الفضاء أزقة تغرق في ظلمات الاهمال والجحود ...

ذهبت إلى بيبلوس (جبيل) التي طالما قرأت عنها في كتب التاريخ ، والتي يقطع السياح آلاف الاميال لمشاهدتها ، ومنذ ليلتي الاولى هناك واجهت الاهمال الرسمي المريع للجوهرة اللبنانية .

ظننت أن ظلمة المدينة الرومانية هي نتيجة انقطاع موقت ومفاجيء في الكهرباء ثم صعقني ان اكتشف ان هذا هو الوضع الدائم ، فالايام الثلاثة التي قضيتها في بيبلوس بعد ذلك اكدت لي ان الظلام الدامس الذي تغرق فيه شوارعها (شوارعها التي كانت تضاء في العصور الوسطى !) هو اقل أنواع الهوان والاهمال الذي تتعرض له ، وان الاهمال وسوء التقييم و « العقلية الاثرية » التي يعاملون بها «آثارها» ظاهرة يصطدم بها الانسان باستمرار في كل لحظة يقضيها في بيبلوس (جبيل) .

سان تروبيز – لبنان

في كتاب المهندس موريس دوناند عن بيبلوس يقول : « ان ميزة بيبلوس الاساسية هي في وجود ٧٠٠٠ سنة من حضارات التاريخ متراكمة في بقعة واحدة من الارض » . وهذا صحيح ... ففي بيبلوس اثار فينيقية وأمورية وفرعونية وهكسوسية وأشورية وبابلية وفارسية واغريقية ورومانية وصليبية وغيرها ... ان هذه الرقعة الصغيرة من الارض تحكي تاريخ المنطقة كلها ... وهكذا قضيت يومي الاول كله اقف امام الاحجار والخرائب والمدرجات والمسارح المنحوتة في الصخر وأصغي إلى هذيانها الاخرس يروي لي حكاية عجيبة ... ولعل اجمل ما في بيبلوس هو الجزء الساحلي منها الذي يرجع بتاريخه إلى العصور الوسطى ... بلدة كاملة بأزقتها

وبيوتها واقواسها وسوقها المسقوفة وكنائسها واسوارها وقلاعها البحرية كلها تحمل اياماً غابرة وتلهب الخيال والرؤى ... والمفروض في موقع كهذا ان يكون مدرسة للتاريخ ومكاناً يحملون اليه الطلاب كي يتحسسوا جذورهم ويتفهموا تاريخ أجدادهم بسموه وسقطاته . ولكن ...

وتذكرت سان تروبيز التي لا تملك من عظمة جبيل سوى ازقة العصور الوسطى وبيوتها وموقعها الساحلي الجميل ومع ذلك استطاع الفرنسيون ان يجتذبوا اليها السياح واستطاعوا ان يستقطبوا فيها أشهر الكتّاب والفنانين في الخمسينات... وهي ما تزال حتى اليوم تغلي بالزوار والناس ... اما بيبلوس فشبه خاوية .

وقبل ان امضي ٢٤ ساعة في بيبلوس كدت اختنق لكثرة ما واجهت من مظاهر التخلف في اساليب عرض تاريخ من الامجاد وتوظيفه للسياحة فقط وبالأحرى للجانب السياحي الاستهلاكي من السياحة ، لا جانب الاعتزاز الوطني .

نتحدر في زقاق روماني قديم حتى نصل إلى المرفأ الفينيقي ... نرى فيه مراكب صيد صغيرة : فارنا — مرسال — صور — دافيد ... نتلفت حولنا فنرى شباك الصيد الجميلة الالوان منشورة في الشمس تصطاد الاحلام في النهار ، ونتجاوز لوحة كتب عليها (أوبرج سان تروبيز) ونكاد نغضب لتشبيه بيبلوس العريقة المعتقة التاريخ بسان تروبيز .

تتابع المسير وتكتشف المزيد من المآسي .

نعم ! بالاضافة إلى ازقة بيبلوس المعتمة ليلا وهاتفها المبحوح ترى نهاراً أبنية اسمنتية بشعة (بشعة لا بالمعنى المطلق ولكن بمعنى أنها في مكان لا يحق لها ان تكون فيه وهذه هي البشاعة التي لا تغتفر !) أبنية تلطخ منظر بيبلوس العصور الوسطى وتجعلها هجينة ! ... وتجد اعلانات بضوء النيون عن فنادق نوايا اصحابها طيبة دونما شك ، لكن ابنيتهم لا تناسب بهندستها « ونيونها » مناخ بلدة من الضروري ان نحافظ على جوها التاريخي المعتق — خصوصاً الجزء الباقي من الـ Medieval Town أي بلدة العصور الوسطى . شاهدت بناء ملاصقاً لكنيسة ماري حنا الصليبية . انه بناء جديد لكنه مصمم بطريقة رائعة تتناغم وجو البلدة الاثرية وهندسته الجميلة تتلاءم وموقعه وسألت عنه وعرفت انه دير ، ومن المفروض الاقتداء هندسياً بهذا الدير وان يمنع تشييد أي بناء لا ينسجم طرازه مع جو بيبلوس القديمة التي يجب ان نحرص

عليها ... واذا كانت قد نشأت في بلادنا جمعية للمساعدة في انقاذ كنوز مدينة البندقية التي تغوص في الماء تدريجياً مهددة بالغرق النهائي فانه لحريّ بنا ان نقيم أولاً جمعية لانقاذ بيبلوس من الغرق في مستنقع بشاعات قلة الذوق والابنية الاسمنتية وسوء استعمال الابنية القديمة وترقيعها والاعلانات وحماية ما تبقى من بيبلوس من مزيد من التشويه .. احتراماً لمدلول آثارها الحضاري والإنساني .

بيبلوس والكذبة التاريخية

بيبلوس وثلاثة ايام في جوها الساحر المسحور ... واعظم ما فيها ليس ضخامة اعمدتها وكبر آثارها كمياً وانما عظمتها كيفياً ... وهي بالتالي آثار لا تستثير حاسة البصر بقدر ما تستثير البصيرة ... انها تلهب الخيال ... جوها عابق بأساطير أدونيس وحكايا احيرام ومراكبه وقصص الامم المتعاقبة والغزوات التي كانت تجيء ثم تنحسر عن هذا الشاطىء الوديع الصغير الفاتح صدره في هذه اللحظة لاحتضان هذين العاشقين اللذين اراهما الآن يسيران على الشاطىء العتيق قرب الشمس المتعبة الغاربة وأجده صعباً ان اصدق ان الدماء وصيحات المحاربين وحطام مراكبهم وقتلاهم كانت تملأ المكان ذات يوم ... واقترب جيداً من مياه الميناء الصافية واغوص بعيني بحثاً عن الاعمدة المنتصبة في قاع البحر ولا ادري اذا كنت اراها حقاً أم انني اتخيل ذلك ... ولا ادري اذا كانت حكاية كل حجر سمعتها تروي الحقيقة كما حدثت أم (الحقيقة التاريخية) التي يدونها الناس عادة في كل عصر وفقاً لما يريده الحكام ومن زاويتهم الخاصة ... ويعدلها ايضاً الذين يأتون بعدهم وفقاً لمصالحهم ايضاً ومن زاويتهم الخاصة ...

ولكن مما لا شك فيه ان الكذب السياحي في ايطاليا مثلا اكبر من التاريخ ، اما في بلادنا فالتاريخ ما يزال أكبر بكثير من أية كذبة محتملة .

وعدت من بيبلوس احمل تذكاراً حياً هو سلحفاة حية أهداها إلي صديق وقال لي انها كانت سلحفاة الملك الفينيقي احيرام . وقررت ان اصدقه . ولمَ لا ؟

أليس في التاريخ أكاذيب أكبر نبتلعها ببساطة بل ونصفق لها ؟ ...

٥ / ٥ / ١٩٧٥

صيدا : لن يسرقوا منا البحر !

كان « ناصر خسرو » الفارسي الاصل ماراً بلبنان في طريقه إلى الحج سنة ١٠٤٨ حين وصف صيدا بقوله : « اما سور صيدا المحكم فله اربعة أبواب. وان اسواقها مزينة تزييناً رائعاً ومكتظة بالبضائع والسلع ، وفي غاية النظافة . وخاناتها ذات خمس أو ست طبقات » ...

هكذا كانت حال صيدا عام ١٠٤٨ ، فما حالها اليوم ؟

موجعة هي الدرب إلى صيدا وإلى الجنوب ... انك تتأمل الطبيعة الساحرة ، والارض الخصبة ، وأشجار الموز العملاقة والحمضيات الوحشية الخضرة ، وتحس بأن هذه الثروات والخيرات كلها مهددة ... فالعدو الاسرائيلي لا يخفي شهيته لامتلاكها والاهمال في الدفاع عنها يجعلها لقمة سائغة ..

انك تتأمل الدرب إلى صيدا وفي حنجرتك غصة ، واحساس غامض بخوف الفراق ... والغضب .. وحين تهب عليك رائحة زهر الليمون الفتاكة الجمال لا تبتهج كما كنت من زمان ولكنك تكتئب كما لو كانت عطر الفراق ..

تستقبلك صيدا بشكوى عملية هي عبارة عن فندق كبير جميل مهجور في مدخلها ، هو فندق صيدون . انه مهمل . مغلق . تسكنه الاشباح وتشكو نوافذه المغلقة لشاطئه المقفر ليلاً نهاراً . هذا الفندق ينطق بصمته ملخصاً كساد الحال في صيدا.

وتتذكر ان صيدا كانت ذات يوم واحدة من أكبر مدينتين فينيقيتين في لبنان . كانت لها أيام مجد ، ولعل المراكب المحملة بالذهب والطيب والبهار كانت تمخر من هذا المكان بالذات والحياة تفور بكل مظاهر الرخاء ... واليوم يقفر شاطىء الفرح فيها لينزوي على كتفه فندق الاشباح المغلق ... لماذا ؟ ماذا يدور في صيدا ؟ ... بل ماذا يدور في أية مدينة لبنانية غير بيروت ؟ ..

لعل لبنان فريد من نوعه في الدنيا .. فلعله الوطن الوحيد الذي تحتكر فيه طبقة واحدة كل مظاهر الرخاء والثراء .. والخدمات ... وتعيش في القرن العشرين (مادياً وظاهرياً على الاقل) في حين تُرغم بقية طبقاته على العيش في القهر والحرمان .. أو اللامبالاة على الاقل ...

وأنا لا أتحدث هنا عن بعض الاسر الثرية من طبقة الأربعة في المئة التي تملك بيوتاً في بيروت وانما أتحدث عن الناس الطيبين البسطاء .. عن الشعب الذي يتحدث الجميع باسمه ويحكمون باسمه ... لنستمع إلى بعض أفراده يتحدثون بأنفسهم ..

نتابع الدرب الى «بحر العيد» قلب صيدا القديمة .. نمر بمطعم فارغ الا من كرسي جالس إلى منضدة ، يتسامران وحيدين بلا زبائن ...

ندخل في السوق ... نمر بسجن النساء .. ثم بـ «بسطات» الباعة الجوالين : سمك وموز وتفاح وأكيدنيا وخيار وسمك وسمك .. ننعطف نحو البحر من جديد ، ونمر ببائع سمك يقول لنا : « مرحبا .. تفضلوا » ، وهو يقصف رأس سلطعان بحري كبير ما زال حياً ، فنخاف ولا نتفضل . ونتابع دربنا إلى بحر العيد حيث نقابة الصيادين وأزقة ضيقة تنفتح على الاتساع النسبي أمامها ....

بحر العيد أم بحر الدم

تتوقف سيارتنا أمام مدينة ملاهي للاطفال حزينة وصدئة كطفل جائع عاري القدمين . مدينة ملاهي لم أر في حياتي ما هو أكثر كآبة منها .. هياكل الاراجيح و (الدويخات) عارية وصدئة تصفر الريح عبرها .. وقد التصق بعضها بالآخر كأن حديدها الكالح اللون يشعر بالوحشة في هذا العراء الكئيب ، والاسمنت المسلح الخشن تحت الالعاب الميتة . (تذكرت بأسى مدن الملاهي الدائمة لاطفال بعض الشعوب السعيدة وحزنت ... أطفالنا العرب مندورون لليتم والشقاء المبكر) .. وعلى الرصيف المقابل لمدينة الاطفال البائسة ، دكان كأنها مدينة الشيخوخة البائسة ... حوالي عشرة رجال تجاوزوا السبعين وقد تجمعوا حول راكب حمار ، كانا عجوزين (الحمار وراكبه) وكانت ترشح من أصوات حوارهم الغامض نبرات عمر مليء بالمرارة والقمع .

مررت بهم استرق السمع اليهم . كان فم راكب الحمار فارغاً من الاسنان مليئاً بالشتائم وكان كورس الشيوخ يردد شتائمه وكلها منصب على (الحالة) ، وهذا الزمان الرديء ...

قورت : الشيوخ لا ترضيهم الأحوال أياً كانت وفي كل العصور ، فلنذهب إلى الشباب ونتحدث اليهم فقد يكون رأيهم بما يدور أفضل من رأي شيوخهم .

هذا هيكل عظمي لا مركب .. وهذا مركب شارف على الانتهاء . لا معمل لصنع المراكب على الطريقة الحديثة ولا صناعة ، وانما كل شيء اسوأ مما كان قبل ٣٠٠٠ سنة .. والانسان يعمل هنا وحيداً دون معونة الحكومة أو الدولة أو النظم التي أوجدها الانسان أصلاً لتساهم في تطويره اقتصادياً وانسانياً لا لتحتكر امتصاص دمائه ...

رئيس نقابة الصيادين معروف . ع . ب جالس على كرسيه قرب المركب عند مبنى النقابة وهو يحيك شباكه الزرق ، ويتحدث الينا : « حياتنا كلها شكوى ، وقهر من الحكومة . والآن اكتملت المأساة بالشركة الاحتكارية التي جاءت بها الحكومة لتسرق منا البحر . سمعتم طبعاً بالحكاية ، ثم بمصرع معروف سعد الذي ذهب فداءً لنا . حالياً ما نزال نتحاور مع الدولة التي قامت ببعض التعديلات على الشركة . البحر لنا ولا يمكن لأحد أن يسرق مورد رزقنا » . سألته : واذا لم تتراجع الدولة ، ماذا يحدث ؟

قال : « نحن لن نتراجع بأي ثمن ، وسنضرب مراكب التعدي بالصواريخ وسيصير بيننا في البحر أكثر من مواجهة كما كان بيننا في البر » ...

وأضاف شبه مبرر : « انهم لم يتركوا لنا أي خيار . ان مشروعهم يعني ببساطة : موتنا .. انه يعني قطع أرزاقنا وسرقة الرغيف من فمنا . لكل منا أكثر من سبعة أطفال . كيف نطعمهم وهذه مهنتنا الوحيدة التي نحسن القيام بها ؟ حاملو البكالوريا عاطلون اليوم عن العمل ، فماذا يحصل لنا وأكثرنا بلا شهادة أو أي مورد رزق آخر غير البحر ! .. »

وتحدثت إلى بعض الصيادين .. وإلى أحمد . س (من أسرة صيداوية عريقة للسماكين) وأبناء عمهفكرروا ما قاله رئيس نقابتهم — كلٌ بلغته الخاصة — وأحمد. س قال : تريد الدولة ان تميتنا أحياء . هذا ما سيحدث لنا اذا أكلوا بحرنا .. فلماذا لا يصبوا علينا المازوت ويحرقونا مرة واحدة ويستريحوا منا » ؟ .. وأكد انه « لولا المرحوم معروف سعد لما عوضت علينا الدولة بقرش حين ضربت اسرائيل قواربنا ... هنالك ٧٠ مليون ليرة بلعها (بعض زعماء) لبنان ثم أعطونا القليل الذي لا يكفي » ..

يشكون من الغلاء « كان ثمن قارب كهذا ٨٠٠ ليرة وصار الآن ٣٠٠٠ ليرة وكل هذا في أعوام قليلة » ..

الغضب يقطر من أصوات الرجال المتعبين ... الغضب ، والتهديد الشرس لإنسان يدافع عن حياته ورغيفه ... وخيل الي أني أرى « بحر العيد » مغسولاً بدم الطرفين ... انه « بحر الدم » اذا لم تمر العدالة على هذا الشاطىء وتمسح جراح الكادحين المغسولة بالملح المر مع كل صباح : فأسعار كل شيء ترتفع باستمرار الا جراحهم ترخص بنظر المسؤولين عنها ! ...

أمية المرأة

كما في كل المدن العربية العريقة ، الاحياء الشعبية شبه مسقوفة . البيوت متلاصقة متعانقة في حنان وتعب . وشيء من الفقر (بل كثير من الفقر) يصبغ المرئيات كلها بلونه الكالح العتيق .. ويبدو الزقاق الضيق ممعناً في القدم حتى لتظن نفسك في القرن التاسع عشر ، لولا أسلاك الكهرباء المتدلية على الجدران والتي تحسها دخيلة على المشهد ...

ها هي مقاهي الرجال المتعبين (لهم أسماء أخرى كثيرة منها : البروليتاريا — الكادحون — ملح الارض — إلى آخره ولكن العلاج الشافي تنفيذه هو المهم بعد تحضيره في صيدلية المجهول !) ... ها هو رجل يأكل أركيلته .. وها هو رجل أكل البحر ساقه .. وها هي الوجوه تحدق بنا دونما فضول ، والتعب يسطو على الملامح كلها ..

الزقاق ضيق وحزين . ومرافقنا ابن صيدا المقيم في بيروت يقول لي وللزميل المصور عدنان ناجي : هنا بيت الداية التي ولدتني .. وهنا كرسيها الخاص بالولادة (طريقة من طرق التوليد القديمة) حيث كانت أمي تضع بقية اخوتي ...

رائحة التاريخ تفوح من كل شيء كلما أمعنا ايغالاً في الازقة القديمة ... هذا حي الكنانة ... هذه درب ضيقة جداً تنفتح عليه .. يقول مرافقنا بغصة : هنا كان بيتي ، نتأمل بيته . النوافذ موصدة جداً على الذكريات . والبائع المجاور يتعرف على « الصبي الشقي » قديماً . لقد هجر ابن صيدا مدينته سعياً وراء الرزق في بيروت ما دامت (الكنانة) محرومة من الافق الذي يبحث عنه كل طموح .. والنتيجة : هجرة

الكفاءات إلى مدينة واحدة ... ويصير لبنان وطن المدينة الواحدة ... وتزخر المدينة الواحدة بتناقضاتها .

ونترك « الصبي الشقي » سابقاً والشاب المكافح في بيروت حالياً يتسامر والبائع العجوز ، ويروي له أخبار بقية الاسرة (الجارة) منذ ربع قرن ... ثم نوقظـــه من حلم الامس لنتابع الجولة ... لكننا نزداد سقوطاً في حلم الامس .. فالازقة تزداد ضيقاً وتصير كزواريب الاساطير العربية القديمة .. وقبل ان نصل إلى أحياء فقيرة ، علينا أن ننحني برؤوسنا كي نمشي فيها ، نعود وقد امتلأ قلبنا بالغصات ...

نمر ببيت بابه نصف مغلق . في ردهته الصغيرة ألمح بعض النساء يتسامرن حول (أركيلة) . أدخل وأحييهن . أتحدث اليهن قليلاً . لا يقرأن . لا يكتبن . لا يتعاطين السياسة ولا الحياة العامة ولا (مشاغل الرجال) كلها . يقضين أوقاتهن في الثرثرة ، والطبخ والحمل ، وربما الشجار ... دخل المصور ورآني فهربن وخلفن الفناء فارغاً لكاميراه وحواري المقطوع !

من جديد نسير في الزقاق . أتذكر أن عدداً كبيراً من صديقاتي الجامعيات كن صيداويات وكن من ألمع الطالبات وأطيبهن قلباً وأحلاهن معشراً ... كل هذه الطاقات الحبيسة في الازقة تثير الحزن .. (تلح علي ضرورة سن قانون « للتعليم الاجباري » . مكافحة الأمية لا تقل في نظري أهمية عن قانون « للتجنيد الاجباري »... ولكن !) ...

دار أخرى ... (صبحية) أخرى ... نساء في الفناء والباب نصف مطبق . أدخل . فتاة بين الجالسات في عينيها بريق الذكاء والثقة بالنفس . اسمها : نهى . ح . سألتها : هل تدرسين ؟ قالت : لا . سألت : تعملين ؟

قالت : لا . أعمل في البيت . سألت : تطالعين ؟

قالت : لا اقرأ ولا أكتب . سألت الجالسات معهـــا : هل سمعتن بسنة المرأة العالمية ؟ فتناثرن من حولي ضاحكات من لغتي العجيبة ، واختفين تماماً مع دخول عدنان وكاميراه ! ...

(طالما سمعت بجمعيات نسائية جنوبية تقدم خدمات وتقوم بنشاطات كثيرة .. ليت محو الامية يكون محور اعمالها . « إقرأ » . انها الكلمة السر والمفتاح) ...

الجولة في هذه الاحياء تشبه جولة في منجم مهمل .. انك تشعر بالطاقات الخام ، تحس بوهجها في العيون والكلمات ، لكنها طاقات مهدورة مهملة غير مصقولة ... تغلفها شرنقة الفقر والاهمال والجهل ... وتغادر الاحياء الضيقة جداً إلى الأقل ضيقاً ... هذا الشاب مقطوع الذراع يسألنا بلهجة مصرية : ماذا نريد ؟ ماذا نفعل ؟

فنسأله نحن : ماذا يفعل ؟

اسمه خضر . م . يعمل في صيدا منذ أربعة أعوام ، أصله من جنوبي بور سعيد . ذراعه التهمتها حرب اليمن . يقول « كثير من المصريين يعمل في صيدا مثلي . دم صيدا يجري في دمائنا . فأهلها يحبوننا ولا تفرقة لديهم بين الطوائف ، وهم « عشرية » وكرماء ... نغادر المحل الحرفي لأحمد . ص حيث يعمل وغيره من اللبنانيين، ونحزن من أجل صرخات صيدا الجميلة المهملة التي تكاد تضيع لولا همة أهلها ومن بينها صناعة الموبيليا وحفر الخشب ..

ونتجول طويلا ... دكاكين لبيع الاخشاب والزجاج ... حرف صغيرة هي بأصالة أهلها وذكائهم الفطري نواة طيبة لصناعة كبيرة تنتقل بالمدينة من طورها شبه الفقير والبدائي إلى رخاء المدينة التي تعتمد على الصناعات ... صيدا مادة خام مثالية للانتقال من الصيد البدائي إلى صناعات التعليب (عن طريق التعاونيات لا عن طريق الشركات الاحتكارية) ، وللانتقال من بناء القوارب المفردة إلى انشاء صناعة حديثة لبنائها ، وللانتقال من مرحلة البساتين إلى مرحلة التسويق لمحاصيلها عن طريق الاسواق التعاونية ... ولكن ... حتى اشعار آخر ، البسطات تغطي وجه الاسواق ، وكل يكافح وحيداً من اجل البقاء على قيد الرغيف ... وفي مناخ صيدا برعم حياة لا تخمد ، يطالب بالنمو في مناخ سليم عادل أو الانفجار .. لكن قهر هذه المدينة ومخادعتها أمر غير ممكن .. وهم ككل أصحاب القلوب الطيبة ينفجرون — اذا انفجروا — بشراسة ... ونبتة الرغبة في الفرح والحياة لا تموت فيهم بسهولة .. وها هو « ريس بحر » عجوز يمر بي ، يقطر التعب من جسده وأعوامه ، وقد « شكل » في عروة بزته المتواضعة وردة حمراء جميلة غير متواضعة ، وبريق حب الحياة لما تخمد جذوته في عينيه نصف المغمضتين بالرمد ...

قال مرافقي : انه البحر .. لا أحد يموت من « شعب البحر » الطيبين ...

الجزيرة الغامضة ، والقلعة

بعد هذه الجولة في الحاضر الحزين ، شعرنا بالحاجة إلى ما ينشّطنا. قررنا الذهاب إلى الماضي الأجمل ... إلى قلعة صيدا ...

في الطريق اليها عادت تلك الجزيرة المسحورة تلتمع تحت أشعة الشمس وتسرقني اليها .. انها جزيرة صغيرة مثل قارب بحر إلى المجهول الحلو ، يراها القادم إلى صيدا ، وتطالعه بوقفتها الوادعة بالقرب من الشاطىء مرساها الازلي ... سألت عنها فقالوا : اسمها « الزيرة » أي الجزيرة ويدلعها أهل صيدا باسم « زيرة » ، وهي جزيرة يذهب اليها صبيان صيدا سباحةً .. يقولون ان فيها نبع مياه حلوة وأن الهدوء فيها ساحر ، ولا أحد يقطنها غير طيور البحر ... وشعرت برغبة للهرب إلى الزيرة ، لكننا كنا قد وصلنا القلعة وسقطنا في قبضة الدليل السياحي أحمد . ق الذي بدأ يحدثنا عن تاريخ هذه القلعة البحرية الجميلة ، وكنا نتطلع إلى العمود الذي توقف العمل في ترميمه بعد مصرع أحد رؤساء الوزارات وقد خرجت من داخل الاحجار الاثرية القديمة أسياخ الحديد العارية ، وبدأ العمود نصباً للاهمال والبشاعة المنفرة للعين ...

وكان الدليل يشرح لنا عن قاعة البرلمان العسكرية في عهد الصليبيين والعرب ، وكانت عيوننا معلقة بكوم من النفايات في ركن القاعة الاثرية ... براميل وتنك وأخشاب وبقايا وجرذ كبير يقفز من وسط دغل القذارات هذا ، بعد أن أكل من الدهر والتاريخ وشرب و ...

وتساءلنا : أهذا مكان تاريخي لا يقدر بثمن ، أم مستودع لجمع نفايات البلدية وقمامتها ؟

باختصار ، الاهمال يطالعك كيفما هربت حتّى ولو هربت إلى قلعة أثرية عمرها حوالي ٣٠٠٠ سنة ... يدوي انفجار . يقول دليلنا دون أن يرف له جفن لكثّرة ما سمعها حتّى ألفها : لا تخافوا . هذه طائرة اسرائيلية تقوم بروتينها في اختّراق جدار الصوت . لا نخاف . نغضب . نخرج إلى سطح القلعة ... البحر في القاع ، ثم تلك الجزيرة الساحرة الجمال موقعاً ومنظراً ... وفكرت ... الطيور التي تقف هناك على الجزيرة تستمتع بالمنظر أكثر منا ... انها ترى صيدا والساحل بأكمله في بانوراما من الجمال الطبيعي والتّراث الانساني ...

الارانب في تلك الجزيرة لا بد وانها تتأمل صيدا الآن بعيونها الكبيرة المذهولة ، وتعجب بمآذنها وقبابها وقلاعها وقرميدها وبيوتها التي تتسلق حافة البحر كما في مدينة البندقية .. واكتفيت بحسد الارانب والطيور في تلك الجزيرة المسحورة ، القريبة البعيدة . يقول عنها أحمد . ق (لهذه الجزيرة قيمة أثرية .. كانت أصلاً المرفأ الفينيقي القديم وكانت منذ آلاف السنين متصلة بالبر وهي الان « الزيرة » التي يسبح اليها الاولاد منشدين : عومها يا ريس) .

نغادر القلعة ونخلّف وراءنا ذكريات الفينيقيين،وريتشارد قلب الاسد وصلاح الدين والاتراك وكل الذين تعاقبوا عليها من الفاتحين،وفي مدخلها نرى جثث الاعمدة الغرانيتية التي جاءت إلى هنا على المراكب العتيقة منذ آلاف السنين (من أسوان) ، ممددة إلى جانب جثث المدافع التركية الصدئة ، وفي فوهة أحدها قذيفة لم تنطلق . جثث الاعمدة وجثث المدافع في مقبرة واحدة (في مقبرة الزمن يستوي المدفع والعمود) ، ونذهب لنلملم أفكارنا في استراحة صيدا .

وعلى الشاطىء المواجه ، تعود « الزيرة » فتخطف انتباهي ... لا ريب ان منظر الشاطىء هنا ساحر من هناك ... واكتفي بحسد الارانب والنوارس في تلك الجزيرة ...

ولكن ابن صيدا مصطفى . ك لا يكتفي مثلي بحسدها ، بل لديه مشروع عملي للجزيرة ... مشروع موضوع في سلة المهملات كبقية مشاريع ابناء صيدا المنسية ...

مشروع يشتعل

قال لي : لا يجوز أن نكتفي بحسد النوارس . هذه الجزيرة يمكن أن تتحول إلى موقع سياحي من الدرجة الاولى ... نستطيع مد تلفريك من القلعة اليها أو من شاطىء فندق صيدون (المقفل) اليها ... يستعمل التلفريك شتاء ولمن يرغب صيفاً ، كما تسير قوارب في الدرب اليها .. الرحلة لا تستغرق أكثر من ٥–١٠ دقائق . وهناك يقام مقصف سياحي في الميناء الفينيقي القديم ... ويشاد مركز سياحي ساحر المنظر وغني بقيمته التاريخية .. منذ ١٣ سنة وهذا المشروع يشتعل داخل رأسي ... بل منذ كنت طفلاً أذهب إلى الجزيرة سباحة... ومنذ ان امتلأ قلبي رغبة في خدمة مدينتي صيدا .. وقد حدثت الزميل عزت . ص فتحمس للمشروع مثل حماسك منذ أكثر من عشر سنوات وكتبت وكتب حوله ... ولكن ...

قلت : ولماذا لا تنفذه ؟ النقود ؟

قال : بل ان أية شركة تتمنى تلزيمها بالمشروع .. أعرف أكثر من شركة يابانية على استعداد لتحقيقه ..

سألت : ولماذا لا تحققونه ؟

قال : يلزمنا الإذن من الدولة !

واردت ان أقول : الدولة لا تعمل ولا تسمح لأحد بالعمل . . .

لكنني لم أتابع عبارتي فقد تعلقت نظراتي بمشهد حزين .. كانت هناك بطة بيضاء وحيدة شريدة تسبح في منتصف الطريق ذاهبة اليها ... وتخيلت أسراباً منها تفور وتملأ المكان جمالاً وحيوية ... وقال مصطفى ك . وهو يتأملها : وسأملأ الجزيرة بالبط الابيض وطيور الماء ... وبدأنا نحلم فالحلم ما زال مجانياً ومطلق السراح . (في شتاوفن بألمانيا بحيرة للبجع ولكل بجعة تذكرة هوية وميلاد ومن يقتل واحدة منها يحكم بالسجن) . وانطلقت رصاصة ما ، أصابت البطة ، وانفقأت بالونات الحلم في رؤوسنا ...

مشاريع .. ولكن

مصطفى . ك واحد من أبناء صيدا الذين يتحدثون عن مشاريعهم والغصة في حناجرهم . حدثني كثيرون مثله ... هنالك أفكار . هنالك امكانيات . بالمقابل هنالك اهمال . هنالك لامبالاة مطلقة . والنتيجة : قهر ..

ومدينة تغلب على مظاهر اهلها في الشوارع رقة الحال ، بل الفقر ... والقهر..

ولكنها ليست مدينة مستسلمة .. وجدران صيدا بأكملها شبيهة بجريدة حائط ثورية شاسعة ... وتقرأ كتابات الجدران :

الغلاء نتيجة حكم التجار .

فساد + رشوة + ضرائب + غلاء = حكم التجار .

لتسقط الاساليب الفاسدة التي تمارسها السلطة .

الماء أغلى من البنزين في بلد الينابيع .

كلمة انسحاب غير موجودة في القاموس الناصري .

التجزئة = الهزيمة . الوحدة = الانتصار .

مثات من كتابات الجدران تمثل مختلف الاتجاهات لكنها تتفق على شيء واحد : هو ثورة المحرومين على نظام غير عادل !... وثورة صيدا، المهملة في دولة المدينة الواحدة بيروت ..

ونلحظ في « جريدة الحائط » بعيداً كثرة الشعارات التي تتحدث عن فلسطين ، وهذا أمر طبيعي اذا عرفنا أن نكبة فلسطين كانت في الوقت نفسه نكبة لصيدا وصور ... فقد كانت صيدا تقع على الطريق إلى حيفا ومصر ، وكانت ممراً تجارياً مزدهراً ومحطة سياحية هامة وكان ممكناً ان تصير مرفأ عصرياً هاماً ... ولكن ... ها هي اليوم تقع على طريق مسدودة ، دونما أي انماء عمراني ...

انمصالح الجماهير في صيدا متلاحمة مع القضايا العربية الكبرى، وبعض أهلها الغارقين في اهمال الدولة يكادون يصيرون لاجئين في بيوتهم ووطنهم وبحرهم وزوارقهم ! .. بل ان كفاءاتهم بدأت بالهجرة فعلاً .. وحتى متاحفهم ! ..

المتحف المهاجر

ها هو مصطفى السن في طريقه إلى الهجرة ، حاملاً معه قلاعه وقصوره وعالمه المسحور ... ولكن من هو مصطفى السن ؟ ...

وأنت تتجول في صيدا الحديثة وساحتها تقرأ لافتة : متحف السن .

تدخل ، وتلتقي بعالم جميل وعجيب .. وبقصة موهبة من نوع خاص ...

مصطفى السن هو ابن محمد السن الذي كان من أبرع الذين يصنعون السفن في صيدا . وحين مات ترك لابنه مصطفى (كان عمره يومئذ ١٨ سنة) وصية غريبة يقول فيها « أتمنى أن أرى هذه التصاميم التي وضعتها في آخر عمري لهذه القلاع والسفن تحولت على يديك إلى نماذج مصغرة » ...

وهكذا كان ... لكن الوصية كلفت مصطفى السن ٤٠ سنة من عمره و ١٨٠ ألف ليرة لمواد أولية .. والنتيجة ؟ قاعة تخطف القلب ، فيها قلعة صيدا وقواربها الفينيقية ، وفيها مسجد الصخرة ، وقصر الامير فخر الدين المعني ، وقلعة الشقيف وقلعة صيدا البرية وهيكل احيرام بصور وجامع السلطان سليم في استانبول، والكعبة الشريفة ، وحصن الاكراد بسورية (٣٥٦٠٠٠ حجر) .. واذا علمنا أن كل نموذج

مصغر من هذه النماذج يضم من القطع الخشبية ما تضمه تلك الابنية الاصلية ، عرفنا أية دراسة تاريخية تتطلبها صناعة النماذج تلك وأي صبر وأية مهارة حرفية .. وحين يضيء النور داخل تلك القصور والجوامع وتضع عينك على النافذة متلصصاً على قاعاتها ، يداخلك الشعور بأنك عملاق ضخم يتلصص على المكان الاصلي نفسه في عصور ماضية... وكما أن (أليس) صغر حجمها عشرات المرات حين دخلت بلاد العجائب ، فقد حدث لك الشيء ذاته مع فارق بسيط هو ان جسدك تضاعف حجمه عشرات المرات .. فالنماذج مصنوعة بدقة وأمانة مذهلة ... وبقليل من الخيال تستطيع أن تسمع صوت معركة بحرية حين يحرك مصطفى السن نموذج المنجنيق ويرشق القلعة بالحصى كما فعل العرب حين استولوا عليها ..

وقد صنع نموذجاً لقصر الاليزيه وجاءته رسالة شكر من الرئيس الفرنسي الراحل بومبيدو ، ورسالة دعوة له ولمتحفه للاقامة على ضفاف السين ... لكنه فضل ضفاف صيدا بلده رغم قسوتها عليه .. انه يتحدث بمرارة ! لن أذهب إلى بلد غربي ، ولكنني سأهاجر ومتحفي إلى وطن عربي .. تعبت من الاهمال الذي أواجهه . كل ما منحه لي المسؤولون في هذا البلد هو عبارة : يعطيك العافية — الله يديمك — البلاد لا تقوم الا على يد أمثالك ... وقد ذهبت ذات صباح إلى الفران واشتريت خبزاً ورددت عليه العبارات نفسها فصرخ بي : أين الليرة ثمن الخبز ؟ ..

أنا حزين لأن هذا الغني سيخرج من لبنان . هذا الكنز الهارب سيمضي .. ولكن ، أريد ان أعيش ... و لم يتركوا لي الخيار ! ...

كلهم يردد الشيء ذاته بمرارة تتفاوت بين طعم الماء المالح وطعم الدم المالح . نغادر عالمه المسحور وأمنياته المحطمة على صخور الواقع ، وعلى الرصيف المقابل نقرأ لافتات باعة (الحلويات) التي اشتهرت بها صيدا في لبنان كلها (صيدا تطعم لبنان الحلويات ولبنان يطعمها المر !) ...

لا متحف في صيدا . لا مسرح . لا حديقة عامة (مررت بما ظننته حديقة عامة جميلة وفوجئت بأنها مقبرة الفرنسيين !) ... لا مشاريع . لا رعاية . لا . لا . لا ...

قهوة الأربعين .. مسروقاً !

زواريب صيدا التي تنفتح فجأة على البحر تذكرني باللاذقية . نتجه إلى قهوة

الاربعين الشعبية . (لماذا قهوة الاربعين ؟ هل يقصدون الاربعين حرامي في أسطورة علي بابا ؟) .. ونصل إلى المقهى .. ونظرة سريعة إلى رواده تؤكد أنها قهوة الاربعين مسروقاً لا سارقاً ! .. كلهم من الطبقات الشعبية ... وصاحبها حسين . ص لا يعرف لماذا اسمها قهوة الاربعين . لقد ورث الاسم . لم أقل له : انها قهوة الاربعين مسروقاً .

كان المكان بمثابة ناد اجتماعي للطبقة الكادحة ، وقد جلس رواده يلعبون الورق في همس شبيه بهدوء النحل . ولم يبد أن أحدهم يأتي إلى المقهى لجمال موقعه ، فقد كانت الطاولات الملاصقة للنوافذ فارغة تماماً ... والمقهى على رأس تلة بين القلعة البرية والبحر .. والتلة تشرف على البحر ، وعلى جزء من الشاطىء تروى عنه أساطير شعبية كثيرة ...

وحدثوني عن الذهب المكوم على الشاطىء الذي كان يخرج لهم حين ينخلون الرمال ، بعد أن ينقلها العمال بالسكة من رمل حفريات القلعة البرية .. وكانت تخرج لهم قطع نقدية ذهبية أثرية و (سحاتيت) ، وحدثوني عن المغاور بين نهر القملة ونهر البرغوت (الاسماء المحلية لنهر الاولي ونهر سينيق في صيدا !) ... في حكاياهم الشعبية كان في المغاور ذهب،شاهدوه أطفالاً ، فمن سرق ذهب صيدا ؟ ويتحدثون عن غول كان يبيت في المغاور فيخشونه ولا يمسون ذهبهم ... من هو الغول الذي سرق ذهب صيدا ؟ ..

النساء لا يدخلن هذا المقهى . ربما كنت زبونته الوحيدة ، لكنه أكرمني بالقهوة على الطريقة الصيداوية ، حيث يأتون بالفنجان مليئاً بالماء الساخن لتنظف أطرافه من الشفاه التي سبقتك اليه ، هذا اذا كنت موسوساً مثلي ...

لا ذهب .. ولا ماء !

نتجول في بساتين صيدا ... رغم الاهمال الرسمي ما تزال الخضرة تتفجر وتنمو تحت الشمس الساطعة وتكاد تتلاحم والبحر في بعض المواضع ... هنا كان حي القناية (أي القناة) . القناة جفّت وصوت الماء قد خرس . ويقول مرافقي ابن صيدا : حين كنت صغيراً ، كنت اسمع خرير الماء .. أين ذهب الماء ؟ في عين قانا ٣٦٦ نبع ماء « على مدار السنة » أي لكل يوم في العام « نبع » ماء ... صار الماء هنا أغلى من البنزين... صرنا نضطر أحياناً لشراء المياه المعبأة في الزجاجة، وثمن زجاجة بنزين تعادلها في الحجم أرخص ثمناً من ثمن الماء ! ...

أسطورة الأوتوستراد

تغادر صيدا محملاً بقصص الاهمال والحرمان ... والدرب إلى بيروت لا تسمح لك بأن تنسى ، فهي ضيقة وسيئة ، وتتذكر كلاماً كثيراً سمعته حول انشاء أوتوستراد إلى صيدا ... وتكاد تتدهور عند منعطف وقد حشرتك شاحنة في الطريق الضيقة إلى حد غير قانونية (هنالك شركات تأمين أوروبية ترفض التأمين للسيارات في طرقات كهذه) .. وتترنم بحكاية الاوتوستراد ... لكنك تعرف أيضاً أنها أسطورة كبقية مشاريع صيدا الانمائية ... أسطورة للتخدير ... ولكن حتام نستطيع الاستمرار في تخدير المدن المقهورة ؟! ..

١٩ / ٥ / ١٩٧٥

زحلة : عروس البقاع أم أرملته ؟

الشمس مشرقة كدعوة للفرح ...

وصباح ربيعي جميل ، وكأن كل ما في الطبيعة قد أعد خصيصاً لتزور مدينة جديدة ... وكنا في طريقنا إلى زحلة الملقبة بعروس البقاع ، والربيع قد أمطر الحقول بزهوره الصفراء الكثيفة، وخضرة الغابات في الدرب إلى عاليه وصوفر تفور بغزارة في عينيك، وتشتعل نظراتك بالحماس والشهية إلى الحياة والفرح ... والاكتشاف . وفي المذياع أغنية حنون . تسكته وتغني صامتاً أغنية قلبك الخرساء . وتغرق في بحر من جمال لبنان الطبيعي ، ثم تستيقظ على صراخ في السيارة : لقد تجاوزتِ حاجزاً من دون ان تتوقفي !

وأرى فوهات الرشاشات مصوبة نحونا ، والثياب العسكرية ، والجنود ، وآلات الموت ...

وأتوقف .

ويتوقف شريان الفرح عن النبض في جسدي ، وتجف منه بهجة الربيع وشهية الحياة البسيطة الطبيعية التي يعيشها الارنب والقط والفأر والقنفذ ويحرم منها الانسان في بلادي .

نحن الآن في ضهر البيدر والشاحنات تتسابق إلى الموت مصرة على خطفنا معها . ونتسلل من بينها بحذر بهلوان يمشي على الحبال ، وننجو .

لا نزال ننحدر نحو سهل البقاع . تنشق عنه الجبال كما تنشق عن المعجزة . وسهل البقاع كان ذات يوم معجزة في العمل والانتاج . كان منذ ألفي سنة يمد الامبراطورية الرومانية بأكملها بالقمح والخصب والثراء ، وكان قمحه يطعم ١٢ مليوناً من البشر ، وكان السهل يلقب بـ « اهراءات روما » . تراه اليوم « اهراءات البلاد العربية » ؟! .

هذا السهل الجميل الشاسع ما حاله اليوم؟هكذا تتساءل كلما مررت به عاماً بعد عام متمنياً تبدل الحال نحو الافضل .. ولكن ! .. يقول لي مزارع صديق : سيدتي ، نحن اليوم نستورد القمح . لقد تحول السهل المنتج الغني إلى مستهلك مستورد .

(هذا الذي تخلينا عن عطاياه وبنينا عوضاً عنه اهراءات على مرفأ بيروت نستقبل فيها قمح الغرب ليستقبل معها شعبنا تلاعب التجار والمحتكرين) . وزحلة عروس البقاع ، تراها اليوم عروسه أم أرملته ؟!

نحن الآن في شتورة .

انطوانيت . خ ، الموظفة في مطعم عقل في شتورة ، توهج وجهها بالحلم حين سمعت انني في طريقي إلى زحلة وقالت : اذهبي إلى وادي البردوني . انه ليس جميلاً فحسب بل تروى عنه الاساطير ، ومنها أن كل من تذهب اليه مع حبيبها في أول الربيع تتزوجه في الصيف .

قلت لها : أنا ذاهبة في رحلة أريد أن تنتهي بي إلى المطبعة لا إلى الكاهن !

ولكنها كانت جادة في الايمان بدور زحلة كخاطبة مثالية ... وكنت أفكر في دور آخر تماماً لزحلة .

المرأة العارية ، لمن !

تستقبلك زحلة بتمثال لامرأة عارية اغريقية الجسد يبدو وكأنه رمز لربة الخمرة ، التي اشتهرت المنطقة بعنبها . وتتساءل : من هذه (المغتربة) ؟ ولمن التمثال ؟ تسأل التمثال فلا يجيب . تسأل قاعدته فلا تجد عليها كتابة . تسأل موظف البلدية الذي يغسله فتبدو على وجهه الدهشة كأنه يلحظه للمرة الاولى ! تسأل صاحب دكان الازهار المواجه للتمثال عند مدخل زحلة فيقول لك انه لا يعرف ويقترح عليك الذهاب إلى كازينو (...) للسؤال عنه ! تسأل سائق التاكسي وموقفه مواجه للتمثال لكنه لا يعرف . تسأل بائع اطارات السيارات على الرصيف الآخر وأيضاً لا يعرف . وهنا تتساءل : اذا كان التمثال غريباً إلى هذا الحد عن أهل زحلة ، وإلى حد انه لم يثر فضول أحد للسؤال عن هويته الحقيقية ، فما مبرر وجوده فيها ؟ ولماذا يكون رمز البلدة دخيلاً على اللاوعي الفني والخلفية الثقافية والانسانية لابنائها ؟ هذا الاغتراب الفني مضحك . استيراد الاساطير لخلق وهم الرقي العربي إرضاءً للسياح فاشل دوماً

حتى على صعيد التماثيل ! (الجميع مثلا في زحلة يعرفون تمثال يوسف بك البريدي لانه جزء حقيقي من ماضيهم وحياتهم وليس أسطورة غربية مستوردة إلى أرض عربية) . ان تمثال المرأة العارية هذا، يجعلنا نشعر امامه بالغربة . نشعر انه أرغم على الوقوف هنا ولم ينبت من تربة زحلة ، ولا يمثل عقلية أهلها المحافظة ، ترمقها النساء الرائحات الغاديات باستنكار ما ، تماماً كما رمقني الرجال المحافظون بنظرات مستنكرة حين دخلت إلى مقهاهم وطلبت تدخين (نفس اركيلة) نارجيلة !

تتابع طريقك في الدرب الرئيسية لزحلة ... شارع نظيف ومشمس ، ودكان بائع الازهار في مدخله يوحي اليك بمدينة أيامها ورود .

في البداية ، سترى في زحلة مدينة عصرية المظهر ، فيها مقاهي أرصفة و « دراغ ستور » و « فليبرز » ودكان « فيش اند شيبس » وصور زعماء . مدينة في غاية النظافة والاناقة ، فيها الخضرة والماء والخلق الحسن ، والمتجسد في لطف أهلها ورقتهم مع الغرباء .

وإلى يسار مدخلها ، فوق تل ساحر الموقع ، أبنية نظيفة صغيرة تبدو كبيوت شعبية حلوة (اكتشفت فيما بعد انها مقبرة !)

وجولة في المدينة بعيداً عن شارعها السياحي يطلعك على طابعها الفلورنسي المرتفعات (كما في فلورنسا في ايطاليا) . ولكن ، تعال نقرب وجهنا من الصورة قليلاً وسنجد مجرد بلدة عربية أخرى بأمراضها وأحزانها .

العذراء تستحق تمثالاً أفضل !

حين تصل إلى تمثال العذراء في أعلى التل الذي يشرف على زحلة والبقاع ، تنبسط لعينيك المدينة مثل وشم في حضن الوادي ، بقرميدها الجميل الاحمر وبيوتها الاصيلة الطابع والاشجار التي تمتد أصابعها الخضر بين البيوت وتشبكها في استرخاء وحنان ... وتتذكر مشاهد أخرى كثيرة مشابهة فيبدو المشهد أليفاً ويثير في نفسك الرغبة في مد يديك إلى وجه المدينة وتقريبها من وجهك ، وتقبيلها . وكل المدن تبدو من بعيد في الشمس جميلة وأليفة وسعيدة ، ولكن من بعيد ... من بعيد .

وتأملت تمثال العذراء في أعلى البرج المشرف على البقاع . تأملته بعين العاشق

للفن وللجمال بعيداً عن أي اعتبارات أخرى ، وشعرت بالاسف والحزن من أجل الفن في بلدي .

ففي فلورنسا يتوسط الساحة التي تشرف على المدينة تمثال من صنع المثّال العبقري مايكل انجلو هو تمثال دافيد (النبي داوود) .

أما هذا التمثال فلا أدري من الذي صنعه ، ولا أدري ما اذا كانت القاعدة البشعة هي سبب فشله، ولكن المثال اعتمد على الرمز الديني العظيم الذي تمثله العذراء. من دون أن يزاوج عظمتها بعظمة فنيـــة من مستواها ، فجاء التمثال دون الرمز... ولعل قاعدة التمثال أساءت اليه ببشاعتها العصرية الطابع التي تشبه علب السردين الفارغة الملصق بعضها ببعض ... أو أن حجم التمثال لا يتناسب وقاعدته وعلوه ، وكان من الضروري أن يكون أكبر حجماً أو ... أو ... المهم أن تمثال العذراء في حريصا (تمثال سيدة لبنان) أكثر جمالا من الناحية الفنية وقاعدته الحجرية الملتفة حوله تخلق الايحاء بأنه نبت من الصخور نفسها وأنه من بعض آيات الطبيعة كالعاصفة والسنديان والجبل ...

المقبرة قبل المستشفى !

نعود لنتسكع في زحلة . نمر بحارة مار الياس . نمر بمستشفى . يقول لي مواطن : « اذا كنت تريدين الصدق سأفتح قلبي لك شرط ألا تكتبي اسمي » .

فأكدت له أنني أفضل الصدق على اسمه ! قال : « هذا المستشفى من خرج منه حياً خرج (مديوناً) بحيث يمرض ثانية ريثما يفي ديونه ! »

— أليس في زحلة مستشفيات أخرى ؟

— نحن في حاجة إلى مزيد من المستشفيات . تصوري ، ليس لدينا سوى مستشفى واحد يتسع لحوالي ٣٠٠ سرير مقابل حوالي ٥٠ ألف شخص هم سكان المدينة !

وتذكرت المساكن الشعبية الجميلة عند مدخل المدينة إلى يسار الطريق وقلت له : « الذي بنى لكم هذه المساكن الشعبية الجميلة في شارعكم الرئيسي فوق التل يستطيع بناء مستشفى ! »

وفاجأني رده : « هذه ليست مساكن شعبية . انها قبور ! انها مقبرة .. مقبرة » .

وذهلت ! كل هذه المقابر الفخمة لمن ؟ ولو تم بناء مستشفى للاحياء عوضاً عن مقبرة للاموات ، أما كان ذلك أجمل وأجدى ؟ ومتى تصير حضارتنا مكرسة لأجل الحياة لا لأجل الموت ؟ لقد شاهدت في عكار بشراً يعيشون في أكواخ من التنك والقصب تأنف منها الدواب ، ومع ذلك ففي الوطن الواحد نفسه ثمة من يبني لموتاه قصوراً بينما الاحياء يعيشون في الخلاء . ومع ذلك تجد من يثرثر عن « الاخوة » في لبنان ! التعايش الطائفي لا يبدو هو المأساة ، بل التعايش الطبقي . لا يستطيع حي في العراء أن يجـــاور ميتاً في قصر من دون أن يشهر خنجره ويشحذ أسنانه ليغرسها ذات يوم في شرفات سكان القصور ذات الابراج ، وربما قبورهم !

على ضفة النسيان

حين تجلس إلى ضفة نهر البردوني ، وأمامك « المازة » الزحلاوية الشهيرة وأطباقها الشهية ، ووراءك بحر من خرير المياه ، وفوقك سماء من خضرة الاشجار ، وبجانبك صاحب الكازينو جان . ع يحدثك عن لبنان كما يراه ، والسياحة ونعيمها ، وزحلة وحسنها ، تحس بأنك في جنة النسيان ، وتكاد تنسى أن في لبنان فقراً وجوعاً وبؤساً وعدواً صهيونياً و ... و ... إلى آخره . واذا تخليت عن همومك العامة إكراماً له وشكوت له همك الخاص ، كأن تقول له : « أنا غريب عن زحلة ... حدثني عن معاملها وزراعتها وعن حالها وارشدني إلى ما تجب مشاهدته فأنا غريب » ، تجده يرد عليك بعذوبة الحواة : « لا غريب في زحلة » ، وبكثير من اللطف يؤكد لك : « صنعة زحلة الاساسية هي اللطف ، ليس لدينا آثار بعلبك أو عنجر ، ولا آبار بترولية ، لكن الناس يأتون الينا » .

وكانت نظراتي تتأمل المكان ... لقد استطاع أهل زحلة أن يصنعوا من هذا النهر المتواضع مكاناً أليفاً كله ذوق ولطف وحسن وفادة . ولقد انتشرت الكازينوهات على ضفتي النهر النحيل ، وها هو شاب يزرع في مجرى الماء مجموعة من النوافير الملونة بحيث يتضاعف احساسك بحضور الماء والخضرة والخلق الحسن ، وها هو عامل آخر يتسلق سلمه ليعلق ستائر زاهية الالوان تحمي الزبائن من تهديدات شمس الربيع بعدوان صيفي — والزبائن الذين يشعرون بالبرد يعيرونهم عباءات عربية من صوف الجمل . ويجلس السائح مبهوراً بكل هذا الكرم والود (في أوروبا لا أحد

يعيرك حتّى ... كفناً !) .

وتريد أن تقول لجان . ع أن وادي مدينته رائع وساحر ، ولكن المشكلة هي انه ليس بالوادي وحده تحيا زحلة ، وانك مشغول بالمأساة الزراعية في البقاع التي يُفترض أن زحلة عاصمتها ، وانك تفكر في مئات الكادحين المتعبين ، والعاملات القادمات مع الفجر من قراهن البعيدة مكدسات في الشاحنات كالدواب — وكما شاهدتهن هذا الصباح — وان ما يقلقك أيضاً هو ظاهرة النزوح من الريف إلى المدن ، وظاهرة هرب اللبناني من علاقة العمل بالارض ، وما يرافقها من أخلاقيات سامية ، إلى ظاهرة العمل بالسمسرة تحت اسماء عصرية منها « السياحة » ، بحيث تتضاءل طموحات الوطن ويضيق أفقه... وتريد أن تقول له أن الفينيقيين أنفسهم لم يكونوا سماسرة ، وانما بناة حضارة وصلوا بقواربهم حتّى إلى أميركا قبل أن يكتشفها كولومبس بعصور ... وتريد أن تقول له أن بشاعة أخلاق السياسيين المحترفين وجشع التجار والمحتكرين جعلا الفرد اللبناني يكفر بالعمل الشريف وهو يرى الثراء العاجل يكلل حياة « اللاأخلاقية » بينما يُكافأ الانسان الشريف بالفقر والثواب والصيت الحسن وكمبيالات الديون ... وتحاول أن تنقل لجان . ع بعض ما يدور في ذهنك ، لكنه يرد عليك بمنظاره الخاص : « هذه مدينة زراعية كبيرة . بطاطا . شمندر . عنب ... كل محاصيلها من الصنف الممتاز . الفلاح الزحلاوي والمجاور لزحلة أفضل حتّى من الفلاح الفرنسي . تسألين عن الصناعة في البقاع ؟ في المنطقة مصانع كثيرة للسكر والورق والعرق وغيرها من الصناعات . نؤسس حالياً معمل « نيوسيراميك » في شتوره . كلفته ١٥ مليون ليرة . ينتج بلاط « بورسلين » فريد النوع في الشرق الاوسط ، رئيس مجلس ادارته جوزيف . غ . ولدينا مشروع لصنع الورق ومشاريع أخرى كثيرة » .

وتتأمل الوادي الساحر حولك ، وتقع نظراتك على حجر تذكاري حيث كان يطيب للشاعر شوقي أن يجلس وينظم أشعاره ... وتقرر ان السياحة ليست « أمراً شريراً » . ثم تدرك أن غيظك مرده إلى أن أكثر الشبان الذين قابلتهم في جولاتك معي في المدن اللبنانية كانوا يعلقون آمالهم كلها على النمو السياحي للبنان وينسون دوره الاساسي كصانع حضارة .

وتقرر أن تسأل جان . ع عن أسباب مأساة البقاع الذي كان يوماً يطعم امبراطورية فصار يستورد . وقبل أن تفعل يتدفق كالشلال : « زحلة هي رائدة

السياحة في العالم العربي . وصناعة السياحة انتقلت من زحلة إلى لبنان والشرق الاوسط . وزحلة كعاصمة زراعية تلعب دوراً هاماً على هذا الصعيد . ففي أحد المؤتمرات العالمية التي عقدت في جنيف (مؤتمر للشؤون الاجتماعية) دعا وزير الشؤون هناك المؤتمرين إلى وليمة لبنانية ، وذهبت لاعداد وليمة لـ ١٢٠٠ شخص وأكل في الوليمة ٢٠٨٠ شخص . اني لا أبالغ . كيف عرفت الرقم ؟ لم أفعل كالمضيف البخيل الذي يحصي ضيوفه ، لكن كان على باب قاعة الاحتفالات عداد كعدادات مداخل المتاحف عرفنا منه الرقم . لدى الغربيين عادة حمل ما يزيد عنهم في أكياس خاصة معدة لذلك ، وقد حمل أكثر من ٦٠٠ إلى ٧٠٠ شخص بعض الطعام الفائض . المادة الخام لهذه الوليمة الشهية حملتها كلها من زحلة . ذهبت في البداية إلى أفخم « سوبر ماركت » عندهم ، فوجدت البندورة ملفوفة بالقطن كالطفل المريض ، والخيار محشواً بالبزر ، والبقدونس بلا نكهة ولا رائحة ... وقررت الاكتفاء الذاتي ، وحملت كل شيء من زحلة : الكرز والمشمش والخيار و ... و ... وحلو الصمدي » !

وتحاول عبثاً أن تجر معك جان . ع إلى حفرة الأحزان العامة . انه يحدثك عن غابة أرز لبنان التي زرعوها في أولمبياد ميونيخ ومديح اذاعة لندن للغذاء الذي أعده ، ولكن ذلك أيضاً لا يريحك . وهو يلحظ أنك غير راض تماماً فيروي لك مجموعة من النكات ويضحك لها أكثر منك ، ثم يلحظ انك غير راض تماماً فيضيّفك قطعة حلوى ... ولكن المرارة تبقى في صدرك ، وتتعاظم حاجتك إلى حوار جاد ومقنع ...

البقاع : خسر الزراعة ولم يربح الصناعة

المزارع موريس . ب ، يحدثني بمرارة ورائحة التراب تغسل كلماته : « أحزاننا كثيرة ومشاكلنا مع الدولة والمحتكرين لا تنتهي ! ففي البقاع معمل سكر واحد لا تملكه الدولة وانما مجموعة أثرياء سيزداد ثراؤهم لأنهم يريدون احتكار الصنف . كان من المفروض ان يدفعوا لنا ١٤ قرشاً ثمناً لكيلو الشمندر ، وهكذا زرعنا أكثر من العادة (من ٧ إلى ٨ آلاف دونم زيادة لهذا العام) ، والآن لا يبدو انهم سيدفعون هذا السعر ، والدولة للأسف تقف على الحياد (أي ضد المزارع مع المحتكر طبعاً — هذا تعليقي أنا لا قول موريس . ب !) المأساة هو انه ليس في البقاع معمل سكر آخر ... نحن نزرع كل عام ٢٠ ألف طن بطاطا ، من الممكن ان نزرع ثلث هذه الكمية ونركز جهودنا على الشمندر خصوصاً وأن لبنان يعاني من أزمة سكر ، ولكن...

شخص آخر حدثني عن اللعبة الخطرة التي مارسها معمل السكر الحالي في البقاع والتي دفعت بالمزارعين الصغار إلى الكفر بهذه الزراعة بعد أن كبدتهم خسائر فادحة ، وكيف هي مهددة بالتراجع والتدني بدلاً من استصلاح المزيد من الاراضي ومساعدة المزارع على مزيد من الانتاج بدلاً من تقليله لمصلحة المحتكرين المصرين على معمل واحد للسكر وليأكل أبناء لبنان العلقم بدل السكر ! فمعمل سكر لبنان يشتري الأراضي ويحول المزارعين الى اجراء في أرضهم ! ان أهم أسباب أزمة البقاع هي احتمال اضمحلال زراعة الشمندر ، فهناك ١٠٠ ألف دونم صالحة لهذه الزراعة ، واستصلاح المزيد ممكن ، لكن الشركة المحتكرة استطاعت « تطفيش » المزارع ، محتمية بقناع قانوني هو « عجز المزارع عن القيام بمتطلبات هذه الزراعة » ، وبالتالي تضاءل الانتاج مما أعطى أصحاب المعمل حجة في رفض قيام معمل ثان في المنطقة .

المحتكر يأكل الفلاح

شكاوى موريس . ب أقل حدة من شكوى سواه واتهاماتهم . واذا كان هو يكتفي بان يقول باعتدال : « من مصلحتنا نشوء معمل ثان للسكر يضيف إلى مكاسبنا ... وزيادة الخير خير». واذا كان يكتفي بالتنبيه إلى أن أزمة مزارع الدواجن مقبلة (الدول العربية حولنا كسورية تشجع المزارع باعطائه ٥٠ في المئة من الكلفة أما هنا فالدولة ترهقه ، وقد بدأ بعضهم بنقل أعماله إلى خارج لبنان أمثال عزيز . و وموسى . ف) ، فان بقية الذين قابلتهم من المزارعين كانوا أكثر عنفاً في هجومهم وأكثر غضباً .

قال لي مزارع رجاني عدم ذكر اسمه (وها أنا أبر بوعدي له) : « المزارع في البقاع فريسة للاحتكارات والدولة لا تقف على الحياد بل تتواطأ مع أصحاب الرساميل الكبيرة ... محافظة البقاع اليوم تعيش في عصر الاقطاع ... يملك أكثر أراضيهم الجيدة عدد من الاثرياء يعدون على الاصابع » .

وقد عدهم قبل ان يحدثني عن مأساة « التعاونيات » في البقاع . لديهم ثلاث تعاونيات : للشمندر والبطاطا والبيض ، وكل واحدة يرأسها مليونير (!) ما عدا تعاونية البيض التي يديرها جوزف . أ وقد وصفوه بانه آدمي وابن حلال ولذا فهو مديون كالجميع ! والحديث عن تعاونيات الشمندر والبطاطا يثير فضائح كثيرة وتساؤلات منها : ما سر ارتفاع أثمان الاسمدة أكثر من الضعف ؟ ولماذا يحدد

رئيس احدى التعاونيات السعر انطلاقاً من كونه مليونيراً ورئيساً ومستورداً !!

ودهشت من هذه التعاونيات التي تبدو الحكايات عنها أشبه بالحكايات عن الشركات الرأسمالية . وحين عدت إلى القانون اللبناني بشأن « التعاونيات » دهشت من التعاونية على الطريقة اللبنانية ، اذ ليس لكل مزارع صوت بغض النظر عن مساحة أرضه ، بل أن عدد الاصوات يتناسب مع مساحة الارض ! وهكذا نرى ان اطلاق اسم التعاونية خاطىء لانها ليست أكثر من محاولة لإلباس النظام الاحتكاري اللبناني ثوباً عصرياً ، أو إلباس القاتل ثوب القاضي ، وهكذا يتوهم الناس أن لديهم تعاونيات فيتخدرون ، في الوقت ذاته يكتسب الاقطاعي قناعاً عصرياً تقدمياً شرعياً ! .

قال لي فلاح صغير تتقلص أرضه عاماً بعد عام وهو مضطر إلى بيعها كلها والعمل فيها كأجير تحت ثقل الديون وألاعيب المؤسسات الاحتكارية : « مأساة البقاع ، في اختصار ، هي أن القوي فيها يأكل الضعيف . مأساته هي أن شريعة الغاب تسود في هذا الوادي الجميل وان كانت تحمل أسماء عصرية (كالتعاونيات) » !

ولعل لبنان هو البلد الوحيد الذي يرأس تعاونياته أصحاب الملايين !

« ما حدا راضي » هو عنوان المسرحية التي تقدمها فرقة مسرح القلعة في قب الياس . هذا ما تقوله الاعلانات الملصقة على الجدران في شوارع زحلة .

ولكن « ما حدا راضي » هو عنوان المسرحية التي تدور في البقاع بأكمله .

قال لي أحدهم (وأيضاً رجاني عدم ذكر اسمه) : مشاكلنا الزراعية لا تنتهي . لدينا مآس في تربية المواشي . العلف غالي الثمن والحليب رخيص . لا حماية وطنية . يستوردون الحليب من الخارج بدلا من انشاء معمل محلي . التجار الكبار يأكلون الصغار في كل شيء . يشترون كيلو الحليب منا بـ ٦٠ قرشاً ويصنعونه جبنة ويبيعونه بـ ٥ ليرات أو لبنة بـ ٣ ليرات . اللحم يستوردونه من تركيا بدلا من مساعدة صغار المزارعين أمثالي وتنشيطهم وحل مشكلاتهم . كيلو لحم الغنم يبيعونه بـ ١٥ ليرة ، أي أن أي شخص شريف راتبه بين ٥٠٠ — ٦٠٠ ليرة لا يقدر على أكل اللحم أكثر من مرة في الاسبوع الا اذا سرق أو غش أو هجر الزراعة وصار « زلمة » لأحد البكوات !

الشكاوى على كل صعيد حتى سائق التاكسي هناك له شكوى . فأرقام السيارات العامة ايضاً ساقطة تحت احتكار مجموعة من التجار الحلبيين . وعلى السائق الشريف ان يقضي بقية حياته في وفاء ديونه وفوائدها ، أما في سورية نفسها فالدولة هي التي

تتولى هذا الامر باسعار معقولة بحيث يستطيع المواطن ان يعمل بشرف . والحل . مخالفة القانون والعمل كتاكسي على سيارات لوحاتها « خصوصية » !

قال لي محمد . أ – سائق تاكسي – بحسرة : « لقد عملت عشرة اعوام سائقاً وخرجت مديوناً بسبب مأساتي مع ثمن اللوحة العمومية » .

الوحيد الذي لم يشكُ وانما امتدح هو فاضل .أ .ج (الملقب مارون) الذي امتدح بلدية تربل وانجازاتها ، وحين سألته عن عمله قال : « شرطي بلدية في تربل » !

قاع الريم المسحورة

حين تتجول حول زحلة يذهلك جمال الطبيعة وثرواتها المخزونة في انتظار من ينقذها : قاع الريم ومياهها المتفجرة وشلالاتها الساحرة مثل أسهم فضية في صدر الجبل وأطفالها يسرحون حفاة الاقدام . بدنايل . تمنين الفوقا والتحتا . نيحا ومعابدها الرومانية الاثرية (كنت أتأملها حين سمعت صوت اطلاق رصاص احتفالي . كم يبدو هذا الصوت هشاً وهزلياً في هياكل التاريخ)! كسارة . حوش الامراء. مجدل عنجر... عشرات الاسماء حول زحلة ، وعشرات الاسماء في البقاع أمامها : بر الياس . دير طحنيش . كفر زبد . المرج . الاسطبل . القرعون . اسماء متعددة لحقيقة واحدة هي : « قرية الاقطاع » حيث ثروة طبيعية مهدورة ، وبشر مسحوقون ، ودولة لامبالية وشبه متواطئة ، وفضائح وماض عظيم وحاضر هزيل !

يحدثونك فيها عن الهجرة كحلم !

والحلم خبز المعدمين .

وتعود إلى زحلة . عند مدخلها يضحك من جديد منظر التمثال الاغريقي الممتلىء عافية كعروس،والشمل بنشوة الحياة . تحسه تزويراً لحقيقة ما حوله . ترى بدلاً من العروس أرملة ، تعزف على الناي لا الغيتار لحناً جنائزياً حزيناً . ويخيل اليك ان ورود البائع المجاورة أكاليل موت . وتمر بالعدلية فتلحظ ان نوافذها كلها مغلقة كآذان المسؤولين . والكل يشكو ، حتى بائع « الانتيكا » والتحف عند مدخل الوادي يشكو من الحزازات الحزبية ومن انقراض عيد الزهور في زحلة وانتقاله إلى مناطق أخرى .

أب مزارع يشكو لي هجرة ابنائه من الحقل للعمل في بيروت . وهو ؟ تعب . وقرر بيع الارض واللحاق بهم ليعمل « كونسييرج » – موظف استقبال – في بناية ما يشيدها ثري ما – ربما كان أحد اقطاعيي هذا الوادي !

١٢ / ٥ / ١٩٧٥

بعلبك : ليس بالقلعة وحدها تحيا المدن !

الربيع تنهيدة عنفوان يطلقها صدر الطبيعة .

والدرب بين زحلة وبعلبك ساحرة التنهدات . ينبسط سهل البقاع أمامك والمدى . وتفتح لك الارض الحمراء الخصبة ذراعيها بكل ما في الخضرة من حنان ووعود ويدوي انفجار : انها الطائرات الاسرائيلية تمارس روتينها في اختراق جدار الصوت . انه تهديد يومي بسرقة أمنّا الارض ... كل هذه السهول الخصبة والارض الثمينة تذكرنا اسرائيل يومياً برغبتها في اختطافها ، ونحن لا نفعل شيئاً غير أن نقفز رعباً كلما سمعنا الصوت ثم نطمئن بعضنا : « لا شيء ... انها الطائرات الاسرائيلية !! »

نتابع دربنا والجبال تواكبنا على طرفي السهل ، وفي ذراها ما زالت بقايا ثلج الشتاء الماضي والحكايا المنسية في دروبه . وها هو الثلج يذوب ... والحكايا. سورية على مرمى جبل . (على مرمى حلم . على مرمى صرخة . على مرمى شهقة حب . على مرمى دمعة . آه ، سورية ، يا أمي العظيمة ، الاقرب الي من جلدي أنّى كنتُ !)

تدريجاً تتضاءل جزر الخضرة وتتبدى ملامح البادية العربية ونحن نمعن اقتراباً من بعلبك . ها هي بيوت الشعر المنصوبة على الافق ، والخيام متفرقة في المدى الصحراوي الشاسع... وها هو جمل متوقف قرب سيارة « فولكسفاكن » صغيرة وبجانبها دائرة من الاعمدة الاثرية ، والمشهد يلخص الحكاية بأكملها ! وها هي أسلاك الهاتف تمزق رتابة البادية برتابة معدنية ، وتبدو موحشة ومقفرة وبلا حنان اذ لا طيور تقف عليها . لقد اصطادوا الطيور كلها وأكلوها ! تمر بنا سيارة تحمل رجالا بالعقال البعلبكي الجميل ، والخرفان تركض في الصحراء المضيئة ، والراعي كسول المشية لا يعزف على نايه التقليدي وانما اكتفى بعصا رمزية دلالة على السلطة ، وكلبه هزيل ومتعب . (يخيل الي ان الاغنام ستنقض عليه فجأة وتأكله ، تأكل الراعي الكسول .

ليت ذلك يحدث ولو مرة واحدة ، وللقطعان البشرية أيضاً !) .

وبعلبك تبدو قريبة ، حلوة كسراب، غامضة كتعويذة . وإلى يسار الدرب مقبرة للسيارات ... سيارات كثيرة مهشمة لم يبق منها الا هياكل صدئة . حزين منظر جثثها وبشع ، والريح تدور وسط حطامها ثم تنطلق اليك حاملة معها صرخات الذين قتلوا فيها ، والذين ضحكوا فيها وناموا وشكوا وهمسوا فيها ... وكل ما تبقى هو الحطام . وتتمنى لو أن مقبرة السيارات هذه لا تكون قريبة هكذا من مدخل بعلبك ، حاملة اليك حزناً معدنياً ثقيلاً خالياً من الايحاءات الشفافة ! . وتتساءل : لماذا مدينة التاريخ المسحورة مظلومة إلى حد أن أول الدرب اليها مقبرة معاصرة بشعة ؟! وتتلاشى المقبرة وتنسى منظرها بسرعة وأنت تتأمل سوقاً للاغنام إلى يسار الدرب . ويبدو لك المشهد وكأنه طالع من أحشاء التاريخ وحكايا العرب القديمة . وتفكر : ربما عاش قيس وليلى في مكان كهذا ! وتأتي سيارة « لاندروفر» ، كبيرة تزعق ببوقها فتتراكض الاغنام حولها هاربة وتتراكض أحلامك هاربة وتنفقىء فقاعاتها ... وتكون قد وصلت إلى بعلبك .

جمال عبد الناصر ... يستقبل !

بيده المرفوعة يستقبلنا تمثال جمال عبد الناصر عند مدخل المدينة . تهمس له عدة كلمات ويخيل اليك أنه يسمعك ويبتسم . تدخل بعلبك وتتساءل : من أين أبدأ ؟ وكالمسحور تجد نفسك ذاهباً إلى القلعة، كأن عتقها التاريخي وحكاياها السرية حقل مغناطيسي يتنامى مع الزمن ويجذبك فلا تملك الا السقوط تحت سطوته . ويبدو ان البلدية اعتمدت سحر القلعة دليلاً للدرب، فلا شارات واضحة ترشد الغريب . واذا اتخذت الطريق المباشرة إلى القلعة صرخ بك المارة : ممنوع المرور ! ويدهشك هذا « المنع الشفهي» ، ولا تجد لافتة « ممنوع المرور » ثم تكتشف انها منزوية كما لو كانت فخاً ، وأنها تحتجب تماماً حين تتوقف أمامها شاحنة كما حدث لنا !

عظمة الماضي وشكوى الحاضر

حين هبطنا من السيارة أمام باب القلعة التف حولنا بعض الشباب البعلبكي يعرضون خدماتهم . مترجم ؟ دليل ؟ كتب للبيع ؟ عقالات ؟ سكاكين ؟ سوط ؟ قفطان ؟ اشتروا شيئاً . ولما قلنا لهم اننا من أهل الصحافة نبيع ولا نشتري ، ونريد

أن نسمع شيئاً عن القلعة ، أسمعونا الكثير عن أهل مدينة القلعة وشكاواهم ، وبدلاً من الحديث عن القلعة القديمة تحدثنا عن الحكومة الحالية !

أصوات كثيرة حاصرتني ... شكاوى كثيرة ... أعلى الاصوات كانت لأحمد.خ يشكو من إهمال الحكم لمدينة بعلبك . يقول أن السياح يأتون يومياً في باصات عديدة لكنهم يمرون بقلعتها مروراً ثم يتم نقلهم إلى شتورة أو غيرها . وهكذا فإن بعلبك نفسها لا تستفيد شيئاً من السائح عابر السبيل ، وبالتالي فالمرافق السياحية في المدينة تعاني من الكساد مثل مقهى رأس العين وفنادق « بالمـسيرا » و « الخوام » و « كازينو بعلبك » و « العجمي » و « ألويت » وغيرها ... والطرقات في بعلبك في حالة رديئة ، والحفر في الشوارع عميقة كالآبار (دونما تنقيب عن البترول !) ، وموجة البطالة شبه متفشية مما يساهم في تصاعد موجة الجرائم وفساد الامن .

وتتوالى الاصوات مؤكدة كلامه . ويقول رفعت . ز : « نريد ضماناً لعملنا كأدلاء » . ويتابع طلال. ب : « وبدلاً من ذلك فهم يضايقوننا ولا يريدون منا أن نمارس عملنا بحجة أننا نزعج السياح ! » .

فارس . ج : « الحكومة ضد الفقير ... لا أحد يهتم بنا » . وأسمع الشكوى نفسها من الاهمال التي سمعتها في طرابلس وصيدا ...

وبعد هذه الاغنية البائسة لكورس الشعب المعاصر أمام مدخل القلعة ، دخلت قلعة المجد القديم مملوءة بالغم . فالاعمدة ليست خبزاً ، والآثار ليست مدارس مجانية ، والحاضر لا يستطيع أن يتغذى بالمجد الغابر فقط ، وليس بالتاريخ وحده يحيا الانسان !

القلعة شاسعة.وعظيمة وتستحق كل ما كتب عنها وسيكتب . كل هذه الاعمدة الشاهقة كيف رفعوها ؟ هذه المعجزة المعمارية التي تعود بقدمها إلى ألفي عام — أم أكثر ؟ — كيف أنجزوها ؟ ولماذا ؟ وتذكرت ما قرأته في كتب صدرت مؤخراً ، منها « مركبة الارباب » من تأليف اريك فون دانيكان ، وكتاب « رجال الفضاء في الشرق القديم » من تأليف ريموند دريك ، وكتاب « ذهب الارباب » وغيرها . فموجة هذه الكتب جميعاً تعتقد بأن بعلبك كانت مطاراً فضائياً لمركبات زارت أرضنا منذ آلاف السنين — في عصور الارض الحجرية — قادمة من كواكب أخرى راقية (كما غزونا نحن القمر منذ أعوام ، ولو كان القمر مسكوناً بأقوام بدائية

لظنوا أننا من أبناء الأرباب ولشادوا المعابد في مكان هبوطنا على كوكبهم — على ذمة الدكاترة المؤلفين !) . طبعاً ليس هنالك ما يكفي لإثبات ذلك ، وفي المقابل ليس هنالك ما ينفي ذلك . وأجيل عيني في ذلك المكان العظيم ، ثم أغمضهما وأعود آلاف السنين إلى الوراء ، وأتخيل عربة فضاء قادمة من كوكب آخر ، حاملة أقوام كواكب أخرى في هذا الكون اللامتناهي ، هابطة في بعلبك ، المطار الفضائي الاول في الكرة الارضية ! ... ترى هل حدث ذلك حقاً ؟! ربما لا ، ومع ذلك فان جواً من الغموض المسحور يلف القلعة بأكملها ، جواً من العتق والريح الراكضة كأشباح حكايا منسية ، حاملة فحيح التهاويل والاسرار .

وارخي نظراتي على الارض خشوعاً ، وارى قافلة من آلاف النمل تسير على تراب القلعة وتعمل ... وأفكر : (هذا مجتمع النمل ، مجتمع من نوع آخر ، لا يبني المعابد ولا يعرف الحروب وله نمط خاص لحياته على كوكبنا ، كله عمل ونظام ... ترى أينا على حق ، النمل أم البشر ؟ . لقد ذهب البشر وجاؤوا وتعاقب على القلعة حكام وأقوام وذهبوا جميعاً وباتت القلعة خراباً ... وبقي النمل !) .

وأتمنى أن أجري حديثاً صحافياً مع نملة ، وأن أطرح عليها بعض الاسئلة . اخترت نملة كبيرة كانت تحمل في فمها قطعة خبز أكبر حجماً منها ، وسألتها : « هل تبنون القلاع مثلنا ؟ ولم لا ؟ » لكنها تابعت عملها من دون أن تجيب ! وتابعت تحديقي في الزخارف البديعة المنحوتة على أفاريز الصخر . وطالعتني بينها صور وجوه مميزة . أصحاب هذه الوجوه كانوا أحياء منذ آلاف السنين . كانت لهم آراء في الحياة والحب والحرب . أين ذهبوا ؟ اقترب لأسأل : ماذا فعلوا حتى استحقوا تخليدهم في الحجر ؟ هذه المرأة ، مثلاً ، هل فعلت شيئاً أكثر من انها كانت صديقة أو زوجة شخص هام ؟ وهذا الرجل ، هل كان امبراطوراً طاغية قتل الآلاف فخلّدوه ؟

أسألهم حكاياهم فتتحرك وجوههم الحجرية ، وتنفتح شفاههم ويردون على أسئلتي ولكن بلغة لا أفهمها . (أم تراه صوت الريح ؟!) .

ها هي سائحة حسناء ترتدي الشورت وتستسلم ساقاها بمتعة لعدسة عدنان ناجي . اقترب منها لاجراء حوار صحافي معها . أخاطبها بالانكليزية وتبدو سعيدة بذلك ، ثم تتذكر شيئاً ما فتتحفظ فجأة وتلتفت إلى الشاب الذي يرافقها وتطلب منه إذناً بالحوار معي ! .. الساقان متحررتان أما الدماغ فلا ! ليس عندنا فحسب بل عندهم ايضاً !

(لعلها تثرثر في بلادها عن « سنة المرأة العالمية » ، كالكثيرات عندنا ، لكنها لا تجرؤ على ابداء رأي حتى في شأن حوار صحافي قبل استئذان ... ذَكَرها !)

وأنت تغادر القلعة في الممر العتيق المسقوف ، يخيل اليك انك جندي روماني نسيه الزمان وخلّفه تائها في قلعة الذكريات . وتركض إلى مرآة السيارة لتتأكد من هويتك . (وقد يطالعك وجه تجهله ولكنه وجهك !) .

بعلبك كنز لامتناه

من الظلم الفادح للتاريخ ولبعلبك التوهم بأن الهياكل الرومانية في القلعة هي وحدها التي تستحق المشاهدة . ففي بعلبك آثار لا تحصى ، قد تكون أقل ضخامة لكنها لا تقل أهمية ودلالة عن القلعة . هنالك آثار في بستان الخان ، واخرى مكتشفة حديثاً جنوبي القلعة وشرقيها وشماليها ، حيث لكل حجر حكاية . وهنالك مساجد بعلبك القديمة ، وبعضها ذو أصل روماني تم تحويله إلى جامع اسلامي كجامع الخربان . من الظلم ان لا نرى غير القلعة وننسى جامع الخربان وجامع رأس العين ومقام الست . ومن التقصير أن ننسى التجول في احياء بعلبك القديمة المبنية من الطين والحجر (والتي خلدها الفنان رفيق شرف في بعض أعماله) ، وهي بيوت فيها الكثير من الخصائص المعمارية القديمة .

في اختصار ، من الظلم لبعلبك ولتاريخنا حمل السياح إلى القلعة لمدة نصف ساعة ثم تهريبهم من المدينة ركضاً إلى مقاصف شتورة وغيرها . بعلبك تستحق من الدولة تنشيط فنادقها القائمة حالياً وبناء أخرى لتستوعب اقامة السياح فيها لمدة تفوق نصف الساعة المخصصة لها عادة : ولا أدري ما الحكمة من مرور السياح ببعلبك كاللصوص ، سريعاً وخلسة ، دونما ترك أي نقود خلفهم – حتى ولا بصمات أصابعهم – ولو تُركوا فيها لعاشوا أياماً رائعة في مناخ عربي تاريخي ومعاصر ، ولقضوا لحظات من الدهشة والسحر ... لكننا نتوهم ان العرق والخمرة والكبة النية والتبولة أهم من تاريخنا كله !

بعلبك العربية

الرجل يقود حماره ويرافقنا إلى بستان الخان لنرى مزيداً من الآثار . وهو لا يكتفي بخدماته المجانية بل يرغمك على سماع محاضرة عن العروبة ضد الانعزالية .

وحين تسأل عن اسمه يقول لك جمعة . س .

ثم تسمع منه دعوة عربية قديمة : « تفضل عندي ... تشرب كأس حليب ... كأس لبن » . وقد تدمع عيناك شوقاً إلى عصور أصالة تتوهم أحياناً انها انقرضت لكنها ما زالت في الحقيقة تتابع وجودها في نفوس البسطاء والكادحين العرب .

بعد بستان الخان ، وطريقه غير المعبدة ، يودعنا جمعة . س آسفاً على فراقنا ، أما حماره فيبدو سعيداً بالتخلص منا فوق ظهره . وأما البلدية فلا تفعل شيئاً لإصلاح الطريق ... من أجل الآثار لا الحمار !

ونعود لالتقاط سيارتنا من أمام باب القلعة ، ويطالعنا المشهد التقليدي نفسه : سائحة أجنبية تتصور على الجمل وفي عينيها بريق الفخر والذهول ، كأنها تركب ديناصوراً مثلاً ، أو كأنها جالسة في بطن كونغارو ! .. ونتركها لمباهجها ونتابع جولتنا لنبش الاحزان ...

الشاب ابن ٩٧ سنة !

هنا « ستّي خولة » ، يقول ابن بعلبك محمد . ش الذي تطوع لمرافقتنا في مدينته .

دخل المزار . يتابع الشرح : « الست خولة ، بنت الحسين ، مدفونة هنا ، ويؤم المزار بشر من انحاء العالم كله للتأمل والبركة » .

وأمام نافذة المزار امرأتان تصليان ، وتربطان الاقمشة الخضراء على قضبان النافذة .

وفي الحديقة شجرة هائلة الضخامة والعتق ، كالايمان ، وإلى جانب الشجرة رجل يشبهها ، عمره ٩٧ سنة ، هو حارس المزار الحاج محمد . م . كان يعمل على نكش الحديقة الجميلة بهمة ابن العشرين ، وفي وجهه مسحة من السلام والطمأنينة ملأتني حسداً من شباب روحه النضر . قال : « الست خولة مدفونة هنا منذ أكثر من ألف سنة يأتي عدد كبير من الناس للتبرك ، وخصوصاً النساء العاقرات » .

أسأله : « حدثني عن بعلبك أيام زمان ... كيف كانت ؟ »

يقول : « هذه القلعة خرجت مجدداً (يخيل اليك حين تراه أنه عاصر بناءها !) ، وقبل أن تكشف عنها الحفريات كنا نعيش بسلام وكنا نفلح ونزرع ، والآن طلعت

موضة السياحة وقالوا « هذا اللي دارج ! »

أحببت احتجاج هذا الرجل الذي عمره كعمر الشجرة العتيقة . لماذا الالحاح في مدن لبنان كلها على الاهتمام بالسياحة كما لو أن البشر لا يعتاشون بغيرها ؟ ماذا عن الزراعة ؟ الصناعة ؟ لماذا حلم شبيبة هذا الجيل هو تحويل لبنان إلى وطن من من الادلاء السياحيين و « امبرزاريوو » الآثار ؟! .

ها هو شاب في السابعة والتسعين من عمره يعود بنا إلى بديهيات الحياة المنسية : الارض . الزراعة . العمل . وليذهب السياح إلى الجحيم !

أحببته وغالبت رغبة شرسة في ضمه إلى صدري وتقبيله .

هذا هو الانسان وقد تعبت من المهرجين الصغار الذين يشكون طوال الوقت ! ابن المئة عام هذا يطرح ببساطة القضية التالية : لماذا تكون بعلبك مجرد ماض عظيم نعتاش ، حاضراً ، من بيعه فقط لا غير ؟! .

غادرنا مزار « ستّي خولة » ، فندق الارواح الضالة . على الرصيف الثاني بناء مخرب وبلا نوافذ . قال محمد . ش : كان هذا « فندق العربيد » ولكن ...

ولكن ... لا الزراعة ناشطة بما يكفي لإنعاش الفندق ، ولا الصناعة ، ولا السياحة ، ولا حتى زيارة المزارات ! .

أكبر حجر في العالم !

نتابع السير إلى « حجر الحبلة » أي الحامل ، وهو قطعة حجرية هائلة الضخامة منحوتة من الصخر ومرمية أمام تل حجري . وفي كتاب جون عواد – « بعلبك في التاريخ » الطبعة السابعة – نجده يصفه بأنه اكبر حجز في العالم قدّه البشر في الصخر .

طول الحجر ٢١,٥ متراً وعرضه ٤,٨٠ أمتار وارتفاعه ٤,٢٠ أمتار (على ذمة الكتاب) ، وبذلك يكون حجمه ٤٣٣,٤٤ متراً مكعباً ووزنه ١١٢٦,٩٤ طناً ، ويحتاج إلى جهد ١٨٧٨٢ رجلاً لازاحته من مكانه (متوسط ما يرفعه الرجل ٦٠ كيلوغراماً) .

وتقف مذهولاً ، تتطلع إلى هذا الحجر المرمي في الخلاء كإشارة استفهام صخرية غريبة ، وتتساءل : لماذا قدّوه ؟

وتعود إلى ذاكرتك نظرية بعلبك كأول مطار فضائي في أرضنا لاستقبال زوار الكواكب الاخرى ، وتتساءل : هل كان الحجر منارة لعربات الفضاء القادمة الينا ؟ اشارة طريق ؟ هدية ؟ نزوة لأحد الزوار القادمين من كوكب هش التربة لا صخر فيه ؟ تذكاراً لرحلة ؟ أم تراهم قدّوه ببساطة لحفر اسم عاشقين ؟! .

كل ما في بعلبك ينشّط الخيال ، ويحفز الفضول ، وينبه الروح الراكدة . هذا هو الشعر مُلخّصاً في حجر ! يقول ابن بعلبك : من هذا الجبل كانوا يقدّون الاحجار لبناء القلعة . وتتأمل التل الصخري ، وترى عشرات المغاور تنفتح في سفحه ، وفي كل مغارة أسطورة ... وأصوات تناديك ... و«مرايا الحقيقة» تنتظرك في سراديبها . هل تجرؤ على تسلق الجبل والدخول اليها والتحديق في مراياها ؟ ..

تنسحب إلى سيارتك مستثاراً وهارباً ! .

زحام ... المقاعد الخالية

نمر بساحة خليل مطران . نتجه نحو رأس العين حيث نبع بعلبك المشهور . مطاعم كثيرة فخمة على جانبي الطريق ، والزحام فيها على أشده : زحام المقاعد الخاوية ! هنالك لافتة على شاطىء النهر مكتوب عليها « النهر الخالد » . وتتأمل النهر فتجده شبه جاف !

تصل إلى منبعه ويقول لك ابن بعلبك : لقد نبشوه في العام الماضي وقطعوا الاشجار لان المياه غاضت وكادت تجف . تتأمل بحيرة صغيرة مدهشة الصفاء والجمال ، وتصطدم نظراتك بكوم من الانابيب الحديدية الصدئة المنسية كجزيرة من البشاعة ! لعلهم كانوا يقصدون البدء بمشروع ما ، وكالعادة نسوا ، وخلّفوا بقايا الحلم بشعاً كتثاؤب عربيد !

نمر بـ « فندق خوام » ، فيبدو مثل حلم بين الاشجار ، لكنه حلم حزين ، لا تسمع فيه صرخة طفل أو ضحكة عاشق ! رأس العين مكان مدهش الهدوء والصفاء . والهواء عليل . ويقول أحدنا : ليتني كنت هنا ولكن قبل ٣٠٠٠ سنة .

نغادر منطقة رأس العين الكثيفة الجمال – لا البشر – ونعود إلى قلب بعلبك وأسواقها . نمر بالمخفر اللبناني الذي رفع على ساريته خرقة مهترئة باهتة الألوان (ربما كانت ذات يوم العلم اللبناني : ألم يلحظ أحد حالها ليجددها؟!) . نمر بطاحونة

قديمة تصلح موقعاً أثرياً لو ... لو ... ونتجول في السوق .

سوق الحضار ضيقة ، مغطاة ومسقوفة بالقماش كخيمة واحدة كبيرة تشعر فيها بالألفة . وتهاجمك روائح السوق وبضائعه ، والطابع العربي البدوي ، فتتحرك في قلبك أشواق دفينة . وتتصاعد أشواقك الغامضة ممتزجة بروائح البهار والكمون والعطور العربية . لا تسأل أحداً عن حاله إلا ويشكو لك . أحد الشبان قال لي : كل ما حولي يدفع بالمرء إلى الهجرة ، فهاجرت ، ولكنني عدت . لم أملك الا العودة . ومن هنا سأناضل لإنقاذ جذوري ، ولإنقاذنا من التخلف الذي نعيشه . وتخرج من السوق الشعبية الضيقـــة وتتلهى بقراءة اللافتات . تقرأ : « محمود صبري . ط — مصلح ساعات » .. وتفكر : حسناً . هذا رجل يصلح « ساعات » بعلبك ، ولكن ، من يصلح « زمن » بعلبك ؟! .

الكبرياء والنزق

يلفت النظر في أهل بعلبك صفتان : الكبرياء والنزق . ليس سهلا ان تنتزع الشكوى من فمهم . رغم همومهم تجدهم لا يفتحون قلبهم لك اذا لم يأنسوا اليك .

أما النزق فصفة اخرى تلازم أصحاب القلوب الصافية .

فقد حدث أن وقفنا امام دكان لبائع اللحم . وكان اللحم يبدو شهياً وحديث الذبح وحتى ساخناً كأنه لم تمض على سلخه دقائق معدودات . ولكن مرافقنا كان يبالغ قليلاً في شكوى المدينة فقال : انظروا الكساد . هذا الخروف مذبوح منذ عشرة ايام ولكن لا أحد يشتري . لا سياح . كساد . كساد .

واتفق ان سمعه صاحب الدكان ، فثار غاضباً لخروفه « الطازج » المتهم بـ « البوار » ، ونفى هذه التهمة ، وقال ان الخروف مذبوح اليوم ، وكان صدقه واضحاً كما أن حسن نية دليلنا كانت واضحة !!

وظننت الموضوع انتهى عند هذا الحد ... ومضينا بسيارتنا ، وفوجئنا بسيارة تلاحقنا ، ثم تعترضنا ، ثم تتوقف امامنا . فتوقفنا . ونزل منها بائع اللحم والشرر يتطاير من عينيه ، وقد شهر غضبه من غمده ووجه إلى مرافقنا كلمات تهديد قارصة اذا تكررت دعايته السيئة للحم البعلبكي . اما نحن فقد اختبأت لحومنا داخل ثيابنا ذعراً ، ومرت لحظة النزق باطلاق رصاص الكلمات فقط ...

ومناسبة اخرى في اليوم نفسه كاد الرصاص الفعلي يُطلق فيها ...

فقد سمعت الكثير عن الشعراء البعلبكيين الشعبيين وأغانيهم المليئة بالحنان والعشق . والتقيت بأحدهم ، فجلسنا على الرمل في حلقة من رفاقه ، وكان ينشدنا :

« دبحتيني بهدب عينك وانا ميل — وكيف ما مالت جعودك وانا ميل
احسبيني عقد بعنقك وانا ميل — تاضل مصاحبك صبح ومساء » .

وكان يتابع الغناء بحنان لا حدود له حين داعبه أحدهم فضربه على رقبته ، وفجأة كف عن الغناء وامتدت يده إلى خصره فشهر مسدساً ليتابع رصاصه الغناء ...

وأغمي على القلم في يدي ! ..

بعلبك وأهل الفن

نشأ وعاش في بعلبك قديماً وحديثاً منذ بداية هذا القرن العديد من الفنانين الشعبيين الفطريين ، من لاعبي السيف والترس والعازفين ، وراقصي الدبكة ، والقوّالين والحدائين . اشهرهم الراقص الشعبي دوخي صلحي الذي توفي منذ سنوات ، وعازف المجوز عبود شلحه والراقص ابو قاسم الفوعاني وكان يسمى « راقص الاركيلة». اما المغنّون والقوالون والحداؤون فعديدون ، وهؤلاء جميعاً كانوا نجوم المناسبات الشعبية وتقاليدها مثل الاعراس والمآتم أو ولادة « صبي » أو تكريم ضيف عظيم مثل زعيم أو رئيس أو بطل مغوار . كما أنجبت بعلبك الكاتب لطفي حيدر من جيل العشرينات ، ومن الشعراء سليم حيدر ونجيب جمال الدين وحسين حيدر وطلال حيدر ، وفرقة كركلا للرقص الشعبي والعديد من الفرق المسرحية المحلية في المدينة ...

سوق العرب

نغادر بعلبك ونمر بسوق الاغنام عند مدخلها .

يحيط بنا الرجال وخرفانهم . تشترون ؟ عادة لا نشتري . لكن أحد الزملاء اشترى خروفاً سجنه في صندوق السيارة بينما تابعنا حوارنا مع أحدهم، ابو جهاد . يقول : هذه سوق تاريخية ، تاريخها من تاريخ بعلبك نفسها . حركة السوق بطيئة في ايام الربيع لكنها شبه دائمة . اهمال منطقة بعلبك ككل ينعكس على سوق الغنم . المطلوب حماية « الطروش » المحلية من استيراد الغنم التركي ، فهذا الاستيراد يسيء

إلينا اساءةً مباشرةً . الاهمال ... الاهمال !

الكل يشكو من الاهمال والمطالب كثيرة ، والرجال غاضبون .

وتتراكم الاحزان والشكاوى ...

والخروف يظل طوال طريق العودة يصرخ : ماع ... ماع ... ماع ...

كأنه يذكرنا ، على طريقته ، بأحزان المنطقة التي سلخناه عنها ... فلا هو نسي ولا نحن !

وحدهم المسؤولون لديهم القدرة على النسيان . وحين مررت بشركة براد البقاع خيّل الي ان المطالب كلها موضوعة داخل البرادات ، نائمة ، مجمدة ! .. فهل تخرج المطالب منها أم تنتظر حتى تصل اليها النار ، النار التي لا مفر من اندلاعها في لبنان الغاضب كله ؟ ..

١١ / ٨ / ١٩٧٥

مطلوب القبض على البحر الطبقي

وجعلنا من الماء كل شيء حي ...

... وكان البحر رمزاً لكل الاشياء الجميلة . البحر العتيق ، بحر الاساطير والاسرار ، بحر اوليس والاوديسة ، بحر السندباد وكل الباحثين عن معنى لوجودهم ، بحر القارات المدفونة في الاعماق ...

... وكان البحر مطهراً للانسان ، والعودة الى الماء كانت جزءاً من العودة الى السلام الداخلي ما دامت تشبه العودة الى رحم الام حيث يسبح الطفل ويصير احتواء الماء له مقروناً بفكرة احتواء الحنان له ...

... وكان البحر رمزاً لكل الاشياء الجميلة ، وكان مسرحاً لأجمل روايات الأدب الخالدة ...

كان ذلك كله قبل ان يلفظ البحر العتيق انفاسه ويتحول البحر المعاصر الى قاتل محترف لا يشبع ! ..

ففي اليابان اغتال البحر المجرم مدينة بأكملها هي مدينة ميناماتا . لقد تسمم أهلها جميعاً . لماذا ؟ لانهم أكلوا السمك ، وكان السمك ملوثاً بالزئبق . فالبحر قد تلوث لان الملح قد فسد في عصرنا ! فمدنيتنا الحديثة وآلاتنا المسعورة اختارت البحر ليكون سلة مهملات كبيرة ، تلقي فيه بفضلاتها وسمومها وبقاياها المعدنية والتنكيسة والبترولية . ويتلوث البحر ، وينتقم البحر ، ويدفع الانسان ثمن عبثه بالطبيعة واغتياله لتوازنها تحت ستار التمدن الصناعي ! .

وهكذا يواجه عصرنا مرضاً خطيراً اسمه التلوث الذي جعل من البحر العتيق الشفاف مستنقعات شاسعة من الموت الغامض ، بالضبط البحار الملاصقة للمناطق

الصناعية والكثيفة السكان والمتحضرة جداً تكنولوجياً . فالتلوث هو مرض الاقوام المتمدنة جداً .

لكننا في لبنان استطعنا ان نمتلك من الحضارة أمراضها ، ومن المدنية الصناعية عللها ومحاذيرها من دون مزاياها .

واستطاع بحرنا في بيروت ان يتفوق بتلوثه وقذارته على أكثر بحار العالم تلوثاً . اننا نعاني من امراض عصر الآلة من دون ان نمتلك بركاته ... والنتيجة ؟ النتيجة هي ببساطة ان بحرنا قاتل ، امواجه مطلقة السراح ، والمطلوب القبض عليه فوراً واحالته الى المحاكمة بتهمة التلوث . ماذا سيقول دفاعاً عن نفسه ؟ سيقول الكثير ، وسيتهمنا بالكثير ، وسيمد اصابعه الصخرية المالحة ليتهم المجرم الحقيقي . سيصرخ البحر في وجوهنا بحقائق كثيرة موجعة . سيضحك منا . سيذكرنا بانه لو عاش همنغواي اليوم في بيروت لما استطاع ان يكتب روايته « الشيخ والبحر » كما هي ، بل لجعل الشيخ يموت بالتلوث قبل ان تتاح له مطاردة سمكته . ولو عاش ملفيل بيننا وكتب روايته الخالدة « موبي ديك » لجعل الحوت المسكين يموت بالتلوث على سطح الماء ويفوّت على الكابتن آخاب فرصة صيده ! ولو عاش شتاينبيك في بيروت وكتب رائعته « اللؤلؤة » لما اصطاد ذلك القروي الفقير لؤلؤة بل لاصطاد عوضاً عنها علبة سردين فارغة من تلك العلب المعدنية التي تترسب في قاع البحر المتلوث وتقطع شباك الصيادين ورزق اطفالهم ، وتحوّل أعماقه الى قاع معدني بشع وتحرم الاسماك والاصداف واللآليء من القدرة على العيش فيه ! ولكن أخطر انواع التلوث التي يعاني منها بحرنا هي : التلوث بالاعتبارات الطبقية ! ..

التلوث الطبقي

كي تذهب الى البحر في بيروت يجب عليك ان تكون ثرياً قادراً على دفع الجزية لاقطاعيات اصحاب المسابح ، واذا لم يعجبك ذلك تستطيع الذهاب الى الشواطىء الحرة (السان بلاش) لتموت غرقاً . وستنشر الصحف اسمك وصورك ، بعد انتشال جثتك ، جنباً الى جنب مع صور الاثرياء الاحياء في مجونهم العاري على الشاطىء !

ولمحة عن الاسعار للسباحة في أشهر بلاجات بيروت ستذهلكم ، واذا لم

تعجبكم تستطيعون الموت غرقاً في شواطىء الفقراء مجاناً ، واذا نكبكم الحظ بالنجاة فسيتولى المستشفى الذي يسعفكم تحبيب الموت اليكم وقت دفع الفاتورة ، وقد تعودون بعدها فوراً الى البحر ... للانتحار ! وأسعار الدخول هي فاتورة أولى تكفل فقط السماح لكم باختراق الستار الحديدي (بل الستار الذهبي) الذي يسور بحر بيروت . اما اذا كنتم من الذين يجوعون يومياً ويضطرون الى تناول ولو وجبة واحدة في النهار ، فتلك كارثة . اسعار الطعام والماء والمرطبات تجعل السابح يسبح في عرقه وهو يحصي في عملية حسابية سريعة كلفة البحر . وكل غطسة تكلفه أجرة عمل يوم كامل إذا لم يكن سارقاً ! هذا اذا غطسها ببطن مليء ونصف المبلغ اذا غطس ببطن خاو !

وتسويق البحر في مجتمعنا الاستهلاكي بلا ضوابط ، اذ يحق لاقطاعيي البحر رفض اي مشترك لمجرد ان لون عينيه لم يعجبهم ، أو لون شعره ، او لون افكاره ! فالدخول ، الى ملكوت البحر في بيروت يتطلب أولاً مواصفات مالية معينة . واذا رضخت لنداء التوسل في عيون اطفالك ودفعت تأتي بقية الشروط « الغامضة » الخاضعة لمزاج الاقطاعي المائي وازلامه . واذا استطعت اختراق الستار الحديدي للأسعار ، ونجحت في امتحان (تسعيرك) اجتماعياً وطبقياً ، تجد تلوثاً آخر في انتظارك !

التلوث الاجتماعي

تستطيع ان تجد في بحر بيروت كل شيء الا البحر ! تجد الثرثرة والعقد الاجتماعية كلها وقد خلعت ثيابها وتعرت وتمددت الى جانب اصحابها .

فالبحر لا يعرّي الناس فقط من ثيابهم ، بل هو يعريهم من أقنعتهم . وعلى الشواطىء تخرج العقد الاجتماعية البيروتية بكل بشاعاتها الطبقية لتتبختر على الشاطىء حتى من دون « بكيني » !

فعلى الشاطىء تتابع نساء مجتمعنا الاستهلاكي أدوارهن كجوارٍ . لقد استبدلن ثياب الحريم بالبكيني . لكن يخيل الي انني اسمع رنين خلاخيلهن وهن يخطرن على الشاطىء الذي تحول إلى سوق جديدة للجواري ، كما يخيل الي انني ارى رقماً منقوشاً على طرف خلاخيل اكثرهن ، يتضمن ثمنهن مع عـدم وجود اي حسم للطلاب والجنود والفقراء ! البحر بالنسبة الى اكثر نسائنا هو مكان يمارسن فيه مهنة عرض ازياء البلاج يومياً ومجاناً ، ويمارسن فيه اي شيء ما عدا الرياضة والاغتسال الروحي

الداخلي واللقاء بالذات بعيداً عن الزيف والتلوث النفسي . ودور الرجال في هذا التلوث يعادل دور المرأة . فما دام الرجل يلعب دور المشتري او البائع فان « تسويق » المرأة سيظل قائماً والمأساة متكاملة والمسؤولية مشتركة . واذا كنت بعيداً عن الطبقة المترفة التي تمارس بشاعتها تحت ستار الارستقراطية ، واذا كنت من طبقة الانقياء الكادحين فقد تجد بعض افراد اسرتك مجروفين للاشتراك في « كرنفال » المظاهر وحمى تبديل المايوهات والتنافس على دفع الاكراميات لـ « الغرسونات » و « الميتر » كي يتم استقبالك ، فور وصولك ، بالاسم مشفوعاً بلقب « يا بيك » او « يا سيدنا » ، وفقاً لمبلغ الإكرامية ، ثم اللحاق بك بالمظلات والمقاعد اذا كنت من طبقة « الكابين » ، او لتزويدك بشرفة ذات منظر « استراتيجي » اذا كنت من اصحاب « الشاليهات » الذين يتحدثون عن قواربهم والسيجار الضخم ملتصق بشفاههم كأنه انف اضافي لا يقدرون على الاستغناء عنه !

لا بحر في بيروت

واذا افترضنا انك استطعت اجتياز امتحان التلوث المالي والاجتماعي بنجاح — وبمجموعة من الديون والكمبيالات قد تضطرك ذات يوم الى السرقة الكبيرة على طريقة الاثرياء ، او السرقات الصغيرة غلى طريقة نزلاء السجون والتي تحتمي من التفكير فيها ببعض الامثال الشعبية الفاسدة امثال « اصرف ما في الجيب (اي جيب جارك) يأتيك ما في الغيب » ..

.. اذا استطعت تجاوز ذلك كله، ووصلت اخيراً الى خشبة القفز لترمي بنفسك في الماء ، فماذا يحدث ؟ .

اذا قفزت الى البحر ستحاصرك اكوام من النفايات التي قد تكون قد رميت بها في اليوم السابق في اكياس عمال البلدية ، يتلطخ وجهك بالزفت والقطران الذي تبصقه البواخر وناقلات النفط في مياهنا الاقليمية من دون اي رقابة حكومية . واذا ارتكبت جريمة فتح فمك للتنفس وملأته موجة غدارة بالماء ، فلا تدهش اذا تعرضت لاضطرابات صحية ومعوية. فالغطسة في بحر بيروت لا تكلفك نقودك فحسب، بل انها قد تكلفك حياتك. واذا سبحت في برك السباحة المتوفرة في اكثر المسابح (البيسين) فانك تكون كالمستجير من الرمضاء بالنار وينطبق عليك المثل الشائع « من تحت الدلف الى تحت المزراب » او « يا هارب من الغولة يا طايح في سلال القلوب » ! فالعين المجردة

تستطيع ان تلحظ ان مياه المسابح قذرة . واذا لم يكن بصرك حاداً ففي استطاعة حاسة الشم وحدها ان توحي اليك بما قد يضمه الماء . اما اذا كنت مثلي حريصاً على الهرب من العموميات الى مواجهة المأساة علمياً بالارقام وتحت المجهر ، فسوف تملأ زجاجة بماء المسبح او البحر الذي اثار قرف حواسك وتذهب بها الى المختبر للحصول على جواب علمي بالارقام ....

وهذا ما فعلته ! وقد رفض المختبر اعادة النتائج اليّ ! ! ..

وسوف تبحث عن عالم قضى حياته بين مختبره وكتبه دارساً ظاهرة التلوث وغيرها . وستذهب لمقابلته والاستفسار منه عن ازمة البحر البيروتي . وهذا ما فعلته حين ذهبت للقاء الدكتور أفتيم عكره ..

ماء بحر أم « كوكتيل مولوتوف » ؟

حملت ثماني زجاجات فارغة الصقت بكل منها بطاقة تحمل رقماً وذهبت والزميل المصور عدنان ناجي لـ « سرقة » الماء من المسابح . مجرد التفكير في ان ذلك يجب ان يتم بسرية هو نوع من الاتهام العفوي لتلك المياه بالقذارة ، مما سيعرضنا لغضب اصحاب المسابح . حين يكون الماء نقياً تحصل العملية على الوجه التالي : يرحب بنا صاحب المسبح حين يعرف اننا صحافيون وقد جئنا نتأكد من نظافة مياهه . يملأ لنا الزجاجة بيده ويشكرنا على اهتمامنا بالصحة العامة ، ويتبرع بدفع نفقات التحليل ويصر على ذلك مساهمةً منه في ابراز الحقيقة « النقية » ، ويودعنا حتى الباب سعيداً ببادرتنا .

هذا المشهد الخرافي لم نتوقع ان يحدث لنا لذا تسللنا إلى المسابح على طريقة « المافيا » ، وفي حقيبتي اخفي الزجاجة الفارغة كما لو كانت « قنبلة مولوتوف » ! فالاقذار حول المسابح ومجارير النفايات الموزعة عليها بالعدل والقسطاس كانت تذكيراً لنا بأن (اقطاعي البحر) لن يرحب بنا كثيراً ولن يصفق لافكارنا .

عبأنا نصف هذه الزجاجات من ماء المسابح (البيسين) والأربع الباقية من مساء البحر لاكتشاف ايهما «ملك جمال القذارة » ! واخترنا ساعة الشمس المحرقة (الساعة٣) لجمع العينات المائية ، بحيث يكون الزحام على أشده فلا يلحظ احد المشهد الغريب الذي يدور : شخص يدخل بكامل ثيابه إلى الشاطىء ليملأ زجاجة من ماء البحر أو المسبح ثم يغادره !

ولعل تعليقات السابحين كانت تقريراً مبدئياً عن حالة الماء . في مسبح احد الفنادق طلبت من فتاة تقف على سلم الماء في زحام السابحين ان تملأ لي الزجاجة بالماء . قالت لي بعفوية : « المي مجوية (أي قذرة جداً) لماذا تريدينها ؟ »

وفي مسبح آخر تولى الزميل « الفدائي » عدنان ناجي عملية ملء الزجاجات. دخل متستراً بكاميراه ، فرحب به صاحب المكان الفخم وركض « الغرسون » ليملأ له الزجاجة بماء « ايفيان » امعاناً في اكرامه ! واصر عدنان على انه يريد ماء البركة . فقال له « الغرسون » بعفوية : « ولكنها قذرة جداً ماذا تريد من مائها ؟ » قال عدنان وقد اسعفته الحيلة : « اريد ان اضعها للسمك عندي » .

صرخ الغرسون ملهوفاً : « ولكنه سيموت ! لا تضع هذا الماء للسمك والا قتلته ! »

واصر عدنان . وودعه « الغرسون » بقوله : « راح تقتل السمك . تقتله . تقتله ! »

واحتفظنا باسماء المسابح عندنا وحملنا عيّنات الماء إلى احد المختبرات ، ورجوناه تحليلها لمعرفة نسبة الجراثيم والسموم والعرق والبول الموجودة فيها . وحين غادرنا المختبر كنا نعرف ان نتيجة هذا التحليل محدودة وانها لا تكفي لاعطاء حكم علمي قاطع له صفة الجزم ، وانما هي مجرد جهد بسيط لاعطاء فكرة عامة عن نقاء هذه المياه أو تلوثها ...

لذا توجهنا إلى مكتب البروفسور افتيم عكره ، رئيس دائرة الصحة البيئية في كلية الصحة العامة في الجامعة الاميركية والاستاذ المشارك في الكيمياء البيئية ، لنستمع إلى نتيجة ابحاثه ورفاقه العلماء في هذا المجال .

القوانين اللبنانية ناقصة

دونما تهويل ، ودونما اخفاء للحقائق ، يلفت الدكتور عكره النظر إلى أمور عديدة خطيرة . أبرزها الفقر الذي تعانيه بلادنا في مجال التشريع لحماية مياه البحر من التلوث ، كما انه يشير إلى الاخطاء التي ترتكب في مجال محاولة التخفيف من التلوث . كان حديثنا طويلاً ، ولن اختصر الكثير منه لأهميته وخطورته وكشفه عن حقائق يعاني المواطن منها من دون ان يعرف تفسيرها العلمي المحدد ، ولأن مناطق اخرى عربية قد تعاني بعض ما نعاني أو قد تتخذ من مأساتنا حافزاً لتجنب السقوط في تلوث مشابه .

قال : « المياه اللبنانية تعاني من ثلاثة مصادر للتلوث : ١ ــ النفايات الصلبة . ٢ ــ النفايات السائلة . ٣ ــ النفايات الزيتية .

والنتيجة هي ان بحر بيروت صار ملوثاً تماماً في المنطقة الواقعة بين مرفأ بيروت وساحل انطلياس ، ويجب منع السباحة أو الصيد في هذه المنطقة . فقد دلت التحليلات المخبرية على ان ماء تلك المنطقة ملوث إلى ابعد الحدود ، وفيه جرثومة « أي. كولي » E. Coli (وهي جرثومة تستقر في امعاء الانسان وفضلاته) بنسبة قدرها من ١٠ إلى ١٢ الف جرثومة في كل مئة مليمتر مكعب من ماء البحر ، والنسبة المعقولة كي يكون الماء ملوثاً بدرجة غير فتاكة هي وجود الف جرثومة من هذا النوع بدلا من ١٠ إلى ١٢ الفـاً . وبعض بلدان العالم تعتبر وجود حتى ١٠٠٠ جرثومة من E. Coli في كل مئة مليمتر مكعب من الماء شبه كارثة ، ولكن المعدل هو ١٠٠٠ وقد تجاوزناه في تلك المنطقة بعشرة إلى اثني عشر ضعفاً ! اما بقية شواطىء بيروت فانها لم تبلغ بعد هذا الحد من التلوث ، الا ان اهمال الامور قد يؤدي إلى ذلك عاجلاً أم آجلاً ، إلا إذا بدأنا العلاج منذ الآن . وبعض المسابح ملوث جداً وبعضها الآخر التلوث فيه اقل ، والمسألة نسبية ...

« وبالاضافة إلى الـ ١٢٠٠ طن من النفايات التي ترميها بيروت كل يوم في البحر والـ ١٥٠ الف متر مكعب من النفايات السائلة يومياً هنالك ايضاً مأساة النفايات الزيتية . ففي منطقة المرفأ نلحظ وجود عدد كبير من السفن التي تنتظر تفريغها عدة أيام أو أكثر . هذه السفن تساهم في تلوث المياه بسبب الشحم والزيوت في غرف المكنات ، بالاضافة إلى فضلاتها .

ــ الا يحدث ذلك في مرافىء العالم كله ؟

ــ طبعاً لا . القوانين العالمية تحرم على السفن تلويث المياه الاقليمية ، ولكن لا توجد للاسف في لبنان أي قوانين تحمي مياهه الاقليمية ، وتجبر السفن على احترام شواطئنا ، وتمنع سوء استعمال مرافئنا ! لقد ساعدت منذ حوالي عامين أو ثلاثة في اعداد مسودة لقانون يمنع هذا التلوث ولكن ــ للاسف ــ ظل حبراً على ورق ، وصارت منطقة المرفأ ملوثة إلى ابعد الحدود !

« والنفايات الزيتية تتضمن كل ما تطرحه البواخر في المياه الاقليمية اللبنانية وفي خارجها (في عرض البحر) فتتولى التيارات والرياح جرفه إلى شواطئنا ، بالاضافة

إلى دور المصافي في هذا المجال .

« لدينا مصفاة الزهراني في الجنوب ومصفاة طرابلس في البداوي (مصفاة ومصب) وينتج عن كل مصفاة نفايات سائلة وبقايا زيتية وشحمية تطرح مباشرة في البحر وقلما تعالج معالجة كافية . وهذا ايضاً ناتج عن ان المصافي ايضاً لا تحترم الشواطىء اللبنانية ، لان القوانين اللبنانية قاصرة في هذا المجال ، لا ترغم المصافي على احترامها . وما دامت مصفاة طرابلس قد تأممت فالمرجو ان تكون الدولة رائدة في مجال حماية شواطئنا ومياهنا ، وان تنفذ القوانين العالمية وتتخذ الاجراءات والتجهيزات اللازمة .

« في لندن مثلا طاردت الطائرات ناقلة نفط انتهكت حرمة مياهها الاقليمية ، وأوقعت بها العقوبات اللازمة . اما نحن « حيطنا واطي » في لبنان ، والبواخر لا تحترمنا !

« والبلاد العربية بصورة عامة ما زالت تفتقر إلى تعاون في هذا المجال . فقد غرقت مثلا قرب جزيرة كريت ناقلة نفط يمتلكها اوناسيس ، وطفت حمولتها الزيتية البالغة ٣٣ الف طن فوق مياه المتوسط ، وجرفتها التيارات إلى شواطىء ليبيا ومصر ،وكان يفترض وجود تعاون عربي بين بلدان البحر المتوسط(مصر– سورية – ليبيا – لبنان)وغيرها وتوفر معدات لمواجهة مثل هذه الكوارث. فالبحر الابيض المتوسط هو بحر شبه مغلق ، يشبه بحيرة لا يتغير ماؤها الا كل ٧٥ سنة. بعبارة اخرى، كل لفافة تبغ مثلاً نرميها في البحر تحتاج إلى ٧٥ سنة ريثما يتخلص البحر منها ، وهذا عامل هام وخطر . والبحر المتوسط ليس بالمحيط الاطلسي ، وشواطئه اصبحت مكتظة بالمدن والمنتجعات البحرية المقصودة من كل مكان . كما ان عدد سكان المدن الساحلية في تزايد مستمر يتناسب طرداً مع رغبة الناس في الحياة قرب البحر . وهكذا تزايد توسيخ البحر عدة اضعاف . في العام ١٩٦٢ كان هنالك تلوث في شواطىء بيروت ، لكن ذلك التلوث تزايد ٦ مرات في العام ١٩٧٤ عما كان عليه . ثم ان الكاراجات ومحطات البنزين تساهم في التلوث الزيتي برمي نفاياتها في البحر . بالاضافة إلى ان اسفلت شوارعنا يتفتت شتاء تحت ماء المطر (سبحان الله !) ، وهذه المادة الزفتية التي تكون على وجه طرقاتنا تصير شتاء في البحر وتلوثه !

« هنالك خطر آخر احب أن الفت الانظار اليه وهو خطر تلوث اسماكنا بالزئبق ، أي وباء « ميناماتا » . فالاقذار المعدنية التي نرميها في البحر ، كالبطاريات مثلا ،

يتآكل معدنها وصفائحها الرصاصية مع السنين ، ويتحلل رصاصها في ماء البحر ، هذا بالاضافة إلى دهان البواخر الرخيص الذي يتآكل تاركاً في الماء بقاياه السامة .

« وقد قام زميلي الاستاذ جان شبر وزميل له بدراسة منذ اعوام على كمية الرصاص في شواطىء بيروت ، فوجدا انها هائلة تبلغ بين ٥ و ٣٠ غراماً في المتر المكعب الواحد من الماء ! ونحن الآن نخشى ان تكون مادة الزئبق في الاسماك المصطادة في بيروت تتعدى النسبة المسموح بها فتؤدي إلى التسمم ، ونقوم بدراسة في هذا المجال . ثم ان النفايات الزيتية تتسرب إلى جسم السمكة مهددة اياه بالموت ، ومحولة طعمه إلى طعم مشوب بالكاز وغير مستساغ . ولدى الصدفيات امكانية خارقة لتجميع النفايات المعدنية (كالزئبق) في انسجتها وتخزينها . فذلك لا يؤذيها ، لكن آكلها البشري يتسمم ، وهذا بالضبط ما حدث في بلدة ميناماتا اليابانية حين تسمم اهلها اثر التهامهم اسماكاً كانت قد خزنت في انسجتها مادة الزئبق » .

— اذن قوانيننا قاصرة في مجال الحماية من التلوث ، فما رأيك في ما تقوم به البلدية في هذا المجال ؟

— «بلدية بيروت شيدت مصنعاً لتخمير النفايات وتحويلها إلى مادة اخرى يسمونها خطأً بالسماد ، وهي في حقيقتها مادة تضاف إلى التربة مرة كل عدة اعوام لتبعد ذرات التراب بعضها عن بعض بحيث يسهل سقيها . لقد بدأ المصنع يعمل في نطاق التجربة منذ اوائل هذه السنة . جزء صغير من النفايات تجري التجارب عليه والباقي ما زال يطرح في البحر . للمعمل قوة استيعاب كاملة في حدود ٧٠٠ طن ، ولكنه بعد عشر سنوات لن يكون كافياً لاستيعاب نفايات بيروت . هذا اولاً ،أي ان هذا المصنع في افضل احواله لن يحل المشكلة ، لكنه ليس في أفضل أحواله . فالفلاح اللبناني يرفض ان يستعمل ولو مجاناً المادة التي ينتجها هذا المصنع . ومن الخطأ والظلم تسمية هذه المادة بالسماد تحبيباً للفلاح بها ، لان من واجبنا افهامه حاجته إلى السماد (كالذي ينتجه معمل « سلعاتا ») بالاضافة إلى ما ينتجه معمل تخمير النفايات (مرة كل عدة اعوام فقط) . هذا أولاً ، ثم اننا في بيروت تصرفنا بشكل اناني جداً وكان من المفروض انشاء مصنع تخمير النفايات في منطقة زراعية تستوعب ولو بعضاً من انتاجه ، (كمنطقة بعلبك أو زحلة مثلاً) . في «اسرائيل» انشأوا معملاً كهذا لكنهم بدأوا التجربة بمعمل انتاجه اليومي ٥٠ طناً يومياً فقط ، وذلك كي يكتسبوا

الخبرة لعدة أعوام ويجربوا مدى نجاح التجربة . اما نحن فقد تورطنا وانتهى الامر ، ومن الجنون انشاء معمل آخر مشابه في أي مكان آخر من لبنان لان لبنان لا يستطيع استيعاب انتاج هذا المعمل ، كما ان هذا الانتاج لا يمكن شحنه أو تصديره اذ ان لكل بلد نفاياته الخاصة به » .

طال بنا الحوار ، لكن القضايا التي يثيرها الدكتور عكره خطيرة ، ومن الواجب اطلاع الرأي العام اللبناني عليها ، كما ان اطلاع المسؤولين العرب عليها ، امر مفيد ينبه الجميع إلى مخاطر التهاون في مواجهة كوارث التلوث .

ويتابع الدكتور عكره مثيراً قضية في غاية الخطورة هي قضية الآبار التي يحفرها الناس في بيروت لسد حاجتهم إلى الماء ومواجهة نقص المياه الجارية وعدم كفايتها ، فيقول :

« اننا نصل إلى وضع خطر من الواجب التنبيه إلى محاذيره . كثيرون يحفرون الآبار لاستخراج المياه الباطنية سداً لحاجاتهم من المياه . مئات من الآبار حُفرت وهذا عمل غير قانوني يتجاهله المسؤولون لانهم مقصرون في جلب المياه للسكان . ويتم جرف المياه الجوفية بكميات هائلة مما يؤدي إلى حلول مياه البحر الملوثة محلها . وهكذا فإننا في بيروت نرمي قذاراتنا إلى البحر ثم نعود فنسحبها من البئر لنشرب أو نسبح فيها . برك سباحتنا مثلا مجهزة بما يلزم للتكرير ، من محركات و«مرْشحات»، لكن اسلوب استعمال هذه الاجهزة سيء جداً ، وصيانتها كذلك . وهكذا نجد في أكثر برك السباحة العامة في بيروت قذارات البحر بالاضافة إلى أوساخ الانسان » .

– بعد كل الذي سمعناه منك عن بحر بيروت ومسابحها هل تتفضل وتقول لنا اين تسبح ؟

رد ضاحكاً : « انا لا اسبح يا سيدتي ! كأنني توقعت ان يحدث ذلك كله ، فلم اتعلم السباحة ! ! »

الصمت الفصيح

بعد هذا اللقاء احسسنا بأن كل ما يقال قد قاله الدكتور عكره ، ومع ذلك فقد ذهبنا لاحضار نتيجة تحليل مياه برك السباحة التي حملنا عينات منها إلى المختبر .

وفوجئنا بالمختبر يعتصم بالصمت ويرفض اعطاءنا أي نتيجة تجنباً للمشاكل ! واعتبرنا هذا الرفض فصيحاً وبليغاً يعبّر عن طبيعة نتائج التحليل أكثر مما تعبر عنها أي صيغة كيميائية .

فهل يمكن ان يكون المختبر قد رفض اعطاءنا النتيجة لانه وجد في برك سباحتنا ماءً مقطراً محلى بماء الزهر وعطر الورد ؟

١٢ / ٥ / ١٩٧٥

الرغيف والسيف

طرابلس . صيدا . بعلبك . زحلة . في سلسلة التحقيقات التي كتبتها عن هذه المدن اللبنانية ، التي لا تختلف مآسيها عن كثير من المدن العربية الاخرى ، تحاشيت الحوار مع أي « نجم » سياسي ، أو « قطب » ساخن المطامع ، أو اقطاعي شهير ، أو ثري كبير ، أو مغترب مليونير ، أو غيرهم من النماذج الحاكمة اللامعة « الخطيرة» الشأن في حياتنا،والتي قلما تخلو صفحات مجلة من صورها المغرورة المدعية،وأحاديثها الماهرة في لعبة الألفاظ المزدوجة التي يمكن أن تعني أي شيء ولا تعني شيئاً محدداً بالذات ...

لقد ذهبت إلى ابناء الشعب ... إلى المتعبين من صيادين وعمال وفلاحين وباعة متجولين وباعة صحف ويانصيب ورعاة وحراس مزارات وغيرهم ... اولئك الذين لا تكتب الصحافة عنهم عادة إلا في صفحات الجرائم ، حيث يموت بعضهم قاتلاً أو مقتولاً أو مسحوقاً تحت آلة يديرها أو خلال مظاهرة للكادحين ... اولئك الذين يعيشون ويموتون كالعصفور الدوري من دون ان نسمع منهم أو عنهم شيئاً... اولئك الذين يحكم الجميع باسمهم (باسم الشعب) وتعقد الصفقات باسمهم وتسن الشرائع باسمهم ، هل كان لديهم حقا ما يقولونه ؟ ..

لقد اتفقوا جميعاً على أمر واحـــد هو الشكوى . وكانت باستمرار موجهة ضد كائن اعتباري يدعونه « المسؤول » ، يتحدثون عنه كما لو كان كائناً خرافياً لا يُطال ، كالرخ ، والعنقاء وجنّي المصباح !... يتحدثون عنه كما لو كان سرمدياً لا يزحزح ، يهابونه كالموت ، ويتقبلونه كالقضاء والقدر .

الجميع يشكون من « المسؤول » ومن « المسؤولين » كما قد يشكو العليل من مرض جبار غامض ، أو كما يتحدث البدائي بخوف عن آلهة الشر المجهولة ، همساً وبحذر ...

ابناء الشعب يرمون العتب كله على « المسؤولين » وينسون انهم هم مسؤولون عن « المسؤولين » ، عن محاسبتهم وتقويمهم ، بـل وعن صيرورتهم أصلاً « مسؤولين » .

هذا معناه ببساطة ان المسؤول الحقيقي والمذنب الاول في حق الشعب هو الشعب نفسه .

هذا معناه ببساطة ان على ابناء الشعب ان يراجعوا الاسس التي ينظرون عبرها إلى ممثليهم الذين لا يمثلونهم حقاً .

هذا معناه ان يتعلموا ، حين ينتخبون البرلمان القادم — إذا أتيحت لهم فرصة كهذه بعد اليوم ! — الابتعاد عن الاسس التي انطلقوا منها يوم انتخبوا البرلمان السابق ، كالعشائرية ، والولاء المتوارث ، والزعامات التقليدية الجوفاء ، والمكرسات السياسية الفارغة ، وهذا معناه ألا ينتخبوا أي عضو من اعضاء البرلمان الحالي تقريباً !..

اني لأتساءل : لو تنحى المجلس الحالي عن مهماته — التي لا يمارسها أصلاً — وجئنا بمجلس نيابي من الذين سقطوا في الانتخابات الماضية ، فماذا يحدث ؟ أكاد اجزم بأن الامور ستسير على نحو أفضل . وعلى أي حال ، ليس في الامكان ابشع مما هو كائن !

في وجوه كل ابناء الشعب الذين نقلت شكواهم بكل أمانة ، اصرخ بكل أمانة : انتم « المسؤولون » الحقيقيون ، فكفوا عن الشكوى ، وتذكروا صرخة أبي ذر الغفاري الذي قال : « عجبت ممن لا يجد القوت في بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه ! »

فاخرجوا شاهرين سيوفكم !

عن الفيضان الأول لنهر النار
١٩٧٥ ــ ١٩٧٦

« كل عمل ثوري يعبر عن حنين إلى البراءة » .

ــ ألبير كامو ــ

« لا بد أن تكون خالياً من الضمير ، ومن المقربين إلى السلطة (الفاسدة) ، كي لا تتمنى أي تبديل ، وكي لا تهتم بأي أمر خطير » .

ــ فانتيلا هوريا ــ

٨ / ٩ / ١٩٧٥

قضمة رغيف تسعيرتها الموت ١٦ مرة !

هل بينكم من لم يستوقفه هذا المشهد المريع ولو مرة خلال حياته كلها ؟ ..

مشهد عامل كادح واقف على طرف جدار شاهق ، وبيده مطرقة ، وهو يضرب الجدار الذي يقف فوقه بكل قواه ، كي يهدمه تمهيداً لبناء عمارة جديدة شاهقة في مكانه ؟ ..

انه منظر مألوف في أكثر المدن العربية ، تماماً كما ان أخبار عمال البناء الذين يموتون « قضاء وقدراً » مألوفة وقلما تخلو جريدة منها .. وقلما يمر يـــوم دون مصرع عامل بناء ..

هل بينكم من لم يستوقفه هذا المشهد ولو مرة في حياته ، قبل ان تألفه عينه ولا يفكر بمدلوله المروع ؟ ..

أجل ! المشهد مألوف الى حد قلما يحرض الخيال أو حتى الهلع .(هذا بناء قديم. كي نعمر مكانه علينا ان نهدمه . شخص ما يجب ان يهدمه . العامل يهدمه .. عمل خطر ، وقد يسقط العامل ؟ .) . ربما ينقبض القلب لثانية ، ثم نتابع حياتنا اليومية وننسى ...

وموقف الفنان من هذا المشهد قد يكون اسوأ بكثير من موقف عابر السبيل العادي ...

قد يقف الفنان أمام مشهد العامل المسكين الذي يهدم السقف فوقه ، ويتأمله ، ويحك لحيته ، ويفتل شوارب عبقريته ، ويفكر :

مَثَلُ هذا الرجل الواقف فوق جدار بينما هو يهدمه ، كمثَلِ لعبة التجديد الفني الخطرة بينما نحن واقفون على جدار التراث والمطرقة في يدنا ...

(صورة بيانية جيدة) ...

فلتذهب الى الجحيم المحسنات البديعية والبيانية واللفظية كلها ...

ألا ترون معي ان اولئك العمال المساكين يقفون في كل لحظة على جدار الموت ؟ الا ترون معي ان كل ضربة مطرقة قد تكلف ذلك العامل حياته ، ومع ذلك فإن ثمن لقمة واحدة من رغيفه اليابس تكلفه اكثر من عدة ضربات ؟

واذا افترضنا ان هذا العامل المسكين يضرب عشرين ضربة في الساعة ، اي ١٦٠ ضربة خلال ٨ ساعات عمل ، واذا افترضنا انه يأكل رغيفه في عشر قضمات ألا ترون معي ان اللقمة الواحدة تكلفه ١٦ ضربة مطرقة ، اي ١٦ وقفة على صراط الخطر ، اي ١٦ مواجهة حقيقية للموت الفعلي ، بمعنى الانتهاء تحت أقدام البناء كتلة من العظام المحطمة المغسولة بالدم ؟ .

* * *

تجاه نافذتي بناء بيروتي عتيق . جاء العمال لهدمه . لم أحزن من اجل قرميده . لم أحزن من أجل اشجاره . لم أحزن من أجل رقصة الفصول الأربعة التي كنت أرقبها على عرائشه المتجددة الألوان . لم أحزن لأن الاسمنت المسلح سيحتل مكان النخلة والياسمينة وأغنية المطر على القرميد الاحمر . فلتذهب الى الجحيم الرومانسيات كلها حينما يتعلق الامر بحياة انسان ... وكانت حياة عشرات الذين يهدمون البناء أمام عيني في خطر . إنهم يمارسون أكثر الطرق بدائية للهدم ، ومع ذلك ، حين جاءت مرحلة البناء ، تقدمت الآلات الحديثة ، وبدأت الحفارة الآلية زعيقها الجهنمي كل يوم مستبقة وقتها الذي يحدده القانون بعشر دقائق او ربع ساعة ... وانفجر غضبي : لماذا حين يتعلق الأمر بحياة تلك الطبقة الكادحة البائسة ، نجد المتعهدين يمارسون وسائل العصر الحجري البدائية ؟ اما حين يتعلق الأمر بالحفر وكسب الوقت من اجل الربح ، يتقدم جيش من التراكتورات والحفارات زاحفاً داخل آذان أهل الحي المساكين ، زاحفاً كحفارة طبيب الاسنان داخل اعصابنا وفي تلافيف دماغنا ؟ .. ما الحكمة في ترك العامل في مرحلة الهدم يعيش مرحلة العصر الحجري ثم فجأة تتقدم التكنولوجيا ؟ ..

* * *

سألت صديقاً مهندساً : هل يحدث هذا في بلدان العالم كله ؟ هل يضطر العمال في كل مكان الى الوقوف على طرف البناء الشاهق الذي يهدمونه ، ومغازلة الموت ١٦ مرة ثمناً لكل لقمة ؟ وهل انتجت التكنولوجيا الحفارة الآلية ولم تنتج « الهادمة » الآلية ؟ .

قال : في بلاد العالم الأخرى ، هنالك شيء اسمه « الهادمة الآلية » التي تستطيع هدم بناء قديم حتى ولو كان من عشرة طوابق وتشييد بناء جديد في مكانه دون تعريض حياة العامل للخطر ، وكل ما على العامل ان يفعله هو الجلوس داخل الآلة وقيادتها بينما تتولى كرة معدنية هائلة القوة عملية الهدم .

سألت : لماذا لا تُستعمل عندنا ؟

قال : ثمنها مرتفع يُفضّل المتعهد توفيره . ثم انها تفسد على صاحب البناء فرصة استعمال بلاط واحجار البناء القديم لأنها تهدم كل شيء بعضه فوق بعض ، اي ان كلفتها مرتفعة جداً ... ثم ان اليد العاملة في بلادنا رخيصة ! ! ...

* * *

ما أرخص الانسان في بلادي إذا كان فقيراً . من أجل الاغنياء تكتب القوانين . من أجل الأغنياء تشاد المباني .. من اجل الأغنياء يموت كل اولئك الفقراء الطيبين المسحوقين عملياً تحت أحجار بناء السادة ! ! من أجل ان يكدسوا النقود في جيوبهم ، تتكدس جثث العمال تحت اقدامهم .. ألا يروع أصحاب الابنية ان جثة عامل على الأقل مدفونة داخل اساسات البناء ؟ كيف ينامون ؟ ..

* * *

ايها المسؤولون العرب ...

المطلوب سن قانون يمنع بناء الأبنية الفاخرة المنتمية الى عصر التكنولوجيا إلا إذا تم استعمال الآلات التي صنعت خصيصاً لذلك ، بأكملها ، لا باختيار الحفارة التي تلائم مصالح صاحب البناء، واهمال « الهادمة » التي تصون حياة العامل المسكين...

عار علينا ان يكون كل بناء شاهق نشيده مقبرة لأبناء هذا الوطن الطيبين ..

كأن كل بناء في بلادي نصب للعامل المجهول ! ! ..

* * *

متى يصير الانسان في لبنان أغلى ثمناً من بلاطة قبر ؟ ! ...

٢٥ / ٨ / ١٩٧٥

خيمة جيهان

صورة تتكرر باستمرار ...

صورة أحد « الزعماء » اللبنانيين وقد حمله البعض على اكتافهم وسط حشد من الناس الطيبين والمواطنين الشرفاء البسطاء ...

هذه الصورة تثير دهشتي باستمرار ...

لماذا يحملونه بدلاً من ان يحملوا همومهم اليه ؟ لماذا يحملونه بدلاً من أن يحملهم ؟ اليس المسؤول رجلاً كالبشر ، ميزته الوحيدة انه نذر نفسه لخدمة الناس ؟

ربما كان الانسان هو الوحيد بين حيوانات الطبيعة كلها الذي يرضى بحمل « سيده » على كتفه ! .. لم يحدث قط ان شاهدت الطبيعة قطيعاً من السباع مثلاً يحمل الملك السبع على اكتافه ، أو قطيعاً من الضفادع يحمل ضفدعاً مميزاً على أكتافه ... والكلاب لا تحمل الكلب الزعيم على اكتافها ، ولم يحدث أبداً أن شاهدنا عدة قطط مثلاً حاملة القط الكبير على أكتافها ، ولا قطيعاً من الأفيال حاملاً زعيمه ، ولا سرباً من الفراشات أو العصافير ... وحتى القردة ترفض ذلك ، بل ان اعتلاء القرد الزعيم ظهر قرد آخر في القطيع معناه منتهى الإذلال له ، وينجم عنه عادة إما قتال حتى الموت بين القردين ، او ذل عظيم للقرد « الحامل » بحيث يتجنبه بقية أفراد القبيلة . فلماذا ينفرد الانسان وحده بهذا السلوك الهزلي ؟ ! .

لا خلاص لنا في لبنان ما دامت الجماهير تفضل حمل «الزعيم» على حمل همومها اليه ، وما دامت تحمله بدلاً من أن يحملها !

* * *

وبينما الزعماء في لبنان يحُملون على الاكتاف ، تجلس جيهان وحيدة أمام

خيمتها . جيهان جواد . ق ، اللبنانية ابنة الجنوب التي خطف الاسرائيليون والدها ونسفوا بيتها وتركوها واخوتها التسعة وحدهم بلا معيل ...

تقول جيهان لإحدى الصحف : « مضى علينا أسبوع من دون ان نرى وجه أحد من المسؤولين ! » وأقول لجيهان : « لا تغفري لهم رغم انهم لا يعلمون ما يفعلون . انهم محمولون على الاكتاف ، مشغولون بتصفيق البسطاء لهم ، وآذانهم المليئة بتملق الحاشية لن تسمع صوتك » وتقول جيهان : « لولا هذه الخيمة التي تبرعت بها احدى الجمعيات الخيرية لكنا في العراء » .

واقول لجيهان : « كلنا في العراء والوطن تحول الى خيمة مهددة ، وبيروت ليست أكثر من مخيم ترتفع فيه خيام من الاسمنت المسلح لا تجدي أمام الزلزال القادم » ! .

ومع ذلك فلا يزال في هذا الشعب الطيب من يرضى بحمل « زعيم » على كتفيه !

أنزلوهم عن اكتافنا وحمّلوا فوق اكتافهم واقعنا المروع ، ولا تساهموا في تخديرهم لئلا يتابعوا هم تخديرهم لنا وندور جميعاً في حلقة مفرغة ! .. ويوم نصحو لن يبقى من الوطن غير خيمة كخيمة جيهان !

اولئك اللاهون عن الثقب الذي بدأ يتسع في سفينة الوطن ، قولوا لهم ان السفينة حين تغرق تغرق بكل من عليها ، وان الأرصدة المالية في البنوك الاوروبية لن تكون طوق نجاة لأي « زعيم » في خضم أمواج غضبة المحيط العربي !

١٩٧٥ / ٩ / ١٥

مرآة داخل قبر مفتوح

كل صباح ...

تطفو جثثهم داخل فنجان قهوتنا ونرشف دماءهم ممزوجة بها . تتدلى أعضاؤهم المقطعة على لفافتنا وتتناثر أشلاؤهم الدامية على طول صفحات جريدتنا الصباحية .. وتهب منها رائحة الموت ... وتتفجر صرخات احتضارهم تحت أظافرنا ...

كل صباح ...

أول وجه يقول لنا « صباح الخير » هو وجه جثة بل قبيلة من الجثث مرشوشة في الصفحات كلها ... جثة طفل أو شاب أو عجوز .. جثة سقطت ضحية عدوان اسرائيلي أو ضحية شجار من أجل راقصة .. جثث مخطوفين محروقة أو نصف محروقة في الغابات والطرقات وتحت الجسور ... جثث أربعة قتلى لخلاف على بيت في الكورة .. وجثث أربعة أطفال في غارة اسرائيلية على البرغلية والقاسمية . قتلى في المقاهي . في الافران . في الشواطىء . في السيارات . في الصناديق . على أبواب السفارات . في طرقات الجبل . في البرج . قتلى من أجل الوطن وقتلى من أجل بطيخة . بالرصاص الطائش . بالرصاص المصوب بدقة . بالمكبر وبكاتم الصوت . بالخردق . بالديناميت . قتلى في السينما . قتلى من أجل صراع فكري وقتلى من أجل كوب عصير أو قلب امرأة أو صدمة كتف أو لعبة (الكشاتبين) . قتلى بسبب خلاف فوري على بطيخة أو نقاش سياسي في سيارة ، وقتلى لخلاف تاريخي على وطن ... قتلى بالاساليب والوسائل كلها : ٤٠ غريقاً في البحر .. وأسرة مختنقة بالغاز .. وامرأتان محروقتان (بوابور) الكاز .. وقتلى تحت دواليب السيارات ... وقتيل في فراشه لانه مازح زميله بقشر البطيخ . وصباح تطعن جارتها لخلافهما على نشر الغسيل . وعطاف تحرق نفسها في صبرا . وأمينة تفجر نفسها باصبع ديناميت .

ومحمد يبتلع شفرة وابرة .. وأكوام من الجثث تطل بوجوهها علينا كل فجر .. جثث لأسباب خطيرة أو تافهة (تعددت الاسباب والموت واحد) ولكن الموت موت .. ولم يعد ينبت في لبنان غير الموت ... صار مصنعاً رهيباً لانتاج الجثث بكافة الوسائل والاساليب وكافة الطرق ...

وفي باريس صدر كتاب طريف « قاموس الموت » جمع فيه صاحبه كل ما قيل عن الموت ، وذكر مختلف العادات المتبعة لدى الشعوب في أساليب الموت ثم الدفن والتشييع والعناية بالاموات ..

وقد صدّر قاموسه بعبارة للفيلسوف الفرنسي مونتين هي : « ليس في العالم شيء يستلفت انتباهي مثل الموت . ولو كنت كاتباً لصنفت كتاباً وأدرجت فيه الأموات.. مع تعليقاتي على موتهم » ..

أقترح على وزارة السياحة عندنا دعوة الفرنسي مؤلف « قاموس الموت » إلى زيارة جنائزية ممتعة في ربوع مقبرتنا الشاسعة لتأليف ملحق جديد لقاموس الموت يستطيع ان يسميه بحق « موسوعة الموت » ... ولعل هذا البروفسور هو السائح الوحيد الذي سيأتينا منشرح الصدر مطمئناً إلى نجاح رحلته ، ولعل صانعي التوابيت هم رجال الاعمال الوحيدون في العالم الراضون عن (اسواقنا) وحالة أمننا والذين يمكن أن يؤسسوا فروعاً لهم في ربوعنا السعيدة ...

* * *

قديماً كانوا يحسدون من له « مرقد عنزة في لبنان » ... واليوم ، والجثث مشلوحة في كل مكان ، يصح القول : سعيد من تجد جثته قبراً في لبنان ! ..

* * *

فنان اسمه « جوزيه تريسبيو » ، صنع قبراً دهنه بالاحمر والاصفر وزينه بعباد الشمس وأشعل حوله البخور .

قالت له : لمن هذا التابوت ؟

قال : اقتربي .

اقتربت . أطلت على القبر المفتوح وشاهدت نفسها في مرآة بداخله . قال ضاحكاً : لا تفزعي هذا مصيرنا .

في مدخل بيروت ناحية المطار ، لافتات ترحب بالسياح ! ...

أقترح ازالتها واستبدالها بقبور مفتوحة مبطنة بالمرايا على طريقة قبر هذا الفنان ، ليعرف زوارنا الكرام أي نوع من الترحيب ينتظرهم في زيارتهم الترانزيت من هنا إلى ... الابدية ! ..

* * *

على مدخل بيروت من ناحية صيدا لافتة لطيفة تقول باستحياء : تبرع بقليل من دمك ! ..

وتضحك ، وتتمنى لو أن الامر يقف عند هذا الحد ... لا أن يشرب الناس في الصباح التالي دمك مع قهوتهم الصباحية وتسبح جثتك في فناجينهم ...

في بيروت ، يجب أن يلغي الناس كلمة « صباح الخير » ويستعيضوا عنها بكلمة : « الحمدلله على السلامة » كتحية للصباح ! ...

١١ / ٨ / ١٩٧٥

ولن يحدث شيء ؟!

البارحة سقط ١٥ قتيلاً و ٤٢ جريحاً في جنوب لبنان . اليوم لن تحرق الدواليب . لن تقطع الشوارع . لن تعلن المدن اللبنانية الاضراب . لن يتوقف الناس عن السهر . لن يرهفوا آذانهم ليطمئنوا إلى ان جميع الطرقات .. آمنة وسالكة ... لن تفرغ المقاهي من روادها .. لن . ولن . ولن يحدث شيء ...

سيتابع الجميع حياتهم كأن شيئاً لم يحدث ... والاعتداءات الاسرائيلية شبه اليومية على الجنوب صارت روتيناً لبنانياً ، كأنباء حوادث السير وغرق الناس في البحر ...

ولكن ، هل يمكن للذل ان يصير روتيناً ؟ .

والبارحة اعادت اسرائيل عدة مخطوفين لبنانيين كانت قد احتجزتهم اياماً وعذبتهم واستجوبتهم ... وأيضاً مر الناس بالخبر كما يمرون بصفحة التسلية ... وكأن اختطاف اسرائيل لمواطنين لبنانيين صار حقاً مكتسباً ... أما اختفاء أي شخص في أحد الاحياء البيروتية ، فذلك وحده يستحق إحراق لبنان ...

حتّام نتلهى عن الحريق الحقيقي ؟ حتام نواجه اسرائيل باستسلام يائس مصاب بالسرطان ؟ ... متى يأخذ الصراع العربي الاسرائيلي في جنوب لبنان حجمه الحقيقي ؟.. ومتى نستيقظ لنرى معركتنا الحقيقية والخطر الاول والاساسي الذي يتهددنا والذي نصرخ متوجعين من كل شيء ما عداه ! ...

مثلنا في ذلك ، مثل رجل سيق إلى الشنق بينما هو يصرخ شاكياً من ضيق في حذائه ... أو رجل يساق إلى ساحة الاعدام بالرصاص وهو يصرخ شاكياً من عسر في الهضم ! ... أو كمَنْ رأسه تحت المقصلة وهو يشكو من صداعه ! ...

وشر البلية ما لا يضحك !

* * *

وكالعادة ،

بعد العدوان الاسرائيلي على الارض اللبنانية ، طلعوا علينا في تل أبيب بواحد من تلك التصريحات (التبريرية) بأن (قصدهم شريف) من هذا العدوان ! ...

قال وزير دفاعهم ان العمليات الاسرائيلية ليست موجهة « ضد الشعب اللبناني ولا ضد جيشه أو حكومته أو سيادته » ... وانهم يحاولون تفادي ايذاء « المدنيين » الا ان « الارهابيين » يتمركزون داخل المناطق المكتظة بالسكان ! ...

وهذا خطأ ...

الفدائيون لا يتمركزون داخل مناطقنا السكنية ، بل داخل مناطقنا النفسية والدماغية ... انهم يسكنون اجسادنا .. انهم إرادتنا المتقمصة في لحم ودم ... واذا كانت لفظة « مدني » تعني التخلي عن إرادة البقاء الانساني ، فليس في الوطن العربي مدني واحد ، واسرائيل محاطة بـ ١٤٠ مليون عربي ليس فيهم مدني واحد ...

واذا كان حلم وزير دفاعهم هو عزل الفدائيين تمهيداً لتحويلنا جميعاً الى لاجئين ، فان الواقع العربي يصرخ بشيء مغاير تماماً ... وهو ان الفدائيين لا يحتمون بأماكننا السكنية ، لانهم – ببساطة – يسكنوننا ، ومنطقتهم السكنية هي حي يمتد من الخليج إلى المحيط فيه ١٤٠ مليون عمارة سكنية .. فهل ستقوم اسرائيل بإبادة هذا الحي باكمله ؟ ...

١٧ / ٣ / ١٩٧٥

صفحة الجرائم تأكل صفحة المجتمع المخملي !

المحقق ينتقل من مكان إلى آخر بين طرابلس وبيروت لإعداد التقارير عن جرائم القبضاي ق . وعصابته التي روعت طرابلس زمناً ... المحقق يحقق في « فظاعاتهم » التي ارتكبوها بحق المجتمع ... ويصدر قراره الاتهامي .

ليت محققاً آخر ينتقل إلى الماضي ، إلى ماضي أفراد العصابة ، يوم كانوا أطفالاً وابرياء — كل الناس يولدون أبرياء بدرجة متساوية — يوم كانوا صفحة نقية من الصفاء والامل ، ويحقق في جرائم المجتمع نحوهم ! ..

قصص حياتهم التي نشرتها أكثر الصحف تشير إلى انهم كانوا يعانون من الفقر والجهل والبطالة وعدم تكافؤ الفرص والطبقية في مجتمع بلا عدالة ...

حين نرى بشاعة جرائم « ق » وصحبه ، علينا أيضاً ان نتذكر بشاعة جرائم أنظمتنا ومجتمعاتنا نحوهم ... ليس دفاعاً عنهم ، ولكن دفاعاً عن أطفال هذا الوطن المهدورين على أرصفته . فقد حفلت صفحات الجرائم في الاونة الاخيرة بأخبار عصابات السرقة من المراهقين الذين تتراوح سنهم بين ١٢ و ١٨ سنة... اننا، من دون ان ندري،نربي جيلاً من القتلة والمجرمين ، ولو عدل المحقق لكان قراره الاتهامي موجهاً ضد السفاكين وضدنا على التساوي ... كل صفحة من صفحات صور (المجتمع المخملي) لا بد وان تقابلها صفحة من صفحات الجرائم ... كل لقمة اضافية تودع في كروش الكبار ونرى صورهم اثناء ابتلاعها مع كأس شمبانيا هي لقمة مسروقة من معدة جائع ، (وربما كان لحظة التقاط الصورة في طريقه إلى ارتكاب جريمة لأجل انتزاع هذه اللقمة) ... كل « فلاش » يلتمع في صفحات المجتمع لتصوير قالب « كاتو » من ٧ طبقات يقابله في صفحة الجرائم « فلاش » يلتمع على وجه أب سارق لإطعام سبعة أفواه جائعة في أسرته ...

يوماً ما ستنقضّ صفحة الجرائم على صفحة المجتمع المخملي وتبتلعها وتحرقها وتمزقها بأسنانها ، وسيحمرّ لون بقية صفحات الصحف بأكملها ...

* * *

كل من يدخل السجن في لبنان،وفي بعض الاقطار العربية الاخرى،يخرج منه مجرماً .

المفروض ان السجن أداة اصلاح . لكنه في لبنان مؤسسة خاصة بالإفساد ... والظروف التي يعيشها السجناء تضمن قتل كل ما هو جميل ونبيل في نفوسهم ...

السجن في لبنان مؤسسة لغسل دماغ الناس من كل ايمان بالمحبة والعدالة والخير — حتى الابرياء منهم الموقوفين على ذمة التحقيق — ... إنه ، باعتراف رئيس الحكومة الحالي ، في حالة بائسة وفي حاجة إلى اصلاح (تصريح سمعته بالاذاعة رغم جهودي كلها لتحاشي سماع التصريحات الرسمية لأنها مثل رسائل غرام المراهقين : ينساها كاتبها قبل الجميع) ! ..

سجن لا يتسع لأكثر من ٥٠٠ انسان ، يحشر فيه ١٣٢٤ بائساً في ظروف صحية ونفسية تضمن تماماً تخريج السجين مسلحاً بكل الحقد الممكن ضد المجتمع المجرم ... وحتى السجان في سجن لبنان هو سجين اضافي بائس ... وحال حراس السجن الـ ٣٠ من الدرك كحال السجناء، فهم ينامون في غرفة واحدة بائسة التدفئة والحجم .

لماذا هذا الجحيم ؟ وهل السجين محكوم بالتعذيب البطيء حتى الموت جسدياً ونفسياً ، أم انه محكوم بالسجن فقط لإصلاحه ؟ ...

وحتى الذين يحكم عليهم برحمة الموت السريع يتم تعذيبهم في لبنان ! .. ولن أنسى أبداً ذلك الذي حُكم بالاعدام شنقاً وكانت المشنقة — كالسجن — سيئة والحبل فاسداً حتى ان الجلاد اضطر إلى التعلق بجسد المشنوق بكل ثقله كي يخلصه من عذاب الخنق البطيء . حتى الجلاد يشفق على ضحيته ، اما جلادو الشعب في لبنان فلا يعرفون حتى رحمة الموت السريع أو السجن اللائق ! ..

أصلحوا « باستيل » لبنان ، أو أطلقوا سراح السجناء كلهم أو اطلقوهم جميعاً — بريئهم ومجرمهم — فكلهم مجرمون صغار اذا قيسوا بالمجرمين الكبار المتربعين في سياراتهم الفارهة خلف سيجاراتهم المترفة . . .

ان كرش الوجاهة لكل منهم هو الذي « خلّف » جيلاً من المجرمين الصغار الذين اجرمت الحياة بحقهم ولن يفوها حقها من رد « الجميل » مهما أجرموا ! ..

اطلقوا سراح سجناء لبنان ، فالمجرمون الحقيقيون فيها طليقو السراح على أي حال ! ..

* * *

سيأتي عصر تُلغى فيه عقوبة السجن الوحشية والبدائية ... سيأتي عصر يتحدثون فيه باستنكار عن فظاعات أيامنا وابرزها فكرة « السجن » ، كما نتحدث اليوم باستنكار عن فظاعات محاكم التفتيش في العصور الوسطى . وإلى ان يأتي ذلك العصر المضيء ، لا مبرر لجعل عالمنا البشع أكثر بشاعة مما هو عليه ! ..

* * *

ولكن ، لماذا اتحدث عن السجن في لبنان وحده ؟ . وماذا عن بعض السجون العربية (لا اقصد السجون ذات الجدران الحجرية فقط)؟!. وهل من مؤلف يجرؤ على ان يكتب مؤلفاً بعنوان « السجون العربية ... دراسة واحصاءات » يروي فيها تاريخها وجغرافيتها ، من دون ان يزج به في السجن ؟ ! .

قبل ان يصير ذلك ممكناً ، نظل ١٤٠ مليون سجين في زنزانة واحدة كبيرة ، ممتدة على طول قارتين !

١٣ / ١ / ١٩٧٥

كازانوفا العربي !؟

قرأت الاعلان التالي :

« ايها الاثرياء العرب اتحدوا ... ليس هنالك ما تفقدونه غير أموالكم وخطاياكم... دقوا المزامير ، وودعوا حريمكم ، ولمّعوا شواربكم واركبوا طائراتكم الخاصة ، وتعالوا إلى حي « مايفير » في لندن ، حيث ينتظركم نادينا الليلي المُعدّ خصيصاً لأثرياء سذج مثلكم ... ستجدون لدينا أنواع النساء كلها ، من جميع المقاييس والألوان ، وأنواع آلات القمار كلها التي تضمن ابتزاز نقودكم بأسرع وقت ممكن ، وسيارات « رولز رويس » ، خاصة بلفت انظار الناس لإشباع حب الظهور لديكم ... احملوا نقود شعوبكم المسكينة الجائعة المكافحة واهربوا بها إلى أحضاننا ... ونحن في انتظاركم ... وشرّفونا تجدوا ما يصعقكم ! » .

هذا الاعلان قرأته ، كما قرأه الآلاف من القراء العرب ، في احدى الصحف اليومية . واعترف لكم بأن الاعلان لا يقول حرفياً ما ذكرت أنا ، ولكنني أحببت أن اكتبه لكم على طريقة كتابة ما وراء السطور .

الإعلان الأصلي صدر في عدد من أوسع الصحف والمجلات العربية انتشاراً (ومن الطبيعي ان تنشر أي اعلان يرد اليها ما دام ثمنه مدفوعاً) ، وكازينو القمار اللندني الذي نشر الاعلان من حقه أيضاً ان يروّج لنفسه ... حتى هنا الأمر طبيعي ولا يستحق التعليق ، ولكن الذي يلفت النظر في الامر هو ان الاعلان يلخص نظرة الغرب الخاطئة إلى الانسان العربي والمال العربي والواقع العربي ... فالاعلان يتوجه إلى النموذج التالي : فرد ثري جداً ، لكنه محروم من كل القيم الانسانية أو الارتباطات الوطنية . فرد غني بالمال ومعدم من حيث الرقي الانساني . والذي يثير الغضب في الاعلان هو استغباؤه للفرد الذي يخاطبه . وابرز وسائل الاغراء التي يعددها الكازينو

« للهندي — الاحمر — العربي — الثري » سيارة التاكسي اللندنية « الخاصة جداً » ، المدهونة بلون أحمر « رولز رويس » والمزخرفة بتصميمات خاصة ذهبية اللون من الجانبين ، اما داخل السيارة فهو أكثر ترفاً وراحة حتى من السيارة الفخمة التي كان صاحب الملايين العديدة نوبار غولبنكيان يملكها طوال السنوات التي قضاها في لندن . الداخل مكسو بأفخم انواع القطيفة الحمراء ، كما ان الارضية مكسوة بالسجاد الاحمر الكثيف — على حد تعبير الاعلان — (لاحظوا التلويح بالأحمر باستمرار لكازانوفا العربي ، كأن أكثر أهل المال لدينا هم « ثيران المال » ، أم انهم يقصدون « الاحمر الملكي » إشباعاً لحب العظمة المفترض فيهم !) ومن جملة الكماليات الاخرى نوافذ كهربائية ، وراديو ، وتلفون ... هذا بعض ما جاء في الاعلان الذي تعتليه صورة مضيفة انكليزية حسناء شبه عارية !

ان نص الاعلان هو في حد ذاته تحقير ضمني للشخص الذي يتوجه اليه ، كأنهم يقولون للثري العربي : « انت تافه وجاهل وسطحي وربيب الخيام ، ولذا فنحن نغريك بالراديو والتلفون والسجاد الاحمر والحريم ! »

ولكن الكازينو الذي نشر الاعلان ليس مسؤولاً عن سوء فهمه للفرد العربي وبالتالي عن بشاعة توجهه الاعلاني . ان تصرفات بعض الاثرياء العرب في اوروبا تبرر للأسف مثل هذا الفهم الخاطىء للانسان العربي . واستحمام بعضهم بالشمبانيا تحت اقدام الجمال الاشقر ليس سراً . واذا كان له عُذر في مراحل صدمة اللقاء الاولى بالحضارة الغربية فان هذا العذر لم يعد اليوم مقبولاً . والشعوب العربية لن تغفر لبعض اثريائها الذين لا يكتفون بسرقة اموالها بل ينفقون هذه الاموال بطرق تشوه سمعتها وتسيء إلى صورة الفرد العربي الحقيقي المليء بالنبل والاصالة الانسانية والعراقة التاريخية .

ان هذا الاعلان هو صرخة اتهام في وجه بعض اثريائنا ، وهو مرآة لهم يرون فيه بشاعة الوجه الذي يطلّون به على الغرب ، وهو ايضاً تذكير للاعلام العربي بتقصيره عن تقديم الوجه الحقيقي للفرد العربي امام العالم الغربي الذي يتوهم ان اثرياءنا كلهم من طراز « كازانوفا » وان شعوبنا كلها همجية بلا تراث ، ومن هنا السبب الاساسي لتعاطف الشعوب الغربية مع اسرائيل « المتحضرة » في قلب صحراء التخلف العربية والجوع الجنسي والسذاجة أمام « عجائب » الحضارة الغربية ، كالتلفون في سيارة والمرأة بشعر اشقر والسجاد الاحمر تحت آلة الكترونية للقمار في لندن ! أخشى

من أن تزداد ظاهرة زحف الثراء العربي إلى اوروبا تفشياً وانتشاراً ...

* * *

حين تصدر هذه الكلمات تكون بقايا صاروخ « ساتورن ٥ » الاميركي في دربها لتمطر على الارض حديداً وناراً . فمن المتوقع أن تدخل الغلاف الجوي للكرة الارضية ٣٨ طناً من اجزاء الصاروخ ، بعضها يهوي إلى البحر ، وبعضها الآخر يمطر دماراً في اوروبا أو الشرق الاقصى أو افريقيا أو اميركا الشمالية والجنوبية ...

وليس في الخبر اية مفاجأة لنا نحن العرب . فنحن قد اعتدنا على مطر النار والحديد الاميركي الموجه ضدنا بصورة اسلحة مهداة لاسرائيل ، واذا سقطت بقايا الصاروخ لدينا فستكون المرة الاولى التي تحرقنا نار الولايات المتحدة مصادفةً ودون ان تتعمد هي ذلك ! أقترح ان نوجه لها برقية شكر بهذه المناسبة اليتيمة ! !

٢٠ / ١ / ١٩٧٥

المطلوب تحريم أكل اللحم البشري !

لم يعد ممكناً في جمهورية بوروندي أن يذبح الرجل رجلاً آخر أعجبه لحمه، ويقطّعه، ثم يطهيه محمراً مع البصل والبهار، أو مسلوقاً، ويلتهمه واولاده مستمتعاً بمذاق صلصته الفريدة. فقد صدر فيها منذ أيام قانون يمنع تلك العادة القديمة، عادة أكل لحوم البشر، ويعرّض مخالفها إلى عقوبة الإعدام، والمشارك في التهام كتف رجل أو دماغه أو حتى امتصاص عظامه إلى عقوبة السجن عشرين عاماً.

سيدهش بعض القراء. سيتساءلون: هل حدث هذا حقاً؟ أما زال في كوكبنا من يأكل اللحم البشري حتى في عصر الفضاء؟ !.

نعم. حدث ذلك في جمهورية بوروندي، عاصمتها بوجومبورا... ولكن لماذا الدهشة؟ كأنكم لم تسمعوا بغير اولئك الاقوام الأبرياء من أكلة لحوم البشر ! ..

ان جمهورية بوروندي أثبتت أنها أرقى جمهورية على وجه الارض لانها اصدرت قانوناً بتحريم أكل اللحم البشري، هذا بينما لم تصدر مثل هذا القانون دول أخرى راقية تمارس أكل اللحم البشري (بالجملة)، وتلتهم شعوباً بأكملها. فالولايات المتحدة، مثلاً، لو أصدرت منذ ربع قرن مثل هذا القانون لما كانت مجازر فلسطين وفييتنام والتشيلي ولاوس وكوريا واليونان وقبرص... والواقع ان جمهورية بوروندي ليست في حاجة إلى قانون تحريم أكل لحوم البشر بقدر حاجة الدول «الراقية» اليه، الدول التي يدخل البشر في طاحونة مصالحها كما تدخل الخراف إلى أحد مصانع تعليب اللحوم... ويتم كل شيء دون حساب لحياة الخرفان، فالمهم مقدار الربح والخسارة لأصحاب المعمل وشركائهم وللمساهمين في المؤسسة. سياسة أكثر الدول «الراقية» مبنية على أكل لحوم البشر الآخرين من شعوب أخرى مسالمة، والدولة «الأقوى» هي القادرة على التهام الأكثر مع مراعاة شروط لعبة الشطرنج الدولية في هيئة الامم المتحدة.

ان المجتمعات الاستهلاكية الحديثة مبنية على أكل لحوم البشر نيئاً . إنهم على الاقل في بوروندي يطبخون اللحم البشري ويتفننون في تتبيله ويترحمون على صاحبه بينما هم يستمتعون بأكل فخذه بالبطاطا مثلاً . وأكل اللحم البشري هناك تقليد له طقوس ، والرجل المأكول تتلى على جسده المسلوق صلوات ، ويمنح مضغه وقت طويل وعواطف كثيرة ، ويزين طبقه بالبقدونس والازهار . أما أكل اللحم البشري على طريقة البلدان « الراقية » فانه يحول البشر إلى أرقام ، ولا تتلى فيه أي صلاة وانما تتلى بيانات سياسية وحربية وتغطى بشاعة العملية بكفن البلاغة اللغوية . والطبخ لا يتم على نار هادئة وانما يتم على نار القنابل ، من الذرية إلى « النابالم » ، وغيرها من عدة طبخ الدول « الراقية » ! ..

جمهورية بوروندي الراقية اعترفت على الاقل بأن شعبها يمارس أكل اللحم البشري وحرّمت ذلك بقانون ...

يبقى ان تعترف بذلك دول عصر الفضاء ، وتصدر قانوناً مماثلاً بتحريم أكل لحم الشعوب الاخرى نيئاً (في وجبة الحرب الباردة) ، أو مشوياً بالقنابل وبقية وسائل الطهي الحديثة ! .. ما رأي « كبير الطهاة » كيسنجر في ذلك ؟! .

* * *

السيد«الدماغ الالكتروني»أصيب في ادارة الهاتف في بيروت بزكام مفاجىء نتيجة هطول الامطار ، أو بكسر في ساقه نتيجة التزلج على ثلوج الارز البديعة ، أو انه ثمل ليلة رأس السنة واصيب بالصداع ! المهم أنه كان مسؤولاً عن تأخر بعض المشتركين عن الدفع بسبب ما اسماه طبيبه « عطلاً فنياً طرأ على الدماغ الالكتروني » .

وهكذا قطعت ادارة الهاتف خلال الايام الماضية مئات الخطوط الهاتفية عن المشتركين في العاصمة والضواحي ... وغضب اصحاب المصالح وقيل لهم : « الحق على الدماغ الالكتروني ! »

ان اسلوبنا في فهم الدماغ الالكتروني خطر ، والسبب هو اننا « استوردناه » ولم نخترعه ، ولذا فان قيمنا الفكرية والحضارية ما زالت قاصرة عن مواكبة استعماله بحس واع بالمسؤولية . ومن هنا خطورة استيراد الحضارة دون المشاركة في صنعها . فنحن نعامل الكومبيوتر كما لو كان (مديراً عاماً) في الوزارة مثلاً . نعامله كشخص عاقل بالغ وبالتالي مسؤول تمام المسؤولية عن اعماله التي نتنصل منها في حالة الخطأ !

الكومبيوتر ليس أكثر من صبي قاصر . صبي ماهر ولكن الذي يستخدمه هو المسؤول عن نتائج اعماله .

وبعبارة اخرى ، خطأ الدماغ الالكتروني مسؤول عنه « دماغ الموظف » الذي يستعمله وبالتالي مؤسسته من ورائه . وحين يخطىء ، يعاقب على الخطأ الموظف المهمل وتتحمل مسؤولية الخطأ ادارة الهاتف لا المشترك المسكين ! ..

خطأ الدماغ الالكتروني لا يدخل في باب « القضاء والقدر » و « المكتوب على الجبين» لأن لا شيء مكتوب على جبين الدماغ الالكتروني غير إهمال مستعمله .. انه كالسيارة مسؤول عنها سائقها . فحين تجنح سيارة ، يعاقب السائق بالسجن ويطلق سراح السيارة !

يبدو اننا في عالمنا العربي ما زلنا نشعر بـ « الخشوع » أمام الدماغ الالكتروني ، ونعامله كفرد يخطىء ويصيب بفعل عوامل خارجة عن ارادتنا ، ولن يدهشني اذا وصلتني دعوة لحضور زفاف دماغ الكتروني ما ، أو لتوديعه في المطار لانه متعب وذاهب للسياحة في اوروبا كبقية « أدمغة » بلدنا المتعبة !

* * *

بينما كنت اتسكع في شوارع احدى مدن لبنان ، وقعت عيني صدفة على ملهى ليلي اسماه صاحبه « ووترجيت » .

التسمية ذكية من دون شك ، ومن الطبيعي ان يسمى ناد ليلي باسم فضيحة ، فالذاهبون للسهر هم في استمرار في رحلة بحث عن اثارة وتسلية وجنون ، والفضيحة تشمل ذلك كله وتلخصه . وتصوروا العكس مثلا ! تصوروا ملهى اسمه « كباريه الاستقامة » أو « كباريه الزوج المثالي » أو « كباريه المثل العليا » أو غير ذلك ! ..

ولكنني اتساءل : لماذا لم يسمّ هذا الملهى باسم فضيحة لبنانية محلية ؟ وهل تنقصنا الفضائح حتّى نستورد اسم فضيحة اميركية ؟ استطيع أن أجد مبرراً لاستيراد أي شيء إلى لبنان ، إلا الفضيحة !

٣١ / ٣ / ١٩٧٥

رغيف الضمير

مائة راكب في طائرة . قدموا لهم وجبة طعـــام . أكلوا . تسمموا . نقلوا إلى المستشفيات . شفوا جميعاً .

ولكن ضمير « كيجي كوابارا » لم يشف بالرغم من شفائهم . وبصفته الرئيس التنفيذي لمطعم شركات الطيران اليابانية في طوكيو ، اعتبر نفسه مسؤولاً مباشراً . فالرئاسة عنده مهنة لا وجاهة ، ولم يفتش عن طاه صغير يكون « كبش فداء » للفضيحة بل انتحر .

وترك رسالة يقول فيها : « انني الملوم لانني لم اتخذ الاجراءات الاحتياطية لمواجهة هذا الموقف — رغم نجاة الجميع — » .

لو ! ..

لو أمكن زرع الضمير ، كما يزرع العلم اليوم العيون والاعضاء ، لو زرع ضمير هذا الرجل في افئدة بعض « كبار » رجالاتنا وسياسيينا اللبنانيين والعرب ، هل كان الكثير منهم ينجون من الانتحار ؟ ! . أخط هـــذه السطور ، وتتنزلق على عينيّ عشرات من صور بهلوانات السياسة ومصاصي دماء الشعوب العربية الذين لا يسممون ركاب طائرة فحسب بل يسممون أجيالاً بأكملها ... لو زرع ضمير كيجي كوابارا عندنا ، أما كانت ترتفع نسبة الانتحارات ؟

أما كان لبنان يسجل رقماً قياسياً في هذا المجال ؟!.

* * *

علي . م . ش . اسم لم تسمعوا به من قبل . ولن تسمعوا به . عامل كادح وأب لعشرة اطفال قتله الرصاص الطائش . رصاص « الابتهاج » بمناسبة ما ! .. قد يجد

أطفاله من يعيلهم وقد يفترسهم الجوع والتشرد وقد يحاكمهم المجتمع ذات يوم بتهمة السرقة أو يصفق لهم بتهمة « العصامية » . المهم ان الرجل مات .

شابان آخران قتلا وأصيب ثمانية بجراح بالرصاص الطائش الذي أطلق «ابتهاجاً» بعيد المولد النبوي .

عدد ضحايا الرصاص الطائش في لبنان يكاد يوازي عدد ضحايا العدوان الاسرائيلي ! ولكن ، لماذا الرصاص « الطائش » و « الهدف » موجود ومعروف ؟

وأي ابتهاج سطحي غوغائي هو الذي يدفع بالانسان إلى اطلاق رصاصة ؟ ولماذا كل هذه الضوضاء في أقدس أعيادنا واكثرها نداءً إلى التأمل والصفاء ؟ ولماذا نطلق الرصاص في لبنان على العصافير والنساء والهواء والاشجار وكل الاهداف ما عدا الهدف الحقيقي ؟ هل هو نوع من التعويض ؟

أقترح سن قانون يعاقب بموجبه هواة اطلاق الرصاص في المناسبات ، لا بالسجن وانما بنقلهم إلى جنوبي لبنان على حدود فلسطين المحتلة حيث يحكمون بالاقامة الجبرية في قرية تقام خصيصاً لهم ... فهناك فقط يوجد الهدف الحقيقي لاي رصاصة تطلق في ارض هذا الوطن ، وهناك يستطيعون ممارسة هوايتهم بكل حرية ، و « مشكورين » عليها !

ترى لو اقيمت لهم قرية هناك ، هل كنا نسمع فيها طلقة رصاص واحدة ؟! . أم تكون اهدأ قرية في لبنان ؟ ! .

٤ / ٨ / ١٩٧٥

من الكهوف ... وإلى الكهوف !

بعد أيام ، يحتفل كوكبنا بالذكرى الثلاثين لأول قنبلة ذرية ألقاها الاميركيون على هيروشيما يوم السادس من آب (اغسطس) عام ١٩٤٥ وقتلوا يومها في ثانية واحدة ٧١ ألف ياباني ! ! ..

وفي هذه المناسبة ، يتوقع الانسان من الولايات المتحدة نوعاً من الكفارة .. فنوبل الذي اخترع الديناميت ، رصد فيما بعد ثروته تكفيراً عن ذلك بصورة جائزة نوبل للسلام (بغض النظر عن مصير الجائزة الحالي واهدائها ذات عام لاسرائيلي عدواني ، اي لبرميل من الديناميت !) . اما الولايات المتحدة ، وفي الذكرى الثلاثين لتفجير قنبلتها ، فقد قررت ان تكون كفارتها امتداداً لسياستها — وكل اناء بما فيه ينضح — وجاءتنا الهدية الكفارة على لسان وزير دفاعها المبجل شليسنجر الذي بشرنا باختراعه الجديد : الحروب الذرية الصغيرة ! .. نعم ! لقد واجهت المبجل شليسنجر معضلة أقضت مضجعه طوال السنوات الماضية وهي : كيف يستطيع الاستمتاع بقتل الناس دون إبادة النسل البشري بأكمله ؟ اي كيف يستطيع قتل البشر دون قتل الحرب ! .. فالحروب صارت خطيرة ، والسلاح النووي يهدد الجنس البشري بأكمله بالفناء مما يفوت الفرصة على جلادي الشعوب الآمنة من اثرياء حرب ومهووسي حرب ... فالحرب الهيدروجينية تهدد كل شيء بالدمار بما فيه الحرب .. وهكذا كان لا بد من اختراع حرب تهدد السلم بالدمار دون ان تدمر امكانية الحرب ..

وَوَجدها شليسنجر ! ..

وخرج علينا صارخاً ... وجدتها.. وجدتها ..

لنها الحروب الذرية الصغيرة ...

ومن اجل ذلك يتم صنع قنابل ذرية صغيرة لضمان استمرار لعبة الحرب ، ويتدرب الطيارون حالياً على استعمالها ، وعام ١٩٧٦ سيتم تخرجهم من دورة الحرب الذرية الصغيرة ، ويجب ألا يدهشنا ان تكون حفلة التخرج ليلة ٦ آب (اغسطس) وذلك احتفالاً بانقضاء ٣١ سنة على مأساة هيروشيما ، وبشرى لجلادي الشعوب الآمنة بعودة سلعة الحرب الذرية الى سوق القتل والابادة بعد ان توصل (الخياط) شليسنجر الى إعادة قص وتفصيل القنابل الذرية على قياس الحروب الصغيرة وجعلها جاهزة وتحت الطلب ! ..

ونحن العرب ، وكل أسرة فينا قد فقدت ابناً او غالياً بفعل سلاح اميركي في فلسطين او في قطر عربي ما ، وكل أذن فينا سمعت تهديد شليسنجر بالحرب في حال قطع البترول عن معامله لصنع القنابل التي ستبيدنا ، نحن كعرب لا بد وان نستمع الى (بشرى) الحروب الذرية الصغيرة بحذر وغضب ما دمنا نعرف انها مفصّلة على (قياسنا) وعلى قياس الشعوب الاخرى المكافحة مثلنا من اجل الحرية والخبز والفرح ...

ترى متى تقام محكمة الانسان الدولية ، ليُحاكم امامها اصحاب الافكار الهتلرية الذين يخططون لإبادة العالم بلا شفقة ؟..

والسيد شليسنجر المعروف بهوايته الغريبة : مراقبة الطيور البرية وحبها وتسجيل انواعها (رصد حتى الان ٥٧٥ صنفاً وشعباً منها) ، هل يصدر الحكم عليه بمراقبة الشعوب البشرية في الكرة الارضية ، فقد يلحظ يومئذ ان البشر كالطيور التي يحبها ، وقد تحرقه ذات يوم دموع طفل احرقته قنبلة اميركية ...

هكذا الجلادون في العصور كلها ... يفرطون في عطفهم على الحيوانات ... ولكن ، وحتى لو نجح شليسنجر في اعادة الحياة الى الديناصور نفسه ، والى فصائل الديبلودكس والطيور المنقرضة كلها ، فان ذلك لن يغفر له اسقاطه ريشة واحدة من جناح مناضل إنسان يحاول الطيران الى شمس الحرية والعدالة ، رغم الحروب الذرية الاميركية الصغيرة والكبيرة ...

١٩٧٥/٩/١

حزن ليلة صيف !

لم نعد نرغب في سماع شيء عن « شبكات الدعارة » التي يتم كشفها في بيروت بين وقت وآخر ... لا نريد ان نسمع تفاصيل حكاية « تاجرة الاجساد » اللبنانية ، ولا قصة التاعسات من اسماك الخطيئة الصغيرة ...

لم نعد نرغب في سماع حكاية « السردين » ونتلهى بها عن « الحيتان » التي تقرض أطراف أطفالنا وتنتزع اللقمة من افواهنا نحن البسطاء...

صحيح اننا نحب « الفضيلة» لكننا لا نعتقد ان القبض على السيدة ك.ش.رئيسة الشبكة وبعض الصغيرات البائسات سيحل مشاكلنا الحقيقية الملحة ...

لم نعد نريد ان تبشرونا بالقبض على « سردينات » الخطيئة . اقبضوا لنا على « حيتان » الاحتكار والسمسرة والجشع والخوة والرشوة ... اقبضوا لنا ولو على حوت واحد كبير من اولئك « الكبار » الذين يمارسون لا خطايا الجسد فحسب بل خطايا الروح كلها ، وخطايا المادة ضد الشعب المقهور ...

اقبضوا لنا على مجرم كبير واحد من « مافيا » المرفأ والسهل والجبل والبحر والليل ، واحد فقط من اولئك الذين يتم التستر على فضائحهم وتتلهى شباك مسؤولينا بالقبض على « السردين » الصغير هرباً من مواجهة انيابهم وسكاكينهم ونفوذهم (او هرباً من مواجهة فضيحة كانوا طرفاً فيها !) .

لم يعد في عصرنا من يتوهم ان « الفضيلة » تسكن جزءاً معيناً في جسد المرأة فقط ، وان الاخلاق في بيروت في خير ما دامت « شبكات الدعارة » تكشف يوماً بعد يوم ... اكشفوا لنا شبكات « الدعارة السياسية والاقتصادية » ، واقبضوا لنا على واحد من جلادي الشعب بـ « الجرم المشهود » — وكلهم في حالة « الجرم المشهود » وعلناً وكل يوم — والشعب كله شاهد صامت بائس ! .

لا نريد ان نسمع شيئاً تافهاً و « مثيراً » ، المقصود منه تحويل الاضواء عن مآسينا الحقيقية وعن الجرح الكبير النازف في قلب كل مواطن مسحوق ، سئم جلاديه وقيوده ... مهما كانت حكاياهم مسلية وطريفة فانها لن تبعث بنا الى النوم ولا الى النسيان ...

فمن اغمدوا في جنبه خنجراً لا ينام حتّى ولو روت له « البيانات الرسمية » الحكايا عن مغامرات غانيـــات بيروت الصغيرات والبائسات ، العذارى منهن والمتزوجات ، وطمأنته الى انه قد تم القاء القبض عليهن ، وهمست في اذنه « ان « الفضيلة » في خير فناموا » ! !

فالجرح لا ينام ... ولا الخنجر المسموم !

* * *

الليلة سمعت دوي انفجارات وظننت ان « الجولة الرابعة » التي « يبشروننا » بها في استمرار قد بدأت ! .. وطبعاً خفت ودب الذعر في نفوس بقية المارة أمثالي في الشارع الملاصق للبحر المؤدي الى « السان جورج » ، وفندق « الهوليداي إن » .

تراكض الناس ، بعضهم الى سياراتهم والبعض من سياراتهم ، وتحولت الوجوه الى شارات استفهام قلقة ...

حدث ذلك كله في سرعة . سقط القلب في سرعة ، وفي سرعة أيضاً شهق ثم بدأت الحواس تتبين حقيقة ما يدور ، والخطى تتجه نحو مصدر الانفجارات : إنها ألعاب نارية تنطلق من أحد الفنادق المترفة هناك (؟ !) أو من يخت ما أو سطح ما ... لا ندري ! هنالك مترف ما يحتفل بمناسبة خاصة ، كعيد ميلاد ابنته او قطته ، او بعيد ميلاد عشيق زوجته ، او بلا مناسبة اطلاقاً ... لا ندري !

كل ما ندريه هو أننا ذعرنا ، ووقفنا نتأمل الألعاب النارية كاليتامى على مائدة اللئام ، بغصة وغيظ !

كانت الالعاب النارية تتفتح على صدر السماء الزنجية مثل وردة افريقية وحشية مضيئة ، وكان المشهد جميلاً ، وكانت قلوبنا حزينة حزينة !

حين يكون الوطن مهدداً وبائساً ، وسماؤه مسرحاً لطائرات العدو ترتفع فيها

كل يوم مخترقة جدار الصوت ، تصير الألعاب النارية في سمائه تذكيراً لنا بالفرح الذي نفتقد ، والطمأنينة التي قضت نحبها . تصير شبيهة بابتسامة على شفتي محتضر !

كنا نسمع الانفجار اكثر مما نرى الضوء ، وكان الانفجار يحمل الينا ذكريات الماضي ورائحة البارود وتهديد المستقبل ...

وحين تحولت السماء الى حقل من النجوم الملونة ، شاءت الصدفة ان تمر دبابة وخلفها سيارة مصفحة ... وانطفأت النجوم النارية ، وتسمرت عيوننا على الفوهة السوداء للمدفع . آخ ! شعرنا جميعاً بأننا نسكن داخل نفق المدفع ... آخ !

١٩٧٥/٩/٢٩

آه .. لو يهطل المطر !

اوقفوا هذا الجنون لأنه لم يعد بوسعنا ان نفعل شيئاً ... – طيباً أو شريراً – . انك لا تستطيع ان تنام ووسادتك قنبلة موقوتة .

انك لا تستطيع ان تصحو وبيتك فوهة مدفع . انك لا تستطيع ان تأكل والبارود ملح خبزك . انك لا تستطيع حتى الهرب وقدماك غارقتان في نهر الدم ...

انك لا تستطيع ان تحب وانت تطلق الرصاص على رأس المستقبل .

لا تستطيع ان تفكر وموسيقاك صراخ الرشاشات .. لم يعد بوسعنا ان نفعل شيئاً . لا أن ننام ، ولا أن نصحو ، لا أن نحب ولا أن نكره ، لا أن نتحمس ولا ان نسترخي ، لا أن نرسم الجهات الخمس ، ولا حتى ان نحزن في الجنازات ، بعد ان صارت اجسادنا توابيت متحركة في الشوارع ، لا ندري في أية لحظة تهوي لتوارى التراب ... دونما معنى ..

عشرة آلاف جريح وثلاثة آلاف قتيل سقطوا هذا الأسبوع في بيروت ... هل يمكن أن ننسى ذلك ذات يوم ؟

كل شيء جميل يكاد يتوقف فينا ، وحولنا ... الحب ، والفرح ، وانعكاس الشمس في عيوننا ، واللهفة ، والانتظار ، كل شيء يكاد يتوقف كالنظرة الزرقاء الجامدة في عيني ميت بارد ... كل شيء جميل يكاد يتوقف فينا وحولنا ...

ويدهشني أن النساء لم يتوقفن عن الولادة في هذا الوطن الحزين ! ..

عذاب تسعة اشهر من صنع الحياة ليلاً نهاراً ، تنهيه رصاصة ثمنها أقل من نصف ليرة ، وضغطة عابثة على زناد ! ..

« مجتمع الذكور » الذي احترف مؤخراً صناعة الموت ، لا يستحق ان نمنحه

حقول اجسادنا ليزرع فيها الحياة ، ثم ينسى مسؤوليته أمامها ...

يا نساء هذا الوطن الحزين .. الجموا جنون « مجتمع الذكور » الذي يحصد بمنجله أطفالنا واحباءنا ...

فالموت ليس مأساة ، إلا حينما يصير دونما معنى .. وقد صار صوت شلال الدم مؤخراً أعلى من صوت نبع العقل ! ...

* * *

أفضل علاج لمداواة الصداع هو .. قطع الرأس ... هذا باختصار ما يحدث في بيروت .

١٣ / ١٠ / ١٩٧٥

سيد القوم ... خادمهم !

خبر عجيب غريب نشرته صحفنا كلها .. يقول : « أحد نوابنا طالب باحالة مذيع على المجلس التأديبي طالباً انزال « أقصى العقوبات » به لانه أذاع اقتراحاً يقول بوجوب نزول نواب الشعب إلى شوارع العنف والمتاريس ... ليطلعوا على حال الشعب الجائع البائس » .

* * *

مجلس تأديبي فقط ؟

اقتلوا هذا المذيع ٩٩ مرة (مرة عن كل نائب) . اشنقوه أولا ، ثم أعدموه بالرصاص ، ثم انقلوه إلى الكرسي الكهربائي ثم ضعوه مع ميكروفونه في غرفة الغاز ثم علقوه على سلك هوائي (أنتين) كبير ودوروا بجثته في الشوارع العامة كي يكون عبرة لكل موظف مخلص يفكر بأداء واجبه حقاً ، ودرساً لكل من تسول له نفسه أن يصل ليله بالنهار متابعاً التطورات الأمنية، واهباً حياته لتهدئة المواطنين وارشادهم إلى الدرب الأقل تعرضاً للقنص، ناقلاً صرخات المعذبين من أجل الماء والكهرباء والرغيف...

مجلس تأديبي فقط ؟ اخنقوه ، واتركوا على عنقه النحيل كطائر القحط بصمات ٩٩ قبضة لا ترحم ! ...

...وماري انطوانيت ما تزال تأكل الجاتوه والبسكويت ...

* * *

هذا المذيع مجرم كبير ...

انه يذكرنا بما يجب أن يكون عليه جميع مسؤولينا .. انه مذنب بجرم التحريض ، فعطاؤه تذكير لنا بتقصير سواه عن العطاء . واندفاعه في العمل وقربه من قلوب الناس يكشف بشاعة إهمال سواه وبعدهم عن أزقة بؤسنا نحن البسطاء ..

هذا المذيع، رب الاسرة الكادح الموظف، يذكرنا ببديهية تكاد تكون منسية : لو

كان الجميع يعملون كما يعمل لما كنا على هذه الحال ، رغم انهم جميعاً (يقبضون) رواتبهم من الضرائب التي ندفعها نحن ... ومخصصاتهم .. وتقاعداتهم ... و ... وإلى آخره ... ويقبضون أضعاف أضعاف أضعاف ما يقبض !

* * *

مجلس تأديبي فقط ؟ ..

بل أحرقوه فوراً في أحد أفران الغاز .. كي لا يبقى منه أي أثر ...

لقد كان لمسة حنان في أيام بيروت الدامية ولياليها .. وكان جسر المشاركة الوحيد بيننا وبين « مؤسسة رسمية » هي الاذاعة ... وحده استطاع أن يردم الهوة بيننا وبينها ، ووحده استطاع أن يشدنا إلى اذاعتنا بعد أن كنا نتسول الاخبار من اذاعات مونتي كارلو ولندن وسواهما ... ولكن ، محرم على جرحنا لمسة حنان ، أو وميض معرفة ... والمئات منا (ينفقون) في الازقة المروعة . بأي حق يمد صوته الشافي إلى قدرنا المظلم؟...

* * *

لو اقترح هذا المذيع على النواب السفر إلى أوروبا في مثل هذه الظروف — لا سمح الله — لكان من الضروري احالته إلى مجلس تأديبي بحجة تحريض النواب على الهرب من واجبهم المقدس .

لو اقترح مثلا على النواب ملازمة بيوتهم والاختباء داخل صناديق ثرواتهم الحديدية لحقّت معاقبته بتهمة سوء الظن بالذين انتخبهم الشعب شركاء لحياته في الفرح والضراء ، والسراء والحزن .. والحزن .. والحزن ..

* * *

ألهذا الحد صار أكثر حكامنا ضيقي الصدر بصوت الشعب ؟

ألهذا الحد ارتفع البرج العاجي لبعضهم حتّى صار يعتبر مجرد التمنّي عليه بالمرور في شوارع عامة الشعب إهانة لا تغتفر ؟

وهل يظنون انهم خلقوا فقط لنحملهم فوق اكتافنا ونُزفّهم إلى المجد ، حتّى ولو تحولنا نحن الرعية إلى قافلة من الجرحى والجثث ؟

* * *

مجلس تأديبي ؟ بل اطبخوه في الساحات العامة داخل مرجل كبير وتعالوا نرقص حوله .. فالجنون قد بلغ مداه ... وبين مسؤولينا من نسي ان السيد المسيح كان يغسل

بيديه الطاهرتين أقدام الفقراء والمعذبين .. وأن النبي محمد كان يعيش بين قومه ووسط خيامهم ويشاركهم تشردهم وقتالهم .. وجراحهم .. وأن عمر بن الخطاب كان يدور في الازقة ليلاً ولا يستطيع النوم اذا لم يطبخ الطعام بيديه للأرملة التي كانت تغلي الحصى لأيتامها الجياع واعدةً اياهم بوليمة وهمية ... وأن سيد القوم خادمهم !

* * *

ترى هل يوافق بقية النواب على مطلب هذا النائب ؟ ولماذا هذه الحساسية الفائقة أمام أي مطلب شعبي مهما كان عفوياً وصادق النية ، ولماذا لا تلقى مآسينا الحساسية نفسها ؟ ...

* * *

باسم البسطاء أمثالي ، اسمّي هذا المذيع نائباً في « مجلس العذاب » الوطني ...

وأتساءل ، ترى من الذي يجب أن يحال على مجلس تأديبي ، هو ، أم نصف مجلسنا النيابي على الاقل ؟!..

* * *

رأس ماري انطوانيت المقطوع ، المشلوح على الارض قرب المقصلة ما يزال يأكل ... الجاتوه !

١٧ / ١١ / ١٩٧٥

حملة تلقيح ضد ... اليأس !

طيلة اسبوع الرعب الذي تحول بيتي خلاله إلى ساحة حرب ، كنت اتساءل : ترى هل سأنجو ؟ طيلة اسبوع الرعب كنت اكتب واكتب كي لا اصاب بالجنون ... فصوت الصواريخ والرصاص سيمفونية جنون تفتك بالعقل أكثر مما تفعل اغاني عرائس البحر بالبحارة في اساطير عوليس (يوليسيس) ومغامراته الهوميروسية .

« كوابيس بيروت » .. لم يكن ممكناً أن اسمي كتاباتي شيئاً آخر ... وكنت اتساءل وانا اكتبها : ترى هل سأنجو وأجد فيها مادة أولية لكتابة ما ؟ ، أم ستطمرني واياها قنبلة ما تحت بيتي العتيق ؟ مع كل سطر كنت اخطه ، كانت غصتي تكبر : هل سيتحول هذا السطر إلى حروف مطبوعة أم إلى رماد ؟ ..

وقد حاول عدد من اصدقائي انقاذي أكثر من مرة . لكن حدة المعارك الدائرة حولي كانت تمنع المصفحة من الاقتراب بما يكفي لأقفز إليها ... ومرة اصيبت المصفحة بقذيفة (آر . بي . جي) واحترقت واحرقت معها محطة البنزين المجاورة ... هذه المحاولات الفاشلة كانت تسبب لي ألماً عظيماً ، لكنها في الوقت ذاته كانت بلسماً لي من الغربة ... كانت تشعرني بأن هنالك من يهمه أن أبقى على قيد الحياة ! ... أنا وسطوري ...

وكانت وجوه صديقاتي واصدقائي المقيمين والمسافرين تنزلق داخل رأسي وانا اتساءل : من منهم سينقذني ؟

وكانت المفاجأة ...

لقد (انجدني) انسان لم التق واياه قط . ونجوت مع كوابيسي ، ... وإلى حرب اخرى ؟ كوابيس اخرى ؟ منقذ آخر ؟ ... لا احد يدري ...

* * *

يتبعون اليوم في الدانمرك وسيلة جديدة للإعلان عن بضائعهم .. هي شواهد القبور ... وبعد ان استنفد خبراء الاعلان كل ما يخطر بالبال كجسد المرأة وفخامة القصور واغراءات العيش الهانىء على شواطىء البحار ، وبعد ان استغلت الإعلانات حتى رجال الدين ، وأظهرتهم في بعض الأفلام الاعلانية وهم ينصحون باستعمال صابون غسيل معين دون الآخر (!) مثلاً ، اتجهت الانظار أخيراً إلى ... المقابر ... وصار الإعلان يصور شاهدة قبر مكتوب عليها ما يلي : هنا يرقد المرحوم سميث الذي مات في التسعين من عمره دون ان تسقط من فمه سن واحدة أو يزور طبيب الاسنان .. فقد كان الفقيـــد يستعمل معجون ..... للاسنان منـــذ صغره ... وتتجه الكاميرا لشاهدة القبر الثاني ، فنقرأ عليها ما يلي : هنا ترقد المرحومة فيفيان التي تزوجت وترملت خمس مرات وماتت في الخامسة والتسعين وكانت مـــا تزال في شهر العسل مع زوجها السادس ... والفضل يعود إلى استعمالهـــا صبغة ..... للشعر ومشدّات ..... للرشاقة . رحم الله الفقيدة .. الخ ...

لو طبّق المبدأ نفسه عندنا في لبنان ، والحرب الأهلية تلتهم كل شيء ، لقرأنا على شواهد القبور إعلانات لتجار السلاح تقول مثلاً : هنا يرقد المرحوم سليم الذي مات في الثامنة عشرة من عمره وهو يتفجر صحة وحيوية ... والفضل يعود إلى بندقية (فال) ومنظار (ترغال) التي مكنت من اصطياده في القاب تماماً . رحم الله الفقيد ... وعلى شاهدة اخرى نقرأ ما يلي : هنا قبر جماعي لخمسة اطفال اصطادتهم رصاصة واحدة من النوع ذي الانفجارات العديدة ... رصاصة تتفجر وتركض ككرة البليارد ... استعملوا رصاص (...) المتعدد الانفجارات المصنوعة من أفضل انواع البارود وشرّفونا تجدوا ما يسركم من لوازم الحروب الاهلية ... رحم الله الاطفال ... إلى آخره ...

الشيء الوحيد الذي يحول دون تنفيذ هذا الاسلوب الإعلاني في حربنا الأهلية .. هو أن أكثر موتانا بلا قبور ... ولا شواهد... لكن صورة واحدة لبيروت قبل الحرب الاهلية ، وبعدها ، هي افضل اعلان عن ماركات السلاح المختلفة ، بعد ان تحولنا إلى مدينة فئران اختبار ، لتجريب الدمار في اجسادنا ...

* * *

صديق فنان هتف ليقول : سأتزوج ...

قلت : لا تشترِ فراشـــاً للعرس ، بل اشترِ تابوتـــاً وناما فيه ... توفـــيراً للتكاليف ! ...

ما تزال بعض صحفنا تتضمن العمود التقليدي الخاص بالوفيات ..

لماذا ؟ ...

ألم تصبح صفحاتها كلها مجرد إعلانات عن الوفيات أو عن الذين هم في دربهم إلى الموت ؟ .. البارحة ، فرحت كثيراً حين قرأت خبراً عن ولادة طفل ... دهشت أيضاً ... أما زالت البراعم الخضر تنمو في حقل الرماد ؟ ...

* * *

... ويقومون بحملة تلقيح ضد التيفوئيد والشلل والكوليرا وبقية الامراض التي ستغزو أجسادنا المرهقة ... يا وزارة الصحة ... نريد منك تلقيحنا ضد .. اليأس ! نريد لقاحاً ضد اليأس ، فهو أخطر مرض يفترسنا في هذه الايام الحزينة ...

* * *

اعلان في احدى الصحف نشره شاب ، يقول فيه : انا (.....) من سكان بيروت أعلم أهلي في النبطية انني بخير ... وتذكرت (نحن بخير طمنونا عنكم) وحزنت . أية مأساة ان نعيش في وطن ، يصير فيه مجرد بقائنا أحياء نبأ يستحق النشر والاعلان ؟!.

٣ / ١١ / ١٩٧٥

تريد رغيفاً ، وليست متسولة !

لا يمكن ان يكون ذلك قد حدث فعلاً . إنه يبدو لي كمشهد من فيلم بوليسي وثائقي مروع . كمشهد خارج من تاريخ الثورات ، ومن أعماق اللامعقول ...

لا يمكن ان يكون ذلك قد حدث فعلاً ، ولكن الصحف كلها نشرت الحادث معززاً بالصور ...

حين خرج النواب من جلستهم بالمجلس النيابي البارحة التقوا على الباب ببعض المواطنين المتظاهرين .... كان بينهم أربع نساء يلخصن في صيحاتهن شكاوى الشعب كله . لم يتوقف أحد . هرعوا الى سياراتهم . أحدهم (لا أعرف اسمه فالصحف لم تذكر ذلك) ، أخرج خمس ليرات وأعطاها لاحدى النسوة بينما هو يركب سيارته ، وتحركت السيارة به بينما مزقت المرأة الليرات الخمس . (ستوب). انتهى المشهد .

* * *

لا . لم ينته ...

القضية ليست قضية خمس ليرات او خمسة آلاف ليرة .

القضية قضية سوء تفاهم كوارثي . اسم النائب لا يهم ، اسم المرأة لا يهم . انهما ببساطة يلخصان مأساة الوطن . فلنسم النائب : الحكم .. او المسؤول .. او بعض المسؤولين ، ولنسم المرأة : الشعب .

الحادثة مروعة ، لانها تلخص ببساطة مذهلة مأساة لبنان . فالمرأة قد تكون بأمس الحاجة الى ثمن رغيف ، او لا تكون لكنها جاءت تطالب بحقوقها ولم تأت لتتسول ...

والنائب الذي اعطاها الليرات الخمس انما اعطاها ك « صدقة » الى « متسولة » ... والشعب يطالب بحقوقه . الشعب ليس متسولاً ... ولذا مزقت المرأة عفوياً ولاشعورياً الليرات الخمس ، ولو كان النواب يسمعون جيداً ، لو

أرهفوا آذانهم ، لأصمها هدير تمزيق الليرات الخمس ... كان الصوت أعلى من صوت سقوط المقصلة ! .

* * *

أين يعيش أكثر مسؤولينا ؟ .. كل يوم نزداد وعياً بتلك الهوة المروعة بين الحاكم والشعب ... ولن يستطيع الحكم المثقل بالذنوب ان يمشي الى قلوبنا الجريحة المحروقة فوق جسر ليراته الخمس ...

هل هناك من يتوهم حتى اليوم بأن الحكاية هي مجرد سوء تفاهم ديني ؟ ! ..

هل هنالك من يصدق حتّى هذه اللحظة انه يستطيع ان يحشو حناجرنا الغاصّة بالصرخات بخمس ليرات ، وبالأحرى بصدقة على متسول ؟ ...

* * *

(مجلس النواب) ، ام (مجلس الاغتراب) ؟ ... اكثر حكامنا اغتربوا عن الشعب ، عن الزمن الذي يُنْبِتُ في موقع أقدامهم عشرات الاصوات الجديدة والرؤى الجديدة ... انهم يعيشون في عالم وهمي ، وما دامت الشوارع تصير آمنة حين يرغبون بالمرور ، والموائد تصير عامرة حين يرغبون بالأكل ، والجدران تصير مبطنة بكاتم الصوت حين يرغبون بالنوم ، فأنهم سيظلون ، عبثـاً ، يتوهمون حقوقنا صدقة ...

انهم لا يعون معنى الخطف إلا حين يخُطف أصدقاؤهم ... انهم لا يحملون سيف العدالة إلا لضرب خصومهم الشخصيين ... انهم لا يتحدثون عن (الحوار الفكري) الا حين يصير بيتهم محاصراً بالرصاص ! ...

* * *

أغلقوا أبنيتهم الرسمية . أنزلوهم من عالمهم الوهمي الى عالمنا البائس . قولوا لهم أن يعقدوا اجتماعاتهم في الشياح . في عين الرمانة . في رأس النبع . في الاشرفية ، والقنطاري وكليمنصو . لعل صوت الرصاص وانفجار الصواريخ (التي تنفجر هذه اللحظة على احد جدران بيتي كالزلزال ، وتفوح رائحة البارود ام الحريق ؟) يصل اليهم وينقل اليهم بعضاً من نبض مدينة الملاجىء : بيروت .

فليعقدوا اجتماعاتهم في الكرنتينا أمام اكوام الجثث المجهولة المتجلدة في البرادات ، فليعقدوا اجتماعاتهم في المقابر ، او في شوارعنا العامة التي صارت

مفروشة بموتى بلا قبور ، لعلهم يعون مناخ ايامنا . فليعقدوا اجتماعاتهم في الملاجىء حيث تهجم الفئران علينا نحن (الهاربين) من النار الى الأقبية ، او أمام احد الافران على الاقل ليروا رغيفنا المغمس بالرعب والدم والبارود ... ويذوقوا طعمه ...

* * *

أكثر حكامنا ومسؤولينا ما زالوا يتحركون داخل سحابة أوهامهم ، وقد انسحبت تحت اقدامهم سجادة الواقع ، وخارطة المدن والقرى والجبال والوديان والانهار وكل اسمائها ... انهم يتنقلون بين فنادقهم الفخمة وصالوناتهم العامرة ومجالسهم المحروسة بالدبابات ومخابراتهم المسهلة باللاسلكي ، وهم ما زالوا يتقاسمون الغنيمة والغنيمة صارت جسداً يحتضر ...

فليخرجوا ولو يوماً واحداً الى عالمنا ... فلتستضفهم أسر هذا الشعب الذي تمزق احشاءه أنياب الجوع والرصاص ... فليبيتوا مثلنا ولو ليلة واحدة فوق لغم ... فليتمددوا ولو ليلة واحدة مثلنا ، مصلوبين على سطوح قرميد كشرائح اللحم المقدد على نار الصواريخ ... فليهبطوا من كوكبهم الوهمي الى عالمنا ... عالم (الحق) لا (الصدقة) ...

ولكن ماذا تعني هذه الكلمات لنفوسهم الممددة على طاولات السونا والمسّاج ؟ ؟ ...

* * *

خمس ليرات ؟ ...

انك لا تستطيع ان تغطي قرص الشمس بها ... انك لا تستطيع ان تغطي عورات هذا الوطن الحزين بها ، انك لا تستطيع ان تستر بها جرحه ، انك لا تستطيع ان تجفف بها دموعه المنسكبة كطوفان نوح .

خمس ليرات ؟

كمن يحاول ان يداوي السل بحبة اسبرو . كمن يحاول حفر الجبل بدبوس شعر . كمن يحاول افراغ البحر في صدفة . كمن يحاول إدخال الجمل من ثقب الابرة ، الى ملكوت النسيان ... لا جدوى ... فقد صار النسيان ذاكرة المستقبل ... والليرات الخمس المرمية كصدقة ، لن تغسل ذكراها سوى خمسة قرون من العدالة الاجتماعية ... وقد تدفع ثمنها خمسة ملايين ضحية ... وخمسة اجيال !! ...

١٠ / ١١ / ١٩٧٥

رغيف بالزعتر ذات صباح حزين !

ثلاث مرات هذا الاسبوع ، حملني بذراعيه الشاسعتين – مداهما الكرة الأرضية بأكملها – وركض بي في شارع اللاعودة ، ثم عاد وأفلتني على رصيف الحياة ... ثلاث مرات هذا الاسبوع ، احتضنني وضمني إلى صدره ، وقبل ان أتحد بملكوته إلى الابد ، بدل رأيه وأعادني إلى زمني ومكاني وآلامي ...

ثلاث مرات هذا الاسبوع ، تقدم مني وسط شلالات الرصاص ومطر الرعب والدم ، ومد أصابعه التي لا تُرد ليستخرج قلبي ، بئر الافراح والاحزان ويملأه إلى الأبد بحامض النسيان الأسود الكاوي ...

ثلاث مرات هذا الاسبوع دخل « السيد الموت » غرف جسدي ، ورفع راياته على جدران عمري ، ورقص جنوده فوق حبال أعصابي ، ثم غادرني دون ان أدري لماذا ...

ثلاث مرات هذا الاسبوع غازلني « السيد الموت » وكدت أتحد به إلى الابد ... ثم هجرني ...

الآن جاء دور « السيد الموت » ليغازلني ... الآن جاء دوره ليمتلكني كما لم يعرف أحد كيف يمتلكني ...

* * *

برقية ١ : إلى من لا يهمه الامر . استيقظت ذات صباح لاجد نفسي سجينة في بيتي وقد تحول كل ما حولي إلى ساحة حرب . فندق « الهوليداي ان » المواجه لرف كتبي واوراقي صار بركاناً . والشارع ساحة حرب ...

* * *

برقية ٢ : إلى مدينة الحزن – شارع البسطاء أمثالي الذين يتوهمون القلم سلاحاً والأبجدية جيشاً والكلمة درعاً ...

ضع رصاصة إلى جانب القلم ، تتوهم أن القلم أكبر حجماً .

ولكن حين مرت الرصاصة الأولى ماسحة طرف اذني اليمنى ، أمسكت بها ووضعتها إلى جانب قلمي ... كان حجمهما واحداً تقريباً ، لكنني للمرة الاولى لاحظت ان الرصاصة كبرت فصارت عموداً من نار ، وان قلمي ارتجف ونحل فصار مثل ريشة طائر مجروح ... لا حيلة لها امام عاصفة النار ...

* * *

سبعة ايام غازلني الموت خلالها ، وأشبعني قبلاً من نار ، وقصائد من رصاص وقنابل ...

وكان علي أن أختار بين الموت جوعاً اذا بقيت داخل بيتي العتيق ، أو الموت برصاصة أو شظية اذا تجرأت ، وفتحت النافذة وصرخت ، أو مشيت خطوة إلى الشارع ... نسيت الاحتمال الثالث : الموت معجونة بجدران البيت العتيق اذا زارنا صاروخ من تلك التي تنهمر علينا بدلاً من المطر ...

* * *

سبعة أيام ...

ورغم زلزال القيم الذي اجتاحني ، ظللت متمسكة بقلمي ، وظللت أسطر لحظة بلحظة كل ما يدور في شارع التنهدات وشارع الموت وشارع الشمس وشارع الرعب وشارع الامل التي صارت تحد بيتي من الجهات الخمس ...

واذا كان الغزل يفجر الكتابة ، والحب ينبوعها ، فان الغزل مع الموت يفجر الأبجدية حتى جذورها وكما لا تفعل أية علاقة حب ... الموت ديناميت مقالع العطاء ومناجمه : انك ترى الاشياء بعين جديدة الصفاء ، وتتعرى جذور الاشجار لناظريك ويصير التراب شفافاً ، وترى بوضوح نسغ الحياة وعناصرها الحقيقية داخل الأوراق الخضر .

وكتبت ... كتبت وانا منبطحة على الارض في الدهليز المعتم ... كتبت على ضوء الشمعة حين رحلت الكهرباء مع كل معالم الحياة المتمدنة ... كتبت قرب جهاز الهاتف الذي قضى نحبه ومعه آخر خيط أمل بسماع أصوات الذين يشاركونني — ولو بقلوبهم — موتي العملي الجسدي ...

* * *

الهاتف ؟ ...

ولن أنسى صوت الاصدقاء ، ومحاولاتهم المتكررة لانقاذي .. ولن انسى المصفحة التي ساهموا بمجيئها قرب بابي ذات ليلة ، ثم انهمر شلال الرصاص .. وانسحبت المصفحة وهي عاجزة عن انقاذي بينما التصقت انا بالعمود الذي أحتمي به كتلة من اليأس مثل وحيد في جزيرة وقد خلفته آخر سفينة نجاة ... وكان الرصاص يلفني كالزوبعة ... والليل مظلم وموحش كما لم يكن أبداً ... وانا مذعورة ووحيدة ومهجورة وعاجزة حتى عن الصراخ .. كان فمي مليئاً بالرماد والدم والبارود .. والدمع ، لقد فجروا سواقي النار على طول اعوام ثم هربوا بثرواتهم إلى اوروبا وها نحن اليوم نعاني ثمرة الطوفان الأول لنهر النار !

* * *

يقولون أن الادب الحقيقي يكتب دائماً على الخط الفاصل بين الموت والحياة ...

وعلى الخط الفاصل بين الموت والحياة عشت سبعة أيام بلياليها ...

وكنت أكتب وأكتب وأكتب ... وأعترف لكم انني لم أكن اكتب من أجلكم... (رغم ان الحصيلة كانت مادة أولية لا بأس بها لرواية ما، قد تكون كوابيس بيروت) .

أجل ! لم اكن أكتب من أجلكم ... ولا من أجل الادب (والخلود) ...

بخجل وذل مجرم صغير ، اعترف لكم : كنت اكتب فقط لأحافظ على وعيي . كنت أكتب كي لا أنهار في ليل المتفجرات ورشاشات ٥٠٠ وقذائف (ار . بي . جي) والصواريخ وأتفتت في قلب الظلمة كحفنة ملح اجتاحها مياه طوفان العنف ...

كنت اكتب لأستمر على قيد الحياة .. ولأحمي نفسي من الجنون ! ...

* * *

برقية ٣ : إلى الملازم ملاعب والرقيب ز . زين .. اينما كنتما ، في خندق أو سحابة رصاص أو مصفحة أو سرير مستشفى ... اينما كنتما فلتصل صرخة شكري اليكما لإنقاذكما حياة اوراق « كوابيس بيروت » وبقية اوراقي التي ظلت ساعات ضائعة بين المصفحات وعلى خطوط اللاسلكي ... (المادة الخام لرواية هي مشروع حياة ، أي أنها طفل !) .. إليكما ، وإلى الذين انقذوا حياتي باخراجي من بيتي — القبر ،

وإلى الذين قاسموني لقمتهم الفقيرة (رغيف بالزعتر — مناقيش) في « القنطاري » ذلك الصباح الحزين أهدي سطوري ولو كره القناصون !! ...

٢٤ / ١١ / ١٩٧٥

جائعات شارع الحمراء ببيروت !

أهذا رعد ، أم صراخ قلوبنا ؟ ..

انه الخريف . عاد إلى غاباته ليجدها محروقة . عاد إلى دروبه فوجدها مفروشة بالجثث . عاد إلى شطآنـــه فروت له الريح حكاية صيف بيروت الدامي ... إنه الخريف ...

عاد إلى شعبه من الطيبين والبسطاء والعشاق ، فوجدهم ينزفون ... ربما لذلك قضى الليلة السابقة بطولها وهو يبكي ويبكي ويبكي ... وتوهم الناس دموعه مطراً ....

ما يهطل هذا العام ليس مطراً . إنه دموع الفصول الأربعة !! ....

* * *

...ورفعوا عربات الباعة المتجولين ودككهم الخشبية الفقيرة (البسطات) من « شارع الحمراء » ببيروت ، في محاولة يائسة لإعادة (الوجه السياحي) للشارع الذي يعتبره البعض مقابلاً لما تمثله جادة الشانزيليزيه في باريس ، واكسفورد ستريت بلندن ، وفيا فينيتو بروما ...

ولملموا صرخات الباعة المنكوبين عن الأرصفة ، وتخلصوا من هجمة الطبقة الشعبية على الشارع للتزود بكل ما يخطر بالبال من مأكل ومشرب وملبس .. وعادت الكراسي في مقاهي الارصفة تنتظر زبائنها من (ثوار المقاهي) ... ولكن ، هل يمكن لأي شيء أن يعود كما كان حقاً ؟

أبداً ... حتى طعم القهوة الحارة على الرصيف ذات صبيحة خريفية ماطرة لن يكون له طعم (الهال) بل طعم الجرح ...

أولئك الذين سكن بؤسهم أرصفة شارع الحمراء لن يغادر بؤسهم أرصفة

ذاكرتنا ، ولا بؤس المحيطين ببيروت كالحزام ...

انك لا تستطيع أن تداوي الجرح بستره عن الانظار ... انك لا تستطيع ان تخبيء الوجه الممزق الدامي لبيروت بقناع شارع الحمراء ..

انك لا تستطيع علاج العضو المصاب بالسرطان بدهن جلده (بالنيفيا) ..

لست ضد اعادة شارع الحمراء شارعاً نظيفاً حضارياً ، لكني ضد اعتبار هذه الخطوة كل شيء ...

إن نقل البؤس من المسرح إلى ما وراء الكواليس لا يلغيه .

إن اخفاء المريض تحت السرير لا يشفي مرضه .. ولا يخدره ... واذا خدره لفترة فإنه سيستفيق وهو أكثر شراسة ... وسينقض على جلاده،مدير المستشفى المصر على نظافة الممرات وصالة الاستقبال فقط ! ...

حذار من انفجار الجرح ... فصوته عاصفة رعدية محرقة ... واسألوا تاريخ الشعوب الاخرى اذا لم تصدقوني !

* * *

في شارع الحمراء ايضاً ....

كنا في التاكسي حين جاءت امرأة تتسول . اعطاها صديقي الغريب ٢٥ ليرة وهو يظنها ليرة واحدة (لتشابه الورقتين لوناً وحجماً) ...

وفي الدقائق الثلاث التي يستغرقها تبدل اشارة السير من حمراء إلى خضراء ، تجمعت حول السيارة أكثر من عشر متسولات يحملن اطفالهن ..

كن هائجات ونزقات كعش جائع من النحل اطلقوه على الربيع ... مشهد الـ ٢٥ ليرة جعل اقنعة التسول التقليدية من دعوات وتوسلات تسقط عن وجوههن وأصواتهن .. كن شرسات ، نزقات غاضبات ... لم يكن يتسولن ، وانما يهددن ...

(أبانا) الذي على (قمة الهرم) ، ألا يدري ما يدور ؟ ؟ ... ألا ينقلون له فظاعة الحقيقة ؟ الا يعترفون له بأنهم نظفوا شوارع الحمراء بفرقة أمن واحدة ، لكن تنظيفه حقاً من صرخات الجوع التي ستتحول إلى سكاكين ، يحتاج إلى أكثر من فرقة أمن واحدة ؟ ...

يحتاج مثلاً إلى ابعاد الحاشية الفاسدة التي مهمتها ان تمتدح جمال أثواب الحاكم ، واحضار الصوت الصادق الذي يصرخ به : ولكنك ايها الحاكم صرت عارياً !...

من مآسي وطننا حرص أكثر المسؤولين على إبعاد ذوي الكفاءات خوفاً منهم على مراكزهم ... ووضع (العاديين) في موقع المسؤولية لضمان بقاء (القيد) في رقابهم المربوطة إلى أصابع يد الحاكم كالأراجوزات ...

مأساتنا هو ان أكثر مسؤولينا يعملون على التخلص من الكفاءات وإبعادها عن المراكز الفعالة ....

بصراحة ... نريد للحكم وجوهاً لم تتسخ بعد ! .

* * *

كيف ؟

الاساليب التقليدية القائمة ستعيد الوجوه التقليدية ذاتها ، وسينزف الجرح من جديد ... والدستور يظل صورة فارغة من المضمون حين لا يملأ الرجال بنوده بمضمون إنساني من الحق والعدالة ...

ويبدو ان الزلازل الأربعة (يسمونها جولات بلغة السياسيين المحترفين) لم تعلّم ثعالبة السياسة لدينا أي درس .. ما زالوا يناورون و (يساومون) وكل يوم من المماطلة ثمنه عشرات القتلى ...

فهل تعيدهم إلى رشدهم وحدة الخوف على المصير. مصيرهم هم — على الاقل —؟ أم ستظل دموع الفصول الأربعة تغسل وجه هذا الوطن الحزين ؟ ....

٢٤ / ٤ / ١٩٧٥

الموت .. أكلا ! ...

يوم ٢٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ (أي منذ حوالي عامين) تم تتويج العزيز كيسنجر باكليل ازهار السلام ، فقد وقّع في ذلك التاريخ معاهدة « انهاء الحرب الفيتنامية » مع لي دوك ثو وتم منحهما جائزة نوبل للسلام مناصفة ، واقيمت على شرف ذلك الافراح والليالي الملاح في أعمدة الصحف ، ونال عبقري السلام كيسنجر نصيبه الوافر من التقريظ ... وها هو يتابع رحلة « سلامه » في الشرق الاوسط عندنا...

ولكن ، هل حقاً انتهت الحرب في فيتنام ؟ تقول الاحصاءات(عن مجلة «كويك » الالمانية) أن عدد القتلى في فيتنام منذ«معاهدة سلام كيسنجر»حتى الان هو ٢٢٣٧٠٠ ضحية ، أي حوالي ربع مليون قتيل ، بالاضافة إلى نصف مليون جريح . فأي سلام هو هذا السلام ؟!.

لقد انفجرت منذ « معاهدة سلام كيسنجر » حتى اليوم أكثر من ثلاثة ملايين قنبلة يدوية ، كما تقول الاحصائيات ، واطلقت المدفعية ١٤ مليون طلقة ، والبنادق حوالي ألف مليون (بليون) رصاصة ، ودمر عدد هائل من الطائرات والدبابات والسيارات يذهل قارىء مجلة « كويك » أمامها ولا يدهشه ان عنوان المقال هو «فيتنام الحرب التي لم تنته أبداً » ! ..

هذا هو سلام كيسنجر تتحدث عنه الارقام خيراً من أي أوصاف بلاغية نستخرجها من المعجم والقواميس . ومع ذلك ما زال في هذه الرقعة من الارض العربية من يتفاءل بـ « السلام » على الطريقة الكيسنجرية ؟!. ان عدد ضحايا سلام كيسنجر في فيتنام خلال العامين الاخيرين هو أكبر من عدد ضحايا الحروب العربية–الاسرائيلية الثلاث مجتمعة ! ..

هذه الارقام المرعبة تلفت النظر إلى حقيقة بديهية وهي ان السلام الكيسنجري

في فيتنام هو « سلام اميركي » لا « سلام انساني » ، أي أنه يهدف إلى حقن دماء الاميركيين فقط لا إلى حقن دماء بقية الجنس البشري ... وهكذا فان سلام كيسنجر هو نازي المنطلق هتلري الرؤية للشعوب . وحين يتحدث كيسنجر عن السلام في الشرق الاوسط فانه يهدف إلى حقن دماء الاسرائيليين وتجنب توريط اميركا مع روسيا . أما العرب فليذهب قتلاهم إلى الجحيم عبر مقبرة الشهداء أو محارق الابادة الجماعية ، لا فرق ! ..

ان أي حرب عربية – اسرائيلية لن تكبدنا من القتلى بقدر ما كبد سلام كيسنجر فيتنام من القتلى ...

ومع ذلك فان هنالك من لا يزال يلهث خلف وهم غصن الزيتون بين شفتي العزيز هنري ، صانع الحرب تحت قناع السلام ! ..

* * *

مجلة « ريدرز دايجست » الاميركية جداً بشرت قراءها باكتشاف طبي جديد أسمه « اسلوب هايمليخ » لانقاذ حياة الذين يموتون من الاكل ، من كثرة الأكل لا من قلة الأكل ! ..

وفوجئت بأن عدد الذين يموتون بالشراهة في الولايات المتحدة هم ٥ اشخاص يومياً ، لا يموتون جوعاً وانما يموتون أكلاً ! ..

وتتلخص الطريقة في أن يقف المنقذ خلف « الضحية » ويلف ذراعه حول خصره بحيث يتدلى القسم الاعلى من جسده إلى آخره إلى آخره ... ثم يتابع أكله من جديد ثم « يتشردق » ثم يتم إنقاذه وفقاً لـ « اسلوب هايمليخ » إلى آخره ! ..

وذهلت حزناً ...

فأمامي في مجلة « شتيرن » الألمانية صور الأموات جوعاً في كلكوتا وجثثهم المرمية في الشوارع بينما المارة يتابعون طريقهم دون ان يستوقفهم مشهد الموت جوعاً بعد ان صار روتيناً ...

في هذا العالم الذي تفترس أكثر أقطاره المجاعات . وتفتك بأطفاله وشعوبه ، هنالك شعوب يموت بعض أفرادها يومياً تخمة وأكلاً ! ..

« اسلوب هايمليخ » لانقاذ المشرفين على الموت أكلاً لا يعجبني . ففي هذا العصر

البشع ، مجرم كل من لا يعي ان كل لقمة زائدة يلتهمها هي لقمة مسروقة من فم إنسان آخر يحتضر جوعاً في اللحظة نفسها على رصيف ما من أرصفة هذا العالم الوحش...

وبدلاً من تطبيق « طريقة هايمليخ » على الميتين شراهة ، فمن الافضل تطبيق طريقة « سم الفئران » معهم بإرغامهم على تناوله في وجبتهم المجرمة ! ..

ولكن ، لماذا نقسو على الشرهين الصغار الذين تقف حدود شراهتهم عند حدود استيعاب معدتهم ؟ وماذا عن المجرمين الكبار الذين يلتهمون في وجبة واحدة نصيب شعب بأكمله ، ويقضمون أطراف القارات دون أن « يتشردقوا » أو يرف لهم جفن ؟!. واذا كان ٥ اشخاص يموتون يومياً في اميركا من كثرة الاكل ، فما أكثر الذين يلتهمون حصاد قرى بأكملها دون أن يصابوا حتى بالسمنة !

وهل تدهشنا بعد ذلك صرخات اليأس التي يطلقها من وقت إلى آخر الادباء والفنانون في لحظات « استفظاعهم » لما يدور ؟

٨ / ١٢ / ١٩٧٥

الموت الجميل !

عبد الامير حلاوي ...

لعل أكثركم لم يسمع بهذا الاسم من قبل .

صاحبه ليس مليونيراً ولا نجماً اجتماعياً ولا ممثلاً سينمائياً . انه ببساطة ، إنسان مات منذ ايام .. وكان موته جميلاً ... ونبيلاً .

لا .

لم يصرعه قناص في احد شوارع بيروت . لم يفترسه حاجز . لم يكن مجرد عابر سبيل محايد انفجرت بالقرب منه قنبلة ما ...

عبد الامير حلاوي كان رجلاً يعرف كيف يريد ان يعيش،ومن أجل ماذا يريد ان يموت ...

وقد مشى إلى الموت بخطى ثابتة ...

كان يعرف ان الاسرائيليين يريدون (رأسه) ... صمد في قريته كفركلا .. وقاتل ... واستشهد .. واستشهد بيته معه اذ نسفه الاسرائيليون ... كان رجلاً عظيماً لأنه كان كأكثر البسطاء والطيبين : لا يعرف الازدواجية ...

كان سلوكه متطابقاً تماماً مع أقواله ومعتقداته ... وقد مات من أجل ما يؤمن به ... وهذا هو الموت الجميل ...

فالموت الجميل هو ان تموت عن سابق تصميم وتصور .. وأن تكون قانعاً بمبررات موتك حتى قاع عظامك .. حينئذ يأتي الموت عذباً كتتويج نهائي لالتحامك مع ذاتك وقناعاتك ...

... لقد استطاع عبد الامير أن ينجو من الموت البشع .. موت الحياديـين

والمسالمين .. موت الذين يسقطون صرعى الصدفة ، واللامعقول في أزقة بيروت ... واستطاع ان يمتلك الموت الجميل : موت الموت !

* * *

من زمان كان المشي رياضة المسالمين والمتعبين ومرضى القلوب والشيوخ ...

كان الاطباء ينصحون الجميع بالمشي ، كرياضة مأمونة مريحة لا أخطار فيها ...

وكان التنافس بين الرياضات الخطرة شديداً ... كسباق السيارات والتزلج على الجليد ثم القفز إلى الهوة دون السقوط وكسر الاضلاع وغيرها من الرياضات ، وكان الشبان يتساءلون أيها أكثر خطورة وذلك كي يمارسوها للاستزادة من متعة الحس بالخطر ...

ولعل الكاراتيه والملاكمة والمصارعة الحرة تدخل كلها في باب الرياضة الخطرة ما دامت امكانية كسر الأضلاع ممكنة ... وكذلك رياضة ركوب الحصان مع قفز الحواجز ما دام السقوط وكسر الرأس ممكناً أيضاً ...

اما اليوم فقد صارت رياضة المشي — للأسف — أخطر رياضة تمكن ممارستها في بيروت ... إن المشي في شارع « الهوليداي ان » مثلاً مغامرة أين منها الدخول في ملاكمة مع محمد علي كلاي ، وقد تعود من (نزهتك) مشوه الوجه والاضلاع اكثر بكثير مما قد يكلفك لقاء مصارعة مع كلاي ...

اما المشي في شارع الشيخ بشارة الخوري مثلاً فمغامرة أين منها المشي على حبال السيرك المرتفعة عن الارض عشرات الامتار وتحتها أسود جائعة فاغرة الافواه ... صار القفز داخل برميل في شلالات نياجارا أكثر أماناً من المشي حتى على شرفة بيتك ...

صار المشاة في بيروت هم المغامرين ... وقطع الرصيف من جانب إلى آخر اخطر من قطع سباق (ليمان) ، والبائع المتجول يتعرض للخطر أكثر من جاكي ستيورات (بطل السيارات المشهور) ...

لقد تحول عزرائيل في بيروت إلى متسكع ، يحلو له التقاط زبائنه من الشارع ...

وحتى صيد السمك بالصنارة ، الذي لا يحتاج إلى أكثر من وقوفك في مكانك بصبر ، حولته احداث بيروت إلى مغامرة حربية مروعة ، لا لأن السمك صار شرساً يتسلق الصنارة ويصطاد صياده ، ولكن لأن القناصين صاروا يجدون في هواة صيد

الاسماك هدفاً (ثابتاً) ، وبالاحرى هدفاً نموذجياً للتدرب على القتل ...

يا أهل بيروت ويا زوارها .. تزلجوا على الجليد .. لاكموا كلاي وبروس لي .. صارعوا الثيران الهائجة .. اقفزوا عبر اطارات النار .. تسابقوا بسياراتكم في الدروب الجبلية الضيقة المثلجة ... اركضوا على الحبال مغمضي الأعين .. ارفعوا الأثقال حتى ولو كانت جداراً ، واقفزوا من الطائرات دونما مظلة إلى برميل ماء .. مارسوا اية رياضة تخطر ببالكم ، ولكن حذار من المشي ...

فقد صار المشي في بيروت أخطر رياضة عرفها التاريخ ! .....

* * *

إحدى الصحف المحلية ، نشرت في عددها الصادر في ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني) خبراً نقلته وكالات الانباء في طوكيو ...

يقول النبأ ان ميتسيو كادو أحد رؤساء مكاتب البريد في طوكيو أقدم على الانتحار شنقاً لشدة توتر أعصابه من جراء تأخر الخدمات البريدية أثر اضراب وسائل النقل والاتصالات في اليابان لليوم الرابع على التوالي ...

أهذا انتحار أم « اعتذار جميل » ؟ ...

أتساءل وفي القلب غصة .. ففي بريدنا تقبع ٢٠ مليون رسالة لم توزع بعد بسبب الاحداث ، ٢٠ مليون صرخة ، ٢٠ مليون نداء ...

هذه الـ ٢٠ مليون رسالة ، ألا تثقل ضمير أحد ؟ ...

ولو أقدم المسؤولون عندنا على الاقتداء بميتسيو كادو الذي شنق نفسه على شجرة ، هل كانت تبقى شجرة في لبنان لا يتدلى منها مشنوق منتحر ؟ .. وهل تكفي أشجار لبنان وغاباته مشانق للمسؤولين ؟ ..

١٥ / ١٢ / ١٩٧٥

أطلقوا سراح المجانين والسجناء !

اطلقوا سراح المجانين من مصحاتهم ومستشفياتهم الخاصة بهم ... فقد يكونون هم العقلاء الوحيدين المتبقين في بيروت ، مدينة الجنون ...

أطلقوا سراح المساجين من حبس الرمل وبقية سجون هذا الوطن الحزين ... فلعلهم من الابرياء القلائل الذين لم تتلوث أيديهم بالاحداث الاخيرة ، أو هم أقل اجراماً من جميع مجرمينا الطليقين في الشوارع ...

اطلقوا المجانين من مصحاتهم فهم أكثر تعقلاً من أغلبيتنا .. اطلقوا السجناء فهم اقل افتراساً من اكثر الذئاب الطليقة في ليالي بيروت ...

ان جنون القتل والذبح الذي سيطر على بيروت في يوم ٦ /١٢/ ١٩٧٥ ، يوحي بأن بعضنا من نسل « فرانكشتاين » لا من نسل « آدم » ! ..

انظروا الى شوارعنا التي صارت مقابر مفتوحة ممزقة الجثث ، وقولوا ، هل هذه شوارع أم غرفة طعام أحد الغيلان في اسطورة عربية قديمة ؟

انظروا الى ساحاتنا وحرائقنا وأنهار دمائنا وقولوا هل هذه مدينة عقلاء أم ردهات دموية شاسعة لمستشفى مجانين لامتناهية ؟ ...

هدوءاً .

قلنا لكم : نريد ثورة لا مذبحة . ثورة لا مجزرة .

ثورة بكل ما في الكلمة من ضياء .

ثورة ، لا حلماً من احلام المركيز دي ساد ..

مهما بذلنا من جهد « لعقلنة » ما يدور ورسم « استراتيجية » له ، و « أدلجته » (من ايديولوجيا !) ، فلا بد لأكثر المتعصبين من الأطراف كلها ، من الاعتراف بأن فيما يدور لمسة جنون سادية مروعة ...

في العام الماضي ، في مثل هذا الشهر بالذات ، ختمت روايتي « بيروت ٧٥ » بكابوس ، حيث يهرب أحد نزلاء مستشفى المجانين من سجنه ، ويقتلع لافتتها ، ويضعها عوضاً عن اللافتة التي تحمل اسم بيروت عند مدخلها ... وهكذا يرى القادم الى بيروت لافتة تحمل عبارة : مستشفى المجانين ... وفي مثل هذا الشهر بالذات كنت أسطّر في « بيروت ٧٥ » صرخات تهديد (الرعد) بقدوم عاصفة مروعة ...

لكنني اعترف ان جنون الأيام الاخيرة فاق توقعاتي كلها ... كنت أعرف ان هذه المدينة التي تدعى (بيروت ٧٥) تحمل بذور انفجار محتوم .. لكن فاتني ان ألحظ بذور السادية المنحرفة التي تنمو ضد ثورتنا العادلة (وتستفرس) في أيامنا هذه وتنتشر أشجاراً للشر واللعنة ...

ما حدث في هذا اليوم الأسود قد جعل من بيروت حلماً سادياً من احلام المركيز دي ساد ، الذي يرقص الآن في قبره طرباً بعد ان صار أباً روحياً للبنان ! ... وصار له اتباعه الذين ينفذون تعليماته ويتفننون في تطويرها ، ويبتكرون من أساليب التعذيب والإذلال ما لم يخطر له ببال ... ومن يدري ، فقد يحضر إلينا في دورة تدريبية ، ورحلة اطلاعية على فنون التعذيب التي فاتته ويرافقه فيها دراكولا والمستر هايد وكينغ كونغ وفرانكشتاين وغيرهم من وحوش الحكايا ... أم تراهم وصلوا وباشروا أعمالهم وتجاربهم على ابريائنا وثوارنا وكادحينا ومناضلينا ؟

أطلقوا سراح المجانين والسجناء المظلومين ، فقد يحملون الى بعضنا شيئاً من التعقل والبراءة والسلام ...

فبعضنا اكثر جنوناً واجراماً منهم ... لا .. بل اتركوهم في مستشفياتهم وسجونهم .. فقد صارت هي الأمكنة الوحيدة الآمنة في بيروت ! ..

* * *

واسرائيل لا يشفي غليلها ما نفعله بأنفسنا ... وها هي تغير من جديد على مخيمات الفلسطينيين ، قاتلة المئات من الابرياء والعزل ... والاطفال والنساء والعجائز ...

ما تفعله اسرائيل ، لا تقدم عليه وحوش الغابات .. ففي المجتمعات الحيوانية يقتصر القتال على الذكور القادرين على القتال .. وحين تتقاتل السباع تقف اناثها

وأطفالها دون ان تتعرض لهجوم وحش مفترس من الجانب الآخر ... وجميع حيوانات الغابة لا تخرج على هذه القاعدة (الأخلاقية) في قتالها ...

انظروا الى صورة الاطفال الفلسطينيين المصابين بالغارة الاسرائيلية وبالقنابل الاميركية الحارقة ، تعرفوا أن في غابة « عصر الفضاء » من لا يدين حتّى بشريعة الغاب ...

٢٩ / ١٢ / ١٩٧٥

بمناسبة رأس السنة : البقية في رؤوسكم !

الى فاتحي زجاجات الشمبانيا . الى لابسي الطراطير . الى مختزني الزعيق الاهوج في الحناجر . الى الجالسين على رصيف الليل بانتظار قدوم رأس السنة ... سيأتيكم « رأس السنة » هذا العام جثة بلا « رأس » ! ..

* * *

لا تنعوه . لا تبكوه . لا تمزقوا اقنعتكم و (ماكياجاتكم) وبزات « ديور» وفساتين «تيد لابيدوس»... فعيد هذا العام لا يختلف كثيراً عن عيد العام الماضي او الذي سبقه ... وقد كان (رأس) السنة يمد (رأسه) كل عام على بيوت لم تعرف طعم العيد منذ سنوات ، ويقرأ على جدران احيائها الفقيرة صرخات الغضب والبؤس والمرارة ...

والوطن باخرة ... ولا يستطيع القبطان أن يحتفل في الطابق الأعلى من السفينة ، بينما بقية البحارة يسدون ثقباً في جنبها ...

والثقب قد اتسع عاماً بعد عام ... والعقلاء ينبهون اليه منذ عشرات الاعوام .. ومع ذلك كان هنالك من يصدق انه يستطيع الاحتفال « برأس السنة » بأن يضيّع رأسه ويثمل ويعربد حتى لا يعود يسمع صوته الداخلي ، ولا أصوات مئات الآلاف من المواطنين الذين لم يمر بأيامهم عيد منذ أعوام .. والذين لم يمر بهم « عام جديد » منذ ولادتهم ، وهم منذ فتحوا عيونهم على الدنيا وهم يعيشون عاماً واحداً طويلاً لا يتبدل : اسمه الافتقار الى العدالة الاجتماعية ! ..

* * *

ملاحظة غير شعرية

لن يستعيد اللبنانيون « رأس السنة » إلا اذا استعادوا « رؤوسهم » . الذين يتوهمون

ان كل شيء يمكن ان يعود كما كان تماماً ، وان جثة العشرة آلاف قتيل التي غطت وجه الارصفة يمكن مسحها عن ذاكرتنا كما تمسح سماء الصيف غمامة عابرة هم مجرمون بحق (رؤوسهم) ...

رأس السنة اطاحت برأسه المقصلة ، مقصلة العنف هذا العام ، لكن الدموع من أجله ستكون قليلة لانه لم يحمل لنا جديداً على صعيد الحق والفرح والعدالة منذ اعوام ! ..

وبمناسبة رأس السنة : البقية في رؤوسكم ! .

* * *

ملاحظة شعرية قليلاً :

تظل السنة الجديدة تحمل، ضمناً، جثة سنة ماتت... وكل ذلك الصخب والضجيج الذي يستقبل به الناس رأس السنة في كل مكان ، أهو فرح لمقدم عام جديد أم هو بكاء على العام الذي قضى نحبه ؟ ..

وحتى العام القادم ، أليس فرقة من المسلحين عددها ٣٦٥ مسلحاً – أي بعدد أيام السنة – ؟ .. أليس كل يوم قناصاً يطلق الرصاص على يوم من أيام عمرنا ، قناصاً لا يخطىء ولا ينجو منه يوم ؟ ..

١ / ١٢ / ١٩٧٥

أول « مافيا للأطفال » في العالم !..

أيها الراكعون خلف المتاريس ...

أيها المتقاتلون في الشوارع ... أيها الرامون بالجثث المشوهة على الأرصفة ... أيها الساكبون في شرايين ليل بيروت رائحة البارود وبرق الصواريخ ...

هل فكرتم لحظة واحدة بما تسببونه لأطفال هذا الوطن الحزين ؟ ..

هل فكرتم لحظة واحـــدة بالجيل الذي يفتح عينيه على مشاهد الموت والدمار والاحتضار ، ويقضي اوقاته في الملاجىء منصتاً إلى أحاديث الكبار عن الخطف والتشويه والتعذيب والاسلحة ، بدلاً من أن يكون على مقاعد المدرسة (ولا اقول في صالات الموسيقى ، وملاعب الشمس والريح ، ومتاحف العلوم الطبيعية حيث يكتشف كونه العظيم ، ومتاحف تاريخ الاختراعات حيث يعي قدرة الانسان على الخلق لا على التدمير فقط) ؟

* * *

كنا من زمان نلوم التلفزيون لعرضه أفلام العنف على صغارنا خوفاً على (نفسيتهم) من التشويه ...

كنا نحمّل مسلسلات الاجرام التلفزيونية مسؤولية بعض جرائم الاحداث التي تقع بيننا ...

وكنا بالطبع لا نصطحب أطفالنا حينما تعرض احدى دور السينما اسبوعاً خاصاً بأفلام هتشكوك مثلاً أو غيرها من المهرجانات الخاصة بأفلام الرعب ...

ماذا نقول اليوم وقد تحولت نوافذ بيوتنا إلى شاشات تلفريونية تدور عليها طوال النهار افلام للرعب والعنف لم تخطر ببال مخرج من قبل ؟ .. واطفالنا مرغمون على قضاء أيامهم امام تلك النافذة التلفزيونية الجهنمية سجناء كوابيسنا التي لا تُصدق ...

ماذا نقول واسبوع هتشكوك السينمائي قد تحول في مدننا إلى ستة أشهر (ولا أحد يدري متى يتوقف) يعرض ليلاً نهاراً في شوارعنا وبيوتنا وعلى مرأى من أطفالنا؟ فيلم لم يعرف العالم مثيلاً لرعبه وقسوته وشراسته ؟؟ ...

ماذا نتوقع من أطفالنا الذين ينامون وهم يرون وسادة والدهم قنبلة يدوية وفراشه بندقية ، وذراعه خنجراً مسموماً ، ودميته المفضلة رشاشاً ، وموسيقاه اليومية يعزفها على مدفع هاون ؟ ... ماذا ننتظر منهم وهذه المشاهد تنطبع في لاوعيهم الغض ، وتؤثر في سلوكهم مدى الحياة ؟ ...

* * *

يبدو انه ليس علينا ان ننتظر طويلاً كي نعرف جواب هذا السؤال ...

في الصحف اليومية في الاسبوع الاخير (تباشير) نتائج التربية الارهابية لأطفالنا والمناخ الدموي الذي انشأناهم عليه ... (واذا كان لبنان يباهي دوماً بأنه اول من اخترع الحرف في العالم ، فيبدو انه سيكون ايضاً أول من اخترع «مافيا للاطفال» في العالم!)...

اقرأوا معي هذا الخبر من صحف البارحة : « وبينما كان بعض المواطنين يقيمون احتفالاً في حي الدورة في « .... » رمى الطفل م.س . وعمره عشر سنوات قنبلة يدوية قتلت ... إلى آخره » ...

لا يهمني أين قذفت المفرقعة . لا يهمني ماذا حدث بعد ذلك . ما يهمني هو عمر الطفل . عشر سنوات . طفل عمره عشر سنوات صار يرمي القنابل في هذا الوطن !... طفل البراءة حولناه نحن إلى رجل من رجال العصابات يرمي بالمفرقعات ويصنع الدمار ... لا تقولوا ان والده هو المسؤول ... كل والد في هذا الوطن مسؤول عن هذا الطفل . كلنا مسؤولون عن أطفال هذا الوطن الحزين الذين ينبتون كأزهار الشر في حقولنا المروية بالدماء والتي لم تعد تهب فيها سوى رياح البارود ولم تعد تهطل عليها غير أمطار النار والرعب ...

* * *

خبر آخر من صحف البارحة يقول « قبض رجال الامن على تسعة فتيان لا يتجاوز عمر كبيرهم الرابعة عشرة واسماؤهم ... وكانوا يقومون باعمال السلب والسرقة في بناية (....) بشارع (....) في بيروت ! » ...

انه خبر آخر مروع ...

اولئك الاطفال التسعة الذين القي القبض عليهم بتهمة السرقة أبرياء ، اطلقوهم ، فنحن السارقون الحقيقيون . نحن الذين سرقنا منهم مستقبلهم ، ونحن الذين سرقنا منهم طفولتهم ، ونحن الذين سرقنا منهم قدرتهم المذهلة على التعلم والتقليد ، ونحن الذين سرقنا منهم امكانات الحياة السوية ، ونحن الذين سرقنا من عيونهم فرحة اكتشاف العالم في هذه السن المدهشة ، وحولنا لهم العالم إلى مقبرة ، واللقمة إلى سرقة ، والامتلاك إلى عملية قنص !! .. أيها المجرمون الكبار ، حذار من خلق أول مافيا للاطفال ... في وطننا الحزين !! ...

* * *

ضحكت طويلاً وانا اقرأ المذكرة التي صدرت عن رئاسة مجلس الوزراء باعلان الحداد لمدة ثلاثة أيام على المغفور له الجنرال فرانكو وتنكيس الاعلام فوق المباني الحكومية بلبنان ...

أي حداد ؟

وهل نملك أية قدرة على المزيد من الحداد ؟ ألسنا في حالة حداد منذ عشرات الاسابيع ؟ ننكس الاعلام ؟ وهل بقيت لنا راية لم تحترق حتى ننكسها ؟ ..

وهل بقيت مبان حكومية فوقها أعلام ؟ .

واذا فرضنا ان ذلك موجود ، فمن هو (البطل) الذي يجرؤ على الصعود إلى سطح المبنى — أي مبنى — لتنكيس العلم ، دون ان يصطاده قناص ما ؟ ...

تعلنون الحداد على الجنرال فرانكو ؟ ...

ألا ترون ان لبنان بأكمله صار هو الحداد ؟ ! ...

* * *

ترى هل علينا ان نقدم الشكر لاسرائيل التي تخرق أجواءنا كل يوم بانفجارات اختراق الصوت ، وتذكر المتقاتلين — بالتالي — بوجودها الذي كاد المسلحون ينسونه في غمرة جنون القتال الأهوج ، وتذكر الجميع أينما كانوا بأنها العدو الحقيقي والأول والرابح الأول من كل ما يدور ؟ .. ترى هل تجمد يد الجلاد الذي يذبح أخاه وترتجف فيها السكين حين يسمع الطائرات الاسرائيلية القادمة لابتلاع الاطراف المتنازعة كلها ؟ .. الجلاد والضحية معاً ؟ ..

٢٣ / ٢ / ١٩٧٦

وكان قلب بيروت... خارج جسدها

وأخيراً صار بوسعنا ان نخرج من جحورنا ، ونتجول ، كالفئران بعد الزلزال فوق أطلال مدينتنا ...

والذين تجولوا ببيروت في اليومين الماضيين من (السلام) ، أذهلتهم نتائج (الحرب) على وجه مدينتهم ..

آثار الحريق على خدود الابنية ... الخراب المروع في أحياء وأسواق بأكملها ... المطر الذي يحاول عبثاً غسل الهباب من الجدران ..

أعمدة الكهرباء المكسورة واشرطتها المدلاة في الريح كجثث أفاع منطفئة ... كل شيء في بيروت أسود ورمادي ، ما عدا اكوام القمامة الملونة التي احتلت الأرصفة تلالاً من الروائح المقززة ، وفوقها يركض ذباب هائل ، وكل ذبابة بحجم رجل !..

والحطام منتشر في كل مكان ... حطام الزجاج .. حطام الابواب ... حطام البيوت .. حطام التذكارات.

الذين خرجوا من جحورهم وتجولوا في مدينتهم ، هالهم جرح بيروت الممتد على طول شوارعها ، المفتوح للريح والمطر ... والليل البارد ...

* * *

ولكن بيروت لم تكن قبل الحرب جميلة بقدر ما كان الناس يتوهمون ...

* * *

كان قناعها جميلاً ، وقد أحرقت الحرب قناعها فبدت أمراضها الآن للعيان ... وكانت زينتها الخارجية ساحرة الألوان ، لكنها تُخفي تحتها أوراماً خبيثة لا تُداوى بغير الكي بعد ان استفحل أمرها ، وبحت أصوات العقلاء وهم ينادون عاماً بعد عام لانقاذها ...

وكانت ضحكات الشمالي تتفجر من خمسة بالمئة من شوارعها المضيئة المجنونة الايقاع ، في حين كانت دموع البؤس الغزيرة تروي نبتة النقمة في بقية شوارع الفقر غير المعبّدة ، المفروشة بتربة الجوع والجهل والمرض والظلم والفقر ... تلك التّربة – الديناميت التي يعي مدلولها كل من قرأ مبادىء التاريخ ...

* * *

ليس صحيحاً ان بيروت كانت تعيش عصرها الذهبي حتّى جاءت (الحرب القذرة) وقصفت عمر شبابها السعيد ... فبيروت (الدولشي فيتا) أي الحياة اللذيذة ، كانت بيروت الأقلية التي تتزلج في الأرز شتاءً وتسبح في الولائم صيفاً وشتاء ، لا بيروت الأكثرية التي تتزلج فوق صقيع أحزانها شتاء وتسبح في بحر من اللاعدالة وعدم تكافؤ الفرص والقهر الاجتماعي والانساني صيفاً وشتاء ...

واذا كان ما مرّ بنا (حرباً قذرة) فقد كان سلام بيروت ما قبل الحرب (سلاماً قذراً) ... كان سلام استمتاع أقلية جماعة (الدولشي فيتا) على حساب حرمان الاكثرية ... لم يكن سلاماً بل كان استسلاماً مؤقتاً ، فالشعب يمهل ولا يهمل ...

* * *

وصحيح ان عشرات الألوف من الضحايا سقطوا في غمار هذه الحرب التعسة .. الا ان الناس كانوا يموتون قبلها بالآلاف أيضاً : كانوا يموتون قهراً وكمداً وجوعاً وفقراً وبؤساً وغضباً وجهلاً ...

كانوا يموتون بصمت ... وسراً ... وكانت الشوارع تضم آلافاً من الاحياء الذين مات في داخلهم شيء أو انكسر وتحولت اجسادهم إلى مجرد توابيت متحركة تخفي موتهم السري ...

* * *

وبيروت كانت تعيش ، وإحدى عينيها على نقود العرب (البدو) الذين تحتقر عروبتهم وتحترم نقودهم ، وعينها الاخرى على « الغرب الحبيب » حيث مثلها الأعلى سويسرا وطموحها ان تكون سويسرا الشرق ...

ولذا كان قلب بيروت خارج جسدها ... كان جسدها جزءاً من الوطن الموجود هنا في آسيا ، وقلبها في موضع آخر من الكرة الارضية ... تماماً كالطفل « كريستوفر وول » الذي ولد في آب الماضي وقلبه خارج جسمه ، وهو يواجه الآن سلسلة من العمليات الجراحية لإعادة قلبه إلى مكانه الطبيعي .

واذا كان « كريستوفر وول » أول طفل في العالم استطاع الاستمرار في الحياة وقلبه خارج جسمه ، فإن لبنان هو ايضاً أول وطن في العالم استطاع الاستمرار في الحياة وقلبه خارج (جسده) وأرضه ... وهو أيضاً يواجه الآن سلسلة من العمليات لإعادة قلبه إلى مكانه الطبيعي ...

وربما كانت حرب الأشهر التسعة السابقة واحدة من سلسلة عمليات إعادة قلب لبنان إلى جسده العربي ! ..

۱۹۷٦ / ٥/ ۳

وبائع الصحف صار رشاشاً !

إرهاب من نوع جديد نقاسي منه في شوارع بيروت .

لا الخطف (على الهوية) . لا القتل والتصفية الفورية . إنه الارهاب بالورق المطبوع .

* * *

يحدث الأمر على النحو التالي :

يستوقفونك في الشارع ويرغمونك على شراء مطبوعة ما (مجلة — جريدة — كراس) ناطق بلسان الحزب او الميليشيا او المنظمة او الفصيل الذي ينتمون اليه .

يحملون الجريدة بيد ، والرشاش باليد الأخرى ... او يقفون عزلاً الى جانب حاجز مسلح من رفاقهم ... والنتيجة واحدة : هنالك شخص يرغمك على شراء « الكلمة » تحت تهديد السلاح ... في عينيه نظرة تقول لك : هل تجرؤ على ان تخالف ارادتي ؟ . وفي فوهة الرشاش نظرة تقول لك : في جوفي رصاصة جائعة للإنطلاق فهل ستكون من نصيبك ؟ ..

وتنتابك مشاعر شتى من الذل والقهر والخوف ، والمسلح يحدق بك فتتوهم انه يحفظ وجهك في ذاكرته وتتخيله يجلدك بالرصاص في شارع مقفر ، وتتخيله يقتحم ليلاً بيتك ، وبسرعة تمتد يدك الى جيبك لدفع ثمن الجريدة ... أي ثمن يحدده ...

وما تكاد تسير قليلاً حتى يستوقفك حاجز آخر ومعه جريدة أخرى . وتشتري مكرهاً . حاجز ثالث ، وأنت تركض في حقل الألغام المسمى بيروت مسكوناً بالصمت والقهر والإذلال في ظل إرهاب « الكلمة » ...

* * *

بصراحة :

إن الاسلوب الإرهابي الذي يُستعمل في إرغامنا على شراء المنشور — أي منشور ،

حتى ولو كان الذي يصدره هو حزب ننتمي اليه – هذا الاسلوب سيدفع بنا الى شراء المطبوعة ، لكننا فيما بعد سنمزقها . سنمارس معها الخوف لا الحب . الكبت لا المعرفة . البؤس لا الفرح ....

دونما مواربة أحب أن اسأل :

ما الهدف من بيعنا هذه الصحف والمنشورات ؟

إذا كان الهدف هو جمع بعض النقود ، أي التبرعات ، فليتم الأمر مباشرة وعلانية دونما استخدام الكلمة « وسيلة » كما تستعمل المتسولة طفلها « وسيلة » لجمع النقود ...

واذا كان الهدف ايصال كلمة « حق » الى الناس فان « الحق » كلٌ لا يتجزأ ، « ووسيلة » إيصاله الى الناس جزء من « الغاية » . فكيف نبيع منشوراً «عادلاً» بوسائل تخلو من العدالة ؟ وكيف نبيع منشوراً « حراً » بالاعتداء على حرية الاخرين؟

* * *

ببساطة أقول لكم :

إن ضيق المواطن وكرهه لطريقة بيع المنشور أياً كان ، يلغي الغرض المنشود من طبعه وتوزيعه : إنه ببساطة لن يقرأه . واذا فعل ، فلن يقرأ بمحبة . سيقرأ ، ومشاعر عدوانية مسبقة تملأ نفسه ، كجزء من دفاعه عن كرامته المهدورة . ان الاسلوب القسري الذي قاسى منه أثناء عملية البيع الإرغامية ، سيدفع به الى الوقوف مسبقاً ضد المنشور . وبذلك تكون المنظمة أو الحزب أو الميليشيا قد باعت عدداً وخسرت إنساناً .

* * *

.... فالكلمة صرخة من أجل الحرية والكرامة والعدالة ...

وأياً كانت الأسباب ، مرفوض استخدامها ضد الحرية والكرامة والعدالة ، حتّى ولو تمثّل ذلك في أسلوب بيعها ...

ولو التقيت في الشارع بشخص يبيعني كتبي أنا ، وفي كتفه رشاش التهديد ، لكرهت كل حرف خطته يدي ! ... ولرفضتها جملة وتفصيلاً !

* * *

يا كتّاب هذه المجلات والمناشير والصحف... يا من تسكبون فيها دمكم سطوراً وحروفاً ... تدخلوا ضد أسلوب بيعها ... لا ترضوا بأن تباع حروفكم بقوة السلاح لئلا يأتي يوم تُقمع فيه أيضاً بقوة السلاح ! ...

١٤ / ٣ / ١٩٧٦

آه ، متى يطلع الفجر ؟..

إنه الليل وعبثاً أنام ...

فمنذ ساعات ، أي مساء الاحد ١٤ آذار (مارس) الساعة السادسة الا عشر دقائق كنت في سيارتي العتيقة التي يحمل هيكلها تواقيع الرصاص في مناسبات مختلفة . ترافقني صديقة أسمها عزيزة ، نمر في (شارع السادات) ببيروت والمفروض أننا في منطقة آمنة نسبياً .

السيارة أمامي توقفت فجأة . اقترب منها عابر سبيل ترافقه امرأة وكلب . شهر مسدساً وبدأ يضرب به سقف السيارة المتوقفة أمامي . توجست شراً . التفت الى الخلف لأهرب ، وكانت سيارة أخرى تسد طريقي وقالت عزيزة : لا تخافي . انه يمزح .

لم تكد تنهي عبارتها حتى هبط من السيارة شاب يرتدي قميصاً برتقالياً. رصاصتان، وهوى الى الارض يتخبط . القاتل يطلق الرصاص في الاتجاهات كلها . نبطح على أرض السيارة حامين رؤوسنا قدر الامكان ... عزيزة تصرخ : اهربي بالسيارة الى الخلف

أميز بوضوح صوت رصاص يصطدم بهيكل سيارتي . ارفع رأسي هلعاً . أرى اللحام أبا طالب بشاربيه الشهيرين يشير الى الناس بالهرب ، والرصاص ينهمر ، وانا مثل دمية آلية عبثت ماكنتها حتى آخرها – أعود بسيارتي الى الوراء وقد فرغ الشارع خلفي فجأة ..

حدث ذلك كله في أقل من نصف دقيقة ....

لكن المرئيات ارتسمت على شاشة الذاكرة كفيلم يستعاد ببطء وباستمرار ... الصورة التي لن انساها طيلة حياتي : هي مشهد الشاب المحتضر على الارض وقد انحنى

فوقه كلب القاتل يلعق وجهه بحنان ، بينما الكل هارب : القاتل والشهود والجرحى ! ...

* * *

انه الليل وعبثاً انام ...

لقد خلّفنا جميعاً على الارض إنساناً يحتضر . لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه . لم يجرؤ أحد على حمله الى مستشفى . لم يفكر أحد بإلقاء القبض على القاتل . لا شرطة تخابرها . لقد هربنا جميعاً كالحيوانات المذعورة في غابة الوحوش .. الكلب كان افضل منا جميعاً ، لقد انحنى على جثة المحتضر يؤنسه وربما يستمع الى اعترافاته الأخيرة ...

لم نعد بشراً . صرنا حيوانات مذعورة . الكلب وحده كان سلوكه إنسانياً !

* * *

انه الليل وعبثاً انام ....

الليل ينزف توتراً ، وأصداء المدافع القادمة من منطقة الفنادق خافتة ، لكنها تذكير لنا بما يدور ...

استطيع ان أسمع اصوات الجثث المرمية تحت الجسور وهي تصرخ ... استطيع ان اسمع القتلى ينتحبون ويركضون في الشوارع ليلملموا اعضاءهم المقطّعة اثناء تعذيبهم ... استطيع ان اسمع صلوات المقاتلين الشرفاء ، وصرير أسنان الجلادين ...

والكل يعوم فوق بحر من الفولاذ يغلي ... بحر العنف ...

والكهارب المسمومة تنطلق في الاتجاهات كلها ... واعصابنا العارية المشرعة في الليل كالأنتينات (الهوائي) تلتقطها ...

وعبثاً ننام ... انها الغابة بكل وحشيتها .. غادروا فراشكم وتسلقوا أعلى شجرة وناموا فوق أبعد غصن عن الارض . لا تخافوا الأفاعي . احذروا البشر ! ..

* * *

اتذكر خبراً قرأته اليوم في الصحف . أب بيروتي يشهر مسدسه . يطلق النار على ولديه لانه منعهما من ممارسة العنف والانضمام الى الميليشيات ولم ينفذا رغبته ، وهو ضد العنف ! ! ...

انه يكره العنف والدم ، وها هو يطلق عليهما الرصاص ويرديهما قتيلين مخضبين بالدماء ! ..

ربما كان بقتله لهما قد حمى عشرات الابرياء من القتل الذي كانا سيمارسانه...

ولكنه أب قتل ولديه ... انه العنف والعنف المضاد ... نسي الجميع كل الكلمات ما عدا كلمة ع ن ف . (الغريب ان الحروف نفسها هي التي تكوّن عبارة نفع ! !) ...

* * *

صار السلاح بديلاً عن الحوار في بيروت حتى في الشارع والبيت .

لقد انتحرت اللغة . صارت كل كلمة رصاصة . والرصاصة التي تطلق لمجرد النزف وجنون العنف تقتل مرتين : تقتل القتيل والقاتل معاً ...

تقتلنا جميعاً ...

ولا يبقى غير الكلب يمارس عنا طقوس دفن الاموات والاستماع الى اعترافها الاخير ..

آه الليل ينزف توتراً ... نعوم جميعاً فوق بحر الفولاذ الشديد الغليان ...

أبخرته السامة تخنقنا ...

آه متى يطلع الفجر ؟ ...

* * *

انتهى الليل وجاء النهار ولم أنم ، ولم يطلع الفجر . أبحث في الصحف عن خبر مصرع الشاب ذي القميص البرتقالي على أمل ان افهم : كيف ولماذا ؟ ...

أبحث عن صورته والكلب يلعق جراحه ...

لا أجد ذكراً له . فتقارير الشرطة غير موجودة ... لا أثر لاسم القاتل والقتيل . اسم القاتل هو دونما ريب : العنف في غير موضعه . الصحف تتحدث عن قتلى آخرين ، جثثهم ما تزال في الشوارع منذ اربعة ايام قرب فندق « الهوليداي إن » دون أن يستطيع أحد لمّها عن الارصفة وإيداعها القبور ...

في بيروت ، لم يعد القتل خبراً . صار خبراً اعتيادياً . وصار على جثتك ان تظل

مرمية على الارصفة عدة أيام كي يصير موتك خبراً ...

ولكن ، لماذا افتش عن الحكاية والصورة ؟ الحكاية مجرد قصة عنف اخرى . والصورة محفورة في ذاكرتي الى الابد : صورة كلب القاتل يحنو على القتيل وينصت لاحتضاره وكلماته الاخيرة ، بينما كلنا هارب تحت مطر الرصاص كالحيوانات المذعورة ....

لقد انتصف النهـــار وعما قريب يسقط فوقنا ليل جديد حاملاً المزيد مـــن الكوابيس ...

آه متى يطلع الفجر ؟ ...

١ / ٣ / ١٩٧٦

صدق أو لا تصدق : إنه الربيع في بيروت !

كما في كل فجر ،

استيقظت فرحة لانني ما زلت حية رغم انني أقطن بيروت .

كما في كل فجر ،

شربت قهوة الصباح التي صار لها طعم الدم ورائحة البارود ، وتحاشيت النظر داخل فنجاني ، فقد أرى رأساً مقطوعاً يعوم فوقه ، أو أذناً ، أو قلباً مطعوناً ، أو رجلاً يبتلع الآخر كما تفعل سمكة القرش بصغار السردين ...

كما في كل فجر ،

فرشت امامي صحف الصباح كالكفن ، وقرأتها كما تقرأ النعوات : بسرعة وبحزن .. ولم يدهشني ان اقرأ احصاء في احدى الصحف ، يشير إلى ان حوالي ٢٠ الفاً قد قتلوا في حربنا حتى الان و ٢٠٠ الف قد شردوا بلا مأوى و ٤٠٠ الف شخص آخرين هُجّروا من قراهم ومدنهم ..

فنظرة واحدة عبر النافذة إلى الطرقات الحزينة ، وأشرطة الهاتف المقطعة المتدلية في الريح كالمشانق ، والبيوت المحروقة ، نظرة واحدة تكفي لنعي مدلول هذه الارقام المروع ...

وكما في كل فجر ...

أمد رأسي من قفص الكرة الارضية محدقة في البحر شاسع البهاء ، كما لو كان مجرة من النقاء الفضي المزرق ... وأحاول ان أنسى .. أن أنسى قليلا كي اتذكر جيداً ! ..

كان صيفاً من النار ، وشتاء من الرعد الفولاذي المصهور ...

اظل أحدق في البحر لأنسى قليلاً ، كي اتذكر جيداً ! ..

* * *

كما في كل فجر ،

كنت امارس طقوس عودة الروح إلى مدينة حبلت بالحرب الاهلية تسعة اشهر .. وأهرب بنظراتي من جرح المدينة إلى بهاء البحر ، حينما فوجئت بمشهد صاعق البساطة ، مدهش العفوية كرؤيا ...

ففي الشارع المغسول بالدم والرماد ، شاهدت طفلاً في ثياب المدرسة يحمل بيده غصناً تغطيه زهور الربيع المبكر ، وتفور فيه بلونها الابيض كاللؤلؤ على صدر هذا الفجر الحزين ...

* * *

صحيح انني لم أر الازهار منذ اشهر طويلة ، وربما نظرت إليها دون أن ابصرها ، ولكن لم يكن ذلك ما أسرني في المشهد ...

غصن من زهر الربيع في يد طفل هو برقية من مملكة الحياة تذكرني بأن التجدد والاستمرار هما صفة الحياة ...

* * *

حينما تفترس السحب السود السماء ، ويقرض الصقيع أطراف ليالينا وأجسادنا ، لا نتصور أن الشمس الدافئة مقبلة لا ريب ...

وأن الربيع مختبىء خلف ستارة الشتاء ... وانه سيتفجر حتى في قلب الصخر ، والحياة ستفرض وجودها تحت الظروف جميعاً ، ومن لا يستطيع التنامي معها يسقط عن جسدها العظيم ، ويجرفه المطر مع أوراق الخريف إلى مجاري المدينة ...

والطفل يمر أمامي في شارع الحزن والحذر والترقب ، حاملاً في يده غصناً من الضياء يعلن قدوم الربيع إلى بيروت ...

* * *

صدق أو لا تصدق ! .. الربيع في بيروت .. انه قادم لا محالة ... ولكنه ليس ربيعنا ... انه ربيع الصخور والغابات والجدران العتيقة والدمن والاشجار والقطط والسناجيب والضفادع والسحالى والبوم والبقر والكلاب والارانب ... وربما اطفال الأجيال القادمة ..

لكنه ليس ربيعنا نحن ...

الربيع يأتي إلى كل ما في الطبيعة من اشجار وحيوانات ... إلا الانسان .. الانسان

وحده مضطر (لصنع) الربيع ... الفصول الأربعة تأتي الارض والاشجار ، وتمر على الحيوانات ، اما الانسان فهو الكائن الوحيد على وجه الكرة الارضية الذي يجب ان يصنع فصوله كي يمتلكها ! ..

* * *

نحن الذين لم نُقتل في الحرب ، امامنا الآن مهمة صعبة ... ها هو شتاؤنا الطويل الذي دام تسعة اشهر يفارقنا ...

يفارقنا ؟ .. يترك المجال للولادة العسيرة لربيعنا ؟ .

ها هو الربيع ملقى بين أيدينا ، مغمى عليه ، مزرق الأصابع والخدين ...

ترى هل نفلح في بعث الحياة في أضلاعه ، أم أن شتاؤنا سيدوم هذه المرة سنيناً طويلة ؟ ...

ترى هل نستحق الربيع هذا العام؟ وهل سيزهر داخل أجسادنا التي جففها الترقب والخوف والغضب ، ويحول أعصابنا وشراييننا إلى أغصان ربيعية مضيئة الأزهار ، يفور في بياضها النقاء والتجدد والوعد بالعطاء ؟ ..

ترى هل نتعلم ان نبتة الربيع البشرية لا تنمو إلا بالعدالة . والحق ..والوعي . والعدالة . والعدالة . والعدالة .

أم أن ما سقط من قتلانا وجدراننا وسقوفنا وحجرات روحنا ومشردينا ليس كافياً بعد كي نعي هذا الدرس ؟ ..

ترانا ننسى قليلاً أحزاننا لِما حدث ، لنتذكر مدلول ما حدث ؟ ..

* * *

هذا الطفل المورد ، الذي مر بي فجر هذا اليوم ، حاملاً ذلك الغصن الربيعي الوهاج ، تراه صبي حقيقي من لحم ودم ؟

أم نبوءة ؟

أم برقية إنذار ؟

٤ / ٤ / ١٩٧٦

كدت أنسى صوته ..

كالعادة ايقظني صوت القصف عند الفجر ، إنها مدافع الهاون . أرهفت السمع لأعرف مصدرها بعد تدريب عام من الانصات لأصوات الانفجارات ، وبالتالي من اكتساب القدرة على تقدير موقعها بدقة تزداد يوماً بعد الآخر ... كانت المدافع تطلق من الاتجاهات كلها ... هذا على الاقل ما كنت واثقة منه في الدقائق الخمس الاولى ...

ثم خيل الي ّ أنها (مدافع الارباب) لا (مدافع البشر) .

هل القصف الذي اسمعه هو : الرعد ؟ .. ولكنه الرابع من نيسان ، فهل يعقل ان يكون الرعد ؟

خرجت إلى الشرفة بحذر أتلصص على الغيوم .

كان الرعد يطلق قذائفه الحنون في الاتجاهات كلها ... والمطر يغسل فجر بيروت الحزين ...

آه الرعد ...

كدت أنسى صوته في غمرة سيمفونية المدافع الليلية ...

آه المطر ...

يغسل عن وجه بيروت هباب حريقها .. لعله الآن يهطل على جثة مرمية في شارع ما كصلاة دامعة غاسلاً جراحها وأوصالها المقطّعة ...

آه المطر ...

ورائحة التراب العتيق ، بدلا من رائحة الجثث المتعفنة ...

آه الغابات ، الطيور ، النجوم ، البحار ، الحقول ، البراءة ، الصخور ، الازهار البرية ... كدت أنساها ...

آه الرعد ...

كدت أنسى صوته ! ...

* * *

أحزنني البيان ...

احزنني أن أولئك (السالمين) يتوهمون أنهم من ذوي العاهات ، بينما يتوهم ذوو العاهات في بلادي انهم الاصحاء والوجهاء والصالحون للتربع على واجهات الحكم .

ففي بيان لجمعية المصابين بعاهات وكان عددهم ٦٠ ألف قبل حربنا الاهلية ، نجدهم يوجهون نداء لوقف المجازر بعد أن صار عددهم مائة ألف مصاب... أي بزيادة ٤٠ الف مصاب بعاهة في العام الاخير ....

اصدقائي « جمعية المصابين بعاهات » ... لا عاهة فيكم ، فعاهة الجسد تهون أمام عاهات الفكر والروح ، وما أكثرها في لبنان ... خصوصاً لدى طبقة الواجهة واصحاب الامتيازات من الوجهاء والاقوياء والزعماء ...

لستم انتم المصابين بعاهة ... فعاهة الجسد صريحة لا تؤذي أحداً ... وعاهاتهم مستترة خلف أقنعة الكرنفالات السياسية والمزادات العلنية الاجتماعية حيث يباع الناس بالجملة كما تباع قطعان الخرفان ...

عاهاتكم طاهرة ...
وعاهاتهم تنفث السم في كل من حولهم ... في كل ارجاء لبنان ...
عاهاتكم شريفة ...
وعاهاتهم كالوباء السرّي الذي ينتشر كالنار ليحرق ابرياء هذا الوطن الحزين ...
عاهاتكم تداوى ...
فقد فقدتم ساقاً أو يداً أو عضواً آخر يمكن استبداله بعد المشقة بعضو اصطناعي ...

اما هم فقد فقدوا الضمير ، والضمير لا يعوض بضمير اصطناعي... وقد فقدوا الروح الانسانية ، وهي تستعصي على الزرع ... انك تستطيع ان تركب ساقاً اصطناعية أو تزرع عيناً ، لكنك لا تستطيع زرع ضمير في نفس قاحلة ، ولا تستطيع زرع حس انساني في روح مشوهة ...

* * *

أيها الابرياء الذين اسميتم أنفسكم خطأً « بذوي العاهات » ... تلفتوا حولكم واحصوا المنتفعين من بؤس الشعب اللبناني العربي ...

انهم هم ذوو العاهات الحقيقيون . وهم يتوهمون أنهم يخفونها بمكـــرهم وخداعهم ... وخطبهم وأبواقهم واستعراضاتهم ...

أولئك الذين يركضون في مياه الجماهير كأسماك القرش ... ولم يعد في شعبنا فرد لم يأكلوا قطعة من جسده أو يقضموا قطعة من روحه وزمنه .

أولئك المصابون بعاهات حقيقية ، سنزحف نحوهم على بطوننا — اذا قطعوا أرجلنا — وسنغرس في صدورهم خطافات أيدينا المقطوعة ..

أولئك الذين يتبختّرون كالطواويس على مسرح بؤسنا هم « جمعية المصابين بعاهات » ... لا أنتم ...

١٩ / ٤ / ١٩٧٦

رغيف أم حفنة من تراب المريخ ؟

وكانت الاخبار كلها مكتوبة بحروف كبيرة ، تتحدث عن (عظمة) الانسان وأمجاده العلمية ... عن هبوط سفينة فضاء اميركية في كوكب المريخ بعد شهر .. وعن وجود مخلوقات حية على الكواكب الاخرى ... وعن القطارات الحديثة المعلقة في الفضاء ... ووسط زحام أخبار هذه الاختراعات العلمية الباهرة ، كان هنالك خبر صغير لا يكاد يرى ...

يقول الخبر ان حوالي نصف سكان العالم يعانون من الفقر إلى درجة الجوع . فقد اعلن مكتب العمل الدولي ذلك في احصاء له ، ذكر فيه ان النسبة قد زادت عما كانت عليه الحال في عام ١٩٧٢ بمقدار ثمانية بالمئة ! .. أي ان سوء توزيع الثروة على كوكب الارض ازداد سوءاً منذ هبوط الإنسان على كوكب القمر . والرقي العلمي لعصرنا لا يرافقه رقي إنساني حقيقي . الآلات بخير وتزداد دقة وعظمة . الإنسان يزداد بؤساً وحرماناً . بعد أعوام تبلغ صواريخنا كوكب المريخ ، لكننا إنسانياً ما نزال نعيش عصراً حجرياً من الظلم الاجتماعي ، وان كان طلاؤه البراق يوحي للبعض بأننا في عصر الفضاء وعصر المريخ ...

بعد أشهر قد يتمكن العلماء من ان يؤكدوا لنا وجود مخلوقات حية على الكواكب الاخرى ... ولكن ماذا عن المخلوقات الجائعة على كوكبنا ؟ .

* * *

ما دام نصف سكان كوكبنا جائعاً ، فإن أحداً لن يعرف السلام الحقيقي .

نصفنا لن ينام ليلاً من الجوع ... ونصفنا الآخر المتخم سينام ، لكنه سيحلم بالمقصلة .. وإذا لم يحلم بها فسيصحو ذات فجر بارد بينما هم يلصقون عنقه الغليظ على شفرتها الحادة ...

لن يكون سلام لأي انسان أو زهرة أو شجرة أو صخرة ما دام على وجه هذا

الكوكب انسان واحد جائع ...

وانها بديهية ...

لكننا فيما يبدو نعيش عصر التذكير بالبديهيات المنسية ، لا عصر الفضاء كما يدعون ...

* * *

سيظل كوكبنا شارداً في درب المجرة ، مترنحاً مثقلاً بأحزانه ، تقطر منه الدماء كثمل جريح ، ما دام مفتقراً إلى العدالة ... لا يهمنا عدد المراكب والصواريخ التي نطلقها إلى الفضاء ، المهم أن تحط على كوكبنا مركبة العدالة ، فالارض هي مسكن الانسان أولاً ، لا قاعدة جوية مرمية في الفراغ ... وصحيح أن (الجوع إلى المعرفة) أمر عظيم واشباعه ضروري ، لكن (الجوع) البيولوجي هو حالياً أمر واقع ، وإشباعه هو الضرورة الأولى والقصوى ...

* * *

... يا علماء الارض ...

اخفضوا أبصاركم قليلاً عن النجوم وقمم المعرفة ، فأرجلكم غائصة في مستنقع من البؤس البشري المادي ...

والجائع يريد رغيفاً ... لا حجراً من حجارة القمر ...

الجائع يفضل حفنة قمح على حفنة من تراب المريخ ...

فمتى نهتم باصلاح شؤون عالمنا البائس ، ومداواة أمراضنا ، بدلاً من نقلها إلى الكواكب الاخرى ؟ ..

١٨ /٥/ ١٩٧٦

ربما لذلك يقتلونهم أطفالا !!

حين انفجرت القذيفة كنا معاً . لسبب أجهله ، تدفق الدم من جرح في رأسه ، بينما لم أصب أنا بغير ألم مرير في الأذنين ، وطنين فيهما كالصمم ما يزال يرافقني حتى هذه اللحظة ... لسبب أجهله طار رأس طفل في الفضاء واصطدم بصدري في موضع القلب تماماً ... كان هنالك صراخ كثير ... أشلاء أجساد تتطاير في الفضاء ، وخلفها تركض وجوه مغسولة بالدم ... تسيل منها ثيابها الممزقة شبه المنصهرة، وأظافرها المكسرة،وتفوح رائحة الشعر المحروق ... رأس الطفل المقطوع ، ظل يصطدم بصدري طوال الليل قارعاً باب قلبي باصرار صارخاً : « ما ذنبي ؟ لماذا ؟ » .. وكانت صرخته إشارة استفهام دامية ... إنها صرخة أطفال هذا الوطن الحزين ، الساقط في دوامة المؤامرات ، مقدماً كل يوم للتاريخ فاتورة بمئات القتلى والجرحى ... ربما لو عاش هذا الطفل لاختار ان يكون شهيداً لأجل وحدة لبنـــان .. ربما لذلك يقتلونهم أطفالاً ! ..

* * *

صباح اليوم الاثنين ١٨ /١٩٧٦/٥ رافقت جريحي الى مستشفى الجامعة الاميركية لتبديل ضمادات جرح رأسه .

صعدنا الى الطابق الرابع . اعطوه رقماً – ٥٤ – . (أي رعب ان تتكاثر الجراح فيفقد الناس الأسماء والصفات وتصير مجرد ارقام) ...

جلسنا في الممشى ننتظر ...

الممشى ضيق وصغير ...

على جانبيه عشرات الجرحى ... وينفتح أحد طرفيه على مصعد ... وكل دقيقة ينفتح المصعد ويخرج منه جريح جديد ...

وننتظر ...

والزحام يشتد ... زحام الجرحى لا شيء في الدنيا يشبهه... لا شيء يشبه صوت أنينه الصامت .

تشعر بأن الدم يسيل على وجهك .. على جسدك .. تشعر بأن الدهليز صار بحيرة دم وأنك تتنفس الدم ... والجرحى يغطون الجدران ... يغطون السقف .. ينفتح باب المصعد من جديد ويصب قافلة جديده من جرحى قصف الجنون الاخير ...

ويكبر الدهليز فيصير على طول الوطن ... ويكبر الجرح فيصير شرخاً في أرض الوطن .. وتصرخ لأنك لا تريد للشرخ ان يزداد عمقاً ، ولانك تحلم بيوم يتحد فيه البشر في الكرة الارضية بأكملها في ظل العدالة والمحبة والحرية ، بدلاً من ان يقسموا جسد وطن صغير ، ممعنين في انعزاليتهم عن منطق التاريخ ومنطق عصر الفضاء .. (يقول علماء سفن الفضاء اننا على اعتـــاب دخول الكواكب الاخرى للقاء سكانها .. كم سيضحكون من كوكبنا الصغير الساذج حين يكتشفون اننا أمعنّا فيه تقسيماً ، وان الحضارة لدينا صارت وسيلة للابادة والانتحار الجماعي ، وان فيه شعباً صغيراً يقتتل مكرساً المزيد من التقسيم بدلاً من الوحدة والاتحاد) ...

آه زحام الجرحى والدم والآلام ...

والدهليز الطويل أنبوب من الآهات والجرحى يتدفقون من المصعد في طرف الدهليز نهراً من دم ... الطرف الاخر للدهليز مسدود ... نهض الجرحى حاملين عكازاتهم وجبائرهم وبدأوا يضربون جدار الدهليز المسدود بأعضائهم المجروحة .... كانوا مثل سجين يحفر دربه الى الشمس ....

وتدفق الدم أنهاراً ، وتعالت أناشيدهم الحماسية ... لا بد من ان نفتح بجراحنا كوة للشمس والعدالة والحرية ...

آه ! متى يطلع الفجر ؟ ...

* * *

رأس الطفل المقطوع يستريح على صدري . يكرر بإلحاح : « لماذا ؟ ما ذنبي ؟ » صرخت فيه : ذنبك انك مشروع بطل . ذنبك انك امكانية شهيد ولذا قتلوك .. ولذا يقتلون أطفال بلادي ! ...

ولكن ،

الفجر محتوم ... ويا له من فجر دام ...

١٥ / ٦ / ١٩٧٦

أيتها الراقصة : أنت مسحوقة كملايين البسطاء

ربما كانت أفضل راقصة لبنانية . فهي برأي أكثر المثقفين سيدة جادة ، وتملك موهبة أصيلة .

توقفت عن العمل بسبب الأحداث الاخيرة في لبنان، وقالت في حديث صحفي لها : « أنا لا أرقص ووطني يحترق . لا استطيع أن أراه يحترق وانا أقدم الفرح للناس في الخارج » .

* * *

ولكن من قال ان الرقص هو « تقديم الفرح للناس » ؟ من قال أن مهمة الفنان هي تسلية الناس والسلطان في زمن السلم ، والانزواء مع الغبار والديكورات في زمن الحرب ؟ ...

ربما كان هذا المفهوم القاصر للفن من الاسباب الرئيسية التي تجعله قاصراً عن لعب دوره الخطير في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا ...

وما قالته هذه الفنانة ، يعبر — للأسف — عن نظرة كثير من الفنانين والناس الى « الفن » ...

* * *

تُراني بحاجـة للتذكير بأن الرقص هو أصلاً تعبير جسدي ابداعي عن بعض الافكار والمشاعر (التي ليست بالضرورة جنسية) ؟ ..

تراني بحاجة للتذكير بما عرفته القبائل البدائية منذ عصور بعيدة : ان الرقص تعبير اجتماعي عن الواقع المعاش ومن هنا كانت رقصات الحرب ورقصات الحصاد والرقص في مواسم البناء ، وحتى الرقص كعبادة وكجزء من طقوس الصلاة والتقرب

من الارباب ... فالجماهير تقفز وتصفق أو تثور ، والفنان يحوّل ذلك الزخم الجماعي الى لحظة خلود : يرسم ذلك بريشته او بقلمه او بموسيقاه او بجسده ؟ ..

تراني بحاجة للتذكير بأن ما يدعى « بالرقص الشرقي » والذي منطلقه تعرية جسد المرأة الدمية وتحريكه بأسلوب معين هو تعبير عن روح العلاقات في مجتمع بائس استهلاكي كمجتمع بيروت مثلاً ، قوام العلاقات فيه : الرخص – الجنس المبتذل – البيع والشراء على كل صعيد ؟ ...

تراني بحاجة للتذكير بان راقصاتنا، حتّى الموهوبات منهن، سقطن في فخ هذه اللعبة الاستهلاكية ، ولما جاءت الحرب ، توهمن ان دورهن سقط مع سقوط « بيروت – الفراش » ؟ ...

ايزادورا دنكان الراقصة الرائعة ، نالت عدة أوسمة حين رقصت للثورة في روسيا ، ونالت أيضاً سخط المجتمع الاميركي الرجعي واستنكاره : فقد كان رقصها يجسد ثورة الانسان ضد قوى الاستلاب كلها .. كانت ثائرة ككل الثوار .. وكان سلاحها جسدها الذي تتقن اطلاقه في وجه القيود والعبودية ...

فليست كل راقصة مهرجة في بلاط التخدير العربي الا إذا توهمت أن هذا دورها ومارسته .

* * *

لقد وعى الفنانون دورهم في حقول الفن الاخرى ، وقدموا شهداء للقضية العربية والفلسطينية ، منهم على صعيد الكلمة غسان كنفاني وكمال ناصر وطلال رحمه وغيرهم ، وعلى صعيد الريشة ابراهيم مرزوق مثلاً وعلى صعيد الكاميرا هاني جوهرية وسواه ...

اما في حقل الأغنية والرقص فما زال وعي الفنان لدينا قاصراً بصورة عامة ... ما زال الوهم سائداً بان الرقص والغناء مهمة (سلمية) لا (حربية) .. وما زالوا يجهلون أهمية الاغنية والرقصة كأداة ثورية جماهيرية ، وكعمل بحاجة الى الثورة ليصير إبداعاً لا مجرد (وصلة ترفيه) ...

سيدتي .. ارقصي لأن وطنك يحترق ...

دعي جسدك يرسم واقع الجماهير ، حرريه من العري ، واسكبي فيه نور الثورة على القيود ...

فأنت فنانة كأي فنان أداته الكلمة ...

ولست مهرجة في بلاط الأثرياء العرب ... بل انت مسحوقة كملايين البسطاء ، فليكن رقصك ثورة ضد الاستلاب لا أداة له ضد نفسك ...

وارقصي ... ارقصي لان وطنك يحترق ، وساهمي في تحويل النار الى مطهر ... وألسنة اللهيب الدامية ، الى فجر ثورة الإنسان العربي في لبنان وسواه ...

٣١ / ٥ / ١٩٧٦

كتابات على ضوء قنديل عتيق !

وانطفأت الكهرباء ...

صدق وعد المسؤول المختص ووعيده ، ولم يهدأ المتقاتلون ، ولم تصلح الأسلاك .. وودعنا مظهراً آخر من مظاهر الحضارة ...

وها أنا أعود عصوراً عديدة إلى الوراء ، وأخط سطوري على ضوء قنديل عتيق ، واخشى أن نعود مزيداً من العصور إلى الوراء ، إلى عصور ما قبل اختراع الابجدية .. وترحل من قلمي الكلمات ...

* * *

وانطفأت الكهرباء ...

وها أنا مع القنديل العتيق ، أتأمله طويلاً واكتب قليلاً ... وفي الخارج ، تستولي الظلمة على الشوارع الخاوية حتى من القطط .. ويبدو لي المشهد عادياً ، وانقطاع الكهرباء عن بيروت ليس مفاجأة .. بل ان المفاجأة هي ألا يحدث ذلك ... لقد عاش عدد كبير من أهالي هذه المدينة في ظلام اللاعدالة أعواماً طويلة ، وكان المترفون خلالها يسرقون شمسهم ومصابيحهم وضوء عيونهم ...

كل ما يحدث الآن هو ان بيروت خلعت قناعها المبهرج ، فظهر ثوبها الأسود للعيان !

* * *

أتأمل القنديل العتيق ...

آخر مرة كتبت على ضوئه كانت منذ أعوام بعيدة في قرية (الشامية) القريبة من دمشق .. في البداية لم يكن في بيتنا الطيني القروي كهرباء ، واستغرق إيصالها إلينا شهوراً قضيناها مع القنديل العتيق ...

في ذلك الزمان ، كانت للقنديل نكهة أخرى ... لم يكن ردة إلى عالم الفوضى والظلمات، بل كان ردة إلى عوالم الصفاء والبساطة ... كانت لنفطه رائحة تراب الحقول ، وفراشات صغيرة ترقص له طويلاً ... ثم يأتي النوم إليّ متلصصاً على رؤوس أصابعه ، ماشياً فوق لهبة القنديل ... فأنام بسلام ...

أما اليوم ... فمع القنديل تأتي اصداء المتفجرات ومطر الصواريخ .. وأتأمل نفطه العربي واتساءل : تلك الثروة العربية الهائلة ، متى تشارك في صنع المستقبل لنا بدلاً من تركنا نعود سنوات إلى الماضي ؟

* * *

... وكان القنديل العتيق رمزاً محبباً إلى قلبي ... كان يحمل لي دوماً ايحاءات بخروج المارد من القمم .. أتأمل قنديلي البيروتي الحزين .. أشعر انني سجينة داخله .. وكل فرد ببيروت مسجون هذه الليلة داخل قنديله .. واذا لم نكسر جدرانها بأنفسنا فسنظل أبداً أسرى الظلام والقهر ...

لا أعتقد أن « علاء الدين » كان خارج المصباح حين فركه وأخرج مارده .. لقد كان سجيناً داخله ، وكسره ، وغادره ، فصار مارداً ! ...

١٩٧٦ / ٣ / ٢٩

بيروت : تحتضرين أم تولدين ؟!

واختفت تماماً أخبار المنتحرين ..

منذ تسعة أشهر لم أقرأ خبراً واحداً عن شخص مات منتحراً بعد أن دبج رسالة — أو لم يدبج رسالة — .. وحتّى (صخرة الروشة) الخاصة بالانتحار في بيروت كادت تموت مقتولة لا منتحرة بعد أن سقطت عليها قذيفة .

الصحف صارت قوائم يومية للمقتولين والمذبوحين .. ولأخبار المقاتلين من جهة ، والقتلة والقتلى من جهة ثانية .

نكاد نفتقد أخبار المنتحرين ، وأخبار الذين كانوا يموتون بحوادث السير .. فالسير شبه معدوم ، وقد صار الناس يموتون بحوادث (المشي) وليس بحوادث (السير) .

* * *

أين المنتحرون ؟

لم نكن قط أكثر مخاوفاً . لم نكن قط أكثر فقراً . لم نكن قط أكثر جوعاً ..

فلماذا كف الناس عن الانتحار ؟

لماذا لم نقرأ منذ تسعة أشهر خبر إنسان واحد انتحر ، لكننا نقرأ أخبار الناجين من الموت ؟

وهل البؤس لقاح ضد الموت ؟

وهل وباء الموت لقاح ضد الانتحار ؟

* * *

أم تُراهم ينتحرون دون أن ندري ؟

فالأمر لا يكلفهم أكثر من جولة على أسواق بيروت ، أو مجرد وقفة على الشرفة .. أو مد الرأس من النافذة في بعض الاحياء .

* * *

أين المنتحرون ؟

أم أن البؤساء حملوا بنادقهم ضد البؤس الذي كان يدفع بهم إلى الانتحار ، وصاروا يواجهون عدوهم الحقيقي بدلاً من أن يشربوا الديتول والديمول ويشنقوا أنفسهم بشريط حذائهم المهترىء ؟

هل وعى المعذبون أخيراً ان الذي يجب أن يُقتل هو (مسبب) بؤسهم ، لا قلبهم الذي يدميه البؤس ؟ وانه حين تسبب لك يدك الألم اذا احترقت ، فالمسؤول عن الألم هو النار لا يدك . ولكي تزيل ألمك فالمفروض ان تطفىء النار وليس أن تقطع يدك .

أين المنتحرون ؟

تراهم تحولوا إلى مقاتلين ؟

تراهم اكتشفوا ان الذي يجب أن يموت هو الاضطهاد لا المضطهدون ؟ . ان الذي يجب ان يموت هو القهر لا المقهورون ؟

* * *

أم انه حين تنتحر المدينة بأكملها يكف الافراد عن الموت بالتقسيط ؟

وبيروت ، وعذابها ،

تراه احتضار أم ولادة ؟

فالمحتضر لا يمكن أن ينتحر أثناء احتضاره .

ولحظة الولادة — مهما كان مخاضها عسيراً — لا يمكن أن تؤدي إلى الانتحار بل إلى الولادة .

بيروت ، تحتضرين أم تولدين ؟

* * *

٢٩ / ٩ / ١٩٧٥

أكتب .. أكتب ..

صوت الرصاص يفترس الليل ...
والقمر قرص من الدم المخثر ...
وعلى شاشته تركض مرثيات الأيام السابقة المروعة ...

وداخل رأسي يركض أبطال « بيروت ٧٥ » الذين نهضوا من قبور النسيان ليتابعوا حكاياتهم في ملحمة العنف ، ويقرعون أبواب صدري ليملون على اصابعي من جديد ارادتهم الدامية (يوم نشرت « بيروت ٧٥ » منـــذ أشهر مسلسلة في إحدى المجلات غضب بعض النقاد لمناخ العنف الكوارثي فيها . عشرة آلاف جريح وثلاثة آلاف قتيل حصيلة العنف في بيروت لهذا الاسبوع ! .. ما ذنب الفنان اذا كان لا يملك إلا أن يكون مرآة الواقع وربما بعض نبوءته ؟) .. والقمر قرص من الدم المخثر ، وجنون الرصاص يجتاح العالم ...

للتو انتهيت من كتابة تخطيطات لقصتي الجديدة « كوابيس بيروت ٧٥ » وقد أسميها شيئاً آخر ، وقد تكون جزءاً ثانياً لـ « بيروت ٧٥ » أو لا تكون ، وقد أتم كتابتها وأنشرها ، وقد لا أفعل ... والقمر قرص من الدم المخثر ... وجنون الارهاق يجتاح أصابعي التي ظلت اياماً ثلاثاً بلياليها على زناد الابجدية ... والقمر قرص من الدم المخثر .. والليل الممزق بأصوات الرصاص ودوي المتفجرات يتهاوى بين أصابعي كجسد نزفت دماؤه كلها ...

وسط الهشيم ورائحة الموت والرماد ، هنالك نبتة تشق طريقها في الظلام سراً ... نبتة يرويها الدم ... تماماً كما تشق الكلمات طريقها إلى اصابعي بعد صدمة الشلل الاولى...

وسط الهشيم ورائحة الرماد والموت ، اتذكر قمراً لم يكن قرصاً من الدم المخثر ...
اتذكر قمراً شفافاً في دمشق ، في ليلة رمضانية غابرة ، وابتسامة أبي تضيء ليل

السحور ، وأنا طفلة ترقب الطائرات بشوق ونهم ، ولا تدري ما يخفيه لها القدر ، وما تخفيه هي ايضاً لنفسها ! .. وأتكور داخل جسدي ، مسافرة إلى الماضي ، وإلى القمر قبل أن يتسخ ، وتراتيل جدتي والتراويح ... اتكور داخل رحم رؤيا رمضانية ، وأسري بها إلى صدور أحبائي في دمشق ، وفي يدي جواز سفر لمواطنة في مملكة الذكرى ! .. ثم أعود إلى حروفي لأكتب .. وأكتب ...

* * *

آه ... لو يهطل المطر ! ...

٢٢ / ١٢ / ١٩٧٥

بوركت شفاه النار التي أحرقت بيتي !

قبل دقائق ، أيقظني رنين الهاتف في الفندق الذي أقيم به ، منذ تحول بيتي المواجه لفندق « الهوليداي إن » إلى ساحة حرب أين منها « صحراء العلمين » ايام مونتغمري . كان المتكلم يحمل خبراً : لقد احترق بيتك اليوم . كنت قد علمت بالنبأ ، منذ انفجر فيه الصاروخ هذا الصباح .

* * *

لم أحزن من اجل « الحجر الذي لم يبق على حجر » في المرحوم بيتي .. فأنا لست من عبدة الاوثان ... وليس في الدنيا حجر إلا وله بديل ... وكل الاشياء التي يمكن شراؤها بالمال هي ممكنة التعويض بالعمل ... الستائر والمقاعد والجدران ومنفضة الغبار وفرشاة الاسنان اشياء تعودت ان ألقاها وان افارقها ، انا التي سكنت في الزلزال منذ طفولتي ، وتبناني التشرد فنموت في كنفه ، وودعت – حتى الآن – بيتين لي في دمشق ، وثالث ورابع بلندن أيام الدراسة وعشرات أخرى في أماكن لم أعد أذكرها ، وها أنا اودع الأخير ببيروت استعداداً للقاء ما بعد الأخير الذي أعرف سلفاً ان لقاءنا نصفه وداع ... فكلنا ضيوف على وجه الكرة الارضية ، وليست كارثة ان نبدل الأماكن التي تستضيفنا مؤقتاً ، والقبر وحده هو « مقر الاقامة الدائمة » .

* * *

« مقر الاقامة الدائمة » عبارة تطالعك باستمرار في أكثر (الاستمارات) الرسمية التي عليك ان تعبئها للحصول على جواز سفر ...

هذه العبارة كانت تثير دهشتي دائماً، فالجواب الوحيد الصادق عليها هو: القبر .

حينما يكون الوطن (مهاجراً) عن قيم العدالة الاجتماعية والانسانية ، كيف يمكن لأي مواطن فيه ان يكون (مستقراً) ؟ ..

* * *

ولكن لا بد لي من الاعتراف ، انا ابنة التشرد الشرعية ، بأن فراق بيوتي المحروقة أو الغارقة أو التي التهمها الزلزال ، كان يسبب لي غصة حين يتعلق الأمر بكتبي وأوراقي : أي بأدوات عملي ... فالكتابة ليست حياتي فحسب ، بل ومهنتي . أمارسها حوالي عشر ساعات في النهار كالكادحين كلهم ، أقضي أكثرهـا في القراءة والاطلاع – أي في تعبئة بطاريتي الابداعية – وما تبقى في الانتاج ، أي الكتابة ...

وفراق كل بيت وتخليفه للبركان كانت تعني فراق أوراقي ومكتبتي على الاقل ، وهو أمر مؤلم جداً بالنسبة للفنان ، انه تماماً كفراق طحانٍ لذراعه التي يعمل بها ...

وهكذا قضيت عمري ، وحقائب مليئة بأوراقي ترافقني على أجنحة الطائرات وصالات الترانزيت .. تضيع مني في مطارات مزروعة بالضباب والوحشة ثم تلحق بي أو تمضي إلى حيث لا هي ولا انا ندري ... مشردة بين ايدي الحمالين والنشالين والنسيان والفوضى ... وهكذا اضعت مخطوطة روايتي « السقوط إلى القمة » ، واعدت كتابتها ، وها هي تحترق من جديد في بيتي الأخير ! .. وهكذا أضعت عشرات الأوراق سواها !

* * *

ان يحترق بيتك بكل ما فيه ليست كارثة ، إذا كنت قادراً على العمل وبالتالي على إعادة شراء ما يقدر المال على شرائه ...

الكارثة هي في الاشياء التي لا يقدر المال على شرائها ، وكانت كثيرة في بيتي الأخير الذي أقمت فيه أكثر مما سبق وأقمت في أي فندق ! ..

* * *

لقد احترق أرشيفي بأكمله : أي احترقت عشر سنوات من العمل المضني المستمر دون إجازة واحدة ! .. عشر سنوات من الكدح الحقيقي . فالكاتب المعاصر مرغم ان يكون كادحاً : يلاحق كل ما يبدعه عصره كي يضيف اليه ، هذا بالاضافة إلى عمله الذي يعتاش منه ، والكتب التي يلتهم ثمنها قسمٌ كبير من ميزانيته ، ثم أرشيفه الخاص الذي يجمعه من المجلات المختصة الاجنبية والعربية .. ولكنه كادح لا تتلطخ ثيابه ببقع الزيت أو القطران ، ولكن تتلطخ أيامه بها ، وعمله قد لا يجعل العرق يتدفق من جبينه كي يقول (اعيش من عرق جبيني) لكنه عمل يجعله يتعرق دماً ، ويعيش من نزفه الدائم السري ... حتى ليكاد يصرخ (إنني أعيش من دم قلبي) ..

* * *

واحترقت لوحات رائعة رسمها الشهيد غسان كنفاني . ولوحات أخرى لرافع الناصري ، فاروق البقيلي ، عفيف صيداوي ، عارف الريس ، نذير نبعة ، لؤي كيالي وغيرهم كثير ، ولوحات الفنان الراحل مصطفى فروخ التي التهمتها النيران كلها... واتساءل بحزن : لماذا لا تملك اللوحة – التي هي كائن حي – قدرة الدفاع عن ذاتها ، أو الهرب على الاقل ؟ واذا شبت النار في في متحف اللوفر مثلاً ولم يتدخل أحد ستهرب القطط ، وستقضي الموناليزا نحبها ! ...

ولماذا لا تميز النار بين اللوحة والجدار ، وبين أوراق المخطوطات وأوراق الكلينكس ؟

* * *

ولكن ، إذا كانت النار التي أحرقت بيتي هي مخاض الفرح الآتي ... إذا كانت النار التي أحرقت أوراقي هي مطهر الشعب اللبناني ، وإذا كانت القنابل التي هدمت جدراني تفتح ولو نافذة واحدة في سجن البؤس المادي والروحي الذي نحياه ، فكل ما أملك أن اقوله هو بوركت شفاه النار التي أكلت بيتي ، وبورك الزلزال الذي هدمه ، إذا كان سيهدم في الوقت نفسه جدران سجون اللاعدالة والانعزالية .. وبورك البركان الذي أحرق عشر سنوات من عمري اذا كان ذلك البركان نفسه قادراً على إخراج معذبي هذا الوطن من جوف الظلم إلى ضياء الحرية والعدالة ...

* * *

غداً سأبتاع أوراقاً بيضاء تعادل حجم مخطوطاتي التي احترقت ، وأبدأ الكتابة فيها حتى تمتلىء ... وسأتابع فيها صرختي من اجل المساواة والعدالة والحرية والفرح ...

ولن يخيفني حريق بيت ... فالبيوت حجارة ، والكرة الارضية مسكن مؤقت نحن ضيوفه أينما حللنا ...

وبيتي الوحيد الحقيقي الذي سكنته باستمرار : هو جسدي ... وما أزال أقطنه !..

وبوركت شفاه النار التي أحرقت بيتي ، اذا كانت ستطهر هذا الوطن الحزين من أوجاعه ! ..

إقــرار

محتويات هذا الكتاب نشرت بأكملها في المجلتين التاليتين (وفقاً للترتيب الأبجدي) :

مجلة « **الأسبوع العربي** »
مجلة « **الحوادث** »

أســف

هذه الموضوعات نشرت يومئذ متكاملة مع الصور ، بعضها بكاميرا المؤلفة ، والبعض الآخر بكاميرا الزملاء الفنانين المصورين أمثال عدنان ناجي وزهير سعادة وحسن حوماني وغيرهم .. وقد تعذر نشر الصور أو حتى بعض اللقطات النادرة منها في هذا الكتاب ، ولكن لا بد من التنويه بالخسارة الفادحة التي لحقت بالموضوعات من جراء فقدان الصور (لأسباب حربية وأرشيفية وفوضوية) ، فالصورة كتابة بالكاميرا .

تحفـــظ

البشر الذين يتحدث عنهم هذا الكتاب حقيقيون . وقد ذكرت أسماءهم الكاملة يوم نشرت هذه الموضوعات في الصحافة . لكنني ارتأيت اليوم حجبها لأسباب عديدة منها خوفي على أصحابها من الآخرين، ومن الزمن الذي قد يمتد إلى بعض الآراء فيعدلها ، ومن المصالح التي قد تمتد إلى الحناجر فتزرع فيها شوك الصمت ، وإلى الأفواه فتملأها بالمـــاء !! ...

ثم أن الموضوعات لن تفقد الكثير بستر الأسماء ، فالجوهر هو نفسه ، وهم رموز لأحداث موجعة ، وهم كبشر سيتكررون – وإن تبدلت الأسماء – إذا لم تتبدل الحال .

غـــادة

الفهـــرس

عن الفيضان الأول لنهر النار ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦

مؤلفات غادة السمان

الأعمال غير الكاملة

صدر منها :

١ ـ زمن الحب الآخر	**(الطبعة الخامسة)**
٢ ـ الجسد حقيبة سفر	**(الطبعة الثالثة)**
٣ ـ السباحة في بحيرة الشيطان	**(الطبعة الرابعة)**
٤ ـ ختم الذاكرة بالشمع الأحمر	**(الطبعة الرابعة)**
٥ ـ اعتقال لحظة هاربة	**(الطبعة الخامسة)**
٦ ـ مواطنة متلبسة بالقراءة	**(الطبعة الثالثة)**
٧ ـ الرغيف ينبض كالقلب	**(الطبعة الثانية)**
٨ ـ ع غ تتفرس	**(الطبعة الرابعة)**
٩ ـ صفارة انذار داخل رأسي	**(الطبعة الثانية)**
١٠ ـ كتابات غير ملتزمة	**(الطبعة الثانية)**
١١ ـ الحب، من الوريد إلى الوريد	**(الطبعة الرابعة)**
١٢ ـ القبيلة تستجوب القتيلة	**(الطبعة الثانية)**
١٣ ـ البحر يحاكم سمكة	
١٤ ـ تسكع داخل جرح	



منشورات غادة السمان

بيروت ـ لبنان ص.ب : ١١٨١٣

تلفون: ٣١٤٦٥٩/ ٣٠٩٤٧٠